نواف نصار

جمال عبد الناصر في ميزان التاريخ



دار المعتز للنشر والتوزيع

جمال عبد الناصر
في ميزان التاريخ

جمال عبد الناصر في ميزان التاريخ

تأليف

نواف نصار

الطبعة الاولى
٢٠١٢م – ١٤٣٣هـ

" إن عبد الناصر ليس أسطورة .. وإنما هو إنسان .

ولقد كان إنساناً عظيماً ..

وربما كان أعظم ما فيه إنسانيته ، وكانت هذه الإنسانية هي طريقه إلى التزامه الفكري ، والتزامه السياسي ، والتزامه القومي ، والتزامه الدولي ... بل وأهم من ذلك كله التزامه الطبقي بالعمل والذين يعملون ...وأن العمل هو المصدر الوحيد لأي قيمة "

" وكان الإسهام العظيم لجمال عبد الناصر أنه ربط مصر بأمتها العربية .

ثم أنه ربط الأمة العربية - بما فيها مصر - بالعالم وقيمه وأحلامه .

ولقد تعرض عبد الناصر بسبب ذلك إلى عداوات ضارية ، وحروب شرسة ...."

محمد حسنين هيكل

"عبد الناصر والعالم ،

ص ١٣-١٤"

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .
أما بعد :

فرغم مرور أربعين عاماً على وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، ما زال هذا الزعيم العالمي شغلاً للباحثين الجادين ، والدارسين المجدين ، وما زالت الندوات تعقد عنه، والمحاضرات تلقى ، والكتب تؤلف ، والمقالات تنشر ، والنقاشات تثار ، ليكون ذلك كله اعترافاً لا جدال فيه بمكانته وأثره على الساحات المصرية والعربية والدولية .

ويأتي كتابي هذا بعد كتابيّ :"حرب السويس وشروق شمس الناصرية" (٢٠٠٧) و" ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم " (٢٠١٠) ، إكمالاً لمشروعي عن ثورة يوليو التي لم يكن أثرها - بقيادتها الواعية المخلصة - على دولة مصر فحسب ، بل كان لها الأثر الكبير على الساحتين العربية والعالمية ، ولا يختلف في هذا باحثان أو مثقفان ، وفيه أحاول استعراض سيرة ناصر ومسيرته النضالية الحافلة ، وتحليل شخصيته ، ودراسة آرائه ومواقفه ، ثم تقييم دوره الكبير في السياسة العربية والعالمية .

لقد كان عبد الناصر شخصية عظيمة بكل المعايير ، فاستطاع في الفترة القصيرة التي قضاها رئيساً لمصر أن يترك الأثر العميق على الساحات الثلاث بدون أن يقصد الشهرة والأضواء ، بل هي التي كانت تقصده وتسعى إليه ، فالسيرة الطيبة الحافلة بالإنجازات الكبرى ، والمواقف الوطنية الماجدة الشجاعة ، يعزز ذلك نظافة اليد ، وأمانة القصد ، ونبل الهدف ، كل ذلك لا يستطيع باحث موضوعي إنكاره ، ولا دارس صادق الإنقاص منه ، ولا عالم الحط من شأنه ، فظل في أسفار الخلود .

لقد كان عبد الناصر حريصاً على رفع شأن بلده مصر ، وتقوية جيشها ، والنهوض بها علمياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ، إدراكاً منه أنها الأقوى بين شقيقاتها العربيات ، لذا فهي الهدف الأول لأعداء الأمة ، رافق هذا كله إيمانه العميق بالقومية

العربيـة ، وقدرات هذه الأمـة وإمكانياتهـا الهائلـة ، فبذل عمره ساعياً لوحدتها ، وجمع كلمتهـا ، وتوحيد صفوفها ، والوقوف معهـا فـي أزماتها بالرجـال والسلاح ، فكلفه ذلك الكثير ، والذي كانت ذروته أن ضحى بالروح وهو يحاول إصلاح خلافاتها ، وتضميد جراحها .

ولعل أول ما يواجه الباحث من صعوبة في دراسة عبد الناصر تعدد مناحي حياته ، وفي فترة صاخبة من تاريخ القرن السابق ، حافلـة بالأحداث والحروب ، والتحالفات والمؤامرات ، واللقاءات والمؤتمرات والمواقف والتصريحات ، فرغم الفترة القصيرة التـي عاشـها حاكماً لمصر كانت لـه مهامـه وأعمالـه الكثيرة ، وشـواغله العديـدة محلياً وعربياً وعالمياً ، لذا كان لكل كتاب مما كتب عنه - على الأغلب- ناحية واحدة تناولها الباحث بالدرس والتحليل .

ثم تـأتي صعوبة الحصول على المراجع المتخصصة في بعض نـواحي حياته ، كالوثـائق المتعلقة بتفاصيل حياتـه والتـي لم تنشر ، ومـا زالـت رابضة فـي أماكنها مثل المتحـف الحربـي ودار المحفوظـات العموميـة بالقلعـة ، أو فـي ملفـات وزارة الـدفاع المصرية ، إضافة إلى أخباره وأخبار الثورة المتناثرة في الصحف والمجلات المصرية القديمة غير المتوفرة لدينا ، وفي عدد كبير من الكتب التي ألفت عن تاريخ مصر أو عن ثورة يوليو أو عن عبد الناصر ، ومعظمها نفدت طبعاتها ، أو غير متوفرة في مكتباتنا العامة أو التجارية ، هذا إلى جانب المذكرات الشخصية لزملاء ناصر من قادة الثورة ، أو المقابلات التي أجريت معهم وبقيت في مصادرها بدون نشر ، أو نشرت ولم تصل إلينا .

ولا يغرب عن البال أن التجربة الناصرية ، الغنية الثرة ، تجعل الباحث فيها يشعر بصعوبة المهمة بسبب كثرة الروايات ، وتعدد مناحيها ومقاصدها ، واختلاف توجهات مؤلفيها ، لتكون الحصيلة كماً هائلاً من المعلومات ينوء الباحث تحت وطأته ، وصعوبة ترجيح رواياته على بعضها البعض ، ناهيك عن مشقة ثالثة لعلها الأكبر بين ما يواجهه المؤرخون الملتزمون ، وهي محاولة الباحث انتهاج الموضوعية ، والتجرد من كل هوى ورغبة يحملها عبر السنين ، وما هذا بالهيّن على العقول والقلوب .

وتبقى التجربة الناصرية بدلالاتها الفكرية والسياسية ، وإنجازاتها المحلية والعربية ، التجربة الأثرى والأعظم في تاريخنا الحديث ، لذا كان البحث فيها لا يخلو من صعوبة للأسباب التي ذكرت ، ولكن هذا لا يمنع اجتهاد الباحثين ، وسعي المثابرين ، في سبيل الوصول إلى الحقائق وتوثيقها ونشرها ، لعل في ذلك الفائدة للأجيال القادمة .

فالله أسأل أن أكون قد وفقت فيما ذهبت إليه

نواف نصار

ت ٠٧٩٩٩١٦٣٥٤

عمان - ص ب ١٨٣٢٠٩ - بريد عمان الوسط

الباب الأول

النشـــأة

الفصل الأول

أسرته وولادته

يعود أصل أسرة جمال عبد الناصر حسين خليل إلى قرية بني مر ، والتي تتبع مديرية أسيوط الواقعة في صعيد مصر ، على بعد ٣٢٧ كم إلى الجنوب من القاهرة .

وكان والده عبد الناصر - المولود عام ١٨٨٨ - قد تلقى تعليمه الأولي في كتاب قريته قبل أن يرسله والده حسين عام ١٩٠٤ إلى أصهاره في الإسكندرية ليلتحق بالتعليم الرسمي ، فمارس الوظيفة الحكومية خلال دراسته بعمله في البوستة المصرية (البريد)، ونال الشهادة الابتدائية عام ١٩١٢، واستمر بعد تخرجه في وظيفته متنقلاً بين عدة محافظات (١) .

وقد تزوج عبد الناصر زوجته الأولى فهيمة محمد حماد عام ١٩١٧ ، وأنجب منها جمال والليثي وعز العرب وشوقي ، وقد توفيت فهيمة عام ١٩٢٦ وجمال ما يزال في الثامنة من عمره ، فتزوج عنايات مصطفى الصحن عام ١٩٣٣ - على الأرجح- وأنجب منها مصطفى وحسين ورفيق وعادل وطارق ، وبنت واحدة هي عايدة (٢) .

وقد ولد جمال عبد الناصر في ١٦ كانون ثان(يناير) عام ١٩١٨ في الإسكندرية ، وواكب مولده الأحداث الكبيرة التالية :

صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ بإعطاء اليهود الحق بإقامة دولة لهم في فلسطين .

عقد هدنة انتهاء حرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ .

إعلان الرئيس الأميركي ويلسون عام ١٩١٩ مبادىء الحرية ونهاية الاستعمار .

قيام ثورة ١٩١٩ في مصر (٣) .

وعن وضعه الاجتماعي المتواضع كان يقول :

" أنا أفخر بأنني واحد من أهالي بني مر ، وأفخر أكثر من هذا بأني واحد من عائلة فقيرة ، وأنا أقول هذا لأسجل وأعاهدكم أن جمال عبد الناصر سيستمر حتى يموت فقيراً في هذا الوطن " (٤) .

وبالفعل .. استمر حتى مات فقيراً فيه ، ومن أجله .

تعليمه

ولما بلغ جمال الثالثة من عمره ، ألحقه والده بمدرسة **روضة الأطفال** في محرم بيك في الإسكندرية ، وكانت مدة الدراسة في رياض الأطفال ٣ سنوات ، ولما نقل والده إلى **الخطاطبة** عام ١٩٢٣ نقله إلى مدرستها حيث قضى عامين (٥) .

ومما ظهر عليه في هذه السن المبكرة ما رواه صديقه عبد الحميد شاهين " أنه كان يعشق المذاكرة وقراءة الصحف والمجلات التي تصل للقرية ، ويتنزه ساعات عصر كل يوم وعيناه لا تفارقان صفحات كتابه ، ودلالات الزعامة كانت واضحة لديه ، ولكنه لم يكن يبدو عليه شعور التفوق علينا ، لذلك أحببناه ، وكان يوقد جذوة المودة الصادقة حوله ، فكثيراً ما ساعد زملاءه التلاميذ على حل مشكلاتهم .. يفعل هذا في إشفاق وحب ، وكانت له مواهب فكرية ، وملاحظات ، وومضات من الفهم تثير دهشة المدرسين ، وتجعلهم يعاملونه بتقدير واحترام ، وكان المرحوم الشيخ حامد الشافعي ، مدير المدرسة حينذاك يقول لنا : نريدكم جميعاً كجمال عبد الناصر ، أريدكم رجالاً مثله " (٦) .

مشاهد الاستغلال والاستعمار

ويصف عبد الحميد شاهين الموظف بهندسة سكة الحديد بعض الذكريات من حياة عبد الناصر في هذه الفترة ، فيقول :

" كان الرئيس منذ نعومة إظفاره يرى الاستغلال لأنه فتح عينيه على فرنسي يهودي اسمه (دوبيه) كان يملك القرية التي نعيش فيها ، ووادي النطرون أيضاً ، وكان يملك البيت الذي نسكنه ، ويسكنه والد الرئيس ، ويقع مكتب البريد في حجرة أرضية من البيت ، وكان اليهودي الفرنسي يرفع قيمة الإيجار كل عام .

كما شاهد ناصر الاستعمار البريطاني وعمره ٧ سنوات ، كان يصحبني إلى نهاية قرية الخطاطبة ، ويظل واقفاً في دهشة وحيرة أمام المعسكر البريطاني الذي أقامه الاستعمار في قريتنا ، يشاهد تحركات قواته حتى يطردنا الجنود الإنكليز .

إن الاستعمار البريطاني جعل قواته تعسكر في الخطاطبة مرتين ، المرة الاولى بدأت في عام ١٩١٤ ، وانتهت في عام ١٩٣٠ ، والمرة الثانية بدأت عام ١٩٤٠ ، وانتهت عام ١٩٤٧ .

ولقد فوجئت ذات يوم من عام ١٩٤٦ بعبد الناصر يزور الخطاطبة وبرفقته بعض ضباط الجيش ، جاء ووقف أمام المعسكر البريطاني ، نفس الوقفة التي كان يقفها وهو طفل صغير .

لقد ظل قلب جمال وهو طفل صغير ممتلئاً بأسئلة كثيرة تلح عليه ، وتطارده وكأنها عبء ثقيل يرزح تحت ثقله ، كان يسأل عن المعسكرات الإنكليزية في قريتنا ، وعن المفتشين الإنكليز الذين ينقضون كالقراصنة على مكتب البريد الذي يديره أبوه ، ثم ينصرفون وهم يبصقون في اشمئزاز من القرية ورائحتها " (٧) .

هذا الحديث عن طفولة ناصر يشي بوطنية ناصر المبكرة ، وكرهه للاستغلال المتمثل في ذلك الإقطاعي اليهودي الوافد الذي لا يجد من يوقفه عن استغلال المصريين ، وتملك أراضيهم ، والتحكم في إيجارات بيوتهم فيرفعها وقتما يشاء ...

وعلى الجانب الآخر مشهد الاستعمار البريطاني - نصير التواجد اليهودي في مصر - ومشهد ضباطه الحاقدين على مصر والمصريين ، لذا يعود ناصر ورفاقه الضباط بعد زمن طويل ليقفوا أمام المعسكر البريطاني الذي ما زال ماثلاً كما كان ، فلا نستبعد أن يقول ناصر لهؤلاء الرفاق : حتام سيظل صمتنا ، وإلى متى سنظل تحت نير هذا الاحتلال البغيض الذي لن يغادر بإرادته ورغبته ، بل لا بد من ثورة عاتية تقتلعه من جذوره ، وتخرجه من البلاد ... وهذا ما حدث بالفعل ، وبقرار ذلك الطفل الصغير الذي كان يحزن ويتألم لتلك المشاهد الاستعمارية .

إذن هو الإدراك الفطري ، والوطنية الصادقة المبكرة التي عمرت قلب ناصر منذ طفولته .

وكان مديره في مدرسة الخطاطبة حامد الشافعي قد تحدث عن خصائص عبد الناصر وهو لا يزال تلميذاً ، فقال :

" إن جمال عبد الناصر نوع آخر من الناس ، وفي طفولته كان نوعاً آخر ، وكان كريماً ، حياته خصبة لا تعرف الجدب أو العقم ، وأحلامه ومطامحه لا تبددها العواصف أو المخاوف .

إن جمال عبد الناصر كان التلميذ الذي يتمتع باحترامه وحبه معاً ، وأنه علم من أبيه أن له حجرة خاصة في البيت ، وأن والده كان يمهد له الطريق ليصبح قوياً واثقاً راسخاً ، وأنه كان يحب مذاكرة دروسه في الحدائق أو بجوار الماء ، وكان يتأمل السماء كثيراً وكأنه يسألها أسرار الأشياء " (٨) .

هذه هي حياة ناصر في سطور قليلة ..

حياة مليئة خصبة لا مجال فيها للهزل وإضاعة الوقت ، فهي عمل جاد يصاحبه طموح لا حدود له ..

وكما أدرك والده شخصيته المتفردة ، أدركها أيضاً والده ، فخصص له غرفة يدرس ويطالع فيها ، وإلى جانب ذلك نرى ناصر يحب وطنه بطبيعته وتفاصيله ، فكان كثير التأمل في سمائه وكأنه يسألها الإجابة عن تساؤلات لا نعرف كنهها .

******

ويبدو أن والده قد أدرك أن تنقلاته الكثيرة بسبب وظيفته تعيق دراسة ولده ، فاضطر لإرساله للدراسة في القاهرة ليكون في رعاية عمه حسين ، فقضى عاماً في مدرسة النحاسين الابتدائية ، مارس فيها كتابة الرسائل لوالدته التي فجع بوفاتها في نيسان ١٩٢٦ وهو في الثامنة (٩) .

وقد أدلى لاحقاً بحديث لمندوب صحيفة السندي تايمز عن أثر وفاة والدته عليه قال فيه :

" لقد كان فقد أمي في حد ذاته أمراً محزناً للغاية ، أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت شعوراً لا يمحوه الزمن ، وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً في إنزال الآلام والأحزان بالغير في مستقبل السنين " (١٠) .

ويصرح لأحد الصحفيين عام ١٩٦٢عن تلك التجربة :

" ولم أكن أكثر في رحلاتي لزيارة أسرتي ، ولكن حين انقطعت أنباء أمي فترة من الزمن ، سافرت لزيارة الأسرة ، ولما بلغت البيت لم أجد لها أثراً ، وعلمت أنها قد ماتت قبل ذلك بأسابيع ، ولم يجد أحد الشجاعة الكافية لإبلاغي بموتها ، ولكني اكتشفت موتها بنفسي بطريقة هزت كياني .

وعدت لفوري إلى القاهرة ، حيث كرست نفسي لنشاطي السياسي ، بصورة أعنف من ذي قبل ، وخفف الزمن صدمتي ، ولكني ظللت مبتعداً عن أسرتي لعدة سنوات ، فإن فقد أمي في حد ذاته أمر محزن للغاية ، أما فقدها بهذه الطريقة ، فقد كان صدمة تركت فيّ شعوراً لا يمحوه الزمن ، وقد جعلتني آلامي وأحزاني الخاصة في تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً في إنزال الآلام والأحزان بالغير في مستقبل السنين " (١١) .

فما نستفيده من هذه التجربة المريرة هو ما يصرح به ناصر نفسه ، وهو أنه صار لا يطيق إنزال الآلام والأحزان بالآخرين في مستقبل السنين القادمة من عمره ، أي أصبح ذا نفس رقيقة شفوقة تتخيل ما حل بها مجسداً في أحوال الآخرين وظروفهم ، وهذه تعد ميزة في الإنسان ، وتولد سهولة للذين يتعاملون معه .

ومع أنه كان طالباً متفوقاً في هذه مدرسة النحاسين ، عاد والده ونقله إلى مدرسة **العطارين** في الإسكندرية حيث كان في رعاية جده لأمه - ثم أعاده إلى عمه مرة أخرى إلى مدرسة **النحاسين** لينال منها الشهادة الابتدائية عام ١٩٣١ (١٢) .

وخلال هذا العام الذي قضاه في الإسكندرية كانت تجربته النضالية الأولى والتي يرويها بنفسه لمندوب السندي تايمز عام ١٩٦٢ قائلاً :

" وما زلت أذكر بوضوح أول صدام لي مع السلطة ، كان ذلك عام ١٩٣٣ ، وكنت يومئذ تلميذاً في الإسكندرية لم أبلغ الخامسة عشرة من عمري ، وكنت أعبر ميدان المنشية في الإسكندرية حين وجدت اشتباكاً بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البوليس ، ولم أتردد في تقرير موقفي ، فلقد انضممت على الفور إلى المتظاهرين ، دون أن أعرف أي شيء عن السبب الذي كانوا يتظاهرون من أجله ، ولقد شعرت أنني في غير حاجة إلى سؤال ، لقد رأيت أفراداً من الجماهير في صدام مع السلطة ، واتخذت موقفي بدون تردد في الجانب المعادي للسلطة .

ومرت لحظات سيطرت فيها المظاهرة على الموقف ، لكن سرعان ما جاءت إلى المكان الإمدادات ، حمولة لوريين من رجال البوليس لتعزيز القوة ، وهجمت علينا جماعتهم ، وإني لأذكر أني - في محاولة يائسة - ألقيت حجراً ، لكنهم أدركونا في لمح البصر وحاولت أن أهرب ، لكني حين التفت هوت على رأسي عصا من عصي البوليس ، تلتها ضربة ثانية حين سقطت ، ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسي مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإفلات بالسرعة الكافية .

ولما كنت في قسم البوليس ، وأخذوا يعالجون رأسي ، سألت عن سبب المظاهرة ، فعرفت أنها نظمتها جماعة مصر الفتاة في ذلك الوقت للاحتجاج على سياسة الحكومة .

وقد دخلت السجن تلميذاً متحمساً ، وخرجت منه مشحوناً بطاقة من الغضب ، وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبلور أفكاري ومعتقداتي وخططي ، ولكن حتى في هذه المرحلة المبكرة كنت أعلم أن وطني يخوض صراعاً من أجل حريته " (١٣) .

وبإمكاننا أن نستخلص من هذه الحادثة ما يلي :

أولاً : شجاعة مبكرة ظل يتصف بها ناصر حتى فارق الحياة ، فها هو يشارك في المظاهرات في طفولته وهو في الرابعة عشرة .

ثانياً : وعيه المبكر بالقضية الوطنية ، وبوجود ظالم ومظلوم في الحياة السياسية المصرية ، فلم يحتج لتفكير طويل ليقرر لأي الفئتين ينضم .

ثالثاً : أن السلطات في العهد الملكي لم تكن تميز بين طفل وبالغ ، فها هي عصيها وأدوات قمعها تنهال على الأطفال ، وتتبع ذلك بجرهم للسجون والمعتقلات ، وهذا كافٍ لينطبع في ذهن الفتى الصغير ، ويشحنه بروح الثورة .

رابعاً : إدراكه المبكر بأن وطنه يعيش صراعاً مع السلطة الحاكمة ، لذا انضم - كما قال- للمظاهرة بدون أن يعرف سببها ، متخذاً موقفه مع الجانب المعادي للسلطة .

أما عن موقف والده من نشاطه السياسي ، فيقول ناصر :

" وكان أبي قلقاً بسبب آرائي السياسية ، حتى في أيام التلمذة ، فقد سجن أخوه أيام الحرب العالمية الأولى بتهمة الإثارة السياسية ، ولذا كانت مخاوفه أن يحل بي ما حل بعمي - مخاوف طبيعية - فقد كان أمله أن نحيا جميعاً حياة آمنة بعيدة عن المزعجات .

ولكني بعد اشتراكي في المظاهرة السياسية الأولى ، دخلت الميدان بكل جوارحي ، وأصبحت رئيس لجنة لتنظيم المقاومة ، ولا سيما المقاومة الساخطة ، ولقد كان ذلك منفذاً لا بد منه لعواطفنا الحادة ، ولشعورنا بالكبت الذي يضغط علينا .

وفي نهاية الأمر ، ضاق المسئولون في المدرسة ذرعاً بنشاطي ، ونبهوا أبي ، فأرسلني إلى القاهرة لأعيش مع عمي ، والتحق بمدرسة أخرى هناك " (١٤) .

وها هو والده لا يأمن بوائق السلطة ، لذا هو حريص على ألا يكون لولده جمال أي نشاط سياسي ، وقد اعتبر بقصة أخيه الذي خالفها- أي السلطة- فسجن ، ولكن كان لناصر شخصيته المتفردة ، فظل سائراً على دروب الوطنية ، غير عابىء بما يكون من نتائج وعواقب .

التحق جمال بمدرسة حلوان الثانوية في القاهرة مدة عام واحد ، ولما نقل والده إلى الإسكندرية مرة أخرى نقله إلى مدرسة راس التين الثانوية حيث قضى عاماً آخر ، ولما نقل والده مرة أخرى إلى القاهرة نقله لمدرسة **النهضة** الثانوية بحي الظاهر لينال شهادة الثقافة عام ١٩٣٤(١٥) .

وفي هذه المدرسة بدأت شخصيته القيادية بالتشكل والبروز ، فانتخبه زملاؤه رئيساً لإتحاد مدارس النهضة الثانوية (١٦)

ومنها مارس جمال العمل السياسي بشكل مباشر ، فقد ألف جبهة وطنية من زملائه الطلاب ، " وكان مديره قد منعه من عقد الحلقات السياسية للطلبة في حرم المدرسة ، فنقلها إلى بيته في حارة خميس العدس ، أو إلى الحدائق العامة ، أو إلى مسجد الشعراوي ، حيث كان يطلعهم على حقيقة الأوضاع السياسية ، وما ينبغي عمله من أجل التغيير الثوري المطلوب " (١٧) .

ولقد أدى هذا النشاط إلى قرار مدير المدرسة بفصله منها ، لكن زملاءه تضامنوا معه واعتصموا حتى استجاب المدير وسمح بعودته ، ليتقدم لامتحان الثانوية- القسم الأدبي - وينجح فيه بدرجة الشرف في حزيران ١٩٣٦ (١٨) .

إدراك مبكر لواقع مصر

وفي هذه الفترة المبكرة من حياته ، يكتب رسالة لصديق له (لعله حسن النشار) تنم على توجهات وطنية مبكرة ، وتشخيص لأحوال مصر ، وأحوال قادتها ورجالها ، يقول فيها :

" مصر .. في حالة من اليأس الميئوس منها ، فمن ذا الذي يستطيع أن يزيح هذا الإحساس ؟

فالحكومة المصرية تقوم على الفساد والمحسوبية ... ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في وجه المستعمرين ؟

هناك رجال في مصر ذوو كرامة يرفضون الموت مثل الكلاب ، لكن أين الرجل الذي يعيد بناء البلاد ليستطيع الضعفاء والمخذولون من أبناء الشعب المصري أن ينهضوا من جديد ، ويعيشوا كرجال أحرار مستقلين ؟

أين الكرامة ؟ وأين الوطنية ؟

الأمة في سبات أشبه ما يكون برجال يعيشون في كهف ، ومن ذا الذي يستطيع أن يوقظ هذه المخلوقات التي لا تعرف حتى حقيقة نفسها ؟ " (١٩) .

وهذا حديث رجل عانى العمل والفكر السياسي أكثر بكثير مما هو حديث لشاب صغير في السابعة عشرة ، فالشباب في هذه السن لهم شواغلهم المعروفة البعيدة عن أمور السياسة ، فكيف به يشخص أدواء وطنه وعلله ، ويحدد علاجها في قائد قادم يوقظ الأمة ، ويعرفها طاقاتها وإمكانياتها التي لا تدركها وحدها بدونه ... ثم ..ألم يحدث ما توقعه عبد الناصر حرفياً ، فكان هو هذا القائد المرتقب الذي عرّف المصريين بطاقاتهم ، بل وعرّف العرب جميعاً بما يملكونه من ثروات وطاقات وقوى يمكنهم بها أن لا يتحرروا من المستعمر الغاصب فحسب ، بل وتحقيق التطور والنمو والسيادة على الآخرين .

وبعد هذه الرسالة ، صارت كلمة **الكرامة** لازمته التي لا يكاد خطاب له يخلو منها .

وفي كتابه " **فلسفة الثورة**" يتحدث عن نشاطه السياسي في هذه المرحلة المبكرة ، فيقول :

" وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالباً أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ " (٢٠) .

وفي موضع آخر يقول :

" وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباء ، وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ، ولا تحطم الصخور .." (٢١) .

ولكنه وزملاءه يرتقون بنشاطهم الثوري إلى مرحلة - أو منهج- رأوه أكثر جدوى ، ويدل على ترقي درجة الوعي عندهم ، فيضيف :

" ثم أصبح العمل الايجابي في رأيي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة بيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ، ولكن اتحادهم كان فجيعة لإيماني ، فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ " (٢٢) .

وهو يقصد أن هذه المعاهدة قد كرست وجود الاحتلال البريطاني في منطقة قناة السويس ، ولأن الطرف الخاسر من توقيعها كان مصر .

رسائل ثورية

وفي رسالة أخرى لصديقه حسن النشار مؤرخة في ٤ أيلول ١٩٣٥ ، يقول معبراً عما تعتمله نفسه من أشجان وأمان :

" لقد انتقلنا من نور الأمل إلى ظلمة اليأس ، ونفضنا بشائر الحياة واستقبلنا غبار الموت ، فأين من يقلب كل ذلك رأساً على عقب، ويعيد مصر إلى سيرتها الأولى ، يوم أن كانت مالكة العالم ، أين من يخلق خلقاً جديداً لكي يصبح المصري الخافت الصوت ، الضعيف الأمل ، الذي يطرق برأسه ساكناً صابراً على اهتضام حقه ، ساهياً عن التلاعب بوطنه ، يقظاً عالي الصوت ، عظيم الرجاء ، رافعاً رأسه ، يجاهد بشجاعة في طلب الاستقلال والحرية ..

قال مصطفى كامل : لو نقل قلبي من اليسار إلى اليمين ، أو تحرك الأهرام من مكانه المكين ، أو تغير مجرى النيل ، فلن أتغير عن المبدأ ..

كل ذلك مقدمة طويلة لعمل أطول وأعظم ، فقد تكلمنا مرات عدة في عمل يوقظ الأمة من غفوتها ، ويضرب على الأوتار الحساسة من القلوب ، ويستثير ما في الصدور ، ولكن كل ذلك لم يدخل في حيز العمل الآن " (٢٣) .

ولا توضح لنا الرسالة ماهية ذلك العمل الذي تكلم عنه ناصر طويلاً مع صديقه ، ذلك العمل الذي يوقظ الأمة ، ويخرج مكنونات صدورها ، والذي ما زال مجرد كلام لم يدخل حيز التنفيذ ، ولكن ألا يشي هذا الحديث الشجاع بأن ناصر في هذه السن المبكرة قد كانت لديه نوايا ثورية هدفها تحقيق ما ذكره في الفقرة الأخيرة من الرسالة ؟.

من هواياته

لم يكن كثيراً على جمال عبد الناصر - القارىء النهم - أن يكون عضواً في هيئة تحرير مجلة المدرسة ، وأن يكتب عدة مقالات عن الحرية التي طالما هتف لها في صغره ، كذلك انضم لفرقة المدرسة المسرحية (٢٤) .

وبعد قراءته قصة " قيصر" ، ظهر إعجابه بهذه الشخصية التاريخية ، قيصر " الذي نشأ في بيئة عريقة ، ولكن الحياة الرغدة لن تصرفه عن تأمل أحوال شعبه الذي يعيش عبداً مسخراً لخدمة ٥٠٠ أسرة من البطارقة والنبلاء ، فقرر أن يعمل على إنقاذه ، قرر أن يثور ، وبدأ ثورته بالزواج من إحدى بنات الشعب ، ثم مضى في طريقه يتحدى قوى الشر والطغيان ، ويصدر القوانين التي تعاقب الحكام الفاسدين ، والموظفين المرتشين ، ويحارب القبائل التي طالما أغارت على روما ، ودخل التاريخ كقائد عظيم ، وأصبح معبود الشعب الروماني ، ولكن اعداءه الذين عفا عنهم قابلوا الإحسان بالإساءة ، فدبروا له المؤامرات " (٢٥).

ولما أرادت فرقة المدرسة تمثيل "قيصر" لم يكن غريباً أن يختار ناصر دور قيصر ليقوم بأدائه ، وتم تمثيل المسرحية في ١٩ كانون ثان ١٩٣٥ (٢٦) .

" ومنذ ذلك اليوم ، وشخصية "قيصر" تستحوذ على إعجاب جمال ، لقد أعجبه منه المواطن الحر المخلص ، الذي آمن بالشعب المغلوب على أمره ، فانضم إليه ضد الطبقة القوية ، الغاشمة الحاكمة ، وأعجبه القائد الذي بعث أمته ، وخلق من ضعفها قوة ، قوة استمدها من الشعب ، وكان الطغاة قد حسبوه ضعيفاً خائراً عبداً ، لا حول له ولا طول ، فجعل منه سيداً تنحني له رؤوس الأسياد " (٢٧) .

وسيرة حياة عبد الناصر بعد ذلك ، تجعلنا لا نستغرب هذا الإعجاب بيوليوس قيصر ، فسلوك ناصر طوال فترة ما قبل الثورة ، سعي للثورة على الظلم والطغيان ، وهي بعد الثورة سعي للقضاء عليهما بالوقوف مع الطبقة الكادحة ، وصرف العمر كله من أجل سعادتها ، وتوفير سبل العيش الكريم لها .

الطالب عبد الناصر
يقود مظاهرات الطلبة

وفي ١٢ تشرين ثان ١٩٣٥ ، ولما أصرت الحكومة على إلغاء دستور ١٩٢٣ ، انفجر البركان الشعبي ، وخرج طلاب المعاهد والمدارس الثانوية والمواطنون هاتفين بالحرية ضد قرار الدولة .

ونترك رفيق دربه في الكفاح عبد العزيز الشوربجي يروي لنا ساعات من نضال عبد الناصر وهو ما زال طالباً في المدرسة ، فيقول :

" ...وحدث عندما وصلت مظاهرة الطلبة إلى كوبري الملك الصالح بالقرب من مصر القديمة أن فاجأهم ٢٠ كونستابلاً إنجليزياً بإطلاق الرصاص ، فهجم عليهم الطلبة وأصيب كثير منهم بإصابات خطيرة ، وبعد ساعة اجتمع جمال عبد الناصر - مندوب اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية - مع عبد العزيز الشوربجي - مندوب اللجنة التنفيذية لطلبة الجامعة - واتفق المندوبان على عقد مؤتمر بميدان قصر النيل (التحرير الآن) يضم طلبة الجامعة والثانوي لوضع الخطوط الرئيسية للحركة الوطنية التي تطالب بالدستور .

ويضيف عبد العزيز الشوربجي

" ما كدنا نجتمع في الميدان حتى دعاني جمال لكي أخطب في جماهير الطلبة ، ولكني لم أجد مكاناً عالياً أقف عليه ، فدفعني إلى عمود نور ، وأعانني على تسلقه ، وما كدت أبدأ الخطابة ، حتى ملأت قوات الشرطة الميدان ، ونزل أفرادها من السيارات ، وانقضوا على الطلبة بعصيهم الغليظة ، وأصابني منهم الشيء الكثير ، ووقع منظاري على الأرض ، ولكن جمال ظل ثابتاً في مكانه ، وبحث لي عن منظاري حتى عثر عليه وقدمه لي ، ومضى يحثني على الاستمرار في الخطابة ، ويحث زملاءه على الثبات في أماكنهم ، وسرعان ما التأم الشمل من جديد ، وكف رجال الشرطة عن الضرب، بل أخذتهم روعة الموقف ، فأخذوا يهتفون معنا بحياة مصر ، وذهبت أوامر رؤسائه بضربنا أدراج الرياح " (٢٨) .

تحيا مصر

ويواصل عبد العزيز الشوربجي حديثه فيقول :

" في اليوم التالي ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ ، وفي ساعة مبكرة ، وقف جمال في فناء المدرسة ، وصاح وسط الطلبة " **تحيا مصر الحرة** " وردد الطلبة الهتاف ، ثم وقف على الدرج يشرح لهم الموقف السياسي ، مما ألهب صدور الجميع ، فحملوا علم المدرسة ، بينما حمل جمال العلم المصري ، وانطلق يتقدم المظاهرة ، ويطوف بالمدارس المجاورة داعياً طلبتها للمشاركة في المظاهرة ، حتى إذا مرت المظاهرة على فندق (شبرد) وكان يجلس في شرفته بعض الضباط الإنجليز هتف جمال عبد الناصر بالإنجليزية بحياة مصر وسقوط بريطانيا .

ومضى جمال يتقدم المظاهرة مخترقاً شوارع العاصمة في طريقه إلى الجامعة ، لينضم إلى طلبتها المجتمعين هناك ، فلما بلغ الروضة ، وجد أن رجال الشرطة قد فتحوا كوبري عباس ليحولوا دون استمرار المظاهرة ، فاستأجر مع عدد من زملائه مركباً عبروا به النيل تحت نيران البنادق ، بينما استطاع بعض طلبة كلية الهندسة إغلاق الكوبري ، فاندفع عليه الطلبة وأدركوا جمالاً وزملاءه والرصاص يتساقط من حولهم " (٢٩) .

رصاصة في الرأس

ومضى الرصاص يتعقب جمال وزملاءه ، فلجأ هو وزميله حسن النشار إلى بيت صديق لهما في المنيل ، حتى إذا انتهى إطلاق الرصاص عاد جمال إلى بيته في حارة "خميس العدس" ليعد الطعام لإخوانه المعتقلين بقسم شركة الموسكي ، ثم انطلق إلى بيت الأمة على رأس جماعة كبيرة من الطلبة لحضور المؤتمر الوطني الذي عقد بمناسبة عيد الجهاد ، وهناك اصطدموا مرة أخرى برجال الشرطة .

ولاحظ أحد الضباط الإنجليز أن الفتى الطويل القامة ، الضامر البدن هو الذي يثير الطلبة ، ويذكي لهيب الوطنية في قلوبهم ، فأطلق رصاصة سددها إلى رأسه حتى يتخلص منه .

وأصابت الرصاصة جمال في جبهته ، واخترقت فروة الرأس إلى الخلف ، وتفجر الدم من رأس الفتى للمرة الثانية، وكانت الأولى عندما ضرب على رأسه في الإسكندرية .

وأسرع به زملاؤه إلى دار جريدة "الجهاد" ، وفي مكتب صاحب الجريدة استدعي رجال الإسعاف ، فضمدوا جرح جمال ، ونصحوه بالذهاب إلى مستشفى قصر العيني ، ولكنه رفض حتى لا تقبض عليه الشرطة " (٣٠) .

وفي كتابه " **فلسفة الثورة** " ، وحين يصل إلى ضرورة العمل الايجابي ، تحدث ناصر عن تلك الفترة ، فقال:

" .. وفي تلك الأيام قدت مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباء ، وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ، ولا تحطم الصخور ..

ثم أصبح العمل الايجابي في رأيي أن يجتمع زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ، ولكن اتحادهم على فجيعة لإيماني ، فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة ١٩٣٦ "(٣١) .

وما يهمنا هنا أن عبد الناصر قد تمتع **بالشخصية القيادية** منذ صغره ، فهو مندوب اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية ، ويقود الطلاب في المظاهرات ضد الإنجليز ، بل ويحرض طلاب الجامعة على التظاهر فيستجاب له .

وفي المظاهرات يبدي شجاعة وإقداماً فائقين بتصديه للشرطة ، وتقدمه للمظاهرة ، وعندما يمر بالضباط الإنجليز يتعمد الهتاف بالإنجليزية بحياة بلده مصر غير عابىء بغضبهم ، ورغم الأخطار الكبيرة التي تعرضت لها المظاهرة إلا أن ناصر يستمر في قيادتها حتى يتعمد الضباط الإنجليز تصويب بنادقهم نحوه لما أدركوا أنه هو القائد ، .. إذن فالشخصية القيادية غير مختلقة فيه ولا مصطنعة ، بل هي موجودة فيه بالفطرة وطبيعة التكوين .

قراءاته

وتقدم لنا سجلات الإعارة في مكتبات مدارسه في المرحلة الثانوية قائمة بالكتب التي استعارها منها ، وهي :

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	الذئب الأسمر (مصطفى كمال)	أرمسترونج
٢	غوردون والخرطوم	جون بوكان
٣	بونابرت حاكم مصر	شارل رو

٤	مطلع حياتى	ونستن تشرشل
٥	الإسكندر الأكبر	آرثر ويجال
٦	بسمارك	هيدلام مورلى
٧	فوش – بطل أورليان	ليدل هارت
٨	غاريبالدى - الرجل والأمة	بول فريشووير
٩	هندنبورج والثورة الألمانية	إميل لودفيج
١٠	لورانس والعرب	ب. جريفس
١١	مارلبوروة	ك.ت. إتكنسون
١٢	الرجال والأعمال	جون بوكان
١٣	نابليون	إميل لودفيج
١٤	الجنود والساسة (جزءان)	روبرتسون
١٥	ت. لورانس في الجزيرة العربية	ليدل هارت
١٦	الجغرافية العسكرية الإمبراطورية	كول
١٧	بحر من (رحلة في البحر الأبيض المتوسط)	ج. مارتيلى
١٨	داخل أوروبا	جون جونتر
١٩	أمس واليوم في سيناء	جارفيس
٢٠	حملة فلسطين	ويفل
٢١	الأزمة العالمية	و. تشرشل
٢٢	غاليبولى	جون ماسفيلد
٢٣	موقعة المارن	لويل تينج
٢٤	الاستراتيجية الألمانية في الحرب العظمى	نيم
٢٥	تاريخ الحرب العالمية من سنة (١٩١٤- ١٩١٨)	ليدل هارت
٢٦	استراتيجية موقعة مصر وفلسطين (١٩١٧- ١٩١٨)	كيرس
٢٧	غوردون والسودان	ب.م. ألين
٢٨	نابليون وواترلو (جزءان)	بيك
٢٩	حرب النهر	ونستن تشرشل
٣٠	تاريخ فلسطين وسورية	أولمستد
٣١	مغامرة بونابرت فى مصر	الجود
٣٢	الاستراتيجية الإنجليزية	سير ف. موريس

٣٣	كتاب عن الأعمال المجيدة	كنيون وين
٣٤	رحلتى الأولى لبحار الجنوب	كينجستون
٣٥	التدريب على السلاح	المراجـع البريطانيـة الرسمية
٣٦	تاريخ الثورة المصرية ١،٢،٣	عبد الرحمن الرافعى
٣٧	التايمس الأسبوعية	لندن نيوز المصورة
٣٨	مجلة الجيش (التى تصدر كل ٣ أشهر)	
٣٩	جريدة هيئة الجيش الملكية المتحدة	القوات المحاربة
٤٠	مجلة الجغرافيا	
٤١	جريدة "اجبشيان غازيت"	صحيفة يومية

(٣٢)

وقارىء القائمة السابقة لا يجد صعوبة في إدراك اهتمامات الزعيم الراحل ، والمواضيع التي استهوته في هذه السن ، وكأنه يعد نفسه بكل جدية وعلمية لقيادة مّا في المستقبل ، فكانت تلك الاهتمامات :

١- سير العظماء والقادة ، مثل : مصطفى أتاتورك ، بسمارك ، نابليون ، غوردن ، غاريبالدي ..

٢- الجغرافيا والتاريخ ، مثل : داخل أوروبا ، الجغرافيا العسكرية ، البحر المتوسط ، تاريخ الثورة المصرية ، مجلة الجغرافيا ، تاريخ فلسطين وسوريا .

٣- العلوم العسكرية ، مثل : موقعة المارن ، استراتيجية فلسطين ، الاستراتيجية الإنجليزية ، التدريب على السلاح ..

وصدق من قال : قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت .

ولا يعقل أن تكون مكتبة المدرسة هي المصدر الوحيد لقارىء نهم مثله ، فقد كانت له مكتبته الخاصة ، وكان يستعير الكتب من رفاقه ، وعن تلك الاستعارات يقول صديقه وزميله حسن النشار :

" كان جمال يشتري كتب توفيق الحكيم ، وبعد أن يقرأها يعطيها لي ، وأشتري كتب العقاد ثم أعطيها له ليقرأها ، حتى استقرت كتب توفيق الحكيم عندي ، واستقرت كتب العقاد لديه " (٣٣) .

وإلى جانب الكاتبين الحكيم والعقاد ، أعجب ناصر بالكاتب الفرنسي الشهير فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨) ، ولما سئل عمن يفضل من الساسة الفرنسيين دانتون أم روبسبير - وكلاهما من قادة الثورة الفرنسية - رد قائلاً :

" في الواقع لا هذا ولا ذاك ، لقد أعجبني فولتير، لأنه كان هادئاً ولم يلجأ إلى استخدام القسوة والعنف كبقية الزعماء الذين اعتادوا على القتل وسفك الدماء " (٣٤) .

وهذا مؤشر سنعود إليه في صفات ناصر ، وهو كرهه للعنف والقتل ، والتنكيل بالناس .

كما أعجب بيوليوس قيصر ، وأدى دوره - كما أسلفنا- في كانون ثان ١٩٣٥ في الحفل السنوي الذي أقامته مدرسته النهضة برعاية وزير التعليم العالي (٣٥) .

ويشير بعض الكتاب إلى أن ناصر قد قرأ لزعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مثل جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ، كما قرأ لعبد الرحمن الكواكبي كتابيه "طبائع الاستبداد " و " أم القرى " ، وفي الثاني " يتخيل المؤلف مؤتمراً إسلامياً منعقداً في مكة ، تشترك فيه كل الشعوب الإسلامية ، وتتفق على اختيار مصر مركزاً للحركة الإسلامية بسبب تقدمها في حقل العلوم ، والدور البارز الذي تلعبه بين الشعوب الإسلامية " (٣٦) .

فإذا كان ما سبق دليلاً على إدراكه المبكر لموقع مصر الحضاري القيادي لحركة التحرر العربي ، فهل كان يرى أن الله عز وجل قد اختاره ليكون القائد الذي يقوم بهذا الدور الكبير ؟

وفي كتاب " عودة الروح" لتوفيق الحكيم ، يقف عبد الناصر عند رجل فرنسي يقول لآخر إنجليزي : "أجل يا مستر بلاك ؟؟

لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم .. إن القوة كامنة فيه ، ولا ينقصه إلا شيء واحد ..

ويتساءل الرجل الإنجليزي ... ما هو هذا الشيء ؟

فيرد عليه الفرنسي : المعبود .. نعم ينقصه ذلك الرجل الذي تتمثل فيه كل عواطف شعبه وأمانيه ، ويكون له رمز الغاية .. عند ذلك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعد للتضحية إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام " (٣٧) .

وتترك هذه العبارات أثرها الكبير في نفس ناصر ، ويظهر هذا جلياً في رسالته لصديقه حسن النشار في أيلول ١٩٣٥ ، فيقول :

- إن اليأس قد بلغ أشده .. ومن في مقدرته أن يبدد هذا اليأس ؟
- أين ذاك الذي يستطيع أن يعيد بناء الوطن ؟
- من يستطيع إيقاظ أولئك البائسين الذين يجهلون كل شيء عن حالتهم ؟
- من يستطيع أن يقاوم اليوم ويقض مضاجع أمثال كرومر ؟

• يقولون أن المصري رعديد يخشى الضجة مهما كانت خفيضة .. إنه في حاجة إلى زعيم يقوده في معركة النضال والكفاح من أجل بلده .. عندئذ تجد هذا المصري كالصاعقة يلقي الرعب في أمنع معاقل الطغيان " (٣٨) .

وهذا الكلام يؤكد حديثنا السابق عن الأثر العميق الذي تركته قراءات عبد الناصر على منهجه وتوجهاته المستقبلية .

****

ويتقدم ناصر لكلية الحقوق في تشرين أول ١٩٣٦ ، ولكن هذا التخصص لم يجد هوى لديه ، وقد عبر عن ذلك في خطاب له في جامعة الإسكندرية في نيسان ١٩٥٣ ، فقال :

" في سنة ١٩٣٦ كان يجول في خاطري دائماً الطريق الذي نرى فيه الأماني التي نتمناها جميعاً ، والمصاعب التي تقف سبيلنا ، كان أمامنا كل المصاعب في هذا الوقت ، وكان الطريق إلى تحرير الوطن شاقاً طويلاً ، فقد كان الطريق الوحيد هو طريق الجيش " (٣٩) وهو بهذا الحديث لا يصرح لنا بطموحاته ونواياه المبكرة فحسب ، بل ويقدم لنا قراءته للمستقبل ، بأن حل مشاكل مصر المزمنة لن تكون إلا بالقوة التي تستطيع اقتلاع النظام واجتثاثه ، وليس بالأحزاب والانتخابات ، وهذه القوة كامنة في الجيش لا غير.

لذا سارع بتقديم أوراقه للكلية الحربية .

وكانت حكومة مصطفى النحاس قد سمحت بقبول أبناء الفلاحين والفقراء الكلية الحربية ، بعد أن كان ذلك حكراً على أبناء الذوات والباشوات ، ولما كان العدد المقبول سنوياً لا يزيد على الخمسين ، كان هناك لجنة لاختيارهم ، فكان هذا الحوار بين عبد الناصر ورئيس اللجنة :

س- ما اسمك ؟

ج- جمال عبد الناصر حسين .

س- ماذا يتعاطى والدك ؟

ج- إنه موظف في البريد .

س- من أية محافظة أنت ؟

ج- محافظة أسيوط ، واسم بلدتي بني مر .

س- أفلاح أنت ؟

ج- نعم .

س- هل بين أفراد عائلتكم ضباط ؟

ج- كلا .

س- لماذا تريد أن تصبح ضابطاً ؟

ج- لأخدم وطني .

س- هل أنت ملاك ؟

ج- لا ، أنا من أبناء الشعب .

س- هل أوصى بك أحد ؟

ج- كلا .

س – هل اشتركت في تظاهرات تشرين الثاني ١٩٣٥ ؟

ج- نعم .

وكانت النتيجة رفض طلبه في اليوم التالي(٤٠) .

والمقابلة برمتها ليست بحاجة لتعليق أو شروح ، فمع أن الحكومة قد سمحت بقبول أبناء الفلاحين ، إلا أن الطلاب الوطنيين ما زالوا في القائمة السوداء ، فدولة الفساد لا تحب الوطنيين ، فكيف بدعاة الوطنية ، وزعماء المظاهرات .

لذا ، التحق ناصر بكلية الحقوق بجامعة القاهرة في تشرين أول ١٩٣٦، وتفرغ تماماً لدراسة القانون ، ومكث فيها ستة شهور ، ولكن الظروف خدمته لتتحقق رغبته بالالتحاق بالكلية الحربية (٤١) . فمع اقتراب الحرب العالمية الثانية ، وسوء أحوال الجيش المصري ، وبناء عل المتغيرات التي أحدثتها معاهدة ١٩٣٦ ، التي جعلت من مصر حليفة لبريطانيا، صار بإمكان مصر زيادة جيشها ، فأعلنت الكلية الحربية عن استعدادها لقبول أعداد إضافية في دورة جديدة عدد المنتسبين إليها واحد وخمسون طالباً ، فعاد ناصر وتقدم بطلب جديد (٤٢) . ولا تخبرنا المصادر بأية رغبات أو أمانٍ وطنية بعيدة كانت تعمر قلب ناصر وهو في هذه السن المبكرة من أجل وطنه وأمته ، ومن أجلها أصر على الالتحاق بالكلية الحربية ، بحيث تكون المكان الأقرب لتحقيق تلك الرغبات والأماني ، وتصريحاته الكثيرة عن هذه الفترة فيما بعد لا تشير إلى ذلك " التخطيط المبكر" لما نفذه ورفاقه في يوليو عام ١٩٥٢ .

الفصل الثاني

الالتحاق بالجيش

في الكلية الحربية

ويعود ويتقدم بطلب آخر ، ولكن بعد أن توصل لمقابلة وكيل وزير الحربية اللواء إبراهيم خيري الذي رحب به ، واستمع إليه ، وأدرك مدى رغبته في الالتحاق بالجيش لامساً فسه الشجاعة والصلابة والإرادة القوية ، فوعده خيراً ، ولما طلب ناصر للمقابلة فوجىء بأن رئيس اللجنة هو اللواء إبراهيم خيري نفسه (١) ، فقبل في الكلية الحربية في آذار ١٩٣٧.

وفي الكلية يعود ناصر لمواصلة هوايته القراءة والإطلاع وإشباعها ، وواضح أن مكتبة الكلية كانت أكثر تلبية لرغبة ناصر وشوقه من مكتبة المدرسة، فكانت قائمة قراءاته ما يلي :

	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	اليابان تحارب فى آسية	جونى جويت
٢	لماذا كانت اليابان قوية؟	جون باتريك
٣	جرانت ولى	ماجور جنرال فولر
٤	كيتشنر	بولارد
٥	تألق نجم بونابرت	ويلكنسون
٦	ستونوال جاكسون (جزءان)	كولونيل ج. هندرسن
٧	العالم تحت السلاح	إرنست دوبوى
٨	دائرة المعارف البريطانية (٢٤ جزءاً)	إرنست دوبوى
٩	البحر الخطر	جورج سلوكومب
١٠	إنجلترا فى البحر الأبيض المتوسط (جزءان)	كوربيت
١١	جغرافية منطقة البحر الأبيض المتوسط	لمبل
١٢	البحر الأبيض المتوسط فى السياسة	إليزابيث مورو
١٣	مشكلات البحر الأبيض المتوسط	جوردون إيست
١٤	السويس وبنما	أندريه سيجفريد
١٥	أربعون يوماً فى عام ١٩١٤	ف. موريس
١٦	حملة بلاد ما بين النهرين (٤ أجزاء) (١٩١٤-	(المصادر البريطانية الرسمية)

	١٩١٨)	
١٧	العمليات الحربية: مصر وفلسطين (جزءان وخرط)	(المصادر البريطانية الرسمية)
١٨	العمليات الحربية: فرنسا وبلجيكا (جزءان)	(المصادر البريطانية الرسمية)
١٩	الحرب الحقيقية	ليدل هارت
٢٠	الحرب فى الجو (٣ أجزاء)	وولتر وجونس
٢١	معارك الجيش الإنجليزى	بلوكوود
٢٢	الحملة على مصر عام ١٨٨٢ .	(المصادر البريطانية الرسمية)
٢٣	الحروب الحاسمة فى التاريخ	ليدل هارت
٢٤	السودان المصرى ١٩٠٨	ألفورد وسوورد
٢٥	معارك الجيش الإنجليزى	ر.م. بلاكوود
٢٦	دراسة استراتيجية و"تاكتيك"	كيرسى
٢٧	التنظيم والإدارة العسكرية	ليندسل
٢٨	من جبل طارق إلى السويس	لورد سترابولجى
٢٩	تنمية الشرق الأوسط الاقتصادية	بون
٣٠	الحرب فى سبيل السلطة العالمية	ستراتيجيكوس
٣١	اللنبى فى مصر	ويفل
٣٢	مصر والجيش	الجود
٣٣	مصر منذ عهد كرومر (جزءان)	لورد لويد
٣٤	قناة السويس	أرنولد ويلسون
٣٥	المشكلات المصرية	فالنتان شيرول
٣٦	إنشاء مصر الحديثة	كولفين
٣٧	مصر الحديثة (جزءان)	كرومر
٣٨	عبور مصر	الجود
٣٩	مرشد الضباط	(مصدر رسمى_الولايات المتحدة الأمريكية)
٤٠	كيف تكتسب الأصدقاء وتؤثر فى الناس	ديل كارنجى
٤١	الحرب وشروط السلم السيكولوجية	وليم براون
٤٢	الحرب بغير مدافع	وليم براون
٤٣	صانعو الاستراتيجية الحديثة	إدوارد ميد آرل
٤٤	عن الحرب (٣ أجزاء)	فون كلاوسويتز
٤٥	مبادئ الحرب	فون كلاوسويتز

٤٦	حرب الغد	ستيفن بوسونى
٤٧	كوماندو (الفدائيون) يوميات جندى من البوير عن حرب البوير .	دنيس ريتز (قدم له جنرال سماتس)
٤٨	استراتيجية الجو	كابتن نورمان ماكمولان
٤٩	لغز الرايخ	و. وليمس
٥٠	قصة الغواصة	ج. جاكسون
٥١	التربية والجيش	كولونيل لورد جوريل
٥٢	الثورة الفرنسية	هلير بيلوك
٥٣	أطلس أكسفورد الحربى	
٥٤	الحرب الآلية	ماجور فولر
٥٥	امتحان القبول لكلية أركان الحرب	
٥٦	التاريخ العسكرى لامتحان القبول بكلية أركان الحرب	(المصادر المصرية الرسمية)
٥٧	بيان موجز عن تقدم الحملة المصرية (١٩١٤_١٩١٨)	المصادر الرسمية
٥٨	أهل الكهف	توفيق الحكيم
٥٩	موجز عن حملة بلاد ما بين النهرين	ايفانس
٦٠	السنة الثالثة للحرب بالصور	
٦١	هتلر - سيرة حياته	كونارد هايدن
٦٢	الأعمال المجيدة فى البحر الأبيض المتوسط	ريتشارد ماكميلان

(٢)

وإذا ما ألقينا نظرة سريعة على القائمة الممتازة لعاشق الحياة والثقافة العسكرية ، ألفينا أن كلمة "الحرب" ومرادفاتها تتكرر في ١٧ عنواناً من أصل ٦٢ قرأها ناصر في تلك الفترة القصيرة ، مثل :

اليابان تحارب في آسية	العمليات الحربية في فلسطين
العمليات الحربية في فرنسا وبلجيكا	الحرب الحقيقية
الحرب في الجو	معارك الجيش الانجليزي
الحروب الحاسمة في التاريخ	الحرب في سبيل السلطة العالمية
الحرب وشروط السلم السيكولوجية	الحرب بغير مدافع

عن الحرب	مبادىء الحرب
حرب الغد	حرب البوير
الحرب الآلية	السنة الثالثة للحرب
أطلس أكسفورد الحربي	

ولا ننس أن هناك عناوين أخرى تشي بهذا النوع من الاهتمام لدى الزعيم الراحل ، مثل:

العالم تحت السلاح	حملة بلاد ما بين النهرين
دراسة استراتيجية (تاكتيك)	صانعو الاستراتيجية الحديثة
استراتيجية الجو	الحملة على مصر

أما المنظرين الذين قرأ لهم - أو عنهم- في القائمتين السالفتين فهم أمثال : فون كلاوسويتز ونابليون ولندسل وليدل هارت وبسمارك وتشرشل وأتاتورك وغوردن ، ولا يستطيع دارس لشخصية ناصر أن ينكر تأثير هؤلاء على قائد عسكري مثله .

وقد سأله مندوب صحيفة " النيويورك تايمز " عام ١٩٦٩ عن الشخصية المعاصرة التي تأثر بها ، فقال :
" أعتقد أن أكثرهم تأثيراً علي كان الفريق عزيز المصري ، لقد أعجبت به عندما كنت ضابطاً صغيراً ، فلقد كافح في سبيل الاستقلال ، وأصر عليه ، ولقد التقيت به مرات عديدة قبل الثورة وبعدها ، واستمرت لقاءاتنا تتكرر حتى وفاته " (٣) .

وعزيز المصري(١٨٧٩-١٩٦٥) من الشخصيات الوطنية المعروفة في تاريخ مصر والمنطقة ، عمل ضابطاً في الجيش التركي ، وكان له دوره في تأسيس تنظيمات "الجمعية القحطانية" و"العهد" من الضباط العرب في الجيش التركي ، وشارك في حرب الاستقلال الليبية ضد الإيطاليين ، وكان محاضراً في الكلية الحربية في مصر في عامي ١٩٣٧- ١٩٣٨، كما عين رئيساً لهيئة أركان الحرب عام ١٩٣٩ ، وبعد الحرب العالمية الثانية ساهم في تأسيس "الجمعية الثورية العربية " و" الرابطة الشرقية" وكلاهما اهتم بالقضية العربية ، وبعد الثورة عين سفيراً لمصر في موسكو (٤) .

ولا يغرب عن بالنا أن ما سبق من كتب ومراجع قرأها ناصر كانت من مكتبة الكلية ، لذا فهي خير حافز له للاستزادة والاستفادة من مصادر أخرى كشرائه للكتب وتكوينه مكتبته الخاصة ، واستعارته من مكتبات زملائه ، واستفادته من مكتبات القاهرة

والمدن التي عمل فيها لاحقاً ، ليكون بذلك ثقافة رائعة يستطيع الباحث ملاحظتها في حواراته مع رجال السياسة والصحافة ، والثقافة والفكر .

أما عن اللغة الإنجليزية فقد كان دائماً يحاول تعلم المزيد منها ، وبذل جهداً كبيراً في ذلك ، واستعان بمعجم لزيادة ثروته اللغوية ، واتخذ دفتراً يسجل عليه الكلمات الجديدة التي تعلمها (٥) . ونظراً لما أبداه من ميول قيادية فطرية ، أصبح في نهاية عامه الأول في الكلية مسئولا عن مجموعة جديد من المرشحين ، وكان من بينهم عبد الحكيم عامر (٦) . ويكتب عن سلوك عبد الناصر الطالب في الكلية الحربية عميدها ومدرس المدفعية والفنون العسكرية فيها عبد الواحد عماد ، فيقول عنه :

" الطالب جمال عبد الناصر حسين ذو النظرة الجدية للحياة منذ رأيته ، ومنذ التحق بالكلية الحربية ، في آذار /مارس ١٩٣٧ وأنا أراه لا يميل للمزاح ، فلا يأتي بحركات تخرج عن حدود الرزانة والوقار ، وهو رفيق مثالي يحبه رفاقه وأساتذته جميعاً ، ومما عرفته أنه يعمل لكل شيء حساباً ، ويقدر العواقب ، ويعمل وفق ما يرضي ضميره وربه " (٧) .

وبعد أن قضى في الكلية الحربية ١٧ شهراً ، تخرج في أول تموز ١٩٣٨ برتبة ملازم ثان ، وبمعدل عام ٧٢% ، وقد كانت نتائجه أكثر من جيدة ، فكانت علاماته :

مادة التنظيم القومي ٧٢%	التنظيم والادارة ٩٥%
التاريخ العسكري ٦٨%	الرياضيات ٨١ % (٨)

" وقد ألحق بعد تخرجه بسلاح المشاة ، وعادة ما يختار الجيش ضباط سلاح المشاة ممن تتوفر فيهم القدرة على القيادة ، والدراية التامة بالتنظيم ، وقوة التحمل البدنية والنفسية ، والجرأة والأقدام .. ، فإن الضابط في سلاح المشاة هو المضحي الأول ، ورأس الحربة عندما يبدأ القتال في الميدان .

ولقد تنقل جمال في مختلف أنحاء البلاد .. فعمل بكتيبة البنادق الخامسة المشاة في منقباد ، ثم سافر إلى الخرطوم ، وجبل الأولياء ، ورقي ملازماً أول في مايو(أيار) ١٩٤٠، ثم إلى رتبة يوزباشي (نقيب) في سبتمبر ١٩٤٢.. ، وفي يوم ٧ فبراير ١٩٤٣ انتدب للتدريس في الكلية الحربية .

وعمل جمال مدرساً بالسرية الأولى ، وتتلمذ على يديه الكثيرون من ضباط الجيش الحاليين ، وكان في عمله مثالاً للمدرس الفاهم الواعي الذي يحترم نفسه احتراماً شديداً ، ويحترم علمه ، ويحترم تلاميذه .

بل أستطيع أن أقول أكثر من هذا .. فلقد اتخذه بعض الطلبة مثلاً أعلى لهم من بين ٥٠ مدرساً في الكلية الحربية وقتئذ .

..... وقد ظفر جمال بإعجاب جميع الطلبة الذين تولى تدريسهم .. وكان لهذا الإعجاب فيما بعد أثر كبير في تأييدهم له ، وإصغائهم إلى آرائه ، والتفافهم حوله ، عندما قام ينادي بالحرية والاستقلال الحقيقي ، وينتزع ثورة مصر الكبرى .. ثورة يوليو ١٩٥٢" (٩) .

إذن لقد تجمع لعبد الناصر من الصفات والمزايا ما لم يتجمع لغيره من قادة مصر وضباطها ...

الميول العسكرية ، وحب الثقافة والمعرفة ، والحرص على أن يرفع من سويته المهنية بالقراءة الدائمة في فنه وعلمه وتخصصه ، فنال من ذلك الكثير .

الرزانة والوقار ، وهما أميز ما يمكن أن يتميز به القائد العسكري .

الود وحب الآخرين ، وهذا ما جعله محبوباً لكل زملائه وأساتذته .

ميله الفطري للقيادة ، وتنميته ذلك بالقراءة عن القادة وعلم القيادة .

قوة التحمل البدني والنفسي ، والجرأة والإقدام .

احترامه وحبه لتلاميذه ، وهذا ما جعله المثل الأعلى لكل طلابه تقريباً .

مراجع الباب الأول

الفصل الأول

(١)- د . سعيد عبد الرازق، دور جمال عبد الناصر في السياسة المصرية ،ص٣٤-٣٦.
(٢) م ن ، ص ١٨ .
(٣) د رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص٢٤ .
(٤) م ن ، ص ٢٤ .
(٥) د . سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ١٩-٢٠ .
(٦) د. بثينة التكريتي ، جمال عبد الناصر وتطوره الفكري ،ص ٦٢-٦٣ .
(٧) عمر أبو النصر ، جمال عبد الناصر صفحات مثيرة مؤثرة من حياته ، ص ١٧-١٨ .
(٨) م ن ، ص ١٧-١٨ .
(٩)م ن ، ص ٢٠ .
(١٠) الانترنت.
(١١) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٣٢-٣٣ .
(١٢) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٢٢ .
(١٣) عبد الله إمام ، م س ، ص ٣٠-٣١ .
(١٤) م ن ، ص ٣١ .
(١٥) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٢٢ .
(١٦) الانترنت .
(١٧) د.بثينة التكريتي ، م س ، ص ٧٨ .
(١٨) د. سعيد عبد الرازق ، م س، ص ٢٣.
(١٩) أنتوني ناتنج ، ناصر ، ص ٣٠-٣١ .
(٢٠) جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٢٥ .
(٢١) م ن ، ص ٤٩ .
(٢٢) م ن ، ص ٤٩ .
(٢٣) الانترنت .
(٢٤) حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر ، ج٢ ، ص ١٣٨.
(٢٥) م ن ، ص ٣٩ .
(٢٦) م ن ، ص ٣٩ .
(٢٧) م ن ، ص ٣٩-٤٠ .

(٢٨) م ن ، ص ٣٩-٤٠ .
(٢٩) م ن ، ص ٤٢ .
(٣٠) م ن ، ص ٤٣ .
(٣١) جمال عبد الناصر ، م س ، ص ٤٩ .
(٣٢) الانترنت .
(٣٣) د.بثينة التكريتي ، م س ، ص ٧٦ .
(٣٤) م ن ،ص ٧٥ .
(٣٥) م ن ، ص ٧٥ .
(٣٦) شعراوي خليل ، عبد الناصر والناصرية ، ص ٧٦-٧٧ .
(٣٧) م ن ، ص ٧٧ .
(٣٨) م ن ، ص ٧٨ .
(٣٩) د. سعيد عبد الرازق ، م س، ص ٢٣ .
(٤٠) لاكوتير ، عبد الناصر ، ص ٣٥-٣٦ .
(٤١) حسن الفكهاني ، م س، ص ٤٨ .
(٤٢) د.بثينة التكريتي ، م س ، ص ٨٩ .

الفصل الثاني

(١) د.بثينة التكريتي ، م س، ص ٩٠ .
(٢) الانترنت .
(٣) د.مارلين نصر ، ، التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ، ص ٩٩ .
(٤) م ن ، ص ٩٨ ، و أحمد عطية ،القاموس السياسي ، ص ٨٠٠ .
(٥) أنتوني ناتنج ، م س ، ص ٣٩ .
(٦) م ن ، ص ٤٠ .
(٧) د.بثينة التكريتي ، م س ، ص ٩٢.
(٨) حسن الفاكهني ، م س ، ص ٤٨-٤٩ .
(٩) م ن ، ص ٤٩ .

الباب الثاني
الطريق إلى الثورة

الفصل الأول
الإرهاصـــات

البداية في منقباد

في صيف عام ١٩٣٨ تم تعيين عبد الناصر برتبة ملازم ثان في منقباد في محافظة أسيوط (١) ، وكان معه من ضباط تنظيم الضباط الأحرار (لاحقاً) زكريا محي الدين من سلاح المشاة وأنور السادات من سلاح الإشارة (٢) .

وقد تحدث ناصر لاحقاً عن إقامته في منقباد فقال :

" وعينا في منقباد .. وذهبنا إلى منقباد تملأنا المثل العليا ، ولكن سرعان ما أصبنا بخيبة الأمل ، فقد كان أكثر الضباط عديمي الكفاءة وفاسدين ، وقد دفعت الصدمة بعض زملاني من الضباط إلى حد الاستقالة ، أما أنا فلم أر جدوى من الاستقالة - رغم أن سخطي كان لا يقل عن سخط الآخرين - واتجه تفكيري بدلاً من ذلك إلى إصلاح الجيش ، وتطهيره من الفساد ، وفي عام ١٩٣٩ نقلت إلى الإسكندرية " (٣) .

إذن هي الشخصية القوية الوطنية المعطاءة ، فرغم سوء الأحوال من الانقطاع عن المدن والحياة المدنية المنعمة ، ورغم رؤيته زملاءه يستقيلون من وظيفتهم - مع أن الضابط في تلك الأيام كان ذا وضع اجتماعي متميز - إلا أن عبد الناصر يصر على البقاء ، بل ويبحث عن حلول لإصلاح الجيش وتطهيره ، فلو زعم ضابط أمام زملائه أنه ينوي تطهير الجيش وإصلاحه لأصبح هدفاً لسخرية زملائه وعبثهم ، لكن ناصر نوى ذلك ونفذه فيما بعد .

وعن هذا المكان النائي ، وبلغة تفيض رومانسية وشاعرية يتحدث **أنور السادات** عن بدايات **تنظيم الضباط الأحرار** ، فيقول :

" وفي هذه البيئة الخالصة ، حيث يشعر المصري بعناصره العريقة تملأ كيانه ، وتسيطر عليه ...

وفي الشتاء .. حين يقسو الجو ، وتتمرد العواطف ، فتزداد الروابط بين الأصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء الرياح .

هناك حول نار في معسكر المناورات بتبات شريف ، كنا نقضي طرفاً من كل ليلة .. أصدقاء كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال ، وافرو الشباب ...

ضباط لم تزد رتبة أحدهم عن ملازم ثان .. تتحرق طول النهار في الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب ..!

وكانت في القلوب نار ، نار لا تنطفىء لأن وقودها يتجدد في كل لحظة من إحساساتنا الشابة المرهفة ، ومما يقع أمام أعيننا كل يوم من الصباح إلى المساء ...

كانت آمالنا الكبيرة ، وعزة شبابنا تصدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث ...

فقد كنا ضباطاً صغارا

وكان لنا قواد ...

وكان هناك أيضاً .. إنجليز ..!

وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا .. وإلا الانحناء أمام الإنجليز .

وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق .. ونسخط .. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم . وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري ، وفي تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدفن النار في حشاه " (٤) .

ناصر يؤسس التنظيم

وفي كتاب آخر له وهو" **ثورة على النيل** " يزيدنا السادات معرفة وعلماً عن دور عبد الناصر في إيقاد شعلة الثورة ،حيث يقول :

" في ليلة من ليالي شتاء ١٩٣٨ ، جلسنا نحن الثلاثة نتناول عشاءنا في "جبل شريف" ، وهو مؤلف من العدس والكستناء وقصب السكر ، فقال لنا جمال :

" فلنجعل من هذا اللقاء اجتماعاً تاريخياً ، ولنقسم على توثيق عرى الصداقة التي تجمعنا ، لأن اتحادنا سيتيح لنا التغلب على الصعاب، لقد اكتشفت جمال عبد الناصر حسين في تلك الليلة .. عرفته على حقيقته ، كنت قبل ذلك أجده غير جذاب ، قليل الكلام ، نادر الابتسام " (٥) .

وفي الفقرة السابقة اعتراف واضح جلي بان ناصر هو **مؤسس التنظيم** داخل صفوف الجيش ، ولا تجدي مع هذا الاعتراف كل تصريحات أنور السادات بعد توليه السلطة بأنه هو مؤسس التنظيم الذي قاد إلى الثورة المجيدة !

ومنذ تلك الليلة بدأ الضباط الثلاثة يشكلون خلايا داخل الثكنة ، وتولى عبد الناصر مهمة التوضيح والتوجيه للمرحلة المصيرية القادمة (٦) .

ويزيدنا السادات اقتناعاً بدور ناصر في بداية التنظيم ، فبعد أن يذكر أثر وفاة والدة ناصر عليه ، يقول عنه :

" وكان إلى حيائه وهدونه يمثل الشخصية الكاملة لأبناء الصعيد .. فهو يكيف الحياة بمُثله "الصعيدية" الخاصة ، فتجده وديعاً رقيقاً مليء الصدر بالحنين ،إذا لمست نفسه لمسة عاطفية قد لا تحرك أحداً من الناس .. ولكنه ينقلب أسداً هصوراً في اللحظة التي يشعر فيها بأن أحداً - فكر مجرد تفكير – في الاعتداء عليه ...

كان هذا الصديق بيننا صورة حلوة للإخاء ، والصداقة والاتزان، والهدوء والكرامة .. فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعاً ، فكأنه في سكوته وهدونه وطابعه الخاص معنى مجسم حي لكل المعاني والانفعالات التي يمكن استخلاصها من تفاعل العواطف الإنسانية المتضاربة في إنسان قست عليه الحياة .

وهكذا .. وحول هذا الرجل التأمت مجموعة من الضباط الصغار الأصدقاء .. لم يكن أحد يدري أنها ستكون نواة لمجموعة أكبر وأكبر ، وان اجتماعها في تلك التباب البعيدة لن يكون مجرد صدفة تمر ، ويتشتت من بعدها شمل الأصدقاء ، وإنما سيكون البدء الحقيقي لجهاد عنيف ، ومحن كثيرة ، وعمل خطير " (٧) .

وفي نص آخر تنسبه الدكتورة بثينة التكريتي إلى أنور السادات في كتابه "أسرار الثورة المصرية " ، ولكني لم أعثر عليه فيه ،ولعله من كتاب "ثورة على النيل" كما يشير الكاتب الفرنسي جان لاكوتير في كتابه عن عبد الناصر(٨) ، ففي احتفال رفاقه الضباط بعيد ميلاده العشرين وذلك في ١٥ كانون ثان ١٩٣٨ في منقباد ، يقول ناصر كلاماً يستحق الوقوف عنده ، يقول :

" لنغتنم هذه الفرصة ونخلق بيننا رابطة متينة ، ليكن اجتماعنا هذا تاريخياً ، وليحرص كل منا على أن يبقى أميناً للصداقة التي تربطنا ، وتوحد فيما بيننا " ثم يستطرد قائلاً :

" وبفضل هذا الاتحاد سننتصر ونذلل جميع العقبات " (٩)

وفي الفقرات السابقة يقدم لنا السادات صورة رائعة جلية عن الشخصية القيادية لناصر بدون رتوش أو زخرفة ..

لين وحنان في غير ضعف ..

قوة الشكيمة حين يستدعي الأمر ذلك ..

صورة للإخاء والصداقة والاتزان ، والهدوء والكرامة ..

هو معنى مجسم لكل المعاني والانفعالات .

وبناء على كل ما سبق ، اقتنع الجميع بقدراته ومواهبه ، لذا اجتمعوا حوله .. .

ويضيف السادات صفة أخرى ضرورية للقائد ...

إذ لما عين اللواء محمود سيف قائداً لمنطقتهم ، واشتكى الجميع من قسوته وفظاظته ، وسوء معاملته لمرؤوسيه ، وجدوا في ناصر شخصية مختلفة لا تردد الشكوى والأنين بداع وبدون داع ، فيقول السادات :

" ولكننا نرى صبر جمال فنعجب .. ونرى هدوءه وصموده لهذا الذل الطويل فتسكن نفوسنا ، فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به في تلك الفترة السحيقة من حياتنا في منقباد " (١٠) .

إن السادات هنا لا يخبرنا بصفة الصبر التي تحلى بها ناصر فحسب ، ولكنه يخبرنا بما هو أكبر من ذلك وأعمق ، إنه الأمل الذي كان يحمله ناصر بالتغيير الضروري القادم ، والذي يستطيع القيام به الجيش الذي هو في صفوفه ، ورفاقه حوله من ضباطه ، لذا فلديهم ما يمكن فعله وتقديمه للوطن .

الصداقة سر النجاح الكبير

ويشير السادات هنا إلى أمر يغفله الكثيرون الذين يريدون الشروع في أعمال ومشاريع جماعية كالجماعات الأدبية والثقافية والأندية ، فغياب الصداقة عن هذه المشاريع يؤدي في أغلب الأحيان إلى فشلها ، لأن الصداقة تولد الثقة ، والثقة تؤدي إلى الإيمان والتضحية من أجل أهداف الكل وغاياتهم ، وإلا فإن المشروع سينجب من يعملون على إفشاله وتحطيمه.

يقول السادات :

" واشتدت الصلات بين كل منا ، وبين المجموعة الكاملة ، حتى أصبح كل منا يفكر بعقلية الكل ، وأصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة ، وأصبحت هذه الجماعة يوماً بعد يوم قيداً جديداً لتصرفاتنا ، لأن كل عمل يأتيه فرد منها سينسب إلى الجماعة شاءت أم لم تشأ .. علمت أم لم تعلم ، ..!

وإني لأذكر تلك الأيام والليالي ، أذكر مرحنا وآلامنا ، وأيام صداقتنا الجميلة الأولى ..

أذكر كل هذا ، وأذكر أننا في خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب .. بدأنا نفكر ذات ليلة ..

وقال جمال : **إنهم الإنجليز أصل بلائنا كله .**

وكانت مفتاح تفكير طويل .. لم يلبث أن أصبح خطى عملية متتابعة .. كنا جميعاً نعلم أن الإنجليز هم أصل بلائنا كله .. وكنا جميعاً نكره الإنجليز .. ولكن هذه الكلمة قالها جمال ، وكأنه يحدد لنا رسالة كبرى لا ينبغي أن يتخلى عنها أحد .

وشهدت تباب الشريف ، والنار الموقدة عليها عهداً مقدساً .. ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار .

لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدد ، **ولكنه ربطهم بفكرة الحياة** " (١١) .

إذن هي بدايات تأسيس التنظيم في منقباد ...

ويضيف السادات حديثاً ولا أجمل يتخطى الحِكم والأمثال إلى ما يشبه كثيراً دساتير الحياة ، وقوانين سير الأمور ونجاحها ، ويصلح نبراساً لكل من يبغي تأسيس مشروع ما ، فبعد أن فرقتهم ظروف الحرب العالمية الثانية يقول :

" .. ولكن الحلم لم يذب ، والفرقة لم تستطع أن تكون حاجزاً بين هذه المجموعة في أقسى الظروف التي حلت بها .

وفهمنا مع الأيام هذا الدرس ، وهو أن **الصداقة القوية** عندما تقوم على نقاء وطهر ، وعندما تتركز أيضاً حول فكرة ، فإنها قادرة على الحياة مهما فرقت الحياة بين الأصدقاء ، بل هي أكثر من ذلك **تستطيع وحدها صنع المعجزات .**

والذي وقع بعد تلك الأيام ، هو الأثر القوي لهذه الصداقة النقية التي ربطتنا ، فقد فرقت بيننا الظروف كثيراً ، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيراً " .

ويخرج بنتيجة رائعة تدل على مصداقية ما سبق ، فيضيف :

" وكنا إذ نفترق **لا تفارقنا الفكرة ، ولا عهد الجماعة** ، وكل ما هناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل فيعمل .. يعمل مستقلاً بإرادته في ظاهر الأمر ، ولكنه في حقيقته يكون مقيداً بإرادة الجماعة المتمثلة في فكرتها الكبيرة .. وعهدها المقدس " (١٢) .

حديث جميل يحدد به السادات مسار ومنهج المشاريع الكبرى :

الصداقة أولاً

الإيمان بأهداف ما أنت مقبل عليه ..

الصدق الذي يؤدي إلى الثقة فيتحقق الانتماء..

وجود قيادة واعية مستعدة للتضحية ..

فإذا ما توفر كل ما سبق فإن النجاح حاصل لا محالة - بإذنه تعالى- ، ولا تستطيع القوى المناهضة أن تقف دون تحقيقه وبلوغه .

وقد أكد عبد الناصر لاحقاً ما ذهب إليه السادات عن هذا العامل الذي قد يراه الجهلة لا أهمية له في المهام الكبرى ، فقال في كلمة له في نقابة الصحفيين في ٢٠ آذار ١٩٥٣ :

" لقد جمعت المحبة بيننا جميعاً ، رجال القيادة وقائدنا الرئيس نجيب ، وهذه المحبة هي التي مكنتنا من العمل إلى يوم ٢٣ يوليو ، أريد أن أتكلم عن المحبة لا عن الإرهاب ، فموقفنا جميعاً من الاستعمار معروف ، لقد سررت من الروح التي تفيض بالمحبة .

والمحبة هي الطريق إلى الرقي والقوة ، فإذا ألفت المحبة بين الجميع كما ألفت بين الضباط الأحرار قبل ثورة يوليو ، فسنصل إلى الغاية التي ننشدها " (١٣) .

الخلية الأولى

وتبقى مسألة الخلية الأولى عالقة عند المؤرخين ، فليس فيما بين أيدينا من مراجع شيء عن تاريخها ، أو أعضائها ، أو دورها وطريقة عملها ، ولكن هيكل يشير إلى مكانتها - مثلاً - عند السادات في مرحلة متأخرة ، فيقول :

" إن قوة عبد الناصر هي أنه كان النواة الأولى لحركة الضباط الأحرار ، وعندما قرر الرئيس أنور السادات تشكيل محكمة شعب بعد ١٤ مايو (أيار) ١٩٧١ اختار **حسن التهامي** (١٩٢٤- .) ليكون عضواً في المحكمة ، لماذا فعل ذلك ؟ لأن حسن التهامي كان أحد أعضاء الخلية الأولى لحركة الضباط الأحرار ، وهذه الخلية انبثقت منها خلايا ... وهكذا ، وفي النهاية وصل الأعضاء إلى عدد معين من الضباط وبعض ضباط الصف ، ومجموعة صغيرة من المدنيين ، وكانت هناك قيادة مركزية ، بعض الأعضاء يعرف هذه القيادة ، والبعض الآخر لا يعرف ، وعن هذه القيادة المركزية تصدر الأوامر والتعليمات والمنشورات " (١٤) .

تنقلاته وترقياته

ونشاطه التنظيمي المستمر

وينقل ناصر إلى الكتيبة الثالثة في **الاسكندرية** عام ١٩٣٩، ثم إلى الكتيبة الثالثة بنادق في **السودان** في آذار ١٩٤٠ ، وبعد اجتيازه امتحان الترقية تمت ترقيته إلى رتبة ملازم أول في الأول من أيار من هذا العام .

وفي تشرين ثان ١٩٤١ نقل مع كتيبته البنادق الثالثة إلى **القاهرة** ، وبعد أقل من شهر نقل معها إلى منطقة **العلمين** في الصحراء الغربية (١٥) .

وتعرض لتنقلات أخرى سنأتي عليها في مكانها .

اللقاء بصديق العمر

عبد الحكيم عامر

وفي عام ١٩٣٩ وفي الإسكندرية التقى ناصر بعبد الحكيم عامر في كتيبة واحدة ، ثم كان لقاؤهما الأهم في "جبل الأولياء " الخرطوم ، لتبدأ صداقة العمر التي كان لها الأثر الكبير عليهما ، بل وعلى الكثير من قرارات ومسار السياسة المصرية .

ويوضح لنا صديقهما المشترك السادات مدى التناغم والتفاهم بين ناصر وعامر ، فيقول :

" وفي جبل الأولياء زادت الصداقة عمقاً بين الزميلين ، واكتمل التفاهم بينهما في كل شيء .

وكانا يقضيان معاً أيامهما في رحلات الصيد .

وعندما يذكر أحدهما تلك الأيام وتلك الليالي لا يكاد يذكر الشطرنج ولا الصيد ، بقدر ما يذكر المشاجرات الكثيرة التي تقع بينهما ..

فليس يسيراً أن تقوم صداقة حقيقية بين هذين الرجلين دون أن يسبقها عدد من المشاجرات ..

ولم يكن في جبل الأولياء من الضباط سواهما .. ... وما حدث في تبات شريف حدث في جبل الأولياء .. إنها **الجذوة التي يوقدها جمال** في بساطته وعمقه ، واتزان تفكيره ..

إنها **القرار والتصميم** الذي تتمخض عنه المناقشات معه .

إنها الفكرة "فكرة الحياة" التي انبعثت هناك في تبات الشريف ، قد كسبت رجلاً جديداً .. عبد الحكيم عامر ..

لا بد من تطهير أرض مصر والسودان من هذا العار الجاثم فيهما ..

لا بد من عمل شيء .. شيء عظيم .." (١٦) .

ولكن الصديقين افترقا بسبب التنقلات ، فنقل عامر إلى **منقباد** ، وناصر إلى **الصحراء الغربية** ، ولكن العلاقة الودية والتنظيمية ظلت قائمة ليلتقيا ثانية في القاهرة في كانون أول ١٩٤٢ (١٧) .

وما يهمنا هنا هو تاريخ العلاقة التي بدأت قبل الثورة بزمن طويل ، فقد التقى الصديقان قبل الثورة بثلاثة عشر عاماً ، وهي فترة كافية ليعرف كل منهما الآخر ، ويقتنع به تماماً بحيث لا يجد ناصر غضاضة في ضم صديقه للتنظيم .

ويهمنا أيضاً في الخبر إشارة أنور السادات لعبد الناصر كمؤسس للتنظيم .

حادثة ٤ فبراير
وزيادة النقمة على الإنجليز

كثيرة هي الأحداث التي زادت من نقمة المصريين على النظام ، وهنا نتناول منها حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهيرة وحرب فلسطين .

حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢

وهي الحادثة الأشهر في التاريخ المصري الحديث الحافل بالأحداث ، وما حدث باختصار أن جيوش الألمان كانت بقيادة رومل قد وصلت " العلمين"على أبواب مصر ، وكان الإنجليز يخشون أن ينضم المصريون إلى الألمان - وهذا كان متوقعاً جداً - إذا ما دخلوا مصر ، لذا أرادوا أن يولي فاروق الوزارة شخصاً يمكن الاطمئنان إليه ، فتوجه سفيرهم لمبسون للقصر ، ، وطوقت قواته القصر بالدبابات ، وقابل فاروق ، وطلب منه بالقوة تكليف مصطفى النحاس بالوزارة ، وإلا فقد ملكه ، فخضع فاروق لهذا المطلب .

ولا يتسع المقام للحديث عن ما حصل في ذلك اليوم ، ونقده وتفنيده ، ولكني أرجح ما رآه بعض الباحثين وهو أن الإنجليز كانوا يقصدون تعرية النحاس ، وإظهاره كعميل لهم ، لتنشأ هوة بينه وبين الجيش ، ولخلق هوة وشقاق بين الملك والنحاس والقوى الشعبية التي قد تكوّن جبهة واحدة ضد الإنجليز(١٨) .

وقد رأى ناصر في هذا الحادث إهانة لمصر ، فكتب عنها لصديقه حسن النشار يقول :

" أنه يشعر بالخزي والعار الشديدين لأن الجيش سكت عن هذا الاعتداء وارتضاه ، لكنه مسرور لأن الضباط يتحدثون عن الانتقام والثأر " (١٩) .

وقد كتب الكثير عن هذه الحادثة التي لها مدلولات كثيرة ، وما يهمنا هنا موقف عبد الناصر منها ، إذ يقول :

" ثم أن هذا اليوم - اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي - أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي كتبت بعده خطابات إلى صديق قلت له فيه :

ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين ، خاضعين خانعين ..؟

الحقيقة إني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده ، بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات .." (٢٠) .

" وطبعاً هذا حاله أو تلك عادته ..

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والإحساس فيه ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو ، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا - مع ضعفهم الظاهر- ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن إن غداً لناظره قريب " (٢١) .

ويضيف موضحاً ما كان يجيش في نفسه قبل الحادثة بزمن :

" وكذلك فإن هذا اليوم أبعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه أيام كنت طالباً أمشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣" (٢٢) .

بطبيعة الحال لا يستطيع جيل ناصر من المدنيين والعسكريين إنكار أثر هذا اليوم في نفوسهم ، لقد كان شعوراً بالإهانة التي لحقت بالملك الشاب ، حتى أن الكثيرين تعاطفوا معه كرهاً في الإنجليز ، ومثل هذا الحادث لا شك أنه كان مؤثراً أكثر في النفوس الوطنية الثائرة ، الرافضة للأوضاع السائدة ، الكارهة للاستعمار ، والتي أدى رفضها هذا إلى الثورة العارمة التي اقتلعت الاستعمار من البلاد ، ولكن ما قصده ناصر هنا ليس التقليل من أثر ذلك اليوم في نفوس المصريين ، بل القصد هو أن الثورة على النظام كانت تعمر فؤاده لأسباب أكبر وأقدم من حادثة ٤ فبراير ١٩٤٢.

وفي ٤ آذار ١٩٤٢ أعيد مع كتيبته إلى القاهرة ، وفيه تمت ترقيته لرتبة **يوزباشي** (نقيب) في أيلول ١٩٤٢ .

وكان لتفوقه وامتيازه العسكري الدور الكبير لاختياره **مدرساً في الكلية الحربية** في ٧ شباط ١٩٤٣ فدرس فيها مادتي الأسلحة الصغيرة والإشارة (٢٣) .

وعلينا هنا أن لا ننسى دور هذه التنقلات في إثراء تجربة ناصر الوظيفية العسكرية ، ففي كل مكان التحق به يلتقي جنوداً وضباطاً جدد ، من أماكن عدة في وطنه المترامي الأطراف ، وفي ذلك خبرات حياتية ثرية .

ولا ننس أن ناصر كانت لديه مشروعه التنظيمي ، ولا شك أنه قد وجد عناصر مناسبة في كل مكان التحق به ، فإما أن يكون قد دعاها للتنظيم ، أو وجد فيها من يمكن إقناعها به لاحقاً ، ولكنه قبل كل شيء قد نال إعجاب الجميع بمعاملته الحسنة ، ولطفه ودماثته ، وسلوكه الواعي القيادي .

ويؤكد ما ذكرت حديث للبكباشي مشاة - مقدم- **إبراهيم نافع** ، الذي كان تلميذاً لناصر في الكلية الحربية ، فيقول في عام ١٩٧٧ :

" التقيت بالرئيس الراحل عام ١٩٤٣ ، كان يدرس لنا مادة الأسلحة الصغيرة والإشارة بالكلية الحربية ، وأحسست أنه يعاملني بعطف خاص ، وقد أعجبت به كضابط

معلم ، وتوطدت علاقتي به حتى أنه طلب مني أن أزوره في بيته فيما يوم تخرجت في الكلية الحربية ، ومعي زميلي الطالب - لواء فيما بعد - فتحي بيومي محمد ، فقد كان معجباً به أيضاً ، وشدد على أن نظل على اتصال مستمر به باعتبارنا من تلاميذه الأوائل " (٢٤) .

ويتنقل هذا الضابط في مواقع عدة كمنشية البكري والإسكندرية وسلاح المهندسين ، ثم إلى العريش والفالوجا .

ولما تعمدت السلطات - بتوجيه من الملك- توزيع الجنود والضباط الذين حاربوا في فلسطين على مناطق مختلفة ، كان نصيب ناصر النقل إلى سيناء ، وابراهيم نافع إلى منقباد ، ولكنه ظل على اتصال بناصر ، ولما تعمد والد إبراهيم نقله إلى سلاح البحرية لكي يبعده عن أجواء الثورة ضد الملك ، استغل ناصر هذا النقل ، فيوضح ذلك إبراهيم نافع بقوله :

" .. ولكني استخدمت موقعي الجديد ، وبتوجيه من الرئيس الراحل في تجنيد بعض ضباط البحرية ، وهم الأسماء التي ظهرت في كشف الضباط الأحرار الذي أصدره الرئيس السادات ، فضلاً عن ضباط آخرين لم يرد ذكرهم " (٢٥) .

محاولة اغتيال

وعلى غير ما عرف عن الزعيم الراحل طوال فترة حكمه ، تتوهج فكرة "الاغتيالات السياسية" في ذهنه وأذهان زملائه الثوار ، ويرون فيها عملاً إيجابياً لا مفر منه إذا ما أرادوا إنقاذ وطنهم ...

ويكون اللواء حسين سري عامر - أحد صنائع القصر - أول من اختارهم الثوار لتنفيذ حكم الاغتيال ، وفي كانون ثان ١٩٥٢ أطلقوا النار عليه وهو عائد إلى منزله ليلاً ، ونفذ الحكم ،" ويسمع ناصر إثناء انسحابه وزملائه أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ، ورعب طفل ، ثم استغاثة محمومة " ، فلا ينام الليل وهو يشعل السيجارة تلو الأخرى حزناً عل ما جرى وأصوات ما جرى تمزق سمعه وفؤاده ، مما يدفعه لاتخاذ القرار :

" إذن يجب أن يتغير طريقنا ..

ليس ذلك هو العمل الايجابي الذي يجب أن نتجه إليه ... المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً .." (٢٦) .

ويفرح فرحاً عظيماً حين يقرأ في الصحف في الفجر التالي أن الرجل لم يمت ، ليغيروا أسلوبهم تماماً ، فيضيف :

"وبدأنا نرسم الخطوط الأولى في الصورة التي تحققت مساء ٢٣ يوليو " (٢٧) .

زواجه

تزوج ناصر في ١٩ حزيران ١٩٤٤ ، أي قبل بلوغه السادسة والعشرين ، وكان عمر زوجته عشرين عاماً ، وهي تحية كاظم ، وكان والدها تاجراً من أصل إيراني تجنس بالجنسية المصرية ، وقد توفيت في ٢٥ آذار ١٩٩٠ ، وقد أنجب منها :

١- هدى : ولدت في ١٢ كانون ثان ١٩٤٦ ، وهي دكتورة في العلوم السياسية ومدرسة في جامعة القاهرة .
٢- منى : ولدت في ٦ كانون أول ١٩٤٧ .
٣- خالد : ولد في ٢٥ كانون أول ١٩٤٨ ، تخرج من كلية الهندسة في جامعة القاهرة عام ١٩٧١ ، ونال الدكتوراه في الهندسة من جامعة لندن .
٤- عبد الحميد : ولد في ٢٩ تشرين أول ١٩٥١ ، وكان ضابطاً في سلاح البحرية ، ويعمل الآن في الأعمال الحرة .
٥- عبد الحكيم : ولد في ٨ كانون ثان ١٩٥٥، تخرج من كلية الهندسة في جامعة القاهرة ، ويعمل الآن في الأعمال الحرة (٢٨) .

ويقول خالد عبد الناصر عن علاقة والدهم بهم :

" أن والدهم كان ديمقراطياً معهم جميعاً ، ولم يأمرهم بأي شيء ضد اختيارهم ، ولكن كان يختار لهم الكليات المناسبة ، وكان يتابع مستواهم في الدراسة ، ويطلع على شهاداتهم ، وكان الشيء الوحيد الذي يأمرهم به هو عدم الاحتماء باسمه ، أو الحصول على أي شيء من حقهم عن طريق تقديم أنفسهم كأبناء لعبد الناصر " (٢٩) .

وبعد مرور ٤١ عاماً على وفاة عبد الناصر ، لا نجد شيئاً يدل على أن أبناءه قد حظوا بمعاملة استثنائية لأنهم أبناء الرئيس ، بل ما نجده هو العكس تماماً ...

" فعندما لم تحصل كريمته "منى " على المجموع الذي يؤهلها لدخول الكلية التي اختارتها في الجامعة المصرية ، رفض الرئيس تطبيق أي استثناء عليها ، وألحقها بالجامعة الأمريكية التي يمكن أن تقبلها بالمجموع الذي حصلت عليه ، ودفع لها المصروفات التي تتطلبها الدراسة في الجامعة الأمريكية .

وعندما لم تتوفر شروط القبول بكلية الطيران في ابنه عبد الحميد ، ألحقه بالكلية البحرية " (٣٠) .

ولم نقرأ عن توجه أبنائه لممارسة السياسة ، وتبوؤ المناصب ، وعقد الصفقات ، احتماء بمركز والدهم ، بل كانت حياتهم وأعمالهم عادية لا تدل على أي تعامل استثنائي معهم .

عقلية عبد الناصر التنظيمية

ويهمنا في هذه المرحلة الدقيقة الصفة التنظيمية عند عبد الناصر ، عبد الناصر الذي لم يترك لنا مذكرات توضح لمحبيه ومؤرخيه أسلوبه التنظيمي ، ولكن رفاقه تركوا لنا شيئاً من ذلك يوضح الصورة .

يقول السادات في كتابه "أسرار الثورة المصرية " :

" بعد الدراسة المستفيضة التي قام بها جمال عام ١٩٤٥ للموقف ، وما يحيط به من ظروف وملابسات ، قرر أن يبدأ العمل الداخلي في الجيش .

والذين يعرفون "جمال" يعرفون أنه رجل لا يبدأ عملاً حتى ينتهي تماماً من بحث جميع تفاصيله ، ولا يخطو خطوة حتى يدرس الأرض التي سيخطو عليها ، ويتبين جيداً معالم طريقه ويدرس قبل كل هذا ما سبقها من خطى ..

ويوم قرر جمال أن يبدأ عمله التنظيمي الجديد ... كان كمن يقف في منتصف طريق متصل .. وراءه خطوات تتلاشى مع الليل ، وأمامه خطوات تبدو مع النهار ..

وكان لا بد له أن يسلط أضواءه القوية على الليل الطويل من خلفه ، ليدرس كل خطوة من الخطى السابقة ، فقد تعود أن يستفيد من هذه الدراسات ، وان يكسب كثيراً من التأمل في أفكاره السابقة ، وفي أفكار الآخرين .

وقد كان هناك شبه تنظيم حركي لنا قبل عام ١٩٤٥ ، وكان هذا التنظيم المبدئي هو أول شيء أكب جمال على دراسته ، يوم أراد أن يبدأ العمل الجديد " (٣١) .

حديث ثري يدلي به السادات مشكوراً عن عقلية ناصر التنظيمية العلمية الدقيقة ... فعبد الناصر له فلسفته في العمل ، ونلخصها في :

١- يلم بتفاصيل ما هو مقبل عليه ، فهو يرى أن كل نقطة لها قيمتها في العمل الدقيق الصحيح ، ويدرس بكل أناة دربه الذي يسير عليه ، وما يخطوه من خطوات .

٢- يدرس ما أنجزه من عمل سابق ،(وقد يدرس ما خطاه سواه على الدرب ذاته ولكن السادات لا يذكر ذلك).

٣- تأمل أفكاره ، بدرسها وتقييمها ، ثم يدرس أفكار الآخرين ، سواء كانوا قد قاموا بأعمال ثورية مثله ، أو يدرس كتابات الثائرين والفلاسفة والمؤرخين وهو القارىء النهم - كما عرفنا - .

مما سبق ندرك أن ناصر كان نشيطاً دائباً ، فرغم التنقلات التي ذكرت لهذا الضابط إلا أنه - وغيره بالطبع- كان مرتبطاً برئيسه ، بل ويعمل على تجنيد الضباط الجدد لصالح التنظيم .

ويروي هيكل عن عبد الناصر إثناء روايته له قصة حركة الضباط الأحرار من أجل كتابة "فلسفة الثورة" وذلك في شباط ١٩٥٣ أن ناصر " كان يعود أحياناً وهو يتكلم إلى محاضر لحركة الضباط الأحرار كانت تسجل بعد الاجتماعات ، وكان عبد الناصر يأخذ المحاضر ويحتفظ بها ، وهي موجودة الآن في خزانة عبد الناصر الخاصة المغلق عليها ، وهي في منزله " (٣٢) .

وفي قصة هيكل هذه ما يدل على كفاية ناصر التنظيمية ، وحرصه على تدوين كل ما كان يجري في الاجتماعات قبل الثورة .

التشكيلات الإدارية للثورة

وكان ضباط التنظيم قبل عام ١٩٤٢ قد انتهوا من تقسيم دوائر نشاطهم إلى خمس إدارات رئيسية ، وهي :

١- اللجنة الاقتصادية :

استفاد المنظمون للثورة من تجارب الثوار في الماضي ، والذين كانت تتعرض أسرهم للجوع والتشرد ، وإذا ما غادروا السجون أو عادوا من المنافي لا يجدون قوت يومهم ، وقد تضطرهم أوضاعهم للانضمام للإنجليز ، فلكي لا يتعرضون لما تعرض له أولئك أسس المنظمون هذه الدائرة لجمع المال واستثماره ، وذلك من اشتراكات الضباط ، بل وكلفتهم هذه اللجنة باستدانة راتب شهرين من البنوك على مرتباتهم (٣٣) .

٢- لجنة التشكيلات :

ومهمتها متابعة المسيرة التنظيمية من تجنيد واستقطاب للعناصر الملائمة من القطاعات المختلفة ، مستخدمة المعرفة المباشرة والصداقة لكسب المزيد من الأعضاء ، كما تذلل المشاكل التي تعترض الخلايا والأفراد (٣٤) .

٣- **لجنة الدعاية :**

وهي التي تتابع الأحداث التي تهم البلاد ، فتقوم باستغلالها لما فيه منفعة التنظيم ، ومن ذلك تسليم فرنسا في الحرب العالمية الثانية ، مما دعا الثوار لاستغلال ذلك في إثارة حماس الضباط لضرب انجلترا في محنتها (٣٥) .

٤- **لجنة الإرهاب** : وعملها حماية مسيرة الثورة ، وغرس الروح الفدائية في نفوس أعضائها ، والتصدي لأعدائها .

٥- **لجنة الأمن** : ومهمتها رقابية ، تراقب ما يجري على الساحة المصرية من انعكاسات وتأثيرات وتغيرات عليها (٣٦) .

ولا يبعد هذا كثيراً عن ما ذكره هيكل في وصفه لطبيعة التنظيم وتسلسله ، فقال :

" تنظيم الضباط الأحرار عبارة عن لجنة تأسيسية وخلايا ضباط أحرار ، كل عضو في اللجنة التأسيسية مسئول عن لجنة فرعية ، وكل مسئول عن لجنة فرعية مسئول عن لجنة أخرى ، وهكذا تكتمل الخلايا " (٣٧) .

وحديث اللجان يعيدنا لقضية مهمة عند مؤرخي الثورة ، وهي قضية هوية مؤسس حركة الضباط الأحرار - والتي أطلت البحث في تفاصيلها في كتابي ثورة يوليو دراسة وتقييم - ، فهنا يشير السادات - وللمرة الوحيدة- **لعبد العزيز علي** ، فيقول عند حديثه عن لجنة الدعاية :

" وعن طريق هذه اللجنة تعاونا حيناً من الزمن مع بعض شباب الحزب الوطني ، كما عرفنا عن طريقها الأستاذ **عبد العزيز علي** ، وكان إذ ذاك لا يزال مسيطراً على **الجهاز السري للحزب الوطني** الذي شكله بنفسه عام ١٩١٩ ... ولقد ظل يتعاون معنا بعد ذلك لفترة طويلة .. وأفدنا من معونته كثيراً " (٣٨) .

وبعد نقله من الكلية الحربية لكتيبة البنادق السادسة عام ١٩٤٦ ، تقدم عبد الناصر لامتحان القبول في كلية **أركان الحرب الملكية** ، وتجاوز الامتحان ، لينتظم في الدراسة من كانون ثان ١٩٤٦ حتى أيار ١٩٤٨ ، " وقد وصفه أحد أساتذته إثناء دراسته في الكلية بأنه كان يمتاز بالهدوء والتفكير العميق ، وكان يقظاً ، كما كان إثناء مناقشته تظهر عليه المرارة والبغض الشديد للاستعمار ، تظهر عليه روح الوطنية مليئة بالأمل في المستقبل " (٣٩) .

إعانات لمعتقلي التنظيم

ونظراً لاعتقال عدد من أعضاء التنظيم ، قرر عبد الناصر إنشاء صندوق لهم ، وذلك بجمع اشتراكات من أعضاء التنظيم لصالح المعتقلين ، فكانت رواتب هؤلاء تسلم لأسرهم ، ومن الذين استفادوا من هذا النظام أنور السادات الذي اعتقل مدة واحد وثلاثين شهراً (٤٠) .

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على وعي ناصر بالجانب الاجتماعي من الحركة الثورية ، فقد يتباطأ الفرد عن الانضمام ، أو العضو عن الإقدام والتضحية خوفاً على أسرته من الجوع والتشرد ، ليكون هذا النظام مصدر طمأنينة له ولأسرته .

عام ١٩٤٥ والوعي الجديد

في يوم ٨ أيار من هذا العام انتهت الحرب العالمية الثانية ، وبه يبدأ أيضاً فترة أخرى من تاريخ مصر .

فبعد انتهاء الأحكام العرفية ، يجد الثوار الآن أمامهم طريقاً واحداً وهو العمل لمصر ، وهي الفرصة المناسبة لذلك ..

يقول أنور السادات :

" لمح جمال هذه الفرصة المناسبة لبدء العمل المنظم ، فليست هناك فرصة أخرى ..

ولمح جمال عبد الناصر هذه الفرصة التي فكر فيها طويلاً خلال الحرب .

ثم بدأ ينظم خطوطه ، ويحدد أعوانه ، ويرسم خطواته لهدف كبير .

وكان جمال الذي يعمل ، هو جمال الناضج الذي مرت به تجارب السنوات الست الكثيرة ، سنوات الحرب ، وما تخللها من أحداث داخلية وخارجية ، وما رآه فيها من هزات عنيفة ، ومن محاولات وطنية وأخرى خائنة .. ومن بطولات زائفة ، وأساليب خادعة ، ومن أوضاع غريبة حلت بالجيش ، أو فرضت عليه ، ومن دعايات مثيرة ، غرق فيها الشعب ، وتهدف كلها إلى تضليله لكي يكسب الاستعمار وأذنابه من الخونة ، وأصحاب المصالح والحكام الفاسدين .

وكان جمال يرى أن هذه الظروف والأحداث والصور قد مرت بغيره مثلما مرت به .. وأن هذا الغير قد تأثر بها وانفعل ، واكتسب وعياً جديداً نشأ في فترة الحرب وآن له أن يتجمع ....وأن يعمل وعياً في كثير من عناصر الشعب ، ووعياً في كثير من عناصر الجيش ، وعياً لا بد أن يحرك أصحابه إلى عمل معين ، أو اتجاه معين .. ولا بد لكي تنجح خطى أصحابه أن تتجمع وأن تتوحد ، وأن تتحدد أهدافها " (٤١) .

يوظف ناصر تجاربه - وتجارب شعبه المريرة - السابقة للعمل الكبير الذي مضى عليه زمن هو وصحبه يخططون له ، وكانت سنوات الحرب خير شاحذ للهمم والنفوس ، فما أكثر ما مرت به مصر من أساليب خداع مارسها أولي الأمر من ملك وحاشية ، وعملاء وخونة، ومستعمرين وأذنابهم ، ولكن هذا الوعي المكتسب يجب أن يصب في عناصر الشعب - الضحية الأولى - لما يجري في البلاد ، ولا بد أيضاً من توحيد هذه الجهود ليحسن توظيفها ، فتتجه في اتجاه واحد .. مصلحة الشعب .

ولكن هذا الشعب كان خائفاً ..

فالملك ضده

فالاستعمار ضده ..

والاستعمار والملك يستخدمان الجيش كأداة لقمعه ، فهو جلاد الاستعمار والملك معاً ..

وأعوان الملك والاستعمار ضده ، ومعهم السماسرة والاقطاعيون والأحزاب والرجعيون ..

والشعب تمزقه أمراض كثيرة بسبب ما توارثه من كل هؤلاء الأعداء عبر عشرات السنين ، ومن هذه الأمراض الخوف والتردد والنفاق والاستسلام و .. و .

فلا بد إذن من قوة تزيح كل ما يرزح تحته هذا الشعب المظلوم ، وتخرجه من ظلمات الجهل والخوف والمرض والتردد (٤٢) .

وفي السابع من تموز ١٩٤٨ رقي إلى رتبة صاغ (رائد) أركان حرب (٤٣) .

الفصل الثاني
عبد الناصر في فلسطين

(والذين يتصورون أن هذا الجيش هزم في فلسطين لا يعرفون الحقيقة ... فإن الجيش لم يهزم ، وإنما كانت هزيمة الإرادة السياسية في مصر سنة ١٩٤٨)
عبد الناصر(يوميات ناصر ، ص ٦)

ناصر يدرك أهمية موقع فلسطين

استعرضنا بصورة موجزة قراءات ناصر في المدرسة والكلية الحربية، ولكن المؤرخ الكبير محمد حسنين هيكل يسبر قراءات عبد الناصر في هذه الفترة ، ولعله حاوره فيها، ليخرج بحديث لا يخلو من ألمعية لكليهما ، فيقول أن ناصر قد قرأ في السنة الأولى في الكلية الحربية ٣٢ كتاباً معظمها في التاريخ العسكري ، ويضيف :

" وأعتقد أنه من خلال التاريخ العسكري وصل جمال عبد الناصر إلى طريق فلسطين .

فقد لاحظ أن صراعات العصر القديم - معظمها - دارت بيت الشعوب التي تسكن أودية الأنهار العظيمة في المنطقة ،أي ما بين النهرين دجلة والفرات - من ناحية- ونهر النيل من الناحية الأخرى ...وفي الحقيقة في سوريا من جبال طوروس إلى صحراء سيناء كان ذلك الممر الذي شهد أهم صراعات التاريخ القديم ، وفي التاريخ الوسيط لعبت سوريا نفس الدور في الصراع ما بين المسيحية والإسلام ، الذي تحركت عواصمه السياسية من المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد ، ثم إلى القاهرة .

ومن حطين - صلاح الدين- إلى مرج دابق - السلطان الغوري- كان جنوب سوريا - فلسطين- هو ساحة المعارك الحاسمة في تاريخ المنطقة " (وينسى هيكل زحف المماليك بقيادة قطز للقاء المغول في شمال فلسطين وانتصارهم عليهم في عين جالوت عام ١٢٦٠ م).

ويضيف هيكل أن هذه التصورات الاستراتيجية لم تختلف لدى ابراهيم باشا عنها عند تحتمس الثالث قبل ٣ آلاف سنة ،، ثم يقول .

وهكذا فإن سوريا بدأت تحتل مكانا هاماً في فكر جمال عبد الناصر .

وفي إطار سوريا فإن الجنوب - أي فلسطين - أصبحت له حساسية خاصة ، فقد كان هو الجسر المباشر من مصر إلى الشام ، ثم أنه عنق الزجاجة في المنطقة ما بين البحرين الأبيض والأحمر "

ويضيف أن ناصر قد اهتم بالحملة البريطانية على فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي (١٨٦١-١٩٣٦) وما خاضه من معارك في الحرب العالمية الأولى ، وأتبع ذلك باهتمامه بالماريشال أرشيبالد ويفل (١٨٨٣-١٩٥٠) قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط عام ١٩٣٩ قبيل الحرب العالمية الثانية ، وما كتبه عن حملة اللنبي على فلسطين (١) .

إدراك مبكر

ويضيف محمد حسنين هيكل

" ولفت نظر ناصر في ذلك الوقت أمران :

أولهما : أن بريطانيا اعتبرت المنطقة كلها من العراق شرقاً إلى ليبيا غرباً وإلى السودان جنوباً وحدة سياسية واحدة يشرف على توجيه أمورها وزير بريطاني مقيم في القاهرة .

وثانيهما : دعوة أنتوني ايدن وزير خارجية بريطانيا إلى إنشاء جامعة للدول العربية ، وكان إيدن لا يخترع حقيقة تاريخية ، ولكنه يستجيب لحقيقة تاريخية " (٢) .

وفي الحديث السابق ما ينم على أن وجود اتفاق مسبق بين بريطانيا والصهيونية على هذه الوحدة المذكورة لتكون وطناً قومياً لليهود يقيمون عليها دولتهم ، فأخذت تهيء لهم سبل الهجرة والاستقرار على ثرى فلسطين .

أما دعوة إيدن لإنشاء جامعة الدول العربية فقد كانت لتسهيل أمر التفاهم والتفاوض بين بريطانيا والعرب ، فالتفاوض مع جهة موحدة أسهل منه مع عدة جهات مختلفة !

ويضيف هيكل

" وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ جمال عبد الناصر يتجه بقلق نحو فلسطين ، وكانت قوافل الهجرة اليهودية من أوروبا شرقاً وغرباً تتدفق عليها ، وكانت الاستعدادات لإقامة دولة يهودية فيها تجري على قدم وساق ، وكانت المقاومة العربية تحاول أن تجمع شتاتها لوقفة أخيرة حاسمة " (٣) .

ولم يكن بإمكان ناصر فعل شيء سوى أن يحاول لفت نظر القيادات الكبيرة في مصر آنذاك ، فتوجه لعزيز المصري ليسمع منه ، وقابل حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين ، ومع بدايات عام ١٩٤٨ راح يفكر جدياً في التطوع للقتال في فلسطين (٤) .

ويخلص **هيكل** لما يراه محصلة قراءات عبد الناصر واهتماماته بمجموعة من القناعات الاستراتيجية الأساسية التي خرج بها الزعيم المثقف الراحل ، فكانت :

١- " أن حركة مصر التاريخية تتجه نحو الشرق .

٢- أن الدفاع عن مصر يرتكز على الشام ، وبالتحديد فقد كان يعتقد أن خط غزة - بئر السبع هو الخط الأخير للدفاع عن مصر ، وبعده فليس هناك إلا خط المضايق ، وهو خط يدفع عن قناة السويس والقاهرة .

٣- أن هناك تشابكاً في قضية الأمن بين مصر وسوريا بصفة عامة ، وفلسطين بصفة مركزة " (٥) .

هذا الحديث القيم الذي يدلي به المؤرخ الكبير له أهمية كبيرة لكل من يريد أن يكتب عن ناصر ..

فهيكل هو أعرف الناس بناصر وثقافته وتوجهاته ، وأحاسيسه ورغباته ، ولا شك أن مثل هذه المعلومات قد عرفها هيكل ووثقها ليس بمعرفة ما قرأه ناصر بقدر ما هو نتيجة حوارات ثقافية عميقة دارت بينهما ، لنعلم أن ناصر لم يكن قائداً وزعيماً بالرغبة والهواية ، بقدر ما كان ذلك بالثقافة والإعداد الصحيح ، وقد أثبت ذلك حواراته مع الرؤساء والساسة والصحفيين والكتاب .

ومن ذلك كله إقباله على التطوع للقتال في فلسطين ، فهو يعلم ما أسلفناه عنها وعن تاريخها وأهميتها الجغرافية والاستراتيجية .

******

ولما صدر قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، كان مفتي فلسطين **أمين الحسيني** يقيم في مصر لاجئاً سياسياً ، فتوجه إليه عبد الناصر عارضاً خدماته وخدمات مجموعته التي كونها في الجيش كمدربين ومقاتلين في صفوف الثوار الفلسطينيين، ولكن أمين الحسيني اعتذر عن قبول العرض انتظاراً لموافقة الحكومة المصرية ، ولما رُفض العرض ، تقدم عبد الناصر بطلب إجازة ليقاتل متطوعاً مع المتطوعين ، وكذلك فعل عدد من الضباط المصريين ولكن الحكومة المصرية عادت وأمرت رسمياً بمشاركة القوات المصرية في القتال وذلك في ١٦ أيار ١٩٤٨(٦) .

ويروي أنور السادات هذا الخبر بشكل آخر ، فقد تقاعست الدولة عن الاشتراك في الحرب ، " لذلك فكر الضباط في الخروج من الجيش والاشتراك في الحرب كمتطوعين .

وبدأت الطلبات تنهال على قيادة الجيش من ضباط المجموعة (أي مجموعة التنظيم) ومن عدد كبير من الضباط الآخرين . . وكانوا يكتبون في طلباتهم أنهم

مستعدون لتقديم استقالاتهم ، أو طلبات الإحالة إلى الاستيداع ، على أن تتركهم الحكومة يذهبون إلى الميدان بأسلحتهم ..

وكانت الحكومة مترددة في ذلك أشد التردد ، مما أوجد الضباط في حالة من الغضب ، وزاد من حدة السخط في قلوبهم "

ولكنهم لما قابلوا رئيس أركان الحرب عثمان المهدي وافق على طلباتهم (٧) .

ولعل السبب في موافقة الحكومة على مشاركة الجيش في الحرب يعود لتفاهم حصل بين الملك فاروق ورئيس الوزراء محمود النقراشي ، " إذ لم يكن دخول الحرب أمراً وارداً حتى يوم ١١ مايو ١٩٤٨ عندما تغير رأيه - أي النقراشي - فجأة (بين عشية وضحاها) على حسب تعبير الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ في كتابه "مذكرات في السياسة المصرية " ، وطلب في ١٢ مايو عقد البرلمان في جلسة سريعة لطلب دخول القوات المسلحة أرض فلسطين " (٨) .

ويرى الأستاذ المؤرخ أحمد حمروش أن حكومة مصر قد وافقت على دخول الجيش المصري الحرب بسبب المشاكل التالية :

١- بقاء القضية الوطنية معلقة بعد فشل اللجوء لمجلس الأمن ، واستمرار الإنجليز في استعمارهم للسودان .
٢- " التهاب الموقف الداخلي بالمظاهرات وإضرابات الطوائف والهيئات المهنية والعمالية في مطالبة جماعية بتحسين الأوضاع الاجتماعية ، وقد وصلت إلى ذروتها بإضراب رجال البوليس "
٣- عدم رضا الشعب عن حكم أحزاب الأقلية للبلاد ، وهي بالتالي لا تمثل إرادته .
٤- الغلاء لذي جعل الحياة صعبة لأغلبية المصريين (٩) .

لذا ، وبناء على امتلاء النفوس بعوامل التفجر ضد النظام القائم ، وعجز الأحزاب عن القيام بشيء تجاه نفوذ الاستعمار البريطاني في البلاد ، وقد يؤدي هذا كله إلى ثورة شعبية ، وجدت حكومة النقراشي وكذلك الملك فاروق والبريطانيون أن المشاركة في هذه الحرب - بغض النظر عن الظروف السائدة - طوق نجاة لإنقاذ الجميع من الغضب القادم (١٠) .

وتزيد الحكومة من أساليب القمع ضد الشعب، باتخاذ قرارات استفزازية غير مدركة أن كل هذا سيؤدي إلى الثورة ، ومن ذلك إعلان الأحكام العرفية ، وبداية حملة اعتقالات للمناضلين اليساريين ، وفرض الرقابة على الصحف ، وتقييد الاجتماعات العامة ، وضرب الحريات الشعبية (١١) .

ظروف الجيش المصري ومدى استعداده للحرب

وكان الجيش يعاني من ونقص الكفاءة التدريبية ، ونقص التسليح ، فقد امتنعت بريطانيا عن إمداده بالسلاح منذ توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، كما كان بعيداً عن تنظيم خوض المعارك ، ولا يعرف نظام التشكيلات ، ولا وجود للتنسيق بين مختلف الأسلحة (١٢) .

لقد كان جيش مناسبات وجنائز ، وهذا ما أراده له الاستعمار ، فهل يعقل أن تحرص بريطانيا على وجود جيش مصري قوي ، مسلح مدرب ، حتى إذا ما أزفت الآزفة ، وشبت ثورة أو قام عصيان ، لم تستطع محاربته والتغلب عليه ؟

ويضيف الأستاذ حمروش بأن الجيش لم يكن قد خاض أي حرب منذ عودته من السودان عام ١٨٩٩ .

وكان غير مهيأ للقتال لا تسليحاً ولا تدريباً .

ولم يقم بأية مناورات لهذا النوع من القتال وهو قتال العصابات .

وزاد القواد على ذلك كله ، بأن الجيش ليس بحاجة لتقديم الكثير من التضحيات أو الجهود ، وطمأنهم اللواء عثمان المهدي بقوله : إنكم ذاهبون إلى فسحة (١٣) .

وبعد أن يصف حرب فلسطين بأنها قصة مثيرة مفجعة ، ومأساة من النوع الذي لا ينسى ، يقدم لنا **أنور السادات** بعض المعلومات عن الجيش المصري الذي غادر إلى فلسطين وهو لا يعرف عنها شيئاً ، ولا عن عدوه فيها ، ولم يقلق هذا الجيش بهوية من أعلن الحرب ، فاروق أم رئيس وزرائه النقراشي ، ولم يقلق إن كان الجيش مستعداً أم غير مستعد لها ، ولا فكر في احتمال النصر أو الهزيمة ، " ولكنهم فكروا في شيء واحد فقط ..أن حرباً أعلنت باسم مصر ، وأن جيش مصر يجب أن يخوض هذه الحرب كأشجع ما تخوض الجيوش حروبها ، وأن يموت رجاله ، ضباطه وجنوده فداء لكل ذرة من ثرى الأرض المقدسة ، ثرى العروبة والمجد والتاريخ والقداسة " (١٤) .

ولا يختلف الباحثون على أن أحوال الجيش المصري كانت بائسة قبل حصار الفالوجة ، وربما قبل الحرب كلها ، فيقول أحد الباحثين عن أحوال الجيش في ٢٣ تشرين أول ١٩٤٨ نقلاً عن الوثائق القومية :

" فمعدات الفرسان بالية ، ومعدات مدفعية الميدان غير كافية ، وذخيرة المدافع نفدت ، والمدافع تلفت ، وكانت المدفعية المضادة للطائرات والمدفعية المضادة للدبابات تعاني من النقص في الأعداد اللازمة ، ونقصت الأعداد البشرية كثيراً لدرجة أنه لم يعد يوجد بالميدان من كتائب الجيش العامل سوى ثمانية فقط تحملت وحدها عبء القتال منذ

بدايته ، وعانت خسائر كبيرة ، وكانت كتائب الاحتياط رديئة التسليح ، وروحها المعنوية منخفضة " (١٥) .

حتى السيارات التي كانت ستنقل المقاتلين للجبهة كانت قديمة لا تصلح لشيء ، وقد قضى فنيو الصيانة ليلهم ونهارهم عاكفين على إصلاحها ، فقال بعض الضباط : " الله معنا .. فالذهاب إلى الحرب بسيارات كهذه نوع من الانتحار " (١٦) .

وتعددت الروايات عن الأسلحة الفاسدة التي كان الجيش المصري مزوداً بها قبل دخوله فلسطين ، وكان بعضها ينفجر في أصحابه لحظة إطلاقه ، وفي إحدى المرات قتل ضابط برتبة مقدم وقتل معه تسعة ضباط آخرين خلال تجربتهم لأحد المدافع الجديدة (١٧) .

وفي موضع آخر يزيد أحمد حمروش الصورة وضوحاً ، فيقول :

" وكان الجيش بعيداً تماماً عن تشكيلات الحرب .. كل سلاح منفصل بذاته ، وليست هناك مجاميع للقتال ، والأسلحة متخلفة ، ولا توجد مناورات ..

كانت طوابير الجيش لا تخرج إلا لتوديع المحمل وهو في طريقه إلى مكة ، أو لتشييع الجنازات العسكرية ..

تغير واجب الجيش فجأة .. فأصبح للقتال ، بعد أن كان يستخدم أحياناً كأداة للقمع والإرهاب ضد الحركات الوطنية .."

ويروي عن أحد الضباط الذين شاركوا في حملة فلسطين :

" دخلت الكتيبة في عربات أوتوبيس أحضرها مقاول اسمه " بامية " ، وعبرت الحدود في الخامسة فجراً ، ثم توقفت حوالي العاشرة صباحاً وهم في الطريق إلى غزة أمام بعض طلقات من جيب صهيوني في كفار دروم ، ولم تدخل غزة إلا في السابعة مساء بعد الغروب ..

لم تكن هناك خرائط عسكرية .. وكل المعلومات هي ما توافرت من دراسة تاريخ المعارك في الحرب العالمية الأولى .. والاعتماد في الحركة والتوجيه كان على سؤال الفلسطينيين ،

ويحتج فؤاد سراج الدين في جلسة لمجلس الشيوخ " بأنه منذ الأيام الأولى أن الجيش لا تتوافر عنده الحملة الكافية ، وأن الحكومة تستولي على وسائل النقل المدنية لحساب الجيش " (١٨) .

ومن الأخبار المحزنة ما يرويه أنور السادات عن تجار الحروب حين الذي انتهزوا حرب فلسطين ، فيقول :

" بدأت المهازل بما رآه الضباط من قوات الأسلحة المختلفة بخصوص العهد التي كانت لديهم في أسلحتهم ..فأسوأ الأسلحة أعطيت للمسافرين ، وأسوأ العربات أعطيت

لهم .. وأكثر من ذلك ، قام كل صاحب عهدة بجرد عهدته جرداً خاصاً ، لكي يحصر الناقص منها ، ويكتبه في كشوف الأسلحة والمعدات المسافرة إلى الميدان ...

وهكذا كنت تجد في الكشوف ما لا تجد في الحقيقة ... بل كانت الكشوف تحوي أضعاف الأسلحة والمعدات الموجودة في أيدي الجنود ، لأن أصحاب "العهد" وجدوا هذه المناسبة فرصة العمر لتغطية ما في ذمتهم من نقص شديد " (١٩) .

فعلاً ..إن وصف ما كان يجري في العهد الملكي الفاسد المنهار بأنه مهازل لا ظلم فيه لأحد ، بل إن أقل ما يوصف به أنه كان مهزلة التاريخ !

ويروي السادات هنا بكل وضوح :

" فالذين سافروا إلى الحرب سافروا مجردين من أقوى سلاحين يسافر بهما المحارب ..

المعلومات الحقيقية أو شبه الحقيقية عن العدو ..

والاطمئنان إلى حسن استعداد الجيش نفسه ..

والذين سافروا إلى حرب فلسطين ، لم يكونوا يعرفون شيئاً مطلقاً عن جيش اليهود ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً مطلقاً عن جيش مصر نفسه ، ومدى استعداده ، وحقيقة إمكانياته !

ولكنهم سافروا .. سافروا حماسة .. وسافروا ذوداً عن شرف الوطن الذي ادخرهم للذود عنه .. وقد آن أن يلبوا نداءه المقدس رغم كل شيء " (٢٠) .

إذن هو إجماع لدى الساسة والضباط والمؤرخين على أن الجيش المصري لم يكن مستعداً لهذه المهمة الجديدة عليه ، فهو لم يعد ليكون جيشاً للقتال ، بل جيش استعراضات ومهرجانات ملكية وتشييع جنائز ، وغريب عليه كل واجب عسكري معهود لدى جيوش العالم .

وبعد أن قام الضباط المتطوعون بتدريب الجنود الذين سيعملون معهم ، قامت مجموعة من الضباط بزيارة اللواء سليمان عبد الواحد للحصول على معلومات عن الجبهة ، ولكنهم لم يحصلوا على أية معلومات ذات قيمة (٢١) ، ليدلنا هذا على أن النظام الحاكم لم يكن قلقاً على ما سيحصل للجيش في الجبهة ، وأن الرتب الكبيرة لم يكن يقلقها هذا العدو الإسرائيلي ، ولا أي عدو آخر ، فالمشاكل الداخلية كانت أكبر وأعقد .

وعن حماسة الضباط للتطوع يقول **عبد الناصر** :

" وكانت الحماسة بالغة ، وروح القتال على أشدها ، خصوصاً بين زملائنا من الضباط الشبان ، وكان كثيرون من إخواننا في تنظيم الضباط الأحرار يتسللون خفية من

عيون الرقابة ليهمس الواحد منهم في أذني بأنه يريد أن يتطوع للقتال في فلسطين " (٢٢) .

وكلتا الشهادتين ليستا بحاجة إلى شرح ، فكأنهما تخبرانا أن الحماس والرغبة في التضحية كانت كل ما يملكه هذا الجيش وهو يغادر إلى فلسطين ، وكل الأخبار التي وردتنا عنه فيما بعد تؤكد ذلك، ولكن مع هذا كله قاتل هذا الجيش قتال الأبطال ، وحقق انتصارات كبيرة ، وفقد عدداً غير قليل من الشهداء على ثرى فلسطين .

رصاصة في الصدر

ففي ٢٠ أيار ١٩٤٨ ، خاضت الكتيبة السادسة التي كان يقودها ناصر معركة دير سنيد ، وبعد عشر ساعات من القتال تمكنت كتيبة ناصر من اقتحامها بعد تضحيات كبيرة ، وفي هذه المعركة أصيب ناصر برصاصة في صدره ، وتم نقله لمستشفى غزة للعلاج(٢٣) ، وأعطي إجازة مدتها شهر ، ولكنه - وبعد ٢٤ فقط - غادر المستشفي باتجاه المعركة (٢٤) .

وفي أواسط حزيران ١٩٤٨ تقدمت الكتيبة التاسعة بقيادة عبد الحكيم عامر وحققت نجاحاً كبيراً باقتحامها مستعمرة نتساليم ، وأسرت مئة وعشرة من جنود العدو ، إضافة لعدد من القتلى والجرحى (٢٥) .

وبعد حصول ناصر على المعلومات الكافية لتنفيذ الأمر باحتلال بلدة الصوافير ، ورده أمر باحتلال بلدة جولس ، فرفض الأمر لعدم توفر المعلومات لديه عنها ، ولما عاد لينفذ الأمر أصيب بجرح في الصدر ، فنقل في ١٣ تموز لمستشفى المجدل للعلاج ، إلا أنه غادر المستشفى وعاد لكتيبته وهو مريض ، ثم منح - خلال الهدنة الثانية - إجازة مرضية لأربعة أيام (٢٦) .

وفي ٩ أيلول ١٩٤٨ تلقى أوامر جديدة باستلام خط جديد ما بين عراق المنشية وبيت جبرين (٢٧) .

وفي أواخر تشرين أول ١٩٤٨ ، حوصرت كتيبته(وفي بعض الروايات لواؤه) في الفالوجا مدة شهرين ، وقد ألقت عليهم الطائرات الاسرائيلية المنشورات عارضة عليهم الاستسلام والعودة لبلادهم سالمين ، فرفض ناصر ورفاقه ذلك ، فشرعت القوات الإسرائيلية بهجومها المركز على الفالوجا (٢٨) .

حصار الفالوجة

" ذلك أن الجذور الحقيقية لثورة يوليو بدأت في الفالوجة ، وأخذت القوى الثورية التي فجرها عبد الناصر تتكاتف مع غيرها من القوى الثائرة حتى تم تخريب بناء الظلم تخريباً تاماً من الداخل، وأصبح سقوطه مسألة وقت "
(د٠ علي الراعي ، الهلال ٧-٢٠٠٧)

وقد روى عبد الناصر في مذكراته لمجلة المصور في تشرين ثان ١٩٥٢ موقف الجيش المصري في معركة الفالوجة التي خاضها الجيش المصري بكل بسالة ، فقال:

" كان أحرج موقف هو ليلة ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ - كنت قائد أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تحتل عراق المنشية في منطقة الفالوجا المحاصرة ، وكانت عراق المنشية تبعد عن الفالوجا بحوالي ٣ كيلو مترات ، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، أبلغني قائد إحدى السرايا أن اليهود قاموا بهجوم ليلي ، وأنهم استطاعوا أن يتسللوا خلال سيرهم ، وأنهم يندفعون إلى داخل عراق المنشية ، ولم يكن عندي احتياطي سوى عشرين جندياً فقط ، ولكنني تمكنت بواسطة هذا الاحتياطي الصغير أن أقوم بسد المنافذ المؤدية إلى رئاسة الكتيبة ، وبعد ساعة كان اليهود يحتلون ثلثي البلدة ، ونحن نحتل الثلث الآخر ، وكانت قواتنا موجودة في خنادقها حول البلدة ، كان الموقف غاية في الخطورة والحرج ، وكان الحل الأول هو طلب المعونة من الفالوجا ، إذ أن لديها قوات احتياطية كبيرة ، وقد وعدوني بإرسال قوة أستطيع بها أن أقوم بهجوم مضاد لطرد قوات العدو من البلدة ، وبدأت أنفذ خطة أخرى هي سحب بعض الأفراد من القوات الموجودة في الخنادق لتعزيز الاحتياطي الموجود حول مركز رئاسة الكتيبة ، وحتى الساعة الرابعة لم يصل أي شيء من الفالوجا ، واستنتجت أنهم لم يبتوا في : هل يرسلون قوة أم لا يرسلون ، وكان تفكيرهم أنهم لو فعلوا ذلك سيكون مصيرهم مثل مصيرنا تماماً ، وهو القتل أو الأسر .

ولم يكن أمامي غير حل واحد في هذا الوقت العصيب الحرج هو اعتمادنا على أنفسنا ، فأصدرت الأوامر بسحب جميع قوات الكتيبة من الخنادق وبجمعها في ثلث البلد الذي كان لا يزال في أيدينا ، وقد تم سحب هذه القوات بكل هدوء ، وعند أول ضوء من الصباح كان جميع أفراد الكتيبة تقريباً يكونون قوتين ، وبدأنا في تنفيذ خطة الهجوم

المضاد لطرد اليهود ، وكانت مفاجأة مذهلة لليهود الذين لم يتوقعوا ذلك ، ودامت المعركة الحامية من الساعة السادسة إلى التاسعة ، وانتهت بقتل ٣٠٠ يهودي ، وأسر خمسة منهم ، وفرت باقي القوات المعادية التي كانت في قلب البلدة ، وعند الساعة الحادية عشرة تقريباً استعادت قواتنا مراكزها حول البلدة " (٢٩) .

وقد أدت شكوى الضباط من سوء قيادة اللواء أحمد المواوي للقوات المصرية المقاتلة في فلسطين إلى نقله لموقع آخر ، وتعيين اللواء أحمد فؤاد صادق بدلاً عنه والذي كان من صنائع القصر ، ولم يكن أهلاً للمسؤولية التي كلف بها ، وقد اعترف بذلك خطياً في رسالة كتبها للواء محمد نجيب الذي جرح ثلاث مرات في تلك الحرب (٣٠) .

وقد حوصرت الفالوجة مدة ١٣٠ يوماً ، وذلك من ١٦ تشرين أول ١٩٤٨حتى توقيع معاهدة رودس في ٢٤ شباط ١٩٤٩ ، وكان القتال قد توقف في ٧ كانون ثان ١٩٤٩ ، وقد استشهد ٩٧ ضابطاً من خيرة الضباط المصريين في حرب فلسطين (٣١) .

وحتى قبل تعرض القوات المصرية للحصار في الفالوجة ، إذ يقول عبد الناصر أن الحكومة المصرية لم تصرف للجيش المقاتل ما يسمى ب "وجبات طوارىء" ، بل إن كل ما قدمته أن أرسلت لعبد الناصر لشراء جبنة وزيتون من غزة ، فكتب عن ذلك :

" ولم يكلف أحد خاطره أن يفكر في أمر وجبات الطوارىء اللازمة للجنود المحاربين ، وكل الذي فعلوه أنهم بعثوا إلينا بألف جنيه ، وقالوا : اشتروا جبنة وزيتون ." ويضيف :

" واشتريت كل ما في غزة من الجبن والزيتون ، وقلبي مجروح على الجندي الذي يهاجم المواقع الحصينة بجسده العاري ، ثم يجلس وقت الأكل في جحر كجحور الفيران يقرض قطعة من الجبن ، اشترينا كل ما عثرنا عليه منه في غزة بألف جنيه ألقوها إلينا وقالوا لنا : تصرفوا" (٣٢) .

حتى أن عبد الناصر حين جرح في المعركة ، وأدخل المستشفى ، فوجىء بالطبيب يسأله : هل رتبت مع كتيبتك أن تبعث إليك بطعام ؟

فرد ناصر أن كتيبته في مواقعها لا تجد من يرسل إليها الطعام ..!(٣٣) .

فهل يستطيع باحث أن يقنعنا أن هذه الدولة كانت جادة في القتال في فلسطين ، أم أنها أرسلت تلك القوات كحال من قال : لا أبالي أيهما قتل الآخر .

وعن التجربة الناصرية في الفالوجا يقول محمد حسنين هيكل :

" ولم تؤثر تجربة ناصر الإنسانية في الحرب على شجاعته ، فالسجلات الرسمية لحرب فلسطين تشهد بأنه قاد معركة من أهم معارك حرب فلسطين ، وهي معركة أشار

إليها نائب رئيس وزراء إسرائيل اليوم وقائد الجبهة الجنوبية لإسرائيل سنة ١٩٤٨ في كتابه عن الجيش الإسرائيلي ، وهي معركة خسرت فيها إسرائيل أربعمائة وخمسين قتيلاً أمر جمال عبد الناصر بدفنهم على مشارف مواقع الكتيبة السادسة في عراق المنشية ، ثم قام بالإرشاد عن مكان دفنهم بعد الحرب تحت رقابة ضباط الهدنة الدولية ، وكانت المعركة هي المناسبة التي حصل فيها جمال عبد الناصر على **نجمة فؤاد الأول العسكرية** ، وهي أرفع وسام عسكري كان يمنح أيامها لبطولات القتال النادرة " (٣٤) .

معركة عراق المنشية

وعراق المنشية قرية تقع على بعد ٣٢ كم شمال غرب غزة ، وعلى بعد ١٥ كم جنوب شرق الفالوجة .

ويقول إبراهيم البغدادي عن معركة عراق المنشية التي خاضها عبد الناصر ورفاقه :

" وأذكر على سبيل المثال معركة عراق المنشية ، عندما هاجمت القوات الإسرائيلية القرية الصغيرة ..

وأذكر الصاغ أركان حرب جمال عبد الناصر أركان حرب الكتيبة السادسة ، وهو يقود معركة الدفاع ، ثم معركة الهجوم المضاد بنفسه ، ليترك على الأسلاك الشائكة جثث القتلى الإسرائيليين الذين حاولوا اقتحام المواقع المصرية .

وأذكر ضابط المخابرات اليهودي (كوهين) الذي توجه بعربة جيب يحمل علماً أبيض - دليل السلام- ليطالب من جمال عبد الناصر السماح لهم بنقل قتلاهم على الطريقة اليهودية .

وأذكر ذلك الموقف الإنساني الرائع للقائد الشاب الذي سمح لليهود بسحب قتلاهم من فوق الأسلاك الشائكة .. ومن بين أسوار التين الشوكي التي كانت تحيط بالموقع " (٣٥) .

لقد كان عبد الناصر في حرب فلسطين ذا عقلية فذة ، وقدرات عسكرية كبيرة ، ولكنها لم تستغل لأن النظام المصري آنذاك لم تكن تشغله المهام الوطنية والقومية ، بل كان مشغولاً بخلافات داخلية مع النحاس ومع مجلس النواب ، وفاروق كان مشغولاً بترفه ولهوه ، وسهراته وقماره ، لذا لم يقدم ناصر في حرب فلسطين أكثر من ٢٠% من قدراته العسكرية .

ورغم كل ما سبق من شهادات عن تجربة ناصر في حرب فلسطين ، نرى بعض الباحثين يهمل تجربته إهمالاً تاماً .

فالدكتور عبد الوهاب محمد في كتابه " الجيش المصري وحرب فلسطين ١٩٤٨ " والذي يقع في ٣٢٨ صفحة ، يهمل تلك التجربة حتى أنه لم يذكر اسم عبد الناصر على الإطلاق ، ومع أن الباحث يستند لوثائق قيمة ، ولمراجع لا يشك أحد في صدقها ، وقد تحدثت هذه المراجع عن عبد الناصر وأدائه في تلك الحرب ، إلا أن الباحث لا يلتفت إلى ذلك .

وفي كتابه " أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون " عقد الكاتب حسين حمودة فصلاً من ٢٣ صفحة عن حرب فلسطين ، والمشاركة المصرية فيها ، ولكنه لم يذكر عبد الناصر بحرف واحد ! (٣٦) .

فأين هي الموضوعية التي ينادي بها المؤرخون والباحثون ؟

آفاق ثورية على ثرى فلسطين

وفي فلسطين ، ورغم الظروف الصعبة التي عاشها المقاتلون الأبطال ، يظل الوطن المظلوم المكبوت في ذاكرة المقاتلين ، ويجد ثوار يوليو مادة غنية للحديث ، ومصائب لا تقل عن المصائب والمشاكل التي يعانيها وطنهم مصر ، يقول ناصر في كتابه " فلسفة الثورة " :

" وفي فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محي الدين ، واخترقا الحصار إلى الفالوجة ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا أن نحاول إنقاذه ..

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين ، وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

- هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟

قلت : ماذا قال ؟

قال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة ، وفي عينيه نظرة أعمق :

- لقد قال لي : إسمع يا كمال ، إن ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر ...

ولم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر ، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التي أنارت أمامي السبيل .

وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنادق وأسرح بذهني إلى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً .

وكثيراً ما قلت لنفسي :

" ها نحن أولاء في هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا ، ودفعنا إلى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا تحت النيران بغير سلاح .

وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيري كنت أجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود إلى مصر ، وأقول لنفسي :

هذا هو وطننا هنا ، إنه فالوجة أخرى على نطاق كبير ..

إن الذي يحدث لنا صورة من الذي يحدث هناك .. صورة مصغرة .

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به .. ونُفع إلى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع وشهوات ، وترك تحت النيران بغير سلاح " (٣٧) .

فالضابطان اللذان كان لهما دور كبير في قيام ثورة يوليو لاحقاً يخترقان الحصار من أجل البحث والتشاور ، وناصر لا يخفي مدار ذلك الحديث ...

والبطل الشهيد الذي قضى على ثرى فلسطين **المقدم أحمد عبد العزيز** يوصي بأن هناك مكان آخر للجهاد يطاول فلسطين في حاجته للجهاد والقتال ، ودعا ذلك الجهاد بالجهاد الأكبر ، إدراكاً منه أن ذلك المكان إذا ما ُطهر من أهل المطامع والشهوات الذين يحكمونه ، فسوف يكون له دور كبير في الجهاد من أجل الأمة جمعاء ، وهذا ما حصل تماماً بعد ثورة يوليو .

وتلك الطغمة الحاكمة في مصر تدفع بخيرة أبنائها إلى معركة هم غير مستعدين لها ، فهي غير قلقة على مصيرهم ، ولا على مصير أسرهم ، بل إن في استشهادهم راحة لها ، خاصة وأن بعض الأخبار قد بدأت تتسرب إلى القصر بوجود تنظيم ثوري .

إن مصر كانت فالوجة أخرى ، ولكن تحت حصار مختلف ..

إنها محاصرة بشهوات كبارها وحكامها .

وتأكل خيراتها الغربان والجراد .

لذا لا غرابة أن يكتب- فيما بعد - ضابط إسرائيلي مقالات يقول فيها أن الموضوع الذي كان ناصر يطرقه معه إثناء مباحثات الهدنة كان كفاح إسرائيل ضد الإنجليز ، وكيف نظم اليهود مقاومتهم ضدهم (٣٨) ، لأن ناصر كان يعد العدة لذلك الهدف السامي العظيم : تحرير مصر ، لذا هو حريص على التعلم ، واكتساب التجربة من مقاومة اليهود للإنجليز توظيفاً لهذا التعلم في مهام كبيرة قادمة .

ولا أقلل من آراء ناصر حين يقول :

" ليس صحيحاً أن ثورة يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط .." (٣٩) .

ومع احترامي الشديد لآراء ناصر وزملائه في أسباب ثورة يوليو، ومع أن السببين اللذين يذكرهما هنا ناصر ليسا بالقليلين أو غير المهمين ، لأنهما يدلان على فساد النظام الحاكم ، وفساد القيادة العسكرية ، واستسلام كليهما لرغبات الاستعمار، ورضوخهما لأطماعه ،إلا أنهما كانا من الأسباب الرئيسة للثورة ، وإلا فما معنى أن تهمل دولة أخطر مؤسساتها - الجيش- وتلقي به في أتون حرب لا يعرف عنها شيئاً ، ولا يملك أي درجة من الاستعداد لها ، متسلحاً بأسلحة فاسدة ليقتل نفسه بها ؛ لذا كانت حرب فلسطين من الأسباب الرئيسة للثورة لأنها كشفت الواقع الذي لا يمكن السكوت عليه .

وكما سيأتي في الفصل القادم بتفصيل أفضل، نورد هنا ما يقوله ناصر في خطاب له في ٦ كانون ثان ١٩٥٥:

" لقد ابتلينا في فلسطين وفقدنا العزة والكرامة والقوة ، ولهذا قمنا بالثورة ،.. ونحن نشعر أن عزتنا مرتبطة بعزتكم ، ففي هذا السبيل نسير " (٤٠) .

*****

وقد استفادت القوى الوطنية من هزيمة الجيش المصري والجيوش العربية في فلسطين ، وإعلان قيام دولة إسرائيل عدة فوائد ، منها :

١- " إنهاء الأحكام العرفية ، والإفراج عن المعتقلين ، وإطلاق حرية الصحافة ، الأمر الذي قوى الجبهة المعادية لحكومة الأقلية والسراي " (٤١) ، أي أن السراي بات مكشوفاً ، فلم يعد لديه شيء يدعي به الوطنية ، والحرص على مصلحة البلاد ، والمحافظة على أرواح أبنائه .

٢- أصبح إجلاء القوات البريطانية مطلباً وطنياً لا جدال فيه ، فكل ما يجري للبلاد سببه غياب الاستقلال التام ، وهذا أدى لنمو الحركة الوطنية (٤٢) ، والتي كان ختامها ثورة يوليو .

أما عبد الناصر ، فقد استفاد من خوضه حرب فلسطين ما يلي :

١- أن شعب فلسطين لا يختلف عن شعب كمصر ، وكلاهما مرتبط بالآخر عضوياً وتاريخياً .

٢- أن عداء إسرائيل ليس لشعب فلسطين فقط ، بل إن مطامعه في المناطق التي تحيط بها شمالاً وجنوباً

٣- أن الدولة الصهيونية جسر للعبور للوثوب على باقي الأرض العربية .
٤- أن المقاتلين العرب في فلسطين كان لهم هدف واحد يقع خارج الحدود السياسية لدولهم .
٥- أن القوى التي ساعدت وتساعد الدولة الصهيونية هي نفسها التي تتحكم في القاهرة وفي بغداد وشبه الجزيرة العربية (٤٣) .
٦- في تلك الحرب رأى الزعيم الراحل الفلسطيني يقاتل بجانب العراقي ، والمصري بجانب الأردني ، والسوداني بجانب السوري ، ليكوّن ذلك كله البعد العربي للصراع ، وما دعاه ناصر بالدائرة العربية التي رأى فيها أهم الدوائر(٤٤) ، فما تعرض له الفلسطينيون في تلك الحرب قد يتعرض له السوريون والأردنيون والمصريون واللبنانيون ، وهذا إدراك مبكر لحقيقة الصراع ، عبر عنه ناصر في "فلسفة الثورة" حين قال :

" **فلا شك أن الدائرة العربية هي أهم الدوائر ، وأوثقها ارتباطاً بنا ..**
فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك " (٤٥) .

وهو ينظر هنا - بعين المثقف الواعي - إلى الغزوات الكثيرة التي تعرضت لها فلسطين وسوريا ولبنان ومصر خلال الحروب الصليبية ، والغزو المغولي ، والغزو الأوروبي الاستعماري في القرن التاسع عشر والعشرين .

وما حصل بالفعل على الساحة العربية في الحروب اللاحقة ، فالعدو الصهيوني لا يحلم بفلسطين وحدها وطناً قومياً له ، بل يحلم بما هو أبعد وأوسع بكثير ، فإسرائيل دولة توسعية ، وتقف وراءها لتحقيق غاياتها الصهيونية العالمية ، وغير ذلك لا يستطيع المطبعون والمغفلون إقناعنا به .(أنظر الفصل الرابع من هذا الباب)

لذا نستطيع القول أن حرب فلسطين كانت من جذور القومية المبكرة عند عبد الناصر ، فالدفاع عن فلسطين هو دفاع عن الأمة العربية ، فالعدو واحد ويتربص للجميع .

الفصل الثالث

الصعود إلى القومية
من خلال فلسطين

" وعن طريق ، فلسطين وعلى أرضها ، ومن خلال تجربتها المشحونة ، استطاع جمال عبد الناصر – فيما أعتقد – أن يصل إلى رؤية قومية شاملة أثرت في فكره وفي حركته ، وفي اتجاهه إلى أهداف يؤمن بسلامتها وضرورتها لأمة تعددت شعوبها ولكنها تظل له أمة واحدة " (عبد الناصر ، يوميات عبد الناصر عن حرب فلسطين ، ص ١١٥)

تشخيص مبكر لأحوال الأمة
من تجربة فلسطين المريرة

وإلى جانب تجربته القتالية ، واستفادته المباشرة من قتاله في فلسطين ، كان لتجربته النضالية فيها الدور الأكبر في توجهاته القومية العربية ، ففيها شاهد كل شيء كما هو ، بلا رتوش ولا ألوان ..

ففيها شاهد المصري يقاتل بجانب السوداني ..

والعراقي بجانب الأردني ..

والسوري بجانب الفلسطيني والليبي ...

إذن فمشروع الوحدة ممكن إذا اجتمعت القلوب ، وصفت النوايا ، وحددت الأهداف ، وأدركت هذه الأمة طاقاتها وقواها ، وصار الكل يعمل في سبيل وحدة الأمة وقوتها ومنعتها ، خاصة وأن الخطر المحدق بالجميع واحد ...

وعن ذلك كله يقول عبد الناصر في كتابه" **فلسفة الثورة** " عن حرب فلسطين وعن حصار الجيش المصري في الفالوجة :

" ولست أريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين الآن ، فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، إذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك في شعورها وفي تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، إذن فهي جميعاً ، كل من بلادها ، قد تعرضت لنفس العوامل ، وحكمتها نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة ، ونكست رأسها بالذل والعار " (١) .

واضح أن ناصر يعني هنا أنظمة الحكم العربية آنذاك ، فهو يراها متشابهة في أوضاعها وأشكالها ، وأساليبها وغاياتها ، ودليله على ذلك أن جميع الجيوش التي أرسلتها هذه الدول للقتال في فلسطين قد كان مآلها واحد : الهزيمة أمام جيش منظم مدرب مستعد للحرب ، وقد كان قواده يقودون الجيوش في ساح المعارك ، ويقودون المفاوضات للحصول على اتفاقيات الهدنة ، ثم يستغلون الهدنة لاستقدام السلاح ، فكلما عادوا للقتال كان المقاتلون العرب يلاحظون الفارق الكبير الذي حصلت عليه قوات العدو ، فتمكنت من حصار الجيش المصري والجيوش العربية الأخرى التي ألحقت بها الهزائم في بداية القتال . .

ويوضح ناصر ما سبق بعين العسكري المثقف قائلاً :

" وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي .

هذا هو المكان الذي نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا .. وهي أيضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة " (٢) .

ثم يصل إلى ما يريد الوصول إليه :

" إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزاً أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجا " (٣) .

بمعنى أن الجاني واحد !

فالذي دفع الجيش المصري لحرب لا يعرف عنها شيئاً ، وغير مستعد لها ، واستعمل فيها أسلحة صنعت عام ١٩١٢ ، وربما قبل ذلك ، هو نفسه الذي يحيط العاصمة بظروف الفقر والقهر ، والاستغلال والفساد ، فالجيش محاصر بقوات العدو ، ومصر محاصرة بسياسة فاروق وطغمته ، والاستعمار يحكم كل الظروف التي تخدمه

وتخدم الصهيونية وجيوشها المقاتلة في فلسطين ، فكان لكليهما أكثر مما أراد ، وأبعد مما حلم به .

" .. ثم هذه قوات إخواننا في السلاح ، وفي الوطن الكبير ، وفي المصلحة المشتركة ، وفي الدافع الذي جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين .

هذه هي جيوش إخواننا .. جيشاً جيشاً .. كلها هي أيضاً محاصرة .. بفعل الظروف التي كانت تحيط بها ، والتي كانت تحيط بحكوماتها .. لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين " (٤) .

يؤمن ناصر هنا كل الإيمان أن القتال على ثرى فلسطين كان مصلحة مشتركة ، وأن الدافع الذي حفز الجميع للمشاركة في الجهاد كان واحداً ..

ولكنه لما رأى هذه الجيوش جميعاً تحت الحصار آمن أن الظروف المحيطة بالجيوش ودولها العربية واحدة أيضاً .. والجميع أحجار شطرنج في أيدي لاعبين ..

" وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمداً حقيقة ما يجري ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه ...

كنت مؤمناً بأن الذي يحدث في فلسطين كان يمكن أن يحدث-وما زال احتماله قائماً-لأي بلد في هذه المنطقة ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن.

وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي "(٥) .

وطالما أن فلسطين ما هي إلا جزء من هذا الوطن الضحية ، فما يحدث فيها ولها ممكن جداً أن يحدث لأي جزء من هذا الوطن ، طالما أن الكل يخضع لعوامل وقوى واحدة ، مستسلم لها لا يبدي أي نوع من المقاومة ..

" كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غداً ، وفي بيروت وعمان وفي بغداد ، وغيرهما .

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي.

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل .. بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعاً " (٦) .

ويتابع ناصر بوعيه العميق وثقافته الواسعة ما يجري في هذا الوطن الكبير ، فيجد أن أحواله وظروفه متشابهة تماماً ، فما يحدث في قطر واحد يحدث في آخر ، ويرى ناصر ذلك طبيعياً كون الظروف والعوامل واحدة ، وأهم من هذا أن القوى المتآمرة المتربصة لهذا الوطن واحدة ، أو ليست هي التي اقتسمته في معاهدة سايكس بيكو ..؟

إذن هو **النزوع القومي** الذي اكتسبه عبد الناصر خلال حرب فلسطين ، فالقوات المقاتلة على ثرى فلسطين تذود عن الوطن العربي ، فما يجري هنا يمكن أن يجري هناك .

ومثل هذا الفكر القومي هو الذي قاد إلى إيمان أقوى ، هو **الإيمان بضرورة الثورة** .

ثم يشخص لنا أصل الداء ، فيقول :

" وكان واضحاً أن **الاستعمار هو أبرز هذه القوى** .

حتى إسرائيل نفسها لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت **الصهيونية** أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين ، ولظلت هذه الفكرة خيالاً مجنوناً ليس له أي أمل في الواقع " (٧) .

فالاستعمار هو العدو الأول للأمة العربية ...

وهو الذي زرع إسرائيل في المنطقة بعد أن كان مستعمراً لها من قبل ، فكان خير ممهد لها ، وخير راع لنشوئها وتطورها ، ولو لم يوفر الاستعمار لها ذلك لما كان سهلاً على اليهود تأسيس دولتهم على ثرى فلسطين ، بل لوجدوا المقاومة التي تحول دون هذا الكيان الدخيل .

ويؤكد ناصر ما سبق مستعيناً بثقافته السياسية الواسعة ، مستشهداً بأقوال **"حاييم وايزمان"**(١٨٧٤-١٩٥٢) أشهر الشخصيات الإسرائيلية بعد هرتزل ، والذي لعب الدور الأهم في استصدار وعد بلفور ، ورئيس جمهورية إسرائيل الذي يقول في كتابه المشهور "التجربة والخطأ ":

" لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف " (٨) ، ويضيف عبد الناصر :

" ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان :

" ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

وإننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة " (٩) .

ويخلص عبد الناصر إلى القول :

" وأعود إلى الذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلاً غير مرئي ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي يحيط بخنادقنا في "الفالوجة" ، وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي :

- ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة - فلماذا تتشتت جهودنا ..؟ ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته " (١٠) .

إذن هو **المشروع الوحدوي** الذي يحلم به عبد الناصر لكي تقف الأمة أمام الخطر الواحد - غير المرئي- الذي يهدد المنطقة ، غير المرئي لأنه يكون ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً ، فتتفق غاياته وأهدافه ، وإن اختلفت طرقه وأساليبه ، لذا كان أخطر من الحصار العسكري .

إذن فالمنطقة مشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد ، وعدوها واحد ، فلماذا تتشتت الجهود وتضيع ؟

وزادته تجربة ثورة يوليو إيماناً بما سبق لأن القوى التي وقفت ضد الأمة في حرب فلسطين هي نفس القوى التي اتحدت ضد الثورة الفتية ليس عند قيامها فحسب ، بل ظلت تعادي مصر ومشاريعها الوحدوية ، وكل ما كانت تخططه لرفع شأن مصر اقتصادياً وعسكرياً ، إذ ليس من مصلحة الغرب ولا إسرائيل قيام كيان عربي قوي في المنطقة يقول للغرب : لا .

ويؤكد دور حرب فلسطين في خطابات لاحقة ..

وفي خطاب ألقاه في احتفال اللبنانيين المقيمين في مصر في ٢ شباط ١٩٥٥ ، يقول عن وعيه المبكر بالمسألة الفلسطينية :

" إنني أشعر اليوم أن العرب ، وان الوحدة العربية لا تحتاج إلى ميثاق يكتب ، ولا تحتاج إلى كتاب يوقع ، ولكنها موجودة بينكم أنتم وبين العرب أجمعين .

هذا هو الأمل الأكبر ، الذي كنت أشعر به في الماضي وأنا طالب صغير ، كنت أخرج من المدرسة لأهتف من أجل لبنان ، ولأهتف من أجل فلسطين ، ولم أكن أعرف ما هو الدافع الذي يدفعني إلى هذا ، ولكنني يا إخواني بعد أن كبرت ، وبعد أن شببت ، شعرت لماذا كنت أخرج في اليوم الثاني مند ديسمبر كل عام **لأهتف من أجل فلسطين،** ولماذا كنت أخرج في كل ثورة من ثورات لبنان لأهتف من أجل لبنان .

وإني أشعر في قرارة نفسي ، وأشعر ، من كل قلبي ، إني أهتف من أجل وطني ، وأهتف من أجل بلدي ، لقد شعرت يا إخواني أننا نسير إلى المستقبل الآن ، وأننا لا نحتاج إلى وثائق مكتوبة ، ولكننا نحتاج إلى قلوبكم وإلى **قلوب العرب** أجمعين " (١١) .

وفي خطاب آخر له في ٦-١- ١٩٥٥ ، في احتفال السوريين المقيمين في مصر لتكريمه ، يقول ناصر :

" إن عزتنا من عزتكم ، وكرامتنا من كرامتكم ، وقوتنا من قوتكم ، هذا مبدأنا وإيماننا وطريقنا الذي تسير فيه بالعمل .. ، والعمل وحده ، فلن تكون هناك عزة أو كرامة بلا عمل ، ولن تكون هناك قوة بلا عمل .

فنحن حينما قمنا بهذه الثورة ، لم نكن نبغي عزة مصر وحدها ، ولكنا كنا نبغي عزة العرب وقوتهم وكرامتهم جميعاً ..

لقد ابتلينا في فلسطين ، وفقدنا العزة والكرامة والقوة ، ولهذا قمنا بالثورة ، نحن نشعر أن عزتنا مرتبطة بعزتكم ، ففي هذا السبيل نسير ، والله يوفقنا " (١٢) .

ها هو عبد الناصر يؤكد لنا أن حرب فلسطين كانت سبباً مباشراً من أسباب الثورة ، فالذي حصل قبلها وخلالها لا داعي لأن نكرره هنا ، وهو خلاصة الوضع المصري البائس ، وفساد الحكم ، وسيطرة الاستعمار ، وعجز القوى الوطنية أو الحزبية عن فعل شيء يمكن أن يغير الأوضاع السائدة ، **فكان لا بد عن الثورة .**

وها هو عبد الناصر يقول في خطاب له في ٢ شباط ١٩٥٥ :

" لقد ابتلينا في فلسطين ، وفقدنا العزة والكرامة والقوة ، ولهذا قمنا بالثورة " (١٣) .

اكتمال الوعي

وبناء على ما سبق ، نستطيع أن نقول أن الوعي العربي الوحدوي قد اكتمل عند عبد الناصر في هذه السن بتأثير العوامل السياسية والثقافية والاجتماعية ، وذلك نتيجة لما يلي :

أولاً : البداية التدريجية من خلال الدراسة الثانوية ومشاركته في المظاهرات ، ثم التحاقه بالكلية الحربية ، وانتمائه للأحزاب والمنظمات المصرية .

ثانياً : دراسته العميقة للنظريات العسكرية والسياسية ، والاتجاهات الفكرية المعاصرة من خلال قراءاته في المرحلة الثانوية وفي الكلية الحربية .

ثالثاً : إدراكه الخطر الماثل ضد الأمة العربية من خلال مشاركته في حرب فلسطين ، فعرف عوامل وحدتها الجغرافية والسياسية ، وعوامل الوحدة والتضامن العميق التي تشد شعوبها من لغة ودين وآمال وتاريخ .

الفصل الرابع

تطور التنظيم
بعد حرب فلسطين

عاد الجيش المصري من فلسطين في ١١ آذار ١٩٤٩ ، عاد وما فيه ضابط أو جندي غير ناقم على النظام .

ونستطيع أن نقول أن حرب فلسطين قد أفادت القيادة الثورية أيما فائدة ، فقد انكشف النظام الحاكم ، وانكشفت كل فضائله الفاسدة المتكسبة غير القلقة على شعب أو وطن ، فلم يعد هناك من فضائل للنظام المترنح ما يمكن لأحد الدفاع عنه ، لذا كانت الأجواء السياسية مناسبة لتنظيم وصل حد الاختمار ، فلم يبق إلا القليل لإشعال فتيل الثورة .

اعتقال عبد الناصر

ويفاجأ عبد الناصر بزيارة الفريق عثمان المهدي باشا من هيئة الأركان لمنزله في حزيران ١٩٤٩ ، أي بعد عودة الجيش من فلسطين بثلاثة شهور تقريباً ، وقامت مجموعة من البوليس الحربي بتفتيش المنزل ، فلم يجدوا شيئاً ذا بال ، وهذا يدل على مدى حرص ناصر وحذره ، ولكن عثمان المهدي اصطحب ناصر معه لمقابلة رئيس الوزراء والحاكم العسكري آنذاك إبراهيم عبد الهادي (١) .

ويسأله عبد الهادي عن كتاب عثر عليه عند أحد رفاقه وعليه اسم جمال عبد الناصر ، وكان عنوان الكتاب "كيفية استخدام القنابل اليدوية" ، وسأله : هل هذا الكتاب لك ؟

فرد ناصر : نعم .

وسأله : هل لك علاقة بالإخوان ؟

فقال : كنت أعرف ضابطاً منهم اسمه أنور الصيحي .

وقال عبد الهادي :وأين هو ؟

فقال جمال : استشهد في حرب فلسطين .

وهنا ثار عبد الهادي ، ودق المكتب بيده غاضباً ، وصاح :

- أنت يا أفندي بتضحك عليا ، إنتو عايزين تخربوا البلد ، إنتو فاهمين إيه ، البلد دي لا تحتمل إن واحد جربجي ببنطلون مزيت تحصل له أي حاجة وإلا كان

الأجانب ببهدلونا ، أنتم لا تعرفون مدى الخطورة في أن ضابط جيش يشتغل مع الاخوان ..

ووسط هذه الثورة تذكر جمال أن في جيب بنطلونه ورقة خطيرة ، اعتقد أنها الأصل الخطي لبيان سياسي ، وفي إثناء هذه الثورة أيضاً ،فدق التليفون ، وانشغل عبد الهادي بالمكالمة ، واستأذن جمال في الذهاب إلى دورة المياه ليتخلص من الورطة التي في جيبه ، ويعود ليجد عبد الهادي وقد هدأ قليلاً ، وإن كان قد واصل تهديده وقال في النهاية :

- إن سيادة الفريق عثمان المهدي قال عنك كلام كويس ، ولولا هذا أنا كنت وديتك في داهية ، ومن الآن فصاعداً أنت ضابط جيش وبس ، ولا علاقة لك بأحد "(٢) .

وفي حديث صحفي له في ٢٢ تموز ١٩٥٣ ، يضيف عبد الناصر عن هذا التحقيق :

" ولقد سألني في التحقيق : هل عندك أسلحة في منزلك ؟

فقلت له : عندي ذخيرة يهودية من فلسطين تبلغ حوالي ٢٠٠ طلقة مدفع ستين .

ولقد فقد إبراهيم عبد الهادي أعصابه في ذلك اليوم ، وكان يقول لي بعد أن ضاق صدره من إصراري وصمودي أمام تهديداته :

- لا أدري ماذا أفعل معك ؟ ضابط كبير مثلك قد تصدر إليه الأوامر فجأة لمقاومة أية حركة ثورية ، كيف يكون الوضع وكيف تطلب من الإنجليز الخروج والوضع على هذا الحال ؟ إنكم تقولون إني جبان ، لكني لست بجبان إلا في حالة واحدة فقط ، وهي يوم يُعتدى على إنجليزي واحد حتى ولو كان مرتدياً بنطلوناً خلقاً "(٣) .

ويضيف خالد محي الدين راوي قصة الاعتقال أن ناصر قد اعتبر هذه المقابلة بمثابة الإنذار ، وقرر أن يبدأ ورفاقه عملاً جاداً حتى لا يؤخذوا على حين غرة في المرة القادمة ، ولما طلب منه ثروت عكاشة أن يتوجه لزيارة عبد الناصر ، يضيف خالد :

" وبالفعل توجهت إليه لنبدأ عملاً جاداً ..

ولنشكل الخلية الأولى للضباط الأحرار ، لكننا لم نكن وحدنا " (٤) .

ولهذه القصة مدلولات عدة نجملها فيما يلي :

١- أنه كان لعبد الناصر من النشاط الثوري ما لفت الأنظار إليه ، واستدعى تفتيش بيته .

٢- أن أي ضابط مخابرات كان بإمكانه أن يحقق مع عبد الناصر بأسلوب أكثر وعياً واحترافاً من رئيس الوزراء الذي بدا لنا ساذجاً خائفاً لا يعرف شيئاً عن ناصر، ولا عن تنظيمه الذي كان قد قطع مشواراً طيباً في ذلك الوقت، وهذا بدوره يدلنا على أن الدولة في ذلك العهد لم تعرف وجودها ككيان منظم له دوائره واختصاصاته المسئولة القادرة الواعية.

٣- أن أجهزة المخابرات المصرية في العهد الملكي كانت ضعيفة جداً، وليس لديها الوسائل العلمية الناجعة، ولا الخبرة الكافية، ولا العملاء القادرين على التسلل في الدوائر المدنية، ولا في فصائل الجيش - الجهاز الأخطر على الملك- لمعرفة كل- أو بعض- ما يجري فيه، وإلا فكيف يسمح لضابط مطلوب لهذه الأجهزة بمقابلة رئيس الوزراء بدون أن يتعرض لأبسط عمليات التفتيش، لذا أستطيع أن أزعم أن أعضاء حركة الضباط الأحرار بكافة رتبهم قد عملوا بشكل مريح، ولم يكن هناك ما يخيفهم أو يزعجهم من الدوائر المعنية بالحفاظ على النظام.

٤- أن عبد الناصر كقائد للتنظيم يتحمل المسئولية كاملة، ولديه معلومات أكثر من سواه من الأعضاء، كان حريصاً على سلامة رفاقه، فكان على درجة عالية من الحذر، لذا لم يترك أثراً لشيء يدل على التنظيم، ولم يحتفظ في بيته بأي دليل يمكن أن يدينه، أو يعرض أي عضو من أعضاء التنظيم للاعتقال أو السجن، وهذا دليل على كفاءته القيادية العالية.

٥- أصبح واضحاً لدى القائد الواعي المستنير عبد الناصر أن تنظيمه قد يتعرض للخطر في الفترة القادمة، لذا لا يريد أن يضيع كل تعب وتخطيط باكتشاف التنظيم واعتقال أعضائه، لذا يسارع لدعوة رفاقه للشروع في عمل جاد من أجل الوطن.

٦- تفيدنا القصة بأن تشكيل الخلايا لم يعرف قبل هذا الحادث، وأن التنظيم قد بدأه بعدها لشعوره بالخطر.

٧- أن مهمة النظام الحاكم باتت واضحة، وهي حماية المستعمر الإنجليزي حتى ولو كان يرتدي "بنطلوناً خلقاً ..!"

الخلية الأولى

وفي بيت عبد الناصر وفي أواخر عام ١٩٤٩ عقد الاجتماع الأول للخلية الأولى لتنظيم "الضباط الأحرار" وتكونت من :

جمال عبد الناصر	عبد المنعم عبد الرؤوف
كمال الدين حسين	حسن إبراهيم
خالد محي الدين	

ويضيف ناصر : أنا معايا عبد الحكيم عامر ، وأنتم طبعاً عارفينه لكنه لم يستطع الحضور اليوم ، ويضيف : كل واحد منا يشتغل ويحاول يكون مجموعة في سلاحه ، وهكذا يمكن أن نصبح قوة منظمة وقادرة على فعل شيء (٥) .

ولا يوضح لنا خالد محي الدين كيف كانوا يعملون في السابق وعبر إثني عشر عاماً ، ولا نجد في ما بين أيدينا من مراجع توضيحاً أو تفصيلاً لذلك .

ويعود خالد ويدلي بحديث لا يخلو من أهمية للمؤرخين ، فيقول :

" ..إنها الخلية الأولى ، واجتماعها الأول في النصف الثاني من عام ١٩٤٩ ، أقرر هذا وأكرره لأن الكثيرين حاولوا تقديم روايات مختلفة ، فالمرحوم أنور السادات قال برواية أخرى .. وآخرين أيضاً .

ولست أريد أن أنفي عن هؤلاء أنهم كانوا يعملون في الجيش معنا أو حتى قبلنا ، فلقد تمكن بعضهم من إقامة مجموعات منظمة في الجيش قبل "الضباط الأحرار " ، ولكنها كانت شيئاً آخر غير " الضباط الأحرار " (٦) .

ويلتزم خالد محي الدين المصداقية ، فيخبرنا أنه لا يزعم أن تنظيم الضباط الأحرار كان يعمل وحده في الجيش ، بل كان هناك تنظيمات أخرى يصفها " بالمجموعات المنظمة " ، ولكنها كانت شيئاً آخر غير الضباط الأحرار ، وتعبير " شيء آخر" يشي بأكثر من مقصد ، فهل قصد خالد محي الدين أن هذه التنظيمات لم تكن في مستوى الضباط الأحرار قوة وفعالية ونفوذاً في الجيش ؟ أم لم يقصد شيئاً سوى أنها كانت " تنظيمات أخرى " لا علاقة لها بالضباط الأحرار ؟ فالعبارة غير واضحة كحقيقة علمية ، ولا يعقل أن نطالب كل الضباط الأحرار بأن يكونوا مؤرخين ! .

المنظمات الأخرى

ويذكر محي الدين بشيء من التفصيل أشهر تلك المنظمات ، ومنها :

١- مجموعة جمال منصور : وكانت تضم عدداً من الضباط ، ويذكر بعض الأسماء ، وقد أصدرت بعض المنشورات التي لا يذكر محتواها ، وقد تعرض عدد منهم للاعتقال (٧) .

٢- مجموعة الحرس الحديدي : كانت على علاقة طيبة بالملك بواسطة طبيبه يوسف رشاد ، فقامت بأعمال إرهابية ضد خصومه السياسيين بداعي أنهم

عملاء للاستعمار ، فاغتالت الوفدي البارز أمين عثمان ، والشيخ حسن البنا ، وقامت بعدة محاولات لقتل مصطفى النحاس ، وكان محمد نجيب على لائحة المطلوبين للاغتيال (٨) .

٣- مجموعة أنور السادات : وأكثر عناصرها مدنيون ، يقول خالد محي الدين أنها مسئولة عن قتل أمين عثمان ، ولا نستغرب هذا ، فبعض الباحثين يلحقون السادات ومجموعته بتنظيم الحرس الحديدي ، والسادات في مذكراته لم ينكر علاقته الطيبة بيوسف رشاد (٩) .

٤- الجمعية العسكرية لاتحاد البوليس والجيش : وقد أصدرت منشورات باسمها على شكل إرشادات وتحذيرات (١٠) ، ولا نجد لها خبراً عند باقي المؤرخين .

٥- منظمة حدتو (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) وكانت تتبع الخط الشيوعي ، وكان رئيسها أحمد فؤاد ، وقد رتب له خالد محي الدين لقاء مع عبد الناصر ، فأبدى ناصر إعجابه بالرجل ، ووجد في خط الثورة الاشتراكي ما يقرب أحمد فؤاد من الحركة " ولما عرض أحمد فؤاد فكرة انضمام ضباط "حدتو" لتنظيمنا ، ووافق عبد الناصر ، **لكنه اشترط كعادته أن ينضم الأعضاء فرادى ، أي كأفراد وليس كمجموعة منظمة** ، ولكي أكون واضحاً فإن هذا الشرط كان شرطاً دائماً عند عبد الناصر ، فعندما عرضت عليه فكرة التوحد مع مجموعة جمال منصور رفض مسألة التوحد ، وأصر على أن ينضم أعضاء المجموعة فرادى إلى التنظيم ، وقبل جمال منصور ذلك ، كذلك قبل أحمد فؤاد ، أو بالدقة قبلت حدتو " (١١) .

وهناك ذكر لمنظمة تدعى "إسكرا" كان خالد محي الدين قد انضم إليها عام ١٩٤٧ قبل أن ينضم لحركة "حدتو" (١٢) ، ولا ذكر لهذه المنظمة فيما بين أيدينا من مراجع كثيرة عن تلك الفترة الصاخبة من تاريخ مصر .

ولعل السبب وراء رفض عبد الناصر قبول منظمات بكاملها لتنظيم الضباط الأحرار هو معرفته القوية العميقة- التي أشاد بها رفاقه - بأطياف العمل السياسي المصري والتي جعلته خبيراً بذلك الواقع أكثر من سواه ، ويبدو أن ناصر قد فضل أن يظل للضباط الأحرار خطهم السياسي والعسكري الذي وضعه ورفاقه عبر السنين ، أو ما كان في ذهنه من خطط سينفذها التنظيم لاحقاً ، لذا فإن انضمام منظمات بكاملها كتنظيمات لحركته سوف يجعل لها ثقلاً يدفعها لأن تطالب بقوة بتغيير المسار الذي بناه ناصر لمدة طويلة وذلك بطرحها منهجها وفلسفتها ، ولربما انسحب هؤلاء لخلاف ما ، فأدى ذلك لانسحاب رفاقه من الضباط الأحرار، عندئذ تكون الخسارة كبيرة ، ولكن

انضمام أي منهم كفرد يجعله يخضع طوعاً لما وجده من نظام وقانون ومنهج يسير عليها سابقوه منذ زمن .

وعن دور حدتو في المساهمة في نشاط الضباط الأحرار يقول محي الدين :

" وبدأ تنظيم الضباط الأحرار يفتح أبوابه للشيوعيين من أعضاء حدتو ، وانضم إلينا عدد لا بأس به منهم ... واندمج هؤلاء الضباط في مجموعات التنظيم ، وأسهموا إسهاماً كبيراً في عملنا ، وخاصة في توزيع المنشورات بالبريد ، كذلك أسهمت "حدتو" فيما بعد في طباعة منشورات "الضباط الأحرار" ، كما أسهم ضباطها إسهاماً نشيطاً وفاعلاً معنا ليلة ٢٣ يوليو .

ويضيف خالد محي الدين :" واستمرت علاقتي مع احمد فؤاد ، وكان عبد الناصر يلتقي معنا لنتناقش طويلاً في التطورات السياسية وموقفنا منها ، وازداد إعجاب جمال بأحمد فؤاد ، لكنه لم يفكر أبداً في الانضمام "لحدتو" ، ليس بسبب أية حساسية سياسية ، وإنما لأنه لم يكن يريد لمنظمته أن تخضع لأي تأثير من خارجها " (١٣) .

ومن المجموعات الخمس التي ذكرها خالد محي الدين لا نجد ما يعنينا منها سوى مجموعة جمال منصور ومنظمة حدتو ، فجماعة "الجمعية العسكرية" لا نجد منها شيئاً ، ولا يذكرها المؤرخون لا بالخير ولا بالشر ، والمنظمتان الأخريان كانتا من صنائع القصر، وكان أعضاؤهما يعملون ضد الأمة ، وأقل إنجازاتهم اغتيال خصوم الملك ، لذا لا علاقة لهم بالشأن الوطني .

ولكن ما يعنينا هنا انفتاح الضباط الأحرار على باقي المنظمات ، فلم يفكر ناصر ورفاقه بمناصبتها العداء كونها منظمات منافسة ، بل نجد الزعيم الراحل يلتقي ببعض قادتها ، ويستطيع بحكمته ولباقته أن يضم عدداً من كوادرها لصفوف تنظيمه ، ويستفيد من إمكانياتهم في تنفيذ أعمال كبيرة لصالح الثورة .

عودة إلى أجهزة المخابرات

وكل ما سبق عن نشاط تنظيم الضباط الأحرار ، وعن نشاط كل الأحرار في مصر لتغيير الواقع المرير ، يجعلنا نتساءل عن أجهزة المخابرات المصرية ، أين كانت ؟ وكيف تغاضت عن كل ما يجري على الساحة سراً وعلانية ؟ فلم نسمع عن اعتقالات أو محاكمات أو سجون .

ويجيبنا عن كل ذلك المؤرخ أحمد حمروش الذي كان من ضمن صفوف الضباط الأحرار، فيخبرنا أن الأجهزة الأمنية في الجيش أو وزارة الداخلية كانت محدودة ، فكان عدد أفرادها في المخابرات الحربية ٢٥ ضابطاً فقط ، والأغرب من ذلك أن بعضهم قد تم

ضمه للضباط الأحرار ، أو كانوا على صلة بهم فماذا بعد ذلك ، وهذا دليل دامغ على قوة التنظيم ، ومدى قدرته على الوصول لأدق الأجهزة وأكثرها حساسية .. المخابرات .

أما ضباط الداخلية فكانوا ٢٤ ضابطاً ولم يكن من طبيعة عملهم التدخل في شؤون الجيش وأسراره .

لذا لم يتعرض أي من الضباط الأحرار للاعتقال رغم تزايد عددهم (١٤) ، وهذا يؤكد لنا ما قلناه بأن الضباط الأحرار قد عملوا في أجواء مريحة لا يحلم بها أحد في أي دولة أخرى ، وقد استغلوا الظروف السائدة لأحوال نظام لا يكاد يملك شيئاً ، فكانت الثورة ، وكان النجاح الباهر.

قيادة عبد الناصر للتنظيم

ولدى المؤرخين شهادة واضحة وثيقة أدلى بها أنور السادات نفسه عن مكانة عبد الناصر في التنظيم ، فيقول بعد وصفه لحاله - أي السادات - وهو يعيش متنكراً مستتراً :

" ألغيت الأحكام العرفية عام ١٩٤٥ ، فبدأت أظهر بوجهي ..

في هذا الوقت .. كان **جمال عبد الناصر** قد بدأ يتولى بنفسه أمر التشكيل داخل الجيش ، لينظمه تنظيماً جديداً ، وليضع له خطة بعيدة المدى ، طويلة الأمد ، قائمة على فلسفة مدروسة واقعية .

وبدأت حركتنا تتخذ صورتين ..

صورة داخل الجيش يرسمها ويكون عناصرها جمال عبد الناصر ..

وصورة خارج الجيش توليت أنا أمرها ..

...وكنا قد رسمنا خطتنا القريبة على أن ننشىء تشكيلاً شعبياً وتشكيلاً عسكرياً ، يعملان جنباً إلى جنب ، كل بوسائله وكل بخططه ، ولا يرتبط أحدهما بالآخر أي ارتباط ظاهر حتى تأتي اللحظة المناسبة لذلك " (١٥) .

ومسألة " قيادة التنظيم " متى بدأت ؟ وأين ؟ وكيف ؟ مسألة شائكة مرنة تحتمل عدة تواريخ وأمكنة ، أما هوية قائد التنظيم فلا أراها صعبة على الباحثين .

فقد يكون المرء رئيساً لمجموعة ما ولكن زملاءه لم يرشحوه لهذه القيادة ولم ينتخبوه ، ولم يفرض هو نفسه عليهم ، ولكن الكل يدرك أنه القائد ، ولا يُبت في أمر إلا بعد الرجوع إليه وموافقته .

فالسادات الذي يقول لنا في الفقرات السابقة من كتابه "أسرار الثورة المصرية" أن عبد الناصر بدأ يتولى أمر التشكيل عام ١٩٤٥ ، يقول في كتابه "البحث عن الذات " :

" لقد تسلم عبد الناصر تنظيم الضباط الأحرار في نهاية عام ١٩٤٢ وقطع به شوطاً طويلاً استغرق ٦ سنوات كاملة كنت أنا اثناءها في السجون والمعتقلات " (١٦) .

والعبارات التي تسبق هذا الحديث في الكتاب ذاته تشير إليه - أي السادات - كرئيس للتنظيم ، مثل :

" لم ألجأ إلى الخلايا السرية للدفع بهذه الثورة المسلحة لبلوغ أهدافها كما فعل عبد الناصر بعد عودته من السودان في ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، وتسلمه التنظيم في أوائل سنة ١٩٤٣ بعد اعتقالي في صيف ١٩٤٢ " (١٧) .

أو قوله :

"أمـــا أنـــا فلمـــاذا أخطـــط لثـــورة علـــى مـــدى زمنـــي بعيـــد ؟ " (١٨) .

وتصادف وجود بعض الإخوان المسلمين بين جنودي "(١٩) .

والشهادتان من السادات بحاجة للنقاش .. .

إذ لا يوجد فيما بين أيدينا من مراجع - وهي كثيرة - ما يشير إلى أن التنظيم قد قاده شخص آخر منذ اقتراح عبد الناصر تأسيسه عام ١٩٣٨، سوى ادعاء السادات تلك القيادة في الكتاب المذكور بعد وفاة عبد الناصر ، ولكن هناك ما ينفيه ومن قلم السادات نفسه في كتابيه "قصة الثورة كاملة " و"أسرار الثورة المصرية" ، اللذين لا يوجد فيهما أية إشارة إلى أن السادات كان مؤسساً أو قائداً للتنظيم ، وحتى لا وجود لاسمه ضمن أعضاء الهيئة التأسيسية الذين ذكرهم في كتابه "قصة الثورة كاملة ، ص ٦٠" ، وتضم خمسة من الضباط ذكرهم خالد محي الدين آنفاً ، وغير ذلك لا نقرأ في كتابيّ السادات سوى المديح تلو المديح لقيادة عبد الناصر الواعية ، وتأريخ لها .

لذا لا نستغرب أن يبلغ الأمر بالسادات أنه حين ظهور مذكرات عبد اللطيف البغدادي أن ثارت ثائرته ،لأن ما ورد فيها مغاير للصورة التي يريد لأن يرسخها في أذهان الناس ، حتى بلغ به الغرور أن أمر بتشكيل لجنة سماها " لجنة تسجيل تاريخ الثورة " لتنفيذ ما يريد ، كما أصدر مرسوماً يحرم نشر الوثائق التاريخية قبل انقضاء خمسين عاماً على الأحداث بدون الحصول على إذن مسبق (٢٠) .

أما بعد **العودة من فلسطين عام ١٩٤٩** ، فنقرأ شهادة أخرى لأحد ضباط الثورة ، الذي يعيدنا إلى الخلية الأولى ، ليصف لنا خالد محي الدين بكل نزاهة وموضوعية قيادة عبد الناصر للتنظيم ، يصف ذلك بكل بساطة وكأنه يخبرنا بصفات القائد ومزاياه ، فيقول :

" .. وفي الجلسة الأولى ، ومنذ أن احتوتنا غرفة الصالون في بيت عبد الناصر بكوبري القبة ، تولى جمال القيادة دون عناء ودون قرار منه أو منا ..

كان الأعلى رتبة .. هو بكباشي (مقدم) وكنا أقل منه رتبة ، أنا كنت يوزباشي (نقيب) ، وكمال الدين يوزباشي ، ولكن أقدم مني ، صحيح أن عبد المنعم عبد الرؤوف كان أقدم من جمال ، لكن جمال صاحب الفكرة وصاحب الدعوة ، وكان دوماً ومنذ دخلنا معاً الإخوان المسلمين هو الرافض لفكرة احتوائنا داخل الجماعة ، والمدرك لأهمية وجود تنظيم مستقل لنا ، وكان فكر عبد الناصر مرتباً في هذه الجلسة الأولى " ويردف :

" بدأ عبد الناصر خطوته الأولى في حديثه معنا ، ثم سأل : إذا كنا قد هزمنا أمام مجموعات متطوعين من الإسرائيليين ، فكيف سنواجه الإنجليز ؟ وكيف سنحرر الوطن؟

ومن هذه النقطة انطلق إلى فكرة أن مصر بحاجة إلى قوة منظمة في الجيش تكون قادرة على الدفاع عنها وعن استقلالها .

.. لم يكن أي منا بحاجة إلى إقناع ، كنا مقتنعين أصلاً ، بل متلهفين على عمل أي شيء ، واتفقنا ، وأحاول أن أستعيد اللحظات لأتذكر أننا وافقنا ببساطة .. أو بالدقة اتفقنا ببساطة ، لم تكن ثمة طقوس كتلك التي مارسناها في الإخوان ، فنحن نعرف بعضنا البعض ، ونثق في بعضنا البعض " (٢١) .

وتؤكد لنا الفقرات السابقة عدة أمور مهمة ، مثل :

١- أن بروز شخصية ناصر وقدرته على قيادة التنظيم ، وتطوعه لها كان أمراً مفروغاً منه لدى الجميع ، ليس لأنه الأعلى رتبة ، ولا لأنه الأقدم في الخدمة العسكرية

تأمل - عزيزي القارىء- قول محي الدين :

" **تولى جمال القيادة دون عناء ودون قرار منه أو منا** " ، فالعبارة على قصرها تحمل الكثير ، وكأنه يقول أن قيادة ناصر جاءت تلقائية عفوية ، ولم تكن اعتباطية ، أو حباً في السلطة ، فمحي الدين يريد أن يقول أن القدرة والأهلية ، والموهبة والاستعداد الفطري قد توفرت لدى ناصر ، لذا لم يستأذن أحداً في القيادة ، ولم يسأله أحد عن ذلك ، لأن الكل يعرفه والكل مؤمن بقدراته القيادية ، فسارت الأمور كما يجب أن تسير .

٢- أن عبد الناصر هو صاحب فكرة التنظيم ، وصاحب الدعوة للاجتماع ، ولعل محي الدين لا يقصد الدعوة للاجتماع بقدر ما يقصد الدعوة للشروع في العمل الثوري ، وإعادة هيكلة التنظيم .

٣- بخبرته الطويلة العميقة في الأحزاب والتجمعات السياسية في مصر كان عبد الناصر رافضاً انضواء الضباط الأحرار تحت أية راية أخرى ، مؤمناً باستقلال التنظيم وهويته الخاصة المتفردة ، وقد أثبتت الأيام صحة توجهه ذاك ، فإن

استقلال التنظيم أراح الضباط الأحرار ومصر من خلافات وتصعيدات كثيرة كان يمكن أن تنشأ لو تشرذم التنظيم بين الأحزاب والمنظمات المختلفة.

ولما نعى ناصر في ذلك الاجتماع على الأمة هزيمتها أمام مجموعة من المتطوعين الإسرائيليين ، تساءل أن **كيف سيواجه المصريون الإنجليز؟** ، **وكيف سيحررون الوطن ؟** قاصداً أن المطلوب الآن شيء أعظم وأخطر ، وأن على الجميع الاضطلاع بالمهام العسيرة القادمة ، فمصر الآن بحاجة " لقوة منظمة " ، جديدة فاعلة ، تحمل ما تتمناه الأمة لكي تنقذها مما هي فيه ، والذي كانت فيه ليس "مجموعة متطوعين" ، بل حكومة موجودة قائمة ، ولها جيشها ، إلى جانب دولة عظمى مستعمرة جاهزة لمساندة النظام الحاكم إن لزم الأمر ، إلا أن هذا كله لا يبدو سبب قلق كبير أمام من يريد أن يعمل من أجل وطنه وشعبه .

ويهمنا هنا مدى تقبل المشاركين في الاجتماع لهذا الحديث الذي أدلى بها ناصر ، فيطمئننا محي الدين وبكل ثقة وبساطة أن الجميع كان مؤمناً متفقاً مع بقية الزملاء بلا تعقيد وبلا "طقوس" ، مقتنعين تماماً بما طُرح ، متلهفين للعمل والكفاح .

إذاً فأعضاء التنظيم ، بشهادة كل الباحثين ، لم يكن بينهم من خائف أو متخاذل ، أو متردد أو متشكك ، فالكل مؤمن بأهداف التنظيم وغاياته ، مسلم أموره لقيادة واعية شجاعة ، قادرة على ما هي مقبلة عليه ، عالمة به وبتفاصيله وأسوأ احتمالاته ، جاهزة لمجابهة كل طارىء والتعامل معه ، لهذا كله كان النجاح الباهر حليف ثورة يوليو .. الثورة الثقة .. الشجاعة .. وقبلهما القيادة الجريئة الواعية .

تسمية الضباط الأحرار

أما الاسم " الضباط الأحرار " ، فالأستاذ المؤرخ أحمد حمروش أحد أعضاء التنظيم يقول أن هذا الاسم لم يطلق على التنظيم إلا في كانون ثان عام ١٩٥٠ ، وذلك حين انضم للجنة التأسيسية إضافة إلى الخمسة المذكورين آنفا كل من :

صلاح سالم	عبد اللطيف بغدادي
عبد الحكيم عامر	أنور السادات
جمال سالم	

ويضيف الأستاذ حمروش أنه قد جرى في هذا الاجتماع انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجنة التنفيذية (٢٢) .

وحسب رواية السادات فالذي دعاه بهذا الاسم هو عبد الناصر ، فيقول :

" واختار جمال للتشكيل اسم " الضباط الأحرار " .. الأحرار في كفاحهم في سبيل الحياة ، والأحرار في سعيهم إلى تحرير وطنهم من الاستعمار والاستغلال والفساد ، وكذلك الأحرار من الانتماء إلى أية هيئة أو جمعية أو تشكيل معروف " (٢٣) ، وهذا الشرح والتعليل للاسم لا يخبرنا السادات إن كانا له أو لعبد الناصر .

ويؤيد ذلك أنور السادات في روايته ل" قصة الثورة كاملة " (٢٤) .

بل ويزيدنا علماً بأحوال مصر في ذلك الوقت بالذات فيصفها بالمختصر المفيد :

" وعلى هذا- أي الاجتماع- مضينا نستعد لخوض أضخم معركة في تاريخ الشعب ، بدأنا نعد أنفسنا للاشتباك مع الأعداء جميعاً تحت سماء هذه البلاد .

وقد كانت البلاد في ذلك الوقت أشبه بمسرح كبير يشهد العالم فوق خشبته أعنف مأساة إنسانية تعرض لها شعب من شعوب الأرض .

لا عدالة ولا حرية ولا حق في أرضنا ، بل واستبداد وحكم مطلق ، وسماسرة يتاجرون بكل شيء ، بالسياسة وبالأرزاق وبالمستقبل نفسه .. مستقبل الملايين ، أما مستقبلهم هم فقد كانوا عل ثقة من أنه لا توجد قوة في الوجود يمكنها زحزحتهم عن أماكنهم ..

فالاستعمار حليفهم ، والرجعية والإقطاع والبرلمان نفسه الذي يسير الأمور ، كل هذا رهن مشيئتهم " (٢٥) .

ويصف السادات الزعامات آنذاك بأنها كانت أعواناً للملك والنظام ..

والباشوات وأعوان الملك وأصحاب الضياع والعقارات لا يهمهم سوى أن يظلوا في طبقتهم ، مستمتعين بما هم فيه من عز وغنى .

والأحزاب لا تمثل إلا نفسها ، وهي مرتبطة ببقاء النظام والإقطاع والخيانة ..

لذا لم يبق إلا الشعب أن يقوم بالثورة ..

والشعب بحاجة لقيادة يمكن أن تعد الملايين منه للمعركة (٢٦) ، والسادات في كل ما سبق لم يجانب الحقيقة ، فكم هي القوى الكامنة لدى الأفراد في كل بقاع الأرض ، القوى السياسية والثقافية والاجتماعية ..الخ ، ولكن ينقصها من يقودها ، فينظم أعمالها ، ويرسم غاياتها ، فيستغل قواها الكامنة لما فيه خيرها ونفعها .

ولو قارنا ما قاله السادات في الفقرة السابقة مع كل الثورات لما انطبق ذلك على أي منها كما انطبق على ما حدث في مصر وثورتها المجيدة ، وما استطاعت القيادة الثورية أن تحرزه لمصر العروبة .

تطور نوعي

ويطرأ تطور نوعي على التنظيم نستطيع أن نلمحه في النصف الثاني من عام ١٩٤٩ ومطلع عام ١٩٥٠ ، ويصف عبد الناصر هذه الفترة قائلاً :

" ...وقد بدأنا في وضع خطتنا في ذلك اليوم ، وفي نهاية الشهر كان شملنا قد اجتمع ، وفي يوليو/تموز ١٩٤٩ حينما بدأ الملك سياسة إزالة التوتر ، شكل الضباط الأحرار لجنة تنفيذية من تسعة أعضاء ، وقد وضعت هذه اللجنة في شهر تشرين الأول / أكتوبر خطة للاستيلاء على الحكم بعد خمسة أعوام بتعبئة ضباط الجيش حتى تستطيع التخلص من النظام كله ، أي أننا سنقوم بحركتنا في عام ١٩٥٤ ، وليس في عام ١٩٥٢ ، كما دفعتنا الظروف والحوادث إلى التفكير في تنفيذ الخطة ، وتعددت بعد ذلك اجتماعاتنا في كل مكان ، وفي منازل متعددة " (٢٧) ، وقد حصلت بعض الظروف السياسية فيما بعد بكرت موعد الثورة لعام ١٩٥٢ .

وعن انتشار التنظيم وتصاعد أنشطته وتحركاته يضيف **عبد الناصر** :

" ...بدأنا في أيلول /سبتمبر ١٩٤٩ في التنظيم الجدي ، والخروج بالحركة إلى نطاق واسع ، فبثثنا العيون في كل مكان ، في القصر ، وفي القيادة العامة للقوات المسلحة ، وفي البوليس السياسي ، وفي مختلف الأسلحة والوحدات ، وكانت هذه العيون تنقل إلينا كل المعلومات التي تصل إلى المسئولين في ذلك الوقت عن حركة الضباط الأحرار ، كما صدرت التعليمات لبعض أعضاء اللجنة التنفيذية بالاحتفاظ بعلاقاتهم مع الدوائر الحاكمة في البلاد ، وذلك بهدف الحصول على المزيد من المعلومات ، ومن أجل صرف الأنظار عنهم ، وكانت هذه الوسيلة الاحتياطية لا بد منها ، سيّما وقد بدأ التنظيم بالانتشار على نطاق واسع " (٢٨) .

والفقرة السابقة تخبرنا بالكثير عن نجاح كبير يحققه أعضاء التنظيم وذلك باختراقهم للأجهزة الحكومية ، المدنية والعسكرية ، من القوات المسلحة إلى القيادة العامة وصولاً حتى البوليس السياسي والقصر ، فما الذي بقي يا ترى ولم تصله أياديهم البيضاء ، وعيونهم الساهرة ، وهذا دليل دامغ على أن قيادة التنظيم الواعية كانت تعمل بشكل دائب ، وأسلوب علمي واع ، مدركة أساليب التطور التنظيمي وأسراره .

المنشورات

ومن هذا التطور النوعي المنشورات ..

ولم تكن منشورات " الضباط الأحرار" هي أول منشورات ثورية في ذلك الزمن ، فقد سبقها منشورات ظهرت منذ عام ١٩٤٦ للإخوان المسلمين والشيوعيين

والحرس الحديدي ، ولكن أجمل ما يروى أن كل هؤلاء وسواهم من التنظيمات والقوى السياسية قد توقفوا عن إصدار منشوراتهم منذ صدور منشورات الضباط الأحرار(٢٩)، فكأنهم وجدوا فيها ما يكنونه من سخط على النظام ، وما يحملونه من معتقدات وغايات في ضرورة التغيير .

ولا يخبرنا أحد من ضباط الثورة ومؤرخيها بتاريخ محدد للمنشور الأول ، ولا حتى بنصه ، ولكن خالد محي الدين يقول أن الضباط الأحرار قد قرروا في خريف ١٩٥٠ إصدار **منشورهم الأول** ولكنه لا يذكر تاريخه (٣٠) .

عبد الناصر والمنشور الأول

ويؤكد الضابطان في حركة يوليو خالد محي الدين ولطفي الواكد أن عبد الناصر هو الذي كتب المنشور الأول ، وطبعه بنفسه على المطبعة السرية التي اشتراها الضباط الأحرار، ووضعوها في بيت زميلهم حمدي عبيد (٣١) ، وهذا يدل على تحمله المسئولية الكاملة عن هذا الجانب الخطر من العمل الثوري .

وفي حديث صحفي **لعبد الناصر** بعد الثورة بعام يقول عن هذه المنشورات :

" **وقد صدر أول منشور للضباط الأحرار في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩** ، وقد تضمن تحليلاً وسرداً للحالة ، ولمأساة حرب فلسطين ...

وكان عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكمال الدين حسين وخالد محي الدين وأنا نقوم بتوزيع المنشورات على صناديق البريد ، وعلى فروع التوزيع في الوحدات والأسلحة المختلفة .

وكنا نطبع في المرة الواحدة ألف منشور ، وكنا نحصل على الورق والحبر من الجيش ، وكان توزيع المنشورات يتم بعضه بوساطة البريد ، والبعض الآخر باليد .

.. وقد قامت السلطات المختصة بضبط هذه المنشورات مرة واحدة في البريد ، إذ أنها شكت في محتويات ظروفها التي كانت من مقاس واحد ، فغيرنا طريقتنا في التوزيع بالبريد ، وكنا نرسل المنشورات من بلاد مختلفة " (٣٢) .

ومن المواضيع التي حملها المنشور الذي حمل العنوان " نداء وتحذير" تحذير الجيش من أن يساق مرة أخرى لحرب بدون استعداد لها ، وتحذير الملك من التدخل في التحقيق في قضية الأسلحة الفاسدة التي شغلت الناس آنذاك بعد أن تناولتها الصحف (٣٣) .

وكانت الأهداف التي حملها هذا المنشور :

" ١- القضاء على الاستعمار الأجنبي وأعوانه من الخونة المصريين .

٢- تكوين جيش وطني قوي .
٣- إيجاد حكم نيابي سليم "(٣٤) .

وقد طبع من المنشور الأول ٥٠٠-٦٠٠ نسخة ، وأدى إلى إحالة الفريق حيدر والفريق عثمان المهدي إلى المعاش (٣٥) .

تجديد الثقة

وكما يشير السادات وبعض المؤرخين ، أعيد انتخاب عبد الناصر رئيساً للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار بالإجماع في يناير /كانون ثان ١٩٥٠(٣٦) .

وأعيد انتخابه في الشهر ذاته من عام ١٩٥١ رئيساً لها (٣٧) .

وفي اجتماع الثوار الذي قرروا أن يكون سنوياً في موعده ، أعيد انتخاب ناصر لمرة ثالثة لسنة أخرى في يناير /كانون ثان ١٩٥٢ ، أي قبل الثورة بستة شهور (٣٨) ، وهذا يدل على الثقة المطلقة التي أولاها إليه رفاق دربه الأماجد .

انتخاب محمد نجيب

ونظراً لأن الثوار كانوا بحاجة لرتبة كبيرة يسيرون خلفها أمام الشعب ، قرر الضباط الأحرار في الاجتماع ذاته انتخاب اللواء محمد نجيب (١٩٠١-١٩٨٤) قائداً للحركة ، وقد تعرف به رجال التنظيم بواسطة عبد الحكيم عامر ، ولم يخبروا نجيب بقرارهم هذا لأن الوقت لم يكن مناسباً لذلك (٣٩) .

منشور آخر:

ولما ألف نجيب الهلالي وزارته الأولى في ٢٦ كانون ثان ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة ، أصدر الضباط الأحرار منشوراً آخر ورد فيه :

" . . توالت مؤامرات الاستعمار الأنجلو- أمريكي في الفترة الأخيرة في مصر لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية ، وصرف أنظار الشعب المسلح ضد الاستعمار في القنال ، إلى المشاكل الداخلية في القاهرة ، فبعد أن أعلنت حكومة الوفد قطع المفاوضات ، وإلغاء المعاهدة ، ورفض حلف الشرق الأوسط الرباعي الاستعماري ، وتكوين الكتائب الوطنية ، وبعد أن اشتدت جذوة الوطنية في البلاد ، حتى كادت مصر أن تصل إلى حقوقها كاملة ، دبر الاستعمار وأذنابه انقلاب ٢٦ يناير الماضي (حريق القاهرة) ، وجاءت حكومة علي ماهر ، وبدأت المفاوضات من جديد ، وكان الاستعمار والخونة المصريون يؤملون كثيراً في علي ماهر ، وفي تسليمه تسليماً كاملاً

بمطالبهم بقبول الحلف الرباعي ، وحل البرلمان ، واعتقال آلاف الوطنيين ، واستعمال الأحكام العرفية للتنكيل تنكيلاً واسعاً بالشعب ، ولكن خاب رجاؤهم ، ولم يجبهم علي ماهر إلى كل مطالبهم ، فكان لا بد من انقلاب جديد لتحقيق الأهداف الاستعمارية ، لابد من انقلاب جديد وتحويل الحركة إلى الداخل ، والقيام بحركة تطهير واسعة بحجة تقوية الصفوف قبل مجابهة الاستعمار ، وهكذا وصل الهلالي إلى الحكم ، وأعلن بصراحة أن مهمة وزارته الرئيسية هي التطهير ، والقضاء على الفساد ، وقد تناسى أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار ، وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي ، إلا إذا قضى على أسبابه ومصدره .

إن أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد بكل مظاهره ، وضد الرشوة ، وضد المحسوبية ، وضد استغلال النفوذ ، لكننا لا يجب أن نتجه إلى ذلك إلا بعد القضاء على الاستعمار ، وإن أي اتجاه غير ذلك هو خيانة وطنية .. " (٤٠) .

وما نستفيده من هذا المنشور كثير ، مثل :

١- أن الثوار كانوا يدركون تماماً مؤامرات الاستعمار الغربي في الفترة التي قد يظن المواطن المصري أن الإنجليز - بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦،وبانسحابهم إلى القناة - قد أصبحوا أقل خطراً من ذي قبل .

٢- يرى ثوار يوليو أن حريق القاهرة من فعل الاستعمار وأذنابه ، وتلاها تكليف علي ماهر(١٨٨٢-١٩٦٠) بتشكيل الوزارة في ٢٦ كانون ثان ١٩٥٢ - وهي وزارته الثالثة وقبل الأخيرة - والغاية من العملين هي محاربة الوطنيين الذين اشتدت ثورتهم ، وبدأت تنتظم في تنظيمات سيكون لها أثرها الكبير لاحقاً .

٣- كان تعيين علي ماهر وبالاً على البلاد عجّل بقيام الثورة ، فقد أعاد البلاد إلى المفاوضات مع المستعمرين ، وسلم بمطالب الحلف الرباعي الاستعماري (مخالفاً سياسة الوفد)، وحل البرلمان ، واعتقلت حكومته آلاف الوطنيين ، واستعمل الأحكام العرفية للتنكيل بالشعب .

٤- أن وصول نجيب الهلالي للحكم لن يغير شيئاً ، فقد ظن الاستعمار أن الهلالي قد يفعل شيئاً يطيل من عمر النظام ، وأعلن الهلالي أن مهمة وزارته القضاء على الفساد ، ناسياً أن أسباب الفساد من وجود الاستعمار ، لذا لم يكن بالقادر على فعل شيء ، بل حقق عكس ما هو مراد منه ، فقد أكد على سوء أحوال البلاد التي لا يصلحها سوى الثورة التي تنهي عصراً بكامله ، وتقتلع جذور الفساد ، وتنهي عهد الاستعمار ، فكان ذلك .

٥- أن أسباب الثورة واضحة جلية من المنشور ، وتتلخص في :

١- الكفاح ضد الفساد .

٢- الكفاح ضد الرشوة والمحسوبية .

٣- الكفاح ضد استغلال النفوذ .

٤- القضاء على الاستعمار (٤١) .

وتوالى توزيع المنشورات ، وبدأ أفراد الشعب يعرفون بوجود الضباط الأحرار ، وتواصل نشاط هؤلاء الضباط الذين بلغ نشاطهم ذروته ما بين كانون ثان وتموز (يوليو) من ذلك العام الحاسم ١٩٥٢ ، وانضم للحركة عدد كبير من الضباط ، ليصبح التنظيم أقوى عوداً من ذي قبل (٤٢) .

أما المنشورات الأخرى فلا تورد المصادر - ربما التي بين أيدينا- شيئاً عنها سوى عناوينها ، وقد ذكرها أحد ضباط الثورة وهو جمال منصور ، وهي :

*نداء الخير .

* من الذي يدفع الثمن .

*قاوموا الطغيان ودافعوا عن الشعب . *صوت الضباط الأحرار .

*المناسبة السعيدة . *بيان من الضباط الأحرار .

*هدية العيد (٤٣) .

مشاركة ناصر في العمليات الفدائية

ويؤكد الضابط لطفي الواكد أن ناصر كان يشارك في العمليات الفدائية ضد الإنجليز ، فيذكر لنا أنه قد خطط معركة فلتر والتل الكبير ، وجهز الأدوات اللازمة لتنفيذها وذلك في ٣ تشرين ثان ١٩٥١ ، وشارك في تنفيذها مع عشرة من الفدائيين ، وكان هدف العملية معسكر للإنجليز بمنطقة القصاصين مما أدى إلى تحطيم أجزاء من مباني المعسكر (٤٤) .

ترقية وموقع جديد

وفي ٦ أيار ١٩٥١ رقي عبد الناصر إلى رتبة بكباشي (مقدم) ، وفي ٢٩ تشرين ثان ١٩٥١ تم تعيينه مدرساً للتاريخ العسكري للشرق الأوسط بكلية أركان الحرب ، وكان يحظى بمحبة طلابه وتقديرهم ، وقد ظل في منصبه هذا حتى قيام ثورة يوليو(٤٥) ، وقد أتاح له موقعه الجديد التعرف بعدد من الضباط خاصة الذين توسم فيهم الخير للمشاركة في الثورة القادمة .

وتستمر الظروف المشجعة ، والأحداث الدافعة لقيام الثورة ..

ويواصل الثوار منشوراتهم في كل مناسبة من مناسبات الفساد والسلطوية ، وتتحول هذه المنشورات إلى نشرة منتظمة في نهاية ١٩٥٠ بعنوان " صوت الضباط الأحرار" (٤٦) ، ومن هذه الأحداث :

١- القتال على القناة

وفي الوقت الذي كانت فيه فصائل الجيش تنفذ أوامر القصر ، فلا تشترك في القتال في معارك القناة التي كان طرفها الأهالي والفدائيين و قوات البوليس ، شارك الضباط الأحرار في العمليات الفدائية ضد الاستعمار البريطاني ، وبتخطيط من ناصر والسادات وصلاح هدايت حاول الثلاثة إغلاق القناة بلغم بحري كبير ، ولكن العملية لم تنجح لأسباب فنية بحتة (٤٧) .

وقد هيأت هذه الأحوال الفرصة للضباط الأحرار لتجنيد المزيد من الضباط في ظل تصاعد حركة الكفاح الشعبي ، وأصبحت خسائر القوات البريطانية مصدر قلق لقيادتهم ، فنشرت جريدة التايمز في ٢٦ كانون أول ١٩٥١ تقول :

" إن أعصاب الجنود الإنجليز قد أصبحت شديدة التوتر ، وأنهم يتساءلون عن جدوى الاحتفاظ بقاعدة عسكرية فقدت كل قيمة عسكرية لها نتيجة للشعور الوطني المعادي " (٤٨) .

٢- انتخابات نادي الضباط :

جرت هذه الانتخابات في ٣ كانون ثان ١٩٥٢ ، أي قبل الثورة بسبعة شهور تقريباً ، وكانت بداية المواجهة العلنية بين الملك فاروق والضباط الأحرار ..

فقد رشح الضباط الأحرار اللواء محمد نجيب مدير سلاح الحدود رئيساً للنادي ، لما يحظى به من شعبية بينهم ، ولبطولته في حرب فلسطين ، وأراد الملك فاروق فرض صنيعته اللواء حسين سري عامر ذي السمعة السيئة على إدارة النادي ، ولما علم الملك بالاتجاه السائد لدى الضباط حاول تأجيل الانتخابات إلى أجل غير مسمى ، لكن الضباط لم يمتثلوا (٤٩) . فحصل نجيب على أغلبية ساحقة ، وفاز معه مرشحو الضباط الأحرار ، وحصل منافسوه على ٥٨ صوتاً فقط (٥٠) .

ورداً على هذه النتائج المخيبة لآمال الملك ، أصدر الملك قراره بحل مجلس إدارة النادي في ١٢ يوليو ١٩٥٢ (٥١) ، وحاول استقطاب نجيب قبل الثورة بأيام بتعيينه

قائداً عاماً للقوات المسلحة ، ومنحه رتبة فريق ، ولكن هذين القرارين كانا متأخرين ، فقد ظل نجيب مخلصاً للثورة حتى قيامها ونجاحها (٥٢) .

٣- مذبحة الإسماعيلية:

والتي ارتكبها الإنجليز يوم الجمعة ٢٥ كانون ثان ١٩٥٢ ضد الشرطة المصرية المتحصنة في مبنى المحافظة في المدينة ، والذين رفضوا الاستسلام وتسليم أسلحتهم ، فقصفوها بنيران الدبابات والمصفحات ومدافع الميدان ، وقد استشهد فيها ٤٦ ضابطاً وجندياً من رجال الشرطة المصريين ، وجرح ثمانون ، وقتل من الإنجليز ثلاثة عشر ، وجرح اثنا عشر ، ولم يستسلم المدافعون الأبطال إلا بعد نفاد ذخيرتهم (٥٣) .

٤- حريق القاهرة :

وفي اليوم التالي لمذبحة الإسماعيلية التي شغلت الرأي العام آنذاك ، والباحثين والمؤرخين حتى اليوم **"حريق القاهرة"** ، والذي نفذه عدد كبير من الثائرين والمحرضين يوم ٢٦ كانون ثان ١٩٥٢، ودمر جزءاً كبيراً من العاصمة ، حدث ذلك بينما كان الملك يقيم مأدبة غداء في قصر عابدين احتفالاً بمولد ولده الأمير فؤاد حضرها ٦٠٠ ضابط من الجيش والبوليس ، وحضرها معهم أعضاء البرلمان ، وقد ظل الجميع شبه محتجزين أمام موائد الطعام حتى الساعة الثالثة مساء ، مما يشي بأصابع الاتهام للملك ونظامه بالمسئولية عن الحريق (٥٤) .

وكان عدد القتلى جراء الحريق ٢٦ شخصاً في رواية عبد الرحمن الرافعي (٥٥) ، و٦٧ في رواية جمال الشرقاوي (٥٦) ، وحرقت عدة آلاف من المحلات التجارية ودور السينما والأندية والمكاتب والمعارض والمقاهي (٥٧) .

وقد كتب الكثير عن الحريق عبر السنين ، ولكن حتى اليوم لا تعرف الجهة المسئولة عنه ، وقد استغل الملك فاروق الفرصة فجعله سبباً للتخلص من حكومة الوفد وتعيين حكومة جديدة من أشياعه وحاشيته ، ولكن لم يشر أحد إلى مسئولية الضباط الأحرار عن الحريق ، وقد قام المؤرخ جمال الشرقاوي بدراسة وافية عن الحريق والجهة التي كانت وراءه أثبتت أنهم براء منه (٥٨) .

والذي نستطيع قوله في هذا الحادث الكبير أنه قد زاد من نقمة الضباط الأحرار على النظام ، وبكر من موعد ثورتهم ، والمتابع لتاريخ حركتهم ، لا يمكن أن يشك في أن لهم ضلعاً في حريق القاهرة ، فمسيرتهم الوطنية ، وتاريخهم المجيد لا يقنع أحداً بأنهم كانوا يعملون لتخريب وطنهم ، وتدمير عاصمته .

ويزيد شكوك المؤرخين توقيت معركة الاسماعيلية التي حدثت في اليوم التالي وكأن هناك تنسيق محكم بين القصر والإنجليز(٥٩) ، ولعل مسلسل الكوارث هذا كان خير حافز لثوار يوليو بالتعجيل في الثورة .

وقد ظهر بعد الحريق **منشور جديد للضباط الأحرار** ورد فيه :

" إن الخونة المصريين يعتمدون عليكم وعلى جيشكم لتنفيذ أهدافهم ، وهم يظنونكم أداة طيعة في أيديهم للبطش بالشعب ، وإرغامه على قبول ما يكره ..

وإن وجود الجيش في شوارع القاهرة إنما هو لإحباط قرارات الخونة التي تهدف إلى التدمير والتخريب .. ولكننا لا نقبل ضرب الشعب ، ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية ، ولن نقبض على الوطنيين المخلصين ، يجب أن يفهم الجميع أننا مع الشعب الآن ، ومع الشعب دائماً ، ولن نستجيب إلا لنداء الوطن " (٦٠) .

إذن فالمنشور يحدد موقف الضباط الأحرار من حريق القاهرة ... فهم ينصحون الجيش بعدم الانصياع لرغبات الخونة لإثارة الشعب ، وهم مع وجود فصائل من الجيش في شوارع القاهرة لكي لا يتكرر العمل الجبان ، ولكنهم ليسو مع تعرض أفراد الشعب لإطلاق النار أو القمع ، لذا هم ضد انتهاز النظام الفرصة لاعتقال أي من الوطنيين المصريين ، ويعلنون أن الجيش منذ الآن مع الشعب لا ضده .

وعن حريق القاهرة قال **عبد الناصر** :

" حرقت القاهرة وحرق معها كفاحنا في القنال ، ومن ذلك اليوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ بدأنا نفقد الصبر ، وبدأنا نفكر في العمل الايجابي ، وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا ، وان نحطم الطغيان قبل أن يحطمنا " (٦١) .

قرارات ناصرية وقائية:

ولما أدركت السلطات من المنشورات وجود تنظيم قوي قادر ، كثفت من أعمالها الإستخبارانية ، وكلفت مصطفى كامل صدقي بمصادقة عبد الناصر ، ومحاولة التعرف منه على "الضباط الأحرار" ، ولكن ناصر استطاع كشفه وكشف الجهة التي أرسلته ، فلم يتعاون معه ، وزاد من حذره بأن اتخذ قراراً بفك ارتباط تنظيمه مع كل الأحزاب السياسية والجمعيات السرية في مصر (٦٢) .

وزاد ناصر على ما سبق بأن اتخذ القرارات التالية :

١- غيّر طريقة توزيع المنشورات بالبريد .
٢- غير سكن الضابط حمدي عبيد الذي كانت تطبع المنشورات في بيته .
٣- واصل العمل لضم عناصر جديدة للتنظيم .

٤- الاستمرار في التحرك السياسي والتطوير الفكري والاستعداد العسكري .
٥- ضم أعداد أخرى من الضباط على شكل خلايا خماسية ، وكل عنصر من الخلية يرأس خلية أخرى من خمسة أعضاء لا يعرفون أعضاء الخلية الأولى ، وهو ما يدعى بالتنظيم الهرمي (٦٣) .

تدهور .. ووزارات ..

ويزداد التدهور التدريجي في الأمن والنظام ، والسيطرة على البلاد ، فشهدت هذه الفترة ست وزارات في ٦ شهور ، وهي :

١- وزارة علي ماهر الثانية في ٢٦ كانون ثان ١٩٥٢ .
٢- وزارة نجيب الهلالي الأولى في ٢٩ شباط ١٩٥٢ .
٣- وزارة حسين سري في ٢ تموز ١٩٥٢ .
٤- وزارة نجيب الهلالي الثانية في ٢٢ تموز ١٩٥٢ ، وعاشت يوماً واحدا ثم قدم الهلالي استقالته .
٥- وزارة علي ماهر الثالثة في ٢٣ تموز ١٩٥٢ .
٦- وزارة علي ماهر الرابعة في ٢٦ تموز ١٩٥٢ (٦٤) .

ولما تولى نجيب الهلالي (١٨٩١- ١٩٥٨) رئاسة الوزارة للمرة الأولى في ٢٩ شباط ١٩٥٢ ، أعلن الأحكام العرفية ، وفرض الرقابة على الصحف (٦٥)، صدر عن الضباط الأحرار منشور ورد فيه :

" توالت مؤامرات الاستعمار الأنجلو أمريكي في الفترة الأخيرة في مصر لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية ، ولصرف أنظار الشعب عن الكفاح المسلح ضد الاستعمار في القنال إلى مشاكل ضد الاستعمار في القنال إلى مشاكل داخلية في القاهرة ...

وهكذا وصل الهلالي إلى الحكم بعد تدبير سابق .. وقد جاء الهلالي وأعلن برنامج الوزارة بصراحة ، وأن مهمتها الرئيسية هي التطهير ، وقد تناسى أن الفساد الأكبر مصدره الاستعمار ، وأنه لا يمكن القضاء على الفساد الداخلي إلا إذا قضي على أسبابه ومصدره ..

إن من أهداف الضباط الأحرار الكفاح ضد الفساد ، وضد الرشوة والمحسوبية واستغلال النفوذ .. ولكن يجب ألا نتجه إلى ذلك إلا بعد القضاء على الاستعمار " (٦٦) .

وقد كانت هذه الأجواء والظروف خير دافع للتبكير بقيام الثورة ، وقد صرح بذلك عبد الناصر في حديث له للصحفي البريطاني ديفيد مورجان في حزيران ١٩٦٢ ، فقال أنه كان في نيته القيام بالثورة عام ١٩٥٥ وذلك للوصول بالتنظيم إلى درجة أعلى من المستوى الفكري والسياسي (٦٧) .

آراء أهل الفكر

وفي هذه الأجواء من الترقب للقادم المجهول يدلي بعض أهل الفكر من مصر وخارجها بآرائهم في أوضاع مصر ، فنقرأ للكاتب الأمريكي ستيوارت السوب مقالاً في صحيفة " شيكاغو تايمز " يقرأ فيه المستقبل بكل أناة وعقلانية ، فيقول :

" إذا كانت بريطانيا قد استطاعت فيما مضى أن تحافظ على سيادتها على مصر بخلق الباشوات وجعلهم أصحاب نفوذ ، وبرشوتهم بعد ذلك ليكونوا أداة تسهيل مصالح بريطانيا الاستعمارية ، فإن هذه الطريقة لم تعد عملية ولا مجدية اليوم .

إن الشعب الفقير قد أخذ يستيقظ ويشعر بالضيق الفاحش اللاحق به ..

إن الحديث عن إنعاش الديمقراطية في بلد كمصر يعيش فيه أغلبية الشعب عيشة أحط من عيشة الحيوانات ، هو لغو فارغ ، إن مصر لا تحتاج إلى ديمقراطية ، **بل تحتاج إلى رجل فرد ، إلى رجل ككمال اتاتورك ليقوم بالإصلاحات الضرورية اللازمة للبلاد ، لكن مشكلة مصر في كيفية العثور على هذا الديكتاتور ، فليس بين رجالها من لديه المؤهلات اللازمة للديكتاتور "(٦٨) ز**

ولكنه كان موجوداً .. فمصر لم تكن يوماً بذلك الافتقار لأمثال هذا الزعيم ..

والذي كتب من مصر كان أدق في وصف القائد المنقذ القادم ، فكتب إحسان عبد القدوس مقالاً بعنوان " إن مصر بحاجة إلى ديكتاتور ..فهل هو علي ماهر؟ " يقول فيه بعد دفاعه عن علي ماهر :

" ومصر تقبل معه أن يعتد برأيه إلى حد أن يصبح ديكتاتوراً للشعب ، لا على الشعب ، ديكتاتوراً للحرية لا على الحرية ، ديكتاتوراً يدفعها إلى الأمام لا أن يشدها إلى الوراء " (٦٩) .

فلماذا يكون الزعيم القادم مثل أتاتورك ، لماذا لا يكون من الشعب وللشعب ؟ يرسي أسس الحرية ، ويمسح الظلم ويقيم العدل ، أو لا يكون ذلك إلا من ديكتاتور ؟.

ويكتب إبراهيم سعد الدين مسئول معهد الدراسات الاشتراكية لمجلة الكاتب المصرية مقالاً يتحدث فيه عن احتمال وقوع انقلاب عسكري (٧٠) .

مراحل ثورة يوليو كما يراها عبد الناصر

ونثبت هنا خلاصة مراحل الثورة كما قسمها عبد الناصر في حديث صحفي في ٢٢ تموز ١٩٥٣ ، وإيرادها هنا ضروري وذلك للمكانة الكبيرة ، والدور الحاسم لناصر في التنظيم ، فهو خير من يقدم لنا المعلومات عن تفاصيل الثورة ، ودور التنظيم ، فيقول ما خلاصته :

المرحلة الأولى : " كانت خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٥ ، وهي فترة صعبة قمنا خلالها بنشر مبادئنا وإشعال الروح الوطنية ، وتقوية الجيش عن طريق رفع مستوى ضباطه "

وفي هذا الكلام إهمال تام لمرحلة ما قبل ١٩٤٢ ، وهي تتراوح بين ٣ إلى ٤ سنوات ، ويبدو أنها كانت مجرد بث للأفكار الثورية ، وتحريض على النظام ، وتشجيع على الثورة ، واستكناه لما هو ممكن لدى الضباط المرشحين للتشكيلات الأولى ، وإدراك لقدراتهم وميولهم .

المرحلة الثانية : " كانت خلال الفترة بين سنة ١٩٤٥ وشهر مايو سنة ١٩٤٨ ، وقد بدأت الحركة تأخذ خلالها شكلاً منظماً ، وأصبحنا مجموعة كبيرة ، وكنا مترددين في أول الأمر في الخطة التي كنا نسلكها لتحرير الوطن ، هل نبدأ حربنا بالاستعمار أولاً أو نبدأها بأعوانه ؟ "

أي أن الثورة أخذت في هذه المرحلة شكلها التنظيمي ، وبات معروفاً عدد أعضائها وأسلحتهم ومواقعهم ، ولكن الهدف لم يكن واضحاً بعد ، أتراه شن حرب على المستعمر البريطاني ، أم على أعوانه من رجال النظام الحاكم بداية بالملك نفسه .

المرحلة الثالثة :" وهي التي بدأت من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٥٢ ، وهي المرحلة الفاصلة التي بدأت الحركة فيها تتطور ، وتتخذ لاتجاهها شكلاً محدداً لتحقيق خطتها في القضاء على أعوان الاستعمار .

وبدأت مشكلة فلسطين ، فسارع الضباط الأحرار في التطوع مع البطل أحمد عبد العزيز .. وكان أغلب المتطوعين من الضباط الأحرار الذين سارعوا لنجدة إخوانهم العرب "(٧١) .

وفي هذه المرحلة استطاع الضباط الأحرار تحديد هدفهم الأقرب .. النظام القائم كونه العون الأول لوجود الاستعمار ، وكأنه يقول لنا أن القضاء على نظام فاروق الفاسد سوف يسهل المهمة الثانية : طرد المستعمرين .

ولا ينسى عبد الناصر في عرضه لهذه المرحلة المهمة الكبرى التي أداها ورفاق دربه الأماجد في حرب فلسطين تطوعاً وتضحية ، وهي مشاركة سيظل الصادقون من

المؤرخين يذكرونها لثوار يوليو، فهي عمل وطني مشرف لا يقبل التأويلات والتفسيرات .

ويقول ناصر عن هذه المشاركة :

" واشترك الجيش المصري في حرب فلسطين ، وبدأت الخيانة تظهر كل يوم ، وبدأت رائحة الفساد تسد الأنوف ، وقد ساعد كل هذا على تقوية حركتنا ، وبدأت النفوس تتحد بعد أن جمعتها الآلام .

وعدنا من حرب فلسطين في مارس ١٩٤٩ ، وبدأنا نجمع صفوفنا بعد أن تفرقت جموعنا ، وقتل في الحرب عدد كبير من الضباط الأحرار " (٧٢) .

وقد تحدثنا طويلاً عن هذه الخيانات في سياق حديثنا عن حرب فلسطين ، ولكن ما يذكره ناصر هنا مهم ، فهذا الفساد ، وتلك الخيانات لم تكن لتشكل إحباطاً للثوار ، بل ما كان هو العكس تماماً ، فقد شحذت الخيانات النفوس همة وعزيمة وتصميماً ، وملأت الصدور كرهاً وحقداً على النظام الذي ألقى بجيشه في أتون الحرب ولم يسأل عن أبسط حاجاته من طعام وعلاج ، وذخيرة وسلاح .

ولم يكن فقدان ذلك العدد الكبير من الضباط الأحرار شهداء على ثرى فلسطين ليشكل مصدر يأس لضباط الحركة ، ولعل السبب في ذلك **وعي القيادة ، وحسن تصرفها ، ومدى قدرتها على استيعاب المصائب ، وتعويض النقص ، وجعل نقطة الضعف مصدر قوة ، ومواطن اليأس نوازع إلهام ، وهذه هي مهام القواد العظام عبر التاريخ .**

****

جهود عبد الناصر قبيل الثورة

ويواصل الزعيم الراحل جهوده المضنية في الثلاثة أيام الأخيرة قبل قيام الثورة ، ومن ذلك :

١- ضمه المقدم عبد المنعم أمين وهو من سلاح المدفعية بعد انسحاب المقدم محمد فوزي .
٢- ضم العقيد أحمد شوقي قائد الكتيبة ١٢ قبل قيام الحركة بست ساعات .
٣- محاولة ضم قائد اللواء السادس عبد الواحد عمار الذي رفض المشاركة ولكنه وعد بعدم الوقوف ضد الثورة .
٤- حضوره الاجتماع الأخير في سلاح الفرسان للوقوف على روح أفراده وضباطه المعنوية .

٥- وضع الخطة العامة لقيام الثورة وعرضها على مجلس قيادة الثورة الذين حضروا جميعاً في اجتماع عقد في بيت خالد محي الدين في ٢٢ يوليو، فوافق الجميع على تنفيذها (٧٣) .

وكانت الخطة في **مرحلتها الأولى** تقتضي :

١- اقتحام مبنى القيادة في كوبري القبة ، واعتقال من فيه .

٢- يقوم سلاح الفرسان بإغلاق بعض المناطق في القاهرة .

٣- ويعزل سلاح المدفعية مناطق أخرى تؤدي للقيادة ولوحدات الجيش المختلفة ، تعينها قوات من الفرسان بالدبابات والعربات المصفحة .

٤- يقوم سلاح الطيران بالسيطرة على المطارات ، والقيام بطلعات استكشافية للتأكد من عدم تحرك قوات بريطانية من القناة، وطلعات استكشاف فوق القاهرة والإسكندرية ، ومنع الملك من الهرب .

أما **المرحلة الثانية** فتتمثل في إنزال قوات للشوارع للسيطرة على عدد من المواقع المهمة كالإذاعة والتليفونات .

أما **المرحلة الثالثة** فكانت التحرك لعزل الملك (٧٤) .

مراجع الباب الثاني

الفصل الأول

(١) د. سعيد عبد الرازق ، دور جمال عبد الناصر في السياسة المصرية ، ص ٢٧.

(٢) لاكوتير ، عبد الناصر ، ص ٣٧-٣٨ .

(٣) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٣٤ .

(٤) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٣٠-٣١ .

(٥) لاكوتير ، م س ، ص ٣٨ .

(٦) م ن ، ص ٣٨ .

(٧) أنور السادات ، م س ، ص ٣٢-٣٣ .

(٨) م ن ، ص ٣٨ .

(٩) د. بثينة التكريتي ، عبد الناصر وتطوره الفكري ، ص ٩٩ .

(١٠) أنور السادات ، م س ، ص ٣٣ .

(١١) م ن ، ص ٣٤ .

(١٢) م ن ، ص ٣٤- ٣٥ .

(١٣) جمال عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١، ص ٤٠ .

(١٤) فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ٣٥ .

(١٥) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٢٨-٢٩ .

(١٦) أنور السادات ، م س ، ص ١٥٥-١٥٦ .

(١٧) م ن ، ص ١٥٧ .

(١٨) د.بثينة التكريتي ، م س ، ص ١٠٦ .

(١٩) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٧٠ .

(٢٠) عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٢٣-٢٤ .

(٢١) م ن ، ص ٢٤ .

(٢٢) م ن ، ص ٢٥ .

(٢٣) د. سعيد عبد الرازق ،م س ، ص ٢٨-٣٠ .

(٢٤) حمدي لطفي، ثوار يوليو الوجه الآخر ، ص ٢٨٨ .

(٢٥) م ن ، ص ٣٨٩ .

(٢٦) عبد الناصر ، م س ، ص ٥٥ .

(٢٧) م ن ، ص ٥٥ .
(٢٨) م ن ، ص ٥٥ .
(٢٩) د. سعيد عبد الرازق ، م س، ٣٣ .
(٣٠) حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر ، ص ٦٤ .
(٣١) أنور السادات ، م س، ص ١٣٨ .
(٣٢) فؤاد مطر ، م س، ص ٣٦ .
(٣٣) أنور السادات ، م س ، ص ١٤١ .
(٣٤) م ن ، ص ١٤٣ .
(٣٥) م ن ، ص ١٤٤ .
(٣٦) د. بثينة التكريتي ، م س ، ١١١-١١٢.
(٣٧) فؤاد مطر ، م س ، ص ٣٦ .
(٣٨) أنور السادات ، م س ، ص ١٤٥ .
(٣٩) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٣١ .
(٤٠) أنور السادات ، م س ، ص ١٧٨ .
(٤١) م ن ، ص ١٣٠-١٣١ .
(٤٢) م ن ، ص ١٣٤-١٣٥ .
(٤٣) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٣١ .

الفصل الثاني

(١) عبد الناصر ، يوميات عبد الناصر في حرب فلسطين ، ص ١١٦- ١١٧
(٢) م ن ، ص ١١٨ .
(٣) م ن ، ص ١١٨ .
(٤) م ن ، ص ١١٨ -١١٩ .
(٥) م ن ، ص ١١٧ .
(٦) الانترنت .
(٧) أنور السادات ، م س ، ص ١٩٦-١٩٧ .
(٨) أحمد حمروش ، مصر والعسكريون ، ص ١٣٠ .
(٩) م ن ، ص ١٣٢ .
(١٠) م ن ، ص ١٣٢ .
(١١) م ن ، ص ١٣٢ .

(١٢) م ن ، ص ١٣١ .
(١٣) م ن ، ص ١٣٣ .
(١٤) أنور السادات ، م س ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .
(١٥) عبد الوهاب محمد ، الجيش المصري وحرب فلسطين ، ص١٣٢ .
(١٦) أنور السادات ، م س ، ص ٢٠١ .
(١٧) حسين حمودة ، أسرار حركة الضباط الأحرار ، ص ٦٣.
(١٨) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص١٣ .
(١٩) أنور السادات ، م س ، ص ٢٠١ .
(٢٠) م ن ، ص ٢٠٥ .
(٢١) م ن ، ص ١٩٨ .
(٢٢) عبد الناصر ، م س ، ص ٢٣ .
(٢٣) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ص ٣٥٦ .
(٢٤) عبد الناصر ، م س ، ص ٥٩ .
(٢٥) حمدي لطفي ، ثوار يوليو الوجه الآخر ، ص ٣٥٧ .
(٢٦) م ن ، ص ٣٥٩ .
(٢٧) م ن ، ص ٣٥٩ .
(٢٨) م ن ، ص ص ٣٥٩ .
(٢٩) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٩٥-٩٦ .
(٣٠) أحمد حمروش ، مصر والعسكريون ، ص ١٣٤ .
(٣١) م ن ، ص ١٣٤ .
(٣٢) م ن ، ص ٣٠ .
(٣٣) عبد الناصر ، م س، ص٥٤ .
(٣٤) م ن ، ص ١٠ .
(٣٥) أنور السادات ، صفحات مجهولة ، ص ٥٢ .
(٣٦) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٤٧-٧٠ .
(٣٧) عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٢١-٢٢ .
(٣٨) م ن ، ص ٢٣ .
(٣٩) م ن ، ص ١٦-١٧ .
(٤٠) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ٢٩ .
(٤١) أحمد حمروش ،م س ، ص ١٣٩ .

(٤٢) م ن ، ص ١٣٩ .
(٤٣) عبد الناصر ، يوميات ناصر في حرب فلسطين ، ص ١١٩.
(٤٤) عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٨٦ .
(٤٥) م ن ، ص ٨٦ .

الفصل الثالث

(١) عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٩٣ .
(٢) م ن ، ص ٩٤ ،
(٣) م ن ، ص ٩٥ .
(٤) م ن ، ص ٩٥ .
(٥) م ن ، ص ٩٥ .
(٦) م ن ، ص ٩٦ .
(٧)م ن ، ص ٩٦-٩٧ .
(٨) م ن ، ص ٩٨ .
(٩) م ن ، ص ٩٨ .
(١٠) م ن ، ص ١٠٢ .
(١١) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢ ، ص ٣١ .
(١٢) م ن ، ص ٢٩ .
(١٣) م ن ، ص ٢٩ .

الفصل الرابع

(١)أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٢٠٨ .
(٢)خالد محي الدين ، والآن اتكلم ، ص ٥٨ ز
(٣) عبد الناصر ، خطاباته، ج١ ، ص ٧٨ .
(٤) م ن ، ص ٥٩ .
(٥) خالد محي الدين ، م س ، ص ٦٣ .
(٦) م ن ، ص ٦٣ .
(٧) م ن ، ص ٦٣ .
(٨) مجلة الهلال ، تموز ٢٠٠٧ ، ص ٥٠ .
(٩) خالد محي الدين ، م س، ص ٦٤ ، والهلال م ن ، ص ٥٠ .

(١٠) خالد محي الدين ، م س ، ص ٦٤ .
(١١) م ن ، ص ٦٨ .
(١٢) أحمد حمروش ، مصر والعسكريون ، ص ١٤٥ .
(١٣) خالد محي الدين ، م س، ص ٦٨ .
(١٤) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٤٧ .
(١٥) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ١١٢-١١٣ .
(١٦) أنور السادات ، البحث عن الذات ، ص ٩١ .
(١٧) م ن ، ص ٣٠ .
(١٨) م ن ،ص ٣١ .
(١٩) م ن ، ص ٣١ .
(٢٠) مجلة الهلال تموز ٢٠٠٧ ، ص ١٨ .
(٢١) خالد محي الدين ، م س، ص ٧٦-٧٧ .
(٢٢) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٤٥ .
(٢٣) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٢٠٩ .
(٢٤) أنور السادات ، قصة الثورة كاملة ، ص ٦٠ .
(٢٥) م ن ، ص ٦٠ .
(٢٦) م ن ، ص ٦١ .
(٢٧) د.بثينة التكريتي ، عبد الناصر وتطوره الفكري ، ص ١٤٢.
(٢٨) م ن ، ص ١٤٣ .
(٢٩) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٤٦ .
(٣٠) خالد محي الدين ، م س، ص ٨٢ .
(٣١) د. سعيد عبد الرازق ، دور عبد الناصر في السياسة المصرية ، ص ٧٢ .
(٣٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج١، ص ٧٨-٧٩ .
(٣٣) خالد محي الدين ، م س ، ص ٨٢ .
(٣٤) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٢١٠ .
(٣٥) خادل محي الدين ، م س، ص ٨٣ .
(٣٦) أنور السادات ، قصة الثورة كاملة ، ص ٦٠ .
(٣٧) م ن ، ص ٦٤ .
(٣٨) أنور السادات ، أسرار الثورة المصرية ، ص ٢٢٦ .
(٣٩) م ن ، ص ٢٢٧ .

(٤٠) خالد محي الدين ، م س، ص ١٢٠ .
(٤١) نواف نصار ، ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم ، ص ٢٠٢ .
(٤٢) خالد محي الدين ، م س، ص ١٢٠-١٢١ .
(٤٣) جمال منصور ، في الثورة والدبلوماسية ، ص ٥٨ .
(٤٤) د. سعيد عبد الرازق ، م س، ص ٧٣ .
(٤٥) م ن ، ص ٣١-٣٢ .
(٤٦) جاك دومال وماري لوروا ، جمال عبد الناصر من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة ، ص ٦٤ .
(٤٧) أحمد حمروش ، م س ، ص١٦٢ .
(٤٨) م ن ، ص ١٦٥ .
(٤٩) د.لطيفة سالم ، فاروق الأول وعرش مصر ، ص ١٩٣ .
(٥٠) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٢٠ .
(٥١) د. لطيفة سالم ، م س، ص ١٩٦ .
(٥٢) أحمد حمروش ، م س ، ص ٢٢٠ .
(٥٣) عبد الرحمن الرافعي ، مقدمات ثورة يوليو ، ص ٨٨-٨٩ .
(٥٤) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٠ .
(٥٥) عبد الرحمن الرافعي ، م س، ص ١١٢ .
(٥٦) د. بثينة التكريتي ، م س ، ص١٥٢ .
(٥٧) عبد الرحمن الرافعي ، م س، ص ١١٢ .
(٥٨) د. سعيد عبد الرازق ، م س، ص ٧٥ .
(٥٩) م ن ، ص ١٧٣ .
(٦٠) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٨ .
(٦١) عبد الرحمن الرافعي ، م س، ص ١١٨ .
(٦٢) د. بثينة التكريتي ، م س، ص ١٤٥ .
(٦٣) م ن ، ١٤٥ .
(٦٤) أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، ص ١٢٨٦ .
(٦٥) م ن ، ص ١٢٩٣ .
(٦٦) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٩ .
(٦٧) م ن ، ص ١٨٠ .
(٦٨) م ن ، ص ١٩٠ .

(٦٩) م ن ، ص ١٩٠ .
(٧٠) م ن ، ص ١٩٠ .
(٧١) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١ ، ص ٧٥ .
(٧٢) م ن ، ص ٧٦ .
(٧٣) د. سعيد عبد الرازق ، م س ، ٧٨-٧٩ .
(٧٤) خالد محي الدين ، م س، ص ١٣٤-١٣٥ .

الباب الثالث

من ثورة يوليو إلى حرب السويس

الفصل الأول

ثورة يوليو
وجلاء الاستعمار

" لم تنبثق الثورة من فراغ ، ولم يكن قائدها معجزة ، بل كانت وكان الرد الطبيعي على ما كان سائداً قبلها .. وكانا انتصار عبد الناصر عام ١٩٥٢ هو انتصار عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وخطهم الثوري بعد سبعي عاماً من الكفاح الوطني " (عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ، ص٧٣).

وللحق ..فإن رجال ثورة يوليو قد وفقوا إلى درجة فوق الحلم ..

فلم ينشب قتال ، ولم تسقط ضحايا ، ولم تسفك دماء كما هو معروف معهود في كل الثورات ، ولعل التخطيط السليم الواعي كان وراء ذلك كله ، إضافة إلى أن الشعب كله - عدا الطبقة المستفيدة - كان كارهاً للنظام القائم ، وينتظر الفرج .

وعدا عن محاولة للمقاومة حدثت في الساعة الأخيرة ، عندما علم بعض الضباط الكبار الموالين للملك بها ، ولكن تبكير المقدم يوسف صديق - قائد كتيبة مدافع الماكينة الأولى - ساعة واحدة بالشروع في الزحف باتجاه القيادة أحبط أي محاولة للمقاومة ، فاعتقل ضابطاً برتبة لواء ، واثنين برتبة أميرلاي(عميد) كانوا في طريقهم إلى القيادة لتنظيم عمل مضاد ، ثم اقتحمت قواته مبنى القيادة واحتلته (١) .

وجلس يوسف صديق على مقعد رئيس أركان حرب الجيش ليعني ذلك سقوط أخطر مركز للسلطة ، فلم يعد هناك أي قوة بإمكانها إعطاء أوامر مضادة للثورة (٢) .

البيان الأول لثورة يوليو

أذاعت محطة الإذاعة المصرية البيان الأول للثورة الساعة السابعة والنصف صباح يوم الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقد قرأه عضو مجلس قيادة الثورة المقدم أنور السادات بلسان اللواء **محمد نجيب** ، وقد جاء فيه :

" اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد ، وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره إما جاهل أو فاسد ، حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا ، وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم ، وفي خلقهم ، وفي وطنيتهم ، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب ، أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين ، فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب ، وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور ، مجرداً من أي غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بان يلجأ إلى أعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس من صالح مصر ، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس ، وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم . والله ولي التوفيق " (٣) .

الأهداف الستة الشهيرة
في الخطاب الناصري

وفور قيام الثورة ، أعلن الضباط الأحرار أهدافهم الستة الشهيرة التي ما زالت المراجع والمصادر ترددها وفي كل المناسبات كونها الدستور العريض للثورة ، والتي صرف الزعيم الراحل السنوات الطويلة في تحقيقها ، ليتداخل معها منذ الأيام الأولى للثورة الهدف الأسمى " تحرير الوطن العربي " و" الوحدة العربية" ، وكلاهما كلف عبد الناصر ومصر الكثير.

وهذه الأهداف هي :

١- **القضاء على الاستعمار** ، وهو أعظم إنجازات الثورة ، والطريق الذي به تحققت بقية الأهداف ، بعد أن كان الاستعمار يوجه كل خيرات البلاد واقتصادها وسياستها لما فيه مصلحته ، وقد تحقق ذلك باتفاقية الجلاء التي وقعت في ١٩ تشرين أول ١٩٥٤ .

يقول عبد الناصر :

" لقد كان أول أهداف الضباط الأحرار هو القضاء على الاستعمار الأجنبي ، وأعوانه من الخونة المصريين ، فإن الذي ثبت أقدام الاستعمار في بلدنا هم الخونة المصرين " (٤) .

٢- **القضاء على الإقطاع** ، وذلك بصدور قوانين الإصلاح الزراعي، وتحديد الملكية ، وتوزيع الأراضي على الفلاحين .

وعن هذا الهدف يقول الزعيم الراحل :

" كان الظلم الاجتماعي يتجسد في كابوس الإقطاع البغيض ، فقد ورثنا طبقة من الحكام والأشراف ترفعوا عن الشعب ، وراحوا يستمتعون بنفوذهم وأموالهم ، وانقسمت البلاد إلى فئتين تكره كل منهما الأخرى ، وهم من طينة واحدة : معسكر العبيد وطائفة الأسياد " (٥) .

" لقد بدأنا بالقضاء على الإقطاع حتى نضمن للفلاحين حقوقهم .. ونحن نسعى لزيادة الإنتاج حتى يستطيع أبناؤنا في المستقبل أن يعيشوا حياة أسعد من التي عشناها " (٦) .

" أما القضاء على الاقطاع وسيطرة رأس المال ، فقد بدأت الثورة طريقها إلى هذا الهدف ، واستطعنا بعد صراع طويل في النواحي السياسية والاجتماعية أن نبني الأسس وتلك المبادىء " (٧) .

٣- **القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم** ، وذلك بصدور قوانين التأميم والتمصير، والقوانين الاشتراكية ، ويشرح لنا ناصر ما سبق قائلاً :

" كان علينا أن نختار بين الرشوة والترقيات التي تنهال على رجال الجيش ، والامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، وبين أن نثور من أجل هذا الشعب الذي يستغله الحاكمون ، ويستبد به الظالمون ، ولقد اخترنا أن نكون مع الشعب نحارب الظلم والظالمين " (٨) .

٤- **إقامة عدالة اجتماعية وحياة ديمقراطية سليمة** ، وذلك بإتباع ما يلي :

أ - توفير التعليم بكافة مراحله بالمجان .

ب- توفير العلاج والخدمات الطبية المجانية .

ج- توصيل المرافق والخدمات الأساسية لمناطق الريف .

د- توفير فرص العمل لقطاعات ضخمة من الخريجين في مشروعات الثورة والوظائف الحكومية .

وفي خطاب له في المنصورة قبل أن يمر عام على الثورة يقول ناصر :

" إن أعدى أعدائنا كان يتمثل في ثالوث كريه هو : الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي والاحتلال البريطاني ، فلقد تمكنت فئة قليلة من الناس أن تسخر أجهزة الدولة جميعها لمصالحها ، دون النظر إلى مصالح بقية الشعب ، وبدأت تسطر أحلك صفحات الرشوة والفساد ، والاتجار بأقوات الشعب ، والعبث بمقدساته " (٩) .

٥- **إقامة جيش قوي** ، باتباع ما يلي :

أ- الحصول على الأسلحة من الاتحاد السوفييتي بعد تعذر الحصول عليه من الولايات المتحدة

ب- تنشيط التصنيع الحربي .

ج- تحديث الجيش وتدريبه على أحدث النظم المعاصرة بالبعثات الخارجية ، واستقدام المدربين والخبراء من الاتحاد السوفييتي بالذات(١٠) .

وعن برامج الثورة وخططها لتقوية الجيش يقول ناصر في خطاب له في ١٩ أيار ١٩٥٥ :

" سيكون هناك جيش وطني لحماية هذا الوطن ، لا لحماية حُكم أو حكام ، لأنكم أنتم حينما قمتم بهذه الثورة ، قمتم لتحقيق أهدافها ، ولتثبيت هذه الأهداف ، أقول لكم وأقول لأهل مصر جميعاً إن الجيش الذي كنا نتمناه في ٢٣ يوليو "جيش وطني" لحماية هذا الوطن ، ولحماية حدوده ، إن هذا الجيش لن يحمي الحكم أو الأفراد ، ولكنه سيحمي المبادىء ، مبادىء هذه الثورة ومثلها العليا التي قامت بها من أجل الشعب " (١١) .

ويقول في الرابع من يوليو ١٩٥٥:

" واليوم أرى الجيش الوطني الذي كنت أحلم به منذ سبعة عشر عاماً ، وهذا ما استطعنا أن نحققه بعد جهاد طويل ، وهو حجر بل دعامة كبرى من دعائم نهضة الشعب .

إن الجيش الوطني القومي هو الجيش الذي يحس دائماً أنه جزء من هذا الشعب ، هو الجيش الذي يكون مستعداً دائماً للدفاع عن حدود الوطن ، ونحن الآن لنا جيش وطني يعمل من أجل الشعب " (١٢) .

٦- **إقامة حياة ديمقراطية سليمة بالمشاركة الشعبية في السياسة من خلال هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي (١٣)** ، يقول عبد الناصر :

" لقد رأيتم كيف زيف الاستعمار ديمقراطيتنا فكانت مسخاً وتمويهاً ، وكيف حارب محاولتنا لإقامة حياة دستورية سليمة ، فرأينا سلسلة من المهازل تمثل باسم

الدستور ، ونسي الجميع أو تناسوا أن كل سلطة مصدرها الشعب وحده ، وأنه لا يحق لقوم مهما كانت مقاديرهم أن يتحكموا في مصير شعب إلا برضاء أبنائه ... لقد قامت هيئة التحرير لتؤكد المعنى المقدس ، وهو أن الناس قد ولدوا أحراراً ليعيشوا أحراراً متساوين في الحقوق ، لا تمييز بينهم ، ولا فضل لأحد على أخيه إلا بما يقدمه للوطن وللمجموع " (١٤) .

****

نص أول خطاب لعبد الناصر
جامعة القاهرة ١٥ تشرين ثان ١٩٥٢

" إخواني :

لقد كان شباب الجامعة دائماً في مقدمة الذين رفعوا علم النضال والكفاح ضد الظلم والاستعمار ، وقد كنت طالباً بالمدارس الثانوية ،أجعل خطاي تسير مع خطى الجامعة ، فأصابني في مثل هذا اليوم من سبعة عشر عاماً إثناء اشتراكي في المظاهرات ضد الاحتلال ، ما أصاب الكثيرين من المكافحين في سبيل استقلال البلاد وتحريرها .

وقد تركت إصابتي أثراً عزيزاً لا يزال يعلو وجهي ، فيذكرني كل يوم بالواجب الوطني الملقى على كاهلي كفرد من أبناء هذا الوطن العزيز .

وفي هذا اليوم ، وقع صريع الظلم والاحتلال المرحوم محمد عبد المجيد مرسي ، فأنساني ما أنا مصاب به ، ورسخ في نفسي أن علي واجباً أفنى في سبيله ، أو أكون أحد العاملين عل تحقيقه حتى يتحقق ، وهذا الواجب هو تحرير الوطن من الاستعمار ، وتحقيق سيادة الشعب .

وأنا إذ أقف بينكم اليوم بعد سبعة عشر عاماً ، لأحيي ذكرى الشهداء ، فإن الحق يقضي علي بأن أقول : هنا ، وفي هذا المكان نبتت هذه الثورة التي تهدف إلى القضاء على الاستعمار وأعوانه ، وتحقيق الاستقلال التام للبلاد .

وإن أقل ما يعمل لتخليد ذكرى الشهداء ، هو أن يقام على قاعدة هذا التمثال رمز لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم فداء أوطانهم ، أما التخليد الحقيقي لذكراهم فهو أن نحقق ما ناضلوا من أجله ، وضحوا في سبيله بأرواحهم ، وإني أعاهدكم في هذا المكان أن نعمل مخلصين على ذلك .

وإني لا أود أن أغادر المكان قبل أن أقول لكم أن حركة الجيش ما قامت إلا لتحرير الوطن ، وإعادة الحياة الدستورية السليمة للبلاد ، وأن كل هدفنا هو أن نوفر للشعب حرية كاملة لا يمكن سلبها .

لقد حمل أبناء هذه الجامعة دائماً مشعل الحرية ، وسيظلون يحملون هذا المشعل ، وإن أملنا فيكم لعظيم ، وما الجيش إلا جزء منكم ، فلنتعاون حتى نحقق للوطن ما استشهد في سبيله هؤلاء الأبرار .

والله ولي التوفيق " (١٥) .

****

باكورة إنجازات الثورة
جلاء الاستعمار عن مصر

فلا غرابة أن نجد عبد الناصر يردد هذه الأهداف - خاصة الأول - في خطاباته وأحاديثه الصحفية ، وقد حققت الثورة جانباً كبيراً من هذه الأهداف ، ومن ذلك قوله في أول تصريح له في عام ١٩٥٣ وذلك يوم ٣٠ كانون ثان :

" إن رحيل القوات البريطانية شرط لا يمكن بغيره أن تقوم علاقات طيبة بين مصر وبريطانيا ، وأنه لا يمكن أصلاً أن تبنى الصداقة على أساس من الريبة والحقد والبغضاء "

ويقول عن الضباط الأحرار : "هدفهم الرئيسي هو أن يروا وطنهم قد فاز باستقلاله التام الخالي من كل أثر من آثار الاحتلال الأجنبي ، وأمنيتهم هي أن يروا مواطنيهم يعيشون عيشة كريمة ، وهم متمتعون بالحرية والمساواة " (١٦) .

ويربط بين وجود الحكم الملكي الظالم في مصر ووجود الاستعمار ، فيقول :

" ورأينا الاستبداد السياسي يتجسم في ماردين هدامين : الاحتلال الأجنبي البغيض ، والتاج المستهتر العربيد ، وبين هذا وذاك استغل النفوذ ، واستبيحت الحرمات ، وأثرى من أثرى على حساب الضعفاء والمظلومين " (١٧) .

ويؤكد بأن الجلاء هو الهدف الأول للثورة :

" لقد حددت الثورة أهدافها منذ اليوم الأول لمولدها ، لا بد من تحرير مصر ، لا بد من جلاء قوات الاحتلال ، وكلما كانت الثورة تنمو كانت هذه الأهداف تزداد عمقاً ورسوخاً "(٢٣ شباط ١٩٥٣) (١٨) .

ويعلن ناصر بقوة أن جلاء بريطانيا عن مصر لا مجال فيه للمساومة ، وأن مصر لن تقبل بالجلاء المشروط :

" لن تقبل مصر بحال من الأحوال أن تساوم على حقها الطبيعي المشروع في الجلاء ، الناجز الكامل عن جميع أراضيها ، أو أن يفرض المحتل الغاصب أي شرط من الشروط ثمناً للاعتراف بهذه الحقوق " (١٧آذار ١٩٥٣)(١٩) .

" لقد كان أول أهداف الضباط الأحرار هو القضاء على الاستعمار الأجنبي "(٩ نيسان ١٩٥٣)(٢٠) .

ويسخر من قول البريطانيين أن وجود الاستعمار في مصر هو لحمايتها وحماية المنطقة من أي عدوان خارجي ، فيقول :

" وليفهموا أيضاً أن الدفاع عن الشرق الأوسط أمر يعني دول هذه المنطقة أكثر من غيرهم ، ولن يستطيع شعب يرزح تحت نير الاستعمار أن يدافع عن استمرار هذا الاستعمار في وطنه ، بحجة تخويفه من اعتداء آخر قد يتعرض له هذا الشعب ، وقد لا يتعرض له .

إننا نريد جلاء ناجزاً كاملاً غير مشروط ، ومتى استأصلنا شأفة الاستعمار من بلادنا ، فليطمئن الغرب إلى أننا سنكون أحرص منه مئات المرات ، بل آلاف ، على حريتنا واستقلالنا " (١٧ آذار ١٩٥٣) (٢١) .

وفي ٢٦ آذار ١٩٥٣ ، يلقي كلمة في بلدة أسطال في جنوب مصر يحذر فيها من الاستعمار البريطاني المتربص للثورة ، ومن إشاعاته المحبطة والتي لا تهدف إلا لضرب وحدة الصف ، والقضاء على الثورة :

" أذكر أن قائدنا محمد نجيب قال في اللحظة الأولى من يوم التحرير أنه لا بد من تحرير مصر ، ولا بد من أن يجلو الإنجليز عن بلادنا ، ولا بد من ذلك كله ، ولكن فلنعلم أن الطريق شاق ، والمصاعب يأخذ بعضها برقاب بعض ، والإنجليز يحاولون أن يحدثوا ثغرة بين صفوفنا ليتسللوا منها إلينا ، وهم كذلك يقولون أن ثورة المصريين سوف تنتهي في وقت قصير ، وأنهم شعب لا يستطيع السير إلى آخر الطريق " (٢٢) .

وكانت الثورة المصرية قد عززت العمليات الفدائية ، والمقاومة المسلحة لتخريب القواعد والمعسكرات والمنشآت البريطانية المنتشرة على القناة ، فكان ذلك ضغطاً قوياً على بريطانيا جعل الموقف المصري قوياً في جلسات المفاوضات ، لتدرك بريطانيا أن مصر الثورة غير مصر فاروق ، وأن مصر لن تتراجع عن مطالبها في الجلاء ، وإلا فإن العمليات القتالية سوف تستمر لغير صالح الدولة المستعمرة .

اتفاقية الجلاء

بدأت مفاوضات الجلاء عن منطقة قناة السويس في ٢٧ نيسان ١٩٥٣ بين الجانبين المصري برئاسة الرئيس محمد نجيب والبريطاني برئاسة السفير البريطاني السير رالف ستيفنسون ، وقد توقفت المفاوضات في ٧ أيار(٢٣) ، وبعد تدخل من الحكومتين الأمريكية والباكستانية استؤنفت بصورة غير رسمية لعدة شهور (٢٤) .

وبعد أن تولى عبد الناصر رئاسة الوزراء ، وفي ٢٧ تموز ١٩٥٤، أمكن الوصول إلى اتفاق وقع رسمياً في ١٩ تشرين أول ١٩٥٤، وقد نصت الاتفاقية على ما يلي :

١- جلاء القوات البريطانية خلال عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على الاتفاقية .
٢- إنهاء معاهدة التحالف الموقع عليها في لندن في ٢٦ آب ١٩٣٦ .
٣- " تبقى أجزاء من القاعدة التي كانت للإنجليز في قناة السويس في حالة صالحة للاستعمال ، وفي حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أي بلد يكون طرفاً في معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا ، تقدم مصر لبريطانيا من التسهيلات ما قد يكون لازماً لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها ، ويجري التشاور بين مصر وبريطانيا في هذا الشأن .
٤- احترام الاتفاقية التي تكفل حرية الملاحة في قناة السويس " (٢٥) .

وقد وقعها من الجانب المصري عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادي وصلاح سالم ومحمود فوزي ، ومن الجانب البريطاني السفير البريطاني في مصر ستيفنسون (٢٦) .

فكان الجلاء ، وكان تسلم مصر بمقتضى المعاهدة منشآت ومعسكرات بقيمة تزيد عن ٧٠ مليون جنيه (٢٧) .

واعتبر الإخوان المسلمون الاتفاقية تفريطاً من عبد الناصر بحقوق البلاد ، فأطلق عامل منهم اسمه محمود عبد اللطيف ٨ رصاصات على عبد الناصر وهو يلقي خطاباً في ميدان المنشية في الإسكندرية في ٢٦ تشرين أول ١٩٥٤ ، أي بعد أسبوع واحد من توقيع الاتفاقية ، فلم يصبه ، ولكنه أصاب شخصاً آخر ، وقد تم اعتقال مطلق الرصاص (٢٨) ، وقد حمل عبد الناصر الإخوان المسلمين مسئولية الحادث بدون مواربة ، وهاجم مرشدهم حسن الهضيبي (١٨٩١-١٩٧٣) بعد ثلاثة أيام من الحادث ، فقال في خطاب له في ٢٩/١٠/١٩٥٤ :

" كنت أعلم أن الهضيبي يتآمر ضد هؤلاء الذين قاموا في ثورة يوليو ، يشعرون بمشاعركم ، ويطالبون بأهدافكم ، ويحسون بآلامكم .

اختفى الهضيبي ، بعد أن أعلن الجهاد ضد الثورة ورجالها ، وكنت أعلم هذا ، لكني بعد توقيع الاتفاقية قلت : هذه يدي وهاتوا أيديكم ، فلنتعاون جميعاً من أجل مستقبل هذا البلد ، ومن أجل أبنائه .. قلت هذا وأنا أعلم ماذا يديره الهضيبي من غدر .

ولو رجعتم إلى الأيام التي سبقت الاتفاقية للاحظتم أنني لم أكن أحضر اجتماعات عامة ، لأنني كنت أعلم أن الهضيبي يبيت أمراً ضد جمال وإخوان جمال ، ولم أكن في ذلك حريصاً على حياتي وحياة زملائي ، ولكنا كنا حريصين على إتمام الاتفاقية التي تحقق جلاء ناجزاً كاملاً يخلص الوطن من الاحتلال والاستعمار ، ولهذا فقط قررنا عدم حضور اجتماعات عامة ، لأننا كنا نعلم أن أنصار الهضيبي يدبرون لنا الاغتيالات ..

ونسي الهضيبي أنه حين كان يترامى على أقدام فاروق ، ويوقع في دفتر التشريفات ، كان جمال وإخوانه من الضباط قد وهبوا حياتهم جميعاً للشعب .

وإذا اعتقد الهضيبي أنه يقتل عبد الناصر باسم الدين وباسم الإسلام سيقيم الحقد والضغينة مقام الكرامة والحرية فهو مخطىء كل الخطأ .

إن الهضيبي يتآمر من مخبئه ، ونسي أن العزة قد وجدت ، وان الكرامة قد وجدت ، وأن ٢٢ مليوناً من المصريين يشعرون اليوم بالعزة والكرامة والحرية " (٢٩) .

عبد الناصر يتحدث عن اتفاقية الجلاء

وبعد يومين من توقيعها ، وفي خطاب له بميدان الجمهورية بالقاهرة في ٢١ تشرين أول ١٩٥٤ ، يقول عبد الناصر :

" .. كل فرد فيكم يجب أن يحمل العلم ، لنحقق الهدف الأول للثورة ، وهو إقامة وطن قوي عزيز ، وعدالة اجتماعية ..

إننا اعتقدنا أن الاتفاقية وسيلة لتحقيق هذا الغرض ، والتخلص من الاستعمار وسيلة لبناء مصر ، وإقامة عدالة اجتماعية بين أهلها ، وقد كنا في الماضي نعد المفاوضات تجارة ، فكان كل إنسان يتطرف ، ويثير الغرائز ، وفي الخفاء إقامة ثروات واتصال بأعداء الوطن ، فكانت المفاوضات لها وجه باطن ووجه ظاهر ، أما اليوم فقد انتهت المزايدات .

ولقد وجدنا في الاتفاقية طريقاً لتحقيق العدالة الاجتماعية في مصر ، ولكن العناصر المستغلة التي تحارب هذه الثورة ستحاول أن تشكك أو تضلل أو تخدع ، فأنتم الذين حصلتم على قسط وافر من التعليم ، كونوا دعاة الوطن في إرشاد الجماهير .

لن أقول أبداً إني حصلت من الاتفاقية على كل شيء ، فهذا يعد تضليلاً ، ولكننا خطونا خطوة في سبيل تحقيق أهداف الثورة ، وهذه الاتفاقية ليست سوى خطوة في

سبيل التخلص من الاحتلال والاستعمار الذي ظل جاثماً على البلاد نيفاً وسبعين عاماً " (٣٠) .

رأي ساسة بريطانيا في الاتفاقية

واعتبر حزبا " المحافظون " و"العمال " البريطانيان المعاهدة تسليماً أمام مصر ، فأعلن كليمنت إتلي زعيم حزب العمال "أن اتفاقية الجلاء عن مصر تحتوي على أسوأ شروط قدر له أن يراها، وأن هذه المعاهدة غيرت من قيمة القناة بالنسبة لانجلترا ، فلم تجعل المعاهدة قناة السويس شرياناً للإمبراطورية كما كانت دوماً وأبداً ، ولكنها جعلتها مجرد منطقة استراتيجية ترتفع قيمتها عند تعرض إحدى الدول الصديقة للعدوان " (٣١) .

وبتصريحه هذا قرأ هذا الزعيم العمالي الغيب تماماً ، فما حصل لاحقاً كان مطابقاً لما قال .

وأعلن حزب " المحافظون" على لسان زعيمه ونتر هاوس :

" إن المعاهدة كورقة هي دليل على ما جنته بريطانيا بعد ثمانين عاماً من الجهود المضنية في القناة ، وأنها لم تكن إلا تنازلاً أمام مصر ، وأن على بريطانيا أن تنسحب وتسلم القناة بمنشآتها وقيمتها أكثر من ٥٠٠ مليون جنيه للمصريين لكي يستعملوها كما يشاؤون " وأضاف ساخراً : إننا نحن المحافظين قد نعينا على العمال تسليم عبدان لإيران ، وها نحن اليوم نسلم القناة لمصر " (٣٢) .

وما يهمنا مما قاله الزعيمان هو أن القناة كانت ذات أهمية كبيرة عند بريطانيا وذلك لأهميتها الاستراتيجية العالمية التي لا ينكرها عالم ولا جاهل ، بحيث أن الحزبين الخصمين اتفقا على مدى الخسران الحاصل من توقيع تلك المعاهدة ، وأنهما كانا يطمعان ببقاء دولتهما في مصر إلى الأبد .

وفي الوقت ذاته يقر المحافظون بالقيمة المادية العالية للقناة ، خاصة تلك المنشآت التي تركها البريطانيون لمصر وهي صالحة للاستعمال ، ولا أظن العمال يعارضونهم في ذلك .

تطور أهداف الثورة

إضافة إلى الأهداف الستة السابقة ، أوضح ناصر في خطاباته أهدافاً أخرى هدفت إليها ثورة يوليو ، وقد تحقق بعضها ، ولم يتحقق بعض آخر ، مثل :

مشروع الوحدة العربية

لقد توفرت لدول الوطن العربي عوامل الوحدة مثل وحدة التاريخ والعقيدة واللغة والثقافة والجوار ، ولكن الاستعمار الأوروبي كان حريصاً على بقائها متفرقة ليسهل عليه احتلالها واستغلالها ، ولما كان الزعيم الراحل يدرك أن الهدف الأسمى لكل العرب هو الوحدة العربية ، التي تكفل للعرب القوة والمنعة والوقوف أمام الأخطار الاستعمارية المتربصة بالأمة خاصة العدو الصهيوني ، فقد خاض العديد من التجارب الوحدوية بين مصر وسواها من دول العرب ، وإذا لم تنجح هذه التجارب ، فستظل دروساً للقادم من الأجيال بإمكانية حصولها .

تحرير البلاد العربية من الاستعمار

ولما كانت ثورة يوليو هي الثورة الأم في الوطن العربي، فقد كان لعبد الناصر الدور الرئيس في دعم ثورات الشعوب العربية ضد الاستعمار ، أو الوقوف إلى صفها ضد أي قوة معتدية .

فلما تعرضت **سوريا** لحصار استعماري خطير عام ١٩٥٧ ، وهددت بالغزو من حدودها الشمالية ، أرسل ناصر القوات المصرية إلى سوريا لتأخذ مواقعها ضد هذا المخطط الاستعماري ، مثبتاً انتماءه العربي الحقيقي (٣٣) .

وقد كان هذا التخطيط للعدوان على سوريا سبباً في إقامة مصر الوحدة معها في آذار ١٩٥٨ .

كما وقف ناصر مع **ثورة اليمن** بالرجال والسلاح ضد حكم الأئمة البالي المتخلف وقوى الاستعمار التي وقفت ضد الثورة ، لتخرج اليمن إلى النور ، كما حارب مع **اليمن الجنوبي** ضد الاستعمار البريطاني حيث كانت قاعدة عدن أول قاعدة استعمارية بريطانية في الوطن العربي ، لتحرر كل اليمن (٣٤) ، وأصبح باب المندب عربياً ، وقد أمكن إغلاقه في وجه إسرائيل ومن معها في حرب أكتوبر ١٩٧٣

كما دعمت مصر في عهد ناصر **ثورة الجزائر** ، ، وأمدتها بالسلاح والمال ، وقد أكد ساسة فرنسا ذلك عندما زار وزير خارجتها كريستيان بينو القاهرة ، وحاول إقناع ناصر بالتوقف عن دعم الثورة الجزائرية مقابل مساعدة فرنسا للعرب في قضاياهم ، فرد ناصر :

" أن تتخلى مصر عن الوطنيين الجزائريين يعني أن اتخلى عن قوميتي العربية "

فكان رد فرنسا مشاركتها في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، إلا أن هذه المشاركة لم تمنع عبد الناصر من مواصلة دعمه للثورة الجزائرية مستخدماً الطرق البرية والبحرية والجوية حتى نالت الجزائر استقلالها عام ١٩٦١(٣٥) .

كما دعمت مصر المغرب في نضالها لنيل استقلالها بوقوف ناصر مع ثورتها في المؤتمرات الدولية مثل مؤتمر باندونج ، كما خول أجهزة الإعلام المصرية لشن حملة على الاستعمار وعملائه في مراكش ، وتأييد السلطان محمد الخامس ، وتعدى ذلك إلى إمداد جيش التحرير المغربي بالسلاح ، إلى أن بدأت فرنسا سحب قواتها عام ١٩٥٧ ، وجلاء قواعدها عام ١٩٦١ ، وخروج القوات الإسبانية من الريف المغربي في تشرين أول ١٩٦١(٣٦) .

أما تونس ، فقد كان ناصر خلف ثورتها ضد الاستعمار الفرنسي ، وطالب باستقلالها في مؤتمر باندونج في ٢١نيسان ١٩٥٥ ، حتى نالت استقلالها في ٢٠ آذارعام ١٩٥٦ ، مع بقاء أربع قواعد فرنسية على أراضيها .

وبعد استقلالها ، أعلن عبد الناصر عن استعداد القاهرة لتسليحها في حديث صحفي له لجريدة الأخبار العراقية في ٢٤-١١- ١٩٥٧ ، وسرعان ما بدأت في الحصول على إمدادات السلاح المصري ، ليثير ذلك اعتراض الدول الغربية لكي لا تعتمد تونس على السلاح الشرقي دون الغربي (٣٧) .

كما وقفت مصر عبد الناصر مع الثورة الليبية في مطالبتها بجلاء القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية عنها ، هذه القواعد كان عبد الناصر يرى فيها خطراً على دول العروبة الأخرى ، وظل ناصر يواصل المطالبة برحيل القواعد الأجنبية حتى جلائها نهائياً عام ١٩٧٠ (٣٨) .

كما وقف مع ليبيا - التي نالت استقلالها عام ١٩٥١- ضد وجود القواعد العسكرية الأجنبية على أراضيها ، وقال في خطاب له في ٢٢ تموز ١٩٦٤ : إن إرادة التغيير في كل مكان لا بد ان تنتصر .. في ليبيا إرادة التغيير في الشعب الليبي أقوى من القواعد ، الشعب الليبي سيبقى ، والقواعد ستنتهي ، والحكومة الليبية مع الشعب الليبي تطالب بأن تخرج القواعد من ليبيا " (٣٩) .

ولما قامت ثورة سبتمبر ١٩٦٩ في ليبيا بقيادة معمر القذافي وضع ناصر القوات المسلحة المصرية تحت تصرف الثورة ،ووضع كل إمكانيات التأييد والدعم لها ، وقد تم جلاء القواعد الأجنبية عام ١٩٧٠ (٤٠) .

ولما نشبت أزمة بين العراق والكويت عام ١٩٦١ ، والتي حاول على إثرها الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم ضم الكويت إلى العراق ، وقف ناصر إلى جانب الكويت

بحكم أن القوة العسكرية يجب ان لا تستخدم لفض الخلافات بين العرب ، لأن غاية الأمة الوحدة لا الفرقة والخلاف ، وأرسلت قوات مصرية إلى الكويت حماية لها من التهديد العراقي ، وتم حل المشكلة بين الحكام العرب ، ولما وقف قاسم ضد دخول الكويت هيئة الأمم المتحدة ، استخدم ناصر نفوذه الدولي ، فنالت مقعدها في هيئة الأمم (٤١) .

ولما استغلت بريطانيا هذا الخلاف على ضم الكويت للعراق ، حشدت بريطانيا جيوشها لاحتلال الكويت ، فطالب ناصر بأن يكون التصويت على قبول الكويت عضواً في الأمم المتحدة مقترناً بانسحاب القوات البريطانية منها ، وبينما كانت الصحف العالمية تتناول موقف مصر عبد الناصر من الأزمة الكويتية ، كان للأمم المتحدة موقفها الفريد بإحالة القضية لجامعة الدول العربية ، " وأسفرت النتيجة النهائية للمناقشات في مجلس الجامعة عن الأخذ بصلب الآراء الواردة في موقف القاهرة ، حيث تم الاعتراف باستقلال الكويت ، وقبولها عضواً بالجامعة العربية ، وإحلال قوات عربية مشتركة محل القوات البريطانية "(٤٢) .

التجارب الوحدوية

تحقيقاً لما كان يحلم به عبد الناصر في صباه من وحدة لهذه الأمة ، وعملاً بأهدافه لجمع شمل الأمة في مواجهة ما يتربص بها من أخطار استعمارية وصهيونية ، كان لناصر تجارب وحدوية مع عدد من الدول العربية ، ولكن الظروف المحيطة بهذا الوطن الكبير حالت دون أن يتحقق الحلم العظيم باجتماع دول العروبة تحت راية واحدة .

فكانت التجربة الأولى الوحدة مع سوريا عندما تقدم وفد مكون من عشرين ضابطاً سورياً لإقامة الوحدة مع مصر إنقاذاً لسوريا من الفوضى السياسية التي كانت تعانيها ، فاشترط ناصر حل الأحزاب في سوريا وإبعاد الجيش عن السياسة ، وقبل الضباط السوريون ذلك ، وتم توقيع ميثاق الوحدة بين الدولتين في ٨ آذار ١٩٥٨، وقامت الوحدة مدة ٣ سنوات ، وانتهت بانقلاب في سوريا حل الوحدة في ٢٨ أيلول ١٩٦١ (٤٣) .

الوحدة بين مصر وسوريا والعراق

وبعد مباحثات استمرت ١١ يوماً بين وفود الدول الثلاث ، وقع اتفاق الوحدة بينها في ١٧ نيسان ١٩٦٣ كما أرادتها شعوب الدول الثلاث على أسس الديمقراطية والاشتراكية ، ولكن الانقلابات في سوريا والعراق منعت وضع الوحدة موضع التنفيذ (٤٤) .

الوحدة بين مصر والسودان وليبيا

والتي قامت بين الدول الثلاث بتوقيع ميثاق طرابلس في ٢٧ كانون أول ١٩٦٩ ، غير أن وفاة عبد الناصر عطلت هذا المشروع الوحدوي (٤٥).

الفصل الثاني

رفض عبد الناصر سياسة الأحلاف

بعد جلاء دول الاستعمار عن بلاد الشام والعراق ومصر ، تحاول هذه الدول العودة إلى هذه الدول المستقلة ولكن بمفاهيم ومسميات جديدة ، وبأعذار واهية لا تنطلي إلا على السذج والبسطاء من العامة وأدعياء السياسة .

فبدعوى ملء الفراغ السياسي نظراً لانسحابهم من هذه الدول ، ولكي تحمي المنطقة المستهدفة مما دعته بالخطر الشيوعي ، وجدت بريطانيا وأميركا من ساسة العرب من يصغي لها ، ويتبع سياساتها الرامية للعودة إلى المنطقة التي تريد شعوبها أن تشق طريقها في سبل الحياة ، ودروب الاستقلال والتقدم ، فكان ما تفتق عنه أذهان ساستها ودهاة مفكريها مشاريع الأحلاف .

وكان حزب الوفد في العهد الملكي يطلب الجلاء أولاً ثم النظر في موضوع التحالف ، ولكن بريطانيا كانت تصر على توقيع معاهدة التحالف قبل الجلاء عن مصر ، وبعد فشل المفاوضات على أساس الجلاء والوحدة مع السودان ألغى المصريون في ٨ تشرين أول ١٩٥١ المعاهدة ، وصادق مجلس النواب على إلغائها ، ليبدأ الكفاح المسلح المصري ضد بريطانيا ، وتبدأ معه معركة القناة ، وشارك فيهما الضباط الأحرار ، ولكن بعد ثورة يوليو قررت قيادة الثورة رفض التحالف ، ومقاومة الأحلاف التي ترتبط بها الدول العربية لتدخل مصر وثورتها الفتية نتيجة لهذا الموقف معركتها الضارية ضد الأحلاف (١) .

وبعد توقيع معاهدة الجلاء ، أوفد مجلس قيادة الثورة صلاح سالم إلى العراق في صيف ١٩٥٤ ليستطلع الأخبار ، ويدرس موقف العراق التي كانت تقترب حكومتها بقيادة نوري السعيد من الأحلاف العسكرية ، فزعم نوري السعيد أن بلاده مهددة من قبل الشيوعية ، وأنه بحاجة لمساعدة لإيقاف هذا التهديد .(٢)

فما كان من حكومة الثورة إلا أن دعت وزراء خارجية العراق وسوريا ولبنان والأردن والسعودية واليمن وليبيا للاجتماع في ٢٢ كانون ثان ١٩٥٥ لمحاصرة نوري السعيد في موقفه الواضح من الأحلاف ، ولكن الاجتماع لم يحقق الهدف المرجو منه ، ليزيد عبد الناصر وحكومته من حملتهم الدعائية ضد الأحلاف ومؤيديها واستمر العراق في إصراره على الحلف الذي ضم تركيا وباكستان وإيران ، كما انضمت إليه بريطانيا بعد مؤتمر باندونج .(٣)

ومواصلة لجهودها الحثيثة في تطويق الموقف ، توفد حكومة الثورة صلاح سالم إلى سوريا في آذار ١٩٥٥ ، حيث وقع اتفاقاً للتعاون العسكري السياسي مع وزير الخارجية السوري ووزير الدفاع بالنيابة نصر على ما يلي :

١- "عدم الانضمام إلى الحلف التركي العراقي .
٢- إقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادي عربي مشترك .
٣- إنشاء قيادة مشتركة دائمة لها مقر رئيسي وتشرف على تدريب القوات العسكرية التي تضعها كل دولة تحت تصرف تلك الدول .
٤- الاتصال بالحكومات العربية لعقد مؤتمر من الدول المدافعة "(٤) .

وقارىء بنود هذا الاتفاق يقرأ سياسة ثورة يوليو وزعيمها الراحل لكل السنوات التي قضاها ناصر في الحكم ، فهي تنص على الاعتماد على القوى العربية الموحدة ، وتوحيد جهودها العسكرية والاقتصادية ، وليس الاعتماد على الأحلاف المشبوهة .

تحطيم حلف بغداد

وهو حلف ذو طابع سياسي عسكري ، نشأ بتوقيع تركيا وإيران وباكستان والعراق معاهدة دفاع مشترك عن الشرق الأوسط وذلك في ١٢ كانون ثان ١٩٥٥ ، واتخذ الحلف بغداد مقراً له ، ومنها استمد اسمه (٥) .

والمقصود بالدفاع المشترك أي ضد الاتحاد السوفييتي ، والذي لم يبد أية نوايا في غزو المنطقة ، إلا أنها الروح الاستعمارية المتحكمة في الخلق الأوروبي منذ قرون .

وكان رئيس وزراء العراق نوري السعيد (١٨٨٨- ١٩٥٨) ينافح عن فكرة الحلف ، ويرى أن عهد الاستقلال التقليدي قد انتهى ، فلا بد للدول من الاعتماد على بعضها البعض ، وبما أن العرب يتهددهم الخطر الشيوعي - حسب رأيه- فلا بد من اللجوء للغرب لحمايتهم ، فالغرب سيمدهم بالسلاح ، ودول الحلف سوف تحارب إسرائيل معهم (٦) .

فرد عليه ناصر أن الغرب - وبالذات أميركا- لن يسلح العرب لكي يحاربوا إسرائيل ، كما أن الدول أعضاء الحلف لن تحارب معنا ضد إسرائيل لأنها بعيدة عن ساح الحرب (٧) .

كما جاء في رد ناصر أن رباط الإسلام مقدس ، وهو لا يشدنا إلى هذه الدول الثلاث وحدها ، ولكنه يشدنا إلى شعوب وأمم مسلمة في أقاصي آسيا وأعماق أفريقيا (اندونيسيا ،الملايو في آسيا مثلاً ، والسنغال وغينيا في أفريقيا مثلاً) ، لكن رباط الإسلام

المقدس شيء ، ووحدة المصلحة والأمن شيء آخر ، خصوصاً إذا ارتكزت إلى جانب الدين وحدة التاريخ ووحدة الثقافة ووحدة اللغة ووحدة الامتداد الجغرافي المتصل " وقد أثبتت الأيام صحة ما قاله ناصر ، فمنذ قيام الحلف قبل ٥٤ عاماً ، ومنذ وفاة ناصر قبل ٤٠ عاماً ، لم تقدم الدول الثلاث أي دعم عسكري لدول المواجهة .

ولكن نوري السعيد ظل متمسكاً برأيه ، وراح يدعو الدول العربية لكي تنضم للحلف ، مما صعد ردود ناصر وموقفه ضد الحلف ومناصريه (٨) .

وهاجم الزعيم الراحل فكرة الأحلاف ، وكشف في كثير من تصريحاته وخطبه نوايا القوى الواقفة وراء هذه المشاريع التي لا تهدف لخير شعوب المنطقة ، ومما قاله في ذلك ما ورد في خطاب له في ٦ يوليو ١٩٥٥ :

" لقد قلناها في الخارج أيضاً ، فإننا اليوم بعد أن كنا نتلقى الأوامر من سلطات الاحتلال وأعوان الاستعمار .. إننا اليوم لنا سياسة خارجية مستقلة تنبعث من وعي هذا الشعب ، أعلنا فيها مبادىء الحرية ، وإننا ننصرها دائماً ، وإننا ضد الاستعمار وأعوانه .. ، إننا مع تقرير السلام وتدعيم السلام .

وعندما وجدنا أن هذه السياسة لا تتفق مع سياسة الدول الكبرى ، وقفنا ضد هذه القوى جميعاً ، لأننا نريد القوة والاتحاد للشرق العربي بجميع دوله ..

وعندما **رفضنا الدعوة إلى الأحلاف** ، قلنا إن لنا نظرية ، ولنا فكرة نؤمن بها كل الإيمان ، لأن أي تحالف مع الدول الكبرى يعني السيطرة ، وطلبنا من الدول العربية التضامن تحت لواء الدفاع المشترك ، لأن هذه الأحلاف هي أحلاف الذئب والحمل ، ولا بد أن يأكل الذئب الحمل " (٩) .

تشخيص واع صادر عن ثقافة عالية ، في زمن صاخب عامر بالأحداث والتحالفات ، والخفايا والمؤامرات ..

فما الذي تضمره الدول الغربية لأبناء هذه المنطقة وسواها من دول العالم الثالث ؟ أو ليس في التاريخ - الذي لم يندثر بعد - ما يجيب على السؤال ؟ وهل كانت بريطانيا وفرنسا صديقتين لدول العروبة بحيث لا تستطيعان مفارقتها من فرط الحنين ولهيب الشوق ؟ أم أنها شهوة السيطرة على الآخرين ، واستعمار ما لديهم تدفع هذه الدول لابتكار مسميات لأساليب استعمارية لا تخفى على كل واع مستنير.

إنها- كما قال ناصر تماماً - سياسة الذئب والحمل ، يداريه ويدجنه ويسمنه لساعة لا يعرفها سوى الذئب لينقض فيها على الحمل الوديع .

ويوضح ناصر غاية الاستعمار وأهدافه من هذه الأحلاف فيقول :

" إننا نعارض أية أحلاف عسكرية خارج نطاق الدول العربية ، وإني أعتقد أن المعركة ما زالت مستمرة ، وأننا نمر الآن بمرحلة حاسمة ، **فإن قوى الاستعمار حاولت أن تضمنا إلى أحلاف عسكرية أجنبية ، أي إدخالنا إلى مناطق النفوذ الأجنبي الأمر الذي لا نقبله ، فنحن نريد أن نكون مستقلين** ، إن بريطانيا برغم أنها وقعت مع مصر اتفاقاً لإجلاء قواتها من الأراضي المصرية فإنها لم تتوقف عن محاولة إقحام مصر وغيرها من الدول العربية في حلف بغداد لتسهيل سيطرتها على هذه الدول.

إن حلف بغداد هو نقطة تحول في تاريخ الشرق الأوسط ، وإن جميع الشعوب العربية عارضته واعتبرته استمراراً للسيطرة الأجنبية " (١٠) .

الاتحاد السوفييتي يراقب ويهدد ..

ولا تغفل العيون السوفييتية عن محاولات الغرب جر مصر والمنطقة إلى أحلاف غربية ...

" فأصدرت وزارة الخارجية السوفييتية يوم ١٦ نيسان ١٩٥٥ بياناً رسمياً جاء فيه أن الحالة العامة في الشرق الأوسط قد ازدادت خطورة في الأشهر الأخيرة ، محاولة جر الأقطار العربية إلى أحلاف عسكرية ، وأتى البيان بشكل خاص على ذكر الضغط الذي تعرضت له سوريا ومصر من أجل الانضمام إلى تلك الأحلاف ، **وأكد البيان بأن الاتحاد السوفييتي لن يقف مكتوف الأيدي في وجه هذه المؤامرات الغربية ، وأن هذا الموقف من الاتحاد السوفييتي لا يحتاج إلى تفسير ، لأن الاتحاد السوفييتي خلافاً للولايات المتحدة ، هو دولة مجاورة لأقطار الشرق الأوسط** " (١١) .

والبيان السوفييتي لا يخونه المبرر ، فالاتحاد السوفييتي يجاور الدول المتصارعة ،أما الولايات المتحدة فبعيدة جداً عن ساحها ، إضافة ألى أن البيان لا يعوزه الوضوح ، وتفوح منه روح النجدة والجاهزية لدخول المنطقة ، وقد كانت هذه السياسة التي ينوي السوفييت اتباعها في المنطقة - بعد شهور قليلة- سبباً في بداية العلاقات الوثيقة بين مصر والاتحاد السوفييتي ، والتي كان من نتائجها صفقات الأسلحة الضخمة التي سنأتي على شرحها بالتفصيل في الفصول التالية .

ولكن ناصر لا يغير سياسته تجاه الشيوعيين المصريين ، فهو يصرح في تلك الآونة قائلاً :

" لا شيء يمنعنا من تقوية صلاتنا الاقتصادية مع روسيا ، حتى لو كنا نعتقل الشيوعيين في بلادنا ونحاكمهم " (١٢) .

وقد كان السوفييت في منتهى العقلانية ، ففصلوا بين الأمرين ، وظلوا على عهدهم مع مصر حتى بعد وفاة الزعيم الراحل .

وفي **خطاب تأميم القنال الشهير في ٢٦ يوليو ١٩٥٦** الذي ألقاه في الإسكندرية ، يعود عبد الناصر للموضوع ذاته ، فيقول :

" منذ قيام الثورة بدأت بريطانيا وأمريكا تتصلان بنا ، من أجل محالفات واتفاقات ، **ولكننا قلنا أننا لا نستطيع التحالف ، إلا في حلف واحد ، وهو حلف الدول العربية** ، وقلت لهم كل هذا ، هل سيكون لمصر رأي على بريطانيا ؟ .. هل يحقق التحالف بين دولة كبيرة ودولة صغيرة إلا التبعية ؟ . لا نقبل أبداً أن نكون أذيالاً أو تابعين ، .. كان الجنرال روبرتسون موجوداً ، وطلب منا عقد محالفة مدتها خمسة وعشرون سنة ، ولكننا رفضنا ، وما قلناه سنة ٥٢ في جميع محاضر المحادثات هو ما نقوله اليوم " (١٣) .

ويكشف بعض ما عانته مصر من كذب دول الاستعمار عليها ، وعلى غيرها من الدول الصغيرة ، فيضيف :

" بدأنا نتكلم عن تموين الجيش المصري بالسلاح ، مع استعدادنا لدفع ثمن السلاح ، فرفضوا إلا إذا وقعنا ميثاق الأمن المتبادل ، ومعناه أن تأتي بعثة أمريكية لا يكون فيها رأي .. وقلنا أن لنا تجارب كثيرة بهذا الخصوص ، وكان للبعثة العسكرية البريطانية هدم معنويات الجيش المصري ، لذلك كان لدينا مركب النقص من ناحية البعثات العسكرية ، كان غرضنا أن يكون للجيش المصري شخصيته المستقلة ، ولذلك قالوا في سنة ١٩٥٢ أنهم مستعدون لتزويدنا بالسلاح ، ولكن عادت بعثتنا خالية الوفاض " (١٤) .

مصر عبد الناصر تريد السلاح من هذا الذي يزعم حب مصر ، ويدعي مساعدة مصر ، ومع أن مصر تريده بالمقابل ، إلا أن بريطانيا لا تريد بيعه لها ، ولو حصل فلا داعي لوجود الأحلاف أصلاً ، فهي لخدمة الاستعمار ، وللحفاظ على إسرائيل قوية متفوقة على جيرانها ، فكيف يقدم البريطانيون السلاح لمصر في زمن ناصر وهم لم يقدموه في زمن فاروق !!

لذا فما حققته البعثة البريطانية هو هدم معنويات الجيش المصري وإحباطه ، فكانت أغراض البعثات مكشوفة لرجال الثورة ، معروفة للقيادة الواعية ، إذ ليس لديها سوى الوعود الكاذبة .

لذا كانت الخطوة الجبارة الواعية لناصر ، بالتوجه إلى الاتحاد السوفييتي ، فنال أكثر بكثير مما أراد وطلب ، فكانت صفقات السلاح السوفييتي التي خاضت بها مصر أربع حروب ضد الحلفاء وضد إسرائيل .

ويوضح الزعيم الراحل في الخطاب التاريخي ذاته نوايا بريطانيا ومن يقف معها ، فيضيف :

" ولكن مصر أبت وأرادت أن تكون لها شخصيتها المستقلة ، فمنع عنها السلاح وسلحت إسرائيل ، وأصبحت خطراً يهدد .. وقالت بريطانيا : نحن مستعدون لتسليحكم ولكن شرط أن يسكت عبد الناصر في باندونغ ، ودعونا ننفذ خطتنا في الأحلاف .

أصبح التسليح إذن أداة لتقييدنا ، وتقييد حريتنا ، ولكننا لسنا على استعداد لدفع الثمن ، شخصيتنا ومبادئنا ، وبهذا لم نستطع الحصول على أي شيء من السلاح لا بالثمن ولا بالمجان ..

استطعنا بعد ذلك أن نحصل على السلاح من روسيا .. من روسيا لا من تشيكوسلوفاكيا ، ووافقت روسيا على إمدادنا بالأسلحة ، وتمت صفقة الأسلحة ، فحصلت ضجة ، وقالوا إنه سلاح شيوعي ، ولكنني أعرف أن السلاح هنا سلاح مصر ، وبدأت صحافتهم تقيم ضجة ... ما سببها ؟ قالوا إن لديهم خطة ، وهي حفظ التوازن بين الدول العربية وإسرائيل ، طيارة للدول العربية كلها وأخرى لإسرائيل لحفظ التوازن ! من ذا الذي أقامكم أوصياء علينا لحفظ التوازن ؟ نحن لا نقبل وصاية أحد ، ولكنه الاحتكار للسلاح الذي كانوا يتحكمون به فينا

فلما استطعنا تحطيم هذا الاحتكار انهارت كل خططهم ...

لم يستطع الاستعمار التحكم عن طريق منع الأسلحة ، من ذا الذي أوجد إسرائيل في هذه المنطقة ؟

من كان مسئولاً عن الانتداب على فلسطين ؟ بريطانيا ".(١٥)

إذن هي الزعامة الواعية ، الوطنية الصادقة ، التي تهدف لرفع مستوى الأمة أمام التحديات والأخطار المحيقة بها ، ولا تهدف إلى تقزيمها وإضعافها بإبقائها مدى الحياة تابعة للأقوياء من دول الغرب .

وقد أكدت الأحداث اللاحقة صحة آراء عبد الناصر وتوجهاته ، ففي تموز ١٩٥٨ انهار حلف بغداد على يد الشعب العراقي وبدون تدخل أحد ، وقتل نوري السعيد المؤيد الكبير للحلف .

وثبت أن كل ما حصلت عليه العراق من المساعدات العسكرية من حليفتها المزعومة أميركا كان ثلاث طائرات !!(١٦) .

رفض مشروع إيزنهاور

وهو المشروع العسكري الذي نادى به الرئيس الأمريكي الرابع والثلاثون دوايت ايزنهاور (١٨٩٠-١٩٦٩) والذي تولى حكم بلاده في المدة بين ١٩٥٣-١٩٦١، وقد تقدم به للكونجرس في ٥ كانون ثان ١٩٥٧ ، وأقره الكونجرس في ٩ كانون ثان ، وفيه يطلب "منحه السلطات اللازمة لتقديم أية مساعدات عسكرية بما في ذلك استخدام القوات العسكرية الأمريكية لضمان السلامة الإقليمية لدول الشرق الأوسط ، والاستقلال السياسي لشعوبه التي تطلب هذه المساعدة ضد العدوان المسلح المكشوف المباشر أو غير المباشر من أية دولة تسيطر عليها الشيوعية العالمية " (١٧) .

وبنى إيزنهاور مشروعه على أن أمن الشرق الأوسط كان يعتمد على القوى العالمية الإنجليزية والفرنسية ، لذا يعاني حدوث فراغ فيه ، ويجب على أميركا التعاون مع دول المنطقة لمنع تسلل النفوذ الشيوعي إليها (١٨) .

وأعلن ناصر رفضه للمشروع قائلاً :

" إن مشروع إيزنهاور ينص على ضرورة الارتباط بسياسة الولايات المتحدة ، ولقد أعلنت مصر سياستها ، وهي سياسة عدم الانحياز لأي معسكر من المعسكرات ، وعدم قبول أي معونة مشروطة بشروط ، ولهذا رفضنا المشروع ، ولا فائدة من اقتراح إجراء تغيير به ما دام يقضي أصلاً على الدولة التي تقبل به بأن تتبع سياسة الولايات المتحدة " (١٩) .

كما أعلن ناصر أن أهداف هذا المشروع تصفية مشكلة إسرائيل ، وإهدار حقوق اللاجئين من عرب فلسطين ، وفرض نظام دفاعي يخدم مصالح أميركا ، ولكي تصبح الدول العربية منطقة نفوذ لها (٢٠) .

أما فيما يتعلق بإسرائيل ، فإن المشروع كما رأى ناصر يحقق ما يلي :

١- " تحويل الأنظار عن خطر إسرائيل .
٢- خلق أخطار وهمية من بعض العرب على البعض الآخر .
٣- إعطاء سلاح لبعض الدول العربية لا يخيف إسرائيل .
٤- ربط بعض الدول العربية في نطاق واحد مع إسرائيل ، نطاق تقوم فيه أمريكا بدور التوفيق والتنسيق في جميع النواحي العسكرية " (٢١) .

واضح إذن أن الزعيم الراحل كان واعياً لسياسة الأحلاف الزائفة التي حاولتها بريطانيا وأميركا لاحتواء دول المنطقة ، زاعمة أنها في نطاق الخطر الشيوعي ، وقد أثبتت الأيام - كما حدث في العدوان الثلاثي - أن الخطر لا يأتي إلا من دول الغرب التي تدعي محاولة حماية دول العروبة ، وأن الدعم والتأييد لإسرائيل قائم مستمر منها .

لقد سد ناصر الطرق على سياسة الأحلاف الأجنبية ، وأفكارها التي تخدم الاستعمار ودولة العدو الإسرائيلي ، وقد تجاوبت الجماهير العربية في أرجاء الوطن العربي مع نداءات ناصر وتحذيراته ، رافضة سياسة الأحلاف ، دافعة حكوماتها لرفضها ونبذها ، وقد تحقق ذلك في ليبيا والمغرب والجزائر ، فكان مصير الأحلاف الإفلاس والفشل الذريع (٢٢) .

وأمام هذه الحملة القوية التي قادها عبد الناصر على ساحة الوطن العربي ، لم يعد هناك من أمل لدول الاستعمار الغربي في نجاح مساعيهم لتدجين بعض دول العروبة .

فأعلن ملك المغرب في آذار ١٩٥٧ على لسان سفيره في بغداد أن بلاده قد قررت أن تكون بعيدة عن سياسة الأحلاف ، وصرح المحجوب بن الصديق عضو المجلس الاستشاري المغربي أن هدف حلف البحر المتوسط استمرار السيطرة الاستعمارية في شكل جديد ، وأنه ضد حركة التحرير المغربية ..

وبعد مؤتمر شعبي عقد في نيسان ١٩٥٨ حضره عدد كبير من أعضاء المجلس التشريعي ومجلس الأمة ، أعلنت ليبيا رفضها الانضمام لحلف البحر الأبيض المتوسط (حلف بغداد) .

وأعلن زعماء جبهة التحرير الوطني الجزائري رفضهم المشروع الأمريكي ، ولم يعد هناك مكان لفكرة أي حلف بين تونس وفرنسا بسبب مطالبة تونس بجلاء فرنسا الكامل عن أراضيها (٢٣) .

وعلق عبد الناصر في ٢٠ آذار ١٩٥٨ على الفشل الذي منيت به سياسة الأحلاف قائلاً :

" حاول مشروع إيزنهاور أن يلقي مسئولية الدفاع عن أرض العرب على غير العرب ، على أمريكا .. ولكن هل قبل العرب أن تلقى مسئولية الدفاع عنهم على دولة أخرى ؟

كلنا نعرف أن مشروع إيزنهاور فشل ، وفشل فشلاً ذريعاً جداً في هذه المنطقة ، وزعوا ٢٠٠ مليون دولار وانتهى الأمر " (٢٤) .

الفصل الثالث

كسر احتكار السلاح

لا بد أن نحصل على أسلحة حديثة من دولة ما ، وإذا كنت لا أستطيع أن أحدد مَن من الدول سيمدنا بالأسلحة في حالة امتناع أمريكا والديمقراطيات الغربية عن مساعدتنا ، فمن البديهي في هذه الحالة أننا سنلجأ إلى غيرها "محمد نجيب" ، (مجتمع عبد الناصر لأحمد حمروش ، ص ٦٠)

لم يكن لبريطانيا من سياسة في مجال توريد الأسلحة لمصر سوى سياسة "الحظر" تلوح بها بين الحين والآخر ، إذ لا يتوقع عاقل أن تورد بريطانيا السلاح لمصر لتحارب به مستعمريها ، أو تقاتل به إسرائيل ....

ولم تكن لمصر في العهد الملكي أية علاقات قوية بدول المعسكر الشرقي تسمح للطرفين بعقد صفقات توريد أسلحة لمصر ، مع أننا نجد محاولات لشراء السلاح في أواخر العهد الملكي ، "عندما اتصل فؤاد سراج الدين بسفراء يوغسلافيا وتشيكوسلوفاكية والاتحاد السوفييتي في محاولة للحصول على أسلحة بدعوى ،،أنها للبوليس ، ولكنهم - على حد قوله - كانوا حريصين على عدم حدوث استفزاز للغرب ، خاصة وان التبادل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفييتي لم يتم إلا في وزارة الوفد الأولى عام ١٩٤٢ " (١) .

وبعد قيام الثورة ، ظل رجالها يحسنون الظن بالغرب ، وأن دوله قد تمد مصر بالسلاح ، خاصة وأن من مبادئ الثورة الستة تأسيس جيش قوي .

وفي تشرين ثان ١٩٥٣ التقى ناصر وبعض ضباط الثورة بوليم فوستر وكيل وزارة الدفاع الأمريكية ، وقدما لائحة بأسلحة قيمتها ١٠٠ مليون دولار ، ولكن الأمريكيين ردوا بأن تشرشل قد نصح بفرض حظر السلاح على مصر لكي لا يستعمل ضد جنوده على القنال(٢) .

وقد باءت كل المحاولات والمداولات في هذا المجال بين مصر ودول الغرب بالفشل ، وذلك لموقف تلك الدول الذي لا يمكن أن يسمح بوجود كيان عربي قوي في

مصر أو سواها ، وواضح في هذا التوجه التأثير الصهيوني على السياسة الغربية ، الحريص على أمن إسرائيل واستقرارها .

ودليل على ما سبق أن انتوني إيدن رئيس الوزراء البريطاني يهتبل فرصة زيارة خروشوف وبولجانين إلى لندن في نيسان ١٩٥٦ ، فاقترح عليهما فرض حظر على تصدير السلاح إلى الشرق الأوسط ، فرد خروشوف أنه لا يمانع في ذلك إذا كان ما يطلبه ضمن خطة شاملة تحت إشراف الأمم المتحدة ، ولما بلغ هذا الاقتراح عبد الناصر سارع إلى الاعتراف بحكومة الصين الشعبية في ١٦ أيار ١٩٥٦، تفادياً منه لحظر محتمل على الأسلحة ضد الشرق الأوسط أو ضد دولته الفتية (٣) ، وهذا دليل حنكة سياسية وبعد نظر اتصف بهما الزعيم الراحل .

وكانت مصر عام ١٩٥٥ تملك ست طائرات فقط ، وذخيرة تكفي لمعركة مدتها ساعة واحدة (٤) .

وبتدبير من رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بن جوريون ، تختبر إسرائيل النظام المصري الجديد بغارة على غزة في ٢٨ شباط ١٩٥٥ ، وقتل جنودها ٢٩ جندياً مصرياً ، كما قتلوا بعض الفلسطينيين، تلك الغارة سببت الأرق لعبد الناصر عدة ليال ، فالثورة باتت في وضع حرج لا تحسد عليه ، مما فرض على ناصر اتخاذ القرارات التالية :

أولاً : ضرورة شراء الأسلحة من أي مصدر حماية للوطن والجيش المهددين .

ثانياً : السماح للفدائيين بإجراء عمليات داخل خطوط العدو تحت إشراف القيادة العسكرية المصرية .

ثالثاً : ربط ناصر بين الغارة على غزة وحلف بغداد ، فقرر تشديد الهجوم على الحلف وزعيمه نوري السعيد ، ومحاولة تقوية ميثاق الضمان الجماعي لجامعة الدول العربية لمواجهة الحلف المذكور(٥) .

مؤتمر باندونج
يفتح البوابة السوفييتية

ويشارك عبد الناصر في مؤتمر باندونج الذي عقد في مدينة باندونج ثالث مدن اندونيسيا في نيسان ١٩٥٥ ، " هذا المؤتمر الذي كان نقطة تحول رئيسية في مسار السياسة المصرية ... صقلت شخصية عبد الناصر ، واكتسب في المؤتمر شعبيته ، وإحاطة اسمه بهالة من التقدير كقائد وطني ، وزادت معتقداته في أهمية الحياد ورفض الأحلاف صلابة " (٦) .

والتقى ناصر بشو إن لاي رئيس وزراء الصين الذي توسط لدى السوفييت في حاجة مصر للسلاح ، وبعد العودة إلى مصر ، وفي أيار ١٩٥٥ ، اتصل السفير االسوفييتي سولود بصلاح سالم وأبلغه موافقة السوفييت على تزويد مصر بالسلاح ، واستعدادهم المساهمة في المشروعات الصناعية التي تحتاجها مصر (٧) .

وكان الاتحاد السوفييتي قد قطع علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل في شباط ١٩٥٣ إثر إلقاء قنبلة على مفوضيته في تل أبيب (٨) .

ولدى دعوة مصر شبيلوف رئيس تحرير صحيفة البرافدا والسياسي الكبير لحضور احتفالات مصر بالذكرى الثالثة للثورة ، تم الاتفاق على توريد أسلحة لمصر بقيمة ٨٠ مليون جنيه ، وتشمل الصفقة طائرات ميج وقاذفات اليوشن ودبابات ، على أن يتم الدفع خلال ١٢ عاماً ، ويكون التعاقد بين الحكومة المصرية والحكومة التشيكوسلوفاكية (٩) ، وهو ما أطلق عليه صفقة الأسلحة التشيكية فيما بعد .

وفي ١٧ أيلول ١٩٥٥ أعلن عبد الناصر عن هذه الصفقة ، والتي كانت تضم :

٥٣٠ عربة مصفحة — ٢٣٠ دبابة ستالين

٢٠٠ ناقلة جنود — ١٠٠ مدفع ذاتي الحركة

٥٠٠ قطعة مدفعية — ٢٠٠ طائرة مقاتلة وقاذفة

ومجموعة بحرية تضم مدمرات وكاسحات ألغام وثلاث غواصات (١٠) .

واتفق على أن تكون الأسلحة جميعها من صنع روسي ، ولكن حكومة تشيكوسلوفاكية هي التي تتولى تسليمها لمصر .(١١)

وقد صرح ناصر في ٣٠ أيلول ١٩٥٥ أن مصر ستدفع ثمن الأسلحة على أساس المقايضة بمنتجات مصرية كالقطن والأرز(١٢) .

وقد علق ناصر على هذه الصفقة قائلاً :

" إن هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد أو شرط ، لا تعتبر فتحاً للنفوذ الروسي ، ولا للنفوذ الأجنبي ، ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ الطويل الذي تحكم فينا ، وسيطر علينا " (١٣) .

أصداء الصفقة في إسرائيل

ولقد كانت خطة عبد الناصر بشراء الأسلحة من السوفييت في منتهى الحكمة ، كما أن توقيتها كان سليماً ، فالعدو الإسرائيلي كان يريد مهاجمة مصر ونظامها الثوري الجديد مهما كانت الأسباب ، لذا علق بن جوريون على تلك الصفقة قائلاً :

" لا بد أن يسقط النظام في مصر قبل وصول الأسلحة الروسية " (١٤) .

ويذهب بن جوريون بعيداً في حذره وتخوفه ، فيقول لرئيس أركان جيشه بعد الإعلان عن الصفقة :

" أعتقد أنهم سيهاجموننا في الصيف ، ويجب علينا الافتراض بأنهم سيقومون بذلك ، فالمنطق يقول أنهم سيشنون هجومهم بمجرد تأكدهم من إمكانية النصر " (١٥) .

وتعقد الكنيست اجتماعاً لمناقشة موضوع الصفقة ،" وقد عبر جميع الخطباء في كلماتهم عن أن المعنى الحقيقي الكامن خلف صفقة الأسلحة التشيكية لمصر هو الحرب ، وأن هذه الحرب ستهب في القريب العاجل " (١٦) .

إن كل ما سبق يوحي للقارىء أن العرب ممنوع عليهم أن يتسلحوا بشيء ، وأن المطلوب منهم أن يظلوا بلا سلاح مطايا لأعدائهم يغزونهم متى شاءوا ، وأن تظل ساحات هذا الوطن العربي ملاعب لخيول المستعمرين بلا رادع ولا مانع ! وإلا فما هذا الضجيج الذي ثار بسبب تلك الصفقة ، أكلّ هذا لأنها خروج على المألوف ببقاء العرب عبيداً للغرب يسلحهم متى شاء ، ويمنع عنهم السلاح متى أراد ؟

وفي خطاب له في ٢٧أيلول ١٩٥٥ يفسر ناصر الموقف قائلاً :

" إنكم تعلمون أن الأسلحة الثقيلة تتحكم فيها الدول الكبرى ، وأن الدول الكبرى لن ترضى أبداً أن تمول الجيش بالأسلة الثقيلة إلا بشروط واشتراطات ، وأنكم تعلمون أننا رفضنا هذه الاشتراطات ، لأننا نحرص على الحرية الحقيقية ، ونحرص على السياسة المستقلة ، ونحرص على أن تكون لمصر سياسة مستقلة ، حتى نخلق من مصر شخصية جديدة مستقلة تخلصت فعلاً من الاحتلال ، وتخلصت فعلاً من السيطرة الأجنبية بكل معانيها ، كنا نسعى في هذا السبيل ، واليوم نسمع ضجة من لندن ومن واشنطن على تسليح الجيش المصري ، وأنا أقول لكم أننا حاولنا طول السنين الثلاث الماضية أن نسلح الجيش المصري بأسلحة ثقيلة ، بكل الوسائل ، لا بغرض العدوان ، ولا بغرض الحرب ، ولكن بغرض الدفاع ، بغرض الأمن ، بغرض السلام ، إني يا إخواني أشعر بالضجة من هنا ، والضجة من هناك ، أشعر بهذه الضجة حين استطعنا أن نحصل للجيش على حاجته من الأسلحة بدون قيد ، حتى تحقق الهدف الذي قامت الثورة من أجله ، أن يكون لمصر جيش وطني قوي يحمي الاستقلال الحقيقي ، ويحمي الحرية الحقيقية ..

وحينما قامت الثورة التجأنا إلى كل الدول ، والتجأنا إلى كل ميدان من أجل تسليح الجيش .

التجأنا إلى انجلترا ، والتجأنا إلى فرنسا ، والتجأنا إلى أمريكا ، والتجأنا إلى باقي الدول من أجل تسليح الجيش .. من أجل السلام ، ومن أجل الدفاع ، فماذا أخذنا ؟ الحقيقة أننا لم نأخذ إلا مطالبات ، فقد أرادوا أن يسلح الجيش بعد أن يوقع وثيقة ، وبعد أن نوقع

على مواثيق .. وإننا أعلنا أننا أردنا وصممنا على أن نسلح جيشنا من أجل حريتنا ، ومن أجل شخصيتنا المستقلة .. من أجل ثورتنا .. ومن أجل عزة وطننا ، ومن أجل كرامة مصر ..وأعلنا أننا لن نسلح الجيش على حساب استقلالنا..إننا لن نسلح الجيش على حساب حريتنا .

وطلبنا السلاح ، فماذا كانت النتيجة ؟ وصلتني الردود من بعض هذه الدول بأنني يمكن أن أسلح الجيش ، ولكن بشروط ، ورفضت هذه الشروط وانتظرنا إلى أن وصلنا رد على هذا الخطاب من حكومة تشيكوسلوفاكية ، فيه أنها مستعدة أن تموننا بالسلاح ، حسب حاجتنا على أساس تجاري بحت ، وأن هذا التعامل يعتبر كأي تعامل تجاري آخر ، فقبلنا في الحال هذا الاتفاق ، ووقعت مصر في الأسبوع الماضي اتفاقية تجارية مع تشيكوسلوفاكية من أجل تموينا بالسلاح ، وهذه الاتفاقية تسمح لمصر بأن تدفع الثمن منتجات مصرية مثل القطن والأرز ... وإنني حينما أسمع متحدثاً يقول أن هذا فتح للنفوذ الروسي الأجنبي في الشرق الأوسط أو في مصر ، حينما أسمع هذا أنظر إلى الماضي البعيد ، وأقول أن هذه الاتفاقية التجارية التي وقعناها بلا قيد ولا شرط لا تعتبر فتحاً للنفوذ الروسي ، ولا للنفوذ الأجنبي ، ولكنها تعتبر قضاء على النفوذ لطويل الذي تحكم فينا ، وسيطر علينا ، إن مصر المستقلة مصر الثائرة القوة ، لن تمكن النفوذ الأجنبي في بلادنا " (١٧) .

ولا يغرب عن القارىء أن ناصر يتعمد أن يذكر أن الصفقة عقدت مع التشيك وليس مع السوفييت .

وبعد ذلك يذكر وعود فرنسا بمد مصر بالسلاح مقابل أن تتخلى مصر عن مواقفها المعروفة ضدها في شمال إفريقيا ، أي - كما قال ناصر - أن تتخلى مصر عن قوميتها وإنسانيتها ، أما أميركا فلم تأخذ منها مصر إلا الوعود المرتبطة بشروطها المعروفة ، وهي توقيع مصر على حلف من الأحلاف (١٨) .

ولكن ناصر - وبعد أربعة أيام - يضع النقاط على الحروف ، موضحاً الموقف في خطاب له في الكلية الحربية في الأول من تشرين أول ١٩٥٦ ، فيقول :

" .. إن هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً نفهمه ويفهمه العرب جميعاً ، إنهم يريدون أن نكون ضعفاء ، أن نكون مستضعفين .. لقد كنا نشعر في الماضي أننا أغنياء بالرجال ، وأغنياء بالتضحية ، وأغنياء بالنفوس ، وأغنياء بالإيمان .. ولكنا كنا نشعر بالضعف في السلاح .

وأنا أقول اليوم ، بل أنا أحس معكم يا إخواني أننا أغنياء بالرجال .. وأغنياء بالإيمان .. وأغنياء بالتضحية .. وأغنياء بالسلاح .

وبهذا ستسير مصر قدماً إلى الأمام في خطتها ، لا ضعف ولا خور ، بل تصميم وعزم حتى نسلح جيش مصر ، وحتى نتمكن جميعاً من أن ندافع عن حدود مصر ، وحتى نرد العدوان بالعدوان ، وحتى لا نسمح بالعدوان " (١٩) .

ألا يحس قارىء السطور السابقة بأن معنويات الزعيم الراحل عالية بهذه الصفقة التي فتحت بوابة السوفييت للمصريين على مصراعيها ، فكيف إذن بمعنويات الجنود والضباط الذين تسلموا الأسلحة ، وراحوا يفحصونها ويتدربون عليها .

وها هو ناصر يفسر لنا شيئاً من هذه المعنويات ، فيقول في ٦ تشرين أول ١٩٥٦ :

" إن الاتفاقية التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكية ستجعل إسرائيل تفكر كثيراً قبل أن تقدم على عمل عدواني .

لقد كنت أتوقع هجوماً من جانب إسرائيل منذ ٢٨ فبراير الماضي ، ولكن خطر هذا الهجوم قد تناقص كثيراً بعد أن عاد ميزان التسلح بعد اتفاقية الأسلحة بين مصر وتشيكوسلوفاكية " (٢٠) .

حقاً لقد كان لجوء الزعيم الراحل للإتحاد السوفييتي للحصول على السلاح خطة حكيمة غيرت موازين الصراع في الشرق الأوسط ، بل جعل مصر تقف أمام أعدائها بكل قوة وشجاعة وعنفوان ، وجعل إسرائيل تحسب كل خطوة عدوانية قبل الشروع فيها .

ولا ننس أن السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي قاتلنا به في حروبنا مع إسرائيل .

وفي هذه العجالة لن ننسى أن السوفييت لم يكن وقوفهم معنا بالسلاح فقط ، " وإنما تحمل الأرض العربية على ظهرها شواهد لا يمكن إنكارها من رموز التعاون العربي السوفييتي : سد أسوان العالي - سد الفرات- مجمعات الحديد والصلب - ترسانات بناء السفن - مصانع بالمئات بل بالآلاف - مفاعلات ذرية - محطات كهرباء ، إلى آخره " (٢١) .

أثر صفقة الأسلحة التشيكية على دول المنطقة وغيرها

وكان لهذا الخروج على المألوف من قبل مصر ، بقيادتها الحكيمة ، باللجوء للسوفييت في الحصول على السلاح أثره الكبير على الدول الأخرى ، فقد أخذت هذه الدول تنهج نهج مصر في الاستعانة بالسوفييت ، " فلم تمض عدة شهور حتى تعاقدت

سوريا مع الإتحاد السوفييتي على شراء السلاح ، وتبعتها أفغانستان ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت اليمن الدولة الرابعة ، ومن بعدها توالت تعاقدات الدول ، وكأنها مسبحة انفرط عقدها من يد الإمبريالية العالمية التي كانت تقبض عليها " (٢٢) .

وهكذا كانت سياسة عبد الناصر - بعقد تلك الصفقة وما تلاها - نهاية عصر السيطرة الإمبريالية على دول المنطقة وسواها من الدول غير الشيوعية ، السياسة التي لا تعرف الخضوع والخنوع لما هو راسخ في تاريخ الضعفاء ، مألوف في سلوكيات المستسلمين للاستعمار وأذنابه من الجبناء !

الصفقة التشيكية في الصحافة الغربية

قالت صحيفة التايمز البريطانية : " إن حصول مصر على أسلحة من الشيوعيين سيستوجب وجود خبراء ومستشارين منهم في مصر ، وأن تزويد مصر بالأسلحة الروسية من شأنه ازدياد نفوذ روسيا في مصر خاصة ، وفي الدول العربية عامة "

وقالت صحيفة الديلي ميل :" إنه سيكون من نتيجة تعاقد مصر مع الشيوعيين على تزويدها بالأسلحة أن ينتقل عملاء روسيا الشيوعية إلى منطقة قناة السويس بوصفهم خبراء في الأسلحة يستدعي الحال إيفادهم إلى مصر لتدريب المصريين على استخدام تلك الأسلحة "

ووصفت صحيفة الديلي تلغراف الأمر" بأنه خطوة مشؤومة من جانب مصر ، وقالت أن السلام في المنطقة يعتمد أساساً على توازن التسليح بين مصر وإسرائيل "

وقالت الإيفننج ستار الأمريكية : " إن تقديم روسيا أسلحة لمصر عمل يتمشى مع هدف روسيا الدولي وهو إنشاء منطقة نفوذ لها في الشرق الأوسط " (٢٣) .

ويتلخص تعليق الصحف البريطانية الأميركية في :

١- احتمال إيفاد السوفييت خبراء لهم إلى مصر بداعي التدريب على الأسلحة الجديدة ، وقد حدث هذا بالفعل ، ووصل مصر آلاف من الخبراء السوفييت في المجالات العسكرية والمدنية .

٢- ازدياد نفوذ السوفييت في المنطقة ، وهذا يؤثر على موازين القوى فيها .

ولكن هذه الصحف لا تقول شيئاً عن خوف حكوماتها أن تصبح مصر دولة نداً لإسرائيل ركيزتهم في المنطقة ، وأن الشرق الأوسط يجب أن يظل مسرحاً لدول الغرب لا لسواها من دول الشرق .

وقلق إسرائيلي وغربي ..!

وهذه هي حكومة إسرائيل ترسل مذكرة للسوفييت " تلفت فيها انتباههم للتهديد الخطير لأمن إسرائيل نتيجة صفقة الأسلحة لمصر ، وقالت أن تقديم الأسلحة لمصر يمكنها من شن حرب جديدة ضد إسرائيل ، واستشهدت المذكرة ببعض فقرات من خطب عبد الناصر" كما طالبت المذكرة بأن لا يرسل السوفيت السلاح لدول عربية أخرى ، وان لا يفعل ذلك بقية الدول الحليفة للسوفييت (٢٤) .

وكان الرد السوفييتي أن أميركا وبريطانيا كانتا على استعداد لبيع الأسلحة لمصر شريطة انضمام مصر للأحلاف الغربية ، إلا أن مصر فضلت العرض التشيكي لأنه يخلو من أي ارتباطات (٢٥) .

بينما كان الرد التشيكي أكثر جرأة ووضوحاً ، فقد أذاع راديو براغ " أن عبد الناصر قبل الدعوة التي وجهتها إليه الحكومة التشيكية لزيارة تشيكوسلوفاكيا ، ثم أشار المذيع إلى صفقة الأسلحة وقال :

" إن الحكومة المصرية رأت - حرصاً على سلامة بلادها ، وعلى مصلحة السلام في الشرق الأوسط - أن تحصل على أسلحة من حيث تستطيع الحصول عليها ، على أسس تجارية خالية من القيود السياسية ، وغيرها من الشروط " " ثم أعلنت حكومة تشيكوسلوفاكيا أنها متمسكة بتنفيذ التزاماتها بشأن الاتفاق المصري معها ، ورفض أي تدخل أجنبي يمس سيادة البلدين " (٢٦) .

وفي لندن يصرح انتوني أيدن رئيس الوزراء البريطاني : " إن الحالة في الشرق الوسط متوترة ، وتنذر بالخطر ، وأضاف قائلاً إن تقديم أي من الدول الكبرى أسلحة بكميات كبيرة يزيد من الخطر في الشرق الوسط " (٢٧) .

وفي جنيف يلتقي وزراء خارجية أميركا وبريطانيا وفرنسا زميلهم وزير الخارجية السوفييتي مولوتوف ، واحتجوا على تلك الصفقة ، فكان رد مولوتوف : إن صفقة الأسلحة التي عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا تمت على أساس المقايضة بين هاتين الدولتين ، وان الإتحاد السوفييتي لن يتدخل " (٢٨) .

وفي ٢٢ تشرين ثان ١٩٥٥ تدور مناقشات في مجلس العموم البريطاني ، فيصرح أنتوني إيدن " بأن الاتحاد السوفييتي رفض الأخذ بوجهة النظر البريطانية ، وأعلن أنه ليس من المحتمل الوصول إلى اتفاق مع الاتحاد السوفييتي حول هذه المسألة ، وأنه يجب على الغرب أن يستمر في إرسال الأسلحة إلى بلدان تلك المنطقة " ويقصد بالطبع إسرائيل (٢٩) .

عبد الناصر يفسر اهتمام الغرب بصفقة الأسلحة التشيكية

وفي خطاب مطول له في عيد العمال عام ١٩٧٠ ، يفسر ناصر إصرار مصر على شراء السلاح ، فيقول :

" ...ولكن فجأة في سنة ١٩٥٥ فوجئنا بغارة إسرائيلية على مدينة غزة في فبراير سنة ١٩٥٥ ، كان الغرض من هذه الغارة أن تفرض علينا إسرائيل التسليم ، وكان فرض هذه الغارة ، والغارات التي تلت هذه الغارة ، نفكر جميعاً بعد سنة ٥٥ ، ومن أول فبراير سنة ١٩٥٥ ، بدأت الغارة على غزة ، ثم استمرت الغارات الإسرائيلية على قطاع غزة ، وعلى القوات المصرية المرابطة على الحدود ، وكانت إسرائيل تعلن استراتيجيتها واضحة ، ولم تكن تنكر أنها تريد أن تفرض التسوية التي تريدها .

ومعنى فرض التسوية هو فرض الاستسلام ، أو فرض التسوية بالسلاح ، أي أن تفرض إسرائيل آراءها وما نريد على الأمة العربية جميعاً .

وبعد أن أردنا أن نحصل على السلاح من بريطانيا ، وأردنا أن نحصل على السلاح من أمريكا رغم وعودها في هذه الأيام أن تمدنا بأي نوع من أنواع السلاح الذي طلبناه ، طلبنا دبابات أعداد قليلة ، وطلبنا طيارات أعداد قليلة ، ولكن لم نتمكن في سنة ١٩٥٥ ، وكانت إسرائيل في هذه الأيام تحصل على السلاح أساساً من بريطانيا ومن فرنسا ، **وكانت النتيجة الطبيعية لندافع عن أنفسنا أن نعقد صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٥٥** ، وكان لا بد لنا أن نقوي قواتنا المسلحة من أجل الدفاع عن بلادنا ، وكان من الواضح في سنة ١٩٥٥ أن إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل يعملون على التخطيط ، وعلى الترتيب لكسر القوة العربية من أقوال زعماء إسرائيل التي نشرت بعد سنة ١٩٥٦ ، وبعد سنة ١٩٦٧ كانت إسرائيل تخطط دائماً للحرب الوقائية ، وكانت خطة إسرائيل التي تمكنها من أن تحافظ على إرادتها ، وقال ديان في مذكراته بعد حرب ١٩٥٦ أنهم قرروا في سنة ٥٥ أن يهاجمونا مهما كلف الأمر ، لكن كانت هناك مشاكل كثيرة ، وكانت هناك مشاكل صعبة ، وكانوا يريدون أن يعتمدوا على إحدى الدول الكبرى حتى تساندهم بالسلاح حيث يقومون بشن الهجوم " (٣٠) .

وبعد أن يشرح الزعيم الراحل تفاصيل حرب السويس ١٩٥٦ ، ودوافع الدول الثلاث المشاركة في تلك الحرب لخوضها ، وأسباب هزيمتها ، يضيف :

" خرجت إسرائيل .. وانسحبت إسرائيل في سنة ١٩٥٧ ، ولكن إسرائيل وقادة إسرائيل من يومها كانوا يستعدون لمعركة أخرى .

من أقوال زعماء إسرائيل ، وقادة إسرائيل ، ومذكرات إسرائيل المنشورة ، والتي صدرت بعد سنة ١٩٦٧ قالت أنهم كانوا يريدون هذه المعركة في المدة ما بين ٦٦ و ٧٠ ، ليه ..

كانوا يردون هذه المعركة قبل أن تستكمل مصر بناء قواتها المسلحة .. قبل أن تدخل مصر في مرحلة الانطلاق .. قبل أن يتم بناء السد العالي .. قبل أن تتم خطط التصنيع .. قبل أن تتم خطط تطوير الصناعة ، واستصلاح الأراضي الجديدة .

كانت إسرائيل تريد المعركة قبل أن نكون قد أتممنا ما نريد من أجل بنائنا الداخلي ، وبنائنا الصناعي ، وبنائنا العسكري (٣١) .

الفصل الرابع
عبد الناصر وحرب السويس

وقعت عدة أحداث في منطقة الشرق الأوسط في السنوات الأولى للثورة والتي سبقت العدوان الثلاثي كانت تشكل الإرهاصات لذلك العدوان على مصر ، وما دعي لاحقاً بحرب السويس ، منها :

١- مساعدات مصر المستمرة لثورة الجزائر وتأييدها المطلق لها ، مما دعا وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو لزيارة القاهرة لإقناع ناصر بالتوقف عن ذلك الدعم ، لكن ناصر رد بأن الوقوف مع الثورة الجزائرية واجب قومي لن تفكر مصر في التخلي عنه ، فكانت مشاركة فرنسا في العدوان الثلاثي انتقاماً من عبد الناصر وسياسته القومية .

٢- اعتراف مصر بالصين الشعبية على إثر تزويد أميركا لإسرائيل بطائرات ساير .

٣- قرار العاهل الأردني الملك حسين في الأول من آذار ١٩٥٦ بطرد الجنرال الإنجليزي جون باجوت كلوب(١٨٩٧-١٩٨٦) قائد الجيش الأردني بعد أن قاد هذا الجيش ١٧ عاماً (١٩٣٩-١٩٥٦) ، وبعد عمله في الأردن مدة ٣٠ عاماً ، وقد ظنت بريطانيا أن عبد الناصر هو الذي أشار على الملك حسين بهذا القرار ، وقد علق أنتوني إيدن على هذا ذلك بقوله :

" إن عبد الناصر هو عدونا رقم ١ في الشرق الأوسط ، ولن يستريح حتى يقضي على كل أصدقائنا ، وعلى كل جزء من نفوذنا "(١) .

٤- **السبب المباشر : قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦** بعد أن أعلنت الولايات المتحدة في ١٩ تموز على لسان وزير خارجيتها جون فوستر دالاس (١٨٨٨-١٩٥٩) سحبها عرضها للإسهام في تمويل السد العالي ، مدعية أن اقتصاد مصر لا يتحمل هذا المشروع الضخم (٢) .

وباستطاعتنا أن نضيف لما سبق بعض الأسباب للعدوان :

١- حصول مصر على السلاح من الاتحاد السوفييتي ابتداء بصفقة الأسلحة التشيكية الموقع عليها في ٢٤ أيلول ١٩٥٥، مما سيجعل من مصر حليفاً للسوفييت في المنطقة ، إضافة إلى تقويتها جيشها بدون اللجوء إلى دول الغرب التي ستتحكم في ذلك لو كانت المصدر الوحيد للتسلح .

وقد ذكر ناصر ذلك في خطاب التأميم ، فقال بعد إعلان أميركا انسحابها من المشروع :

" ما الغرض من هذا ؟ إنهم يعاقبون مصر لأنها رفضت أن تقف بجوار التكتلات العسكرية .. مصر نادت بالسلام وتحقيق حقوق الإنسان "(٣) .

٢- قرار عبد الناصر الشجاع ببناء السد العالي على غير ما تشتهي دول الاستعمار ، لأنها تعلم ما ستجنيه مصر من فوائد وعائدات من هذا المشروع الضخم ، وقد قال عنه عبد الناصر في خطابه الشهير في ٢٦ تموز ١٩٥٦في الإسكندرية والذي أعلن فيه التأميم :

" .. والتاريخ لن يعيد نفسه ، بل على العكس ، سنبني السد العالي ، وسنحصل على حقوقنا المغتصبة .. سنبني السد العالي كما نريد .. وسنصمم على هذا ، ٣٥ مليون جنيه كل سنة تأخذها شركة القناة .. فلتأخذها مصر .. مائة مليون دولار كل سنة تحصلها شركة القناة لمصلحة مصر .. فلنحقق هذا الكلام وتحصل مصر على المائة مليون دولار لمنفعة مصر أيضاً "(٤) .

٣- تصدي عبد الناصر لسياسة الأحلاف في المنطقة ، حتى أصبحت وسائل الإعلام في الغرب وأميركا تصفه بأنه عدو الغرب الأول (٥) .

٤- ولا ننس أن النفوذ البريطاني قد تقلص وأخذ بالتلاشي تدريجياً في منطقة الشرق الأوسط بعد جلاء الجيوش البريطانية عن المنطقة ، في تلك الفترة التي بدأت تشهد استقلال الدول العربية عن الاستعمار ، لذا كان تأميم قناة السويس ذريعة لعودة بريطانيا لنفوذها القديم .

٥- التقدم الاقتصادي الكبير الذي بدأت تحرزه مصر بعد ثورتها المجيدة ، وقد لخصه ناصر في **خطاب التأميم** بزيادة الدخل الزراعي بنسبة ١٥% ، وزيادة الإنتاج الصناعي بنسبة ٢٥% ، كما بلغت الزيادة في إنتاج الحديد والصلب ٩٤% (٦) ، وهذه إنذارات بقيام دولة كبرى تستغني عن دول الاستعمار السياسي والاقتصادي ، وباستطاعتها الوقوف أمام إسرائيل الدولة التوسعية التي ليس من مصلحتها قيام مصر عبد الناصر القوية أمام مخططاتها لإضعاف دول المنطقة ، والسيطرة على مقدراتها .

وقد وصف ناصر هذا التطور في الخطاب ذاته قائلاً :

" ما هي التطورات التي حدثت في السبعة شهور الماضية ؟

إنهم يحاولون أن يبينوا أنها تطورات اقتصادية ، التطورات هي **تطورات استقلالية .. تطورات حرية .. تطورات عزة وكرامة** .. التطورات التي حدثت في السبعة شهور الماضية أننا بنينا سداً من العزة والكرامة .. سداً للحرية والاستقلال ضد

الأطماع .. التطورات التي حدثت أننا صممنا أن نقوي جيشنا ونسلحه ، صممنا أن تكون لنا شخصية مستقلة .. صممنا أن تكون لنا حرية مستقلة " (٧) .

وفي ٢٦ تموز ١٩٥٦ أعلن الزعيم الراحل عبد الناصر في **خطابه الشهير في الإسكندرية تأميم القناة قائلاً :**

" باسم الأمة

رئيس الجمهورية

مادة ١ - تؤمم الشركة العالمة لقناة السويس البحرية - شركة مساهمة مصرية - ، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق ، وما عليها من التزامات ، وتحل محل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها " (٨) .

وبعد قراءته باقي المواد الست لذاك القرار ، جاء في خطابه :

" واليوم أيها المواطنون ، وقد عادت الحقوق إلى أصحابها .. حقوقنا في قناة السويس .. عادت إلينا بعد مائة سنة .. اليوم إنما نحقق الصرح الحقيقي من صروح السيادة ، ونحقق البناء الحقيقي من أبنية العزة والكرامة .. وقد كانت قناة السويس دولة في داخل الدولة شركة مساهمة مصرية ، ولكنها تعتمد على المؤامرات الأجنبية ، وتعتمد على الاستعمار وأعوانه .

بنيت قناة السويس من أجل مصر ، ومن أجل منفعة مصر ، ولكن كانت قناة السويس منبعاً للاستغلال واستنزاف المال ، وكما قلت لكم منذ قليل .. ليس عيباً أن أكون فقيراً ، أو أن أعمل على بناء بلدي ، ولكن العيب هو امتصاص الدماء .. لقد كانوا يمتصون الدماء .. يمتصون حقوقنا ويأخذونها ".

" اليوم أيها المواطنون دخل السويس ٣٥ مليون جنيه ، أي مائة مليون دولار في السنة ، أي خمسمائة مليون في خمس سنوات .. فلم ننظر إلى ٧٠ مليون دولار قيمة المعونة الأمريكية "

" سنبني الصناعة في مصر ، وسننافسهم ، فهم لا يريدون أن نكون دولة صناعية حتى تروج منتجاتهم ، وتجد لها أسواقاً عندنا " (٩) .

وبعد يومين ، وفي خطاب آخر له في ٢٨ تموز ، يقول ناصر مطمئناً العالم على أن الملاحة وحركة السفن لن تتأثر بقرار التأميم :

" إن الملاحة انتظمت في قناة السويس ٤٨ ساعة من وقت التأميم إلى الآن .. الملاحة مستمرة .. الملاحة سليمة " .

ويضيف منبهاً لسياسة الدولتين الاستعماريتين العدوانية ، قارئاً المستقبل بخبرته ووعيه :

" لقد أممنا الشركة ، ولم نتدخل في الملاحة ، بل نحن نسهل أمور الملاحة .. وسنحافظ على حرية الملاحة ، ولكني أحذر دولتيَ الاستعمار تحذيراً قوياً ، وأنذرهما بأن ألاعيبهما وتدخلهما سيكونان سبباً في تعطيل الملاحة " (١٠) .

أما في هذه الأيام فإيراد القناة ضخم جداً ..

فقد صرح الفريق أحمد علي فاضل رئيس هيئة قنا السويس أن إيراد القناة قد بلغ إلى ٤٣٦ مليون دولار في شهر آب ٢٠١٠ ، أي ما يساوي ٥،٢٣٢ مليار دولار سنوياً (١١) .

تطور الأحداث

في ٢٧ تموز ١٩٥٦ بريطانيا وفرنسا تقدمان لمصر احتجاجاً رسمياً على تأميمها قناة السويس .

٢٨ تموز ١٩٥٦ تجميد أرصدة مصر في بنوك انجلترا وفرنسا

٣٠ تموز ١٩٥٦ بريطانيا وفرنسا تبدأان اتخاذ إجراءات عسكرية ، وتشكلان قيادة مشتركة .

٣١ تموز ١٩٥٦ إيدن يعلن إجراءات ترحيل الرعايا البريطانيين والفرنسيين من النساء والأطفال عن مصر .

٢ آب ١٩٥٦ بريطانيا وفرنسا تطالبان بإشراف دولي على القناة .

١٢ آب ١٩٥٦ بريطانيا وفرنسا تشرعان في تحركاتهما العسكرية .

٢٣-٢٦ آب ١٩٥٦ عقد مؤتمر لندن بحضور ٢٢ دولة وغياب مصر لبحث مشكلة القناة .

٢٥ آب ١٩٥٦ تشكيل لجنة منزيس من خمس دول ، ولدى اجتماعها بعبد الناصر رفضت مصر اقتراح اللجنة بتدويل القناة .

٨ أيلول ١٩٥٦ سحبت معظم الدول الغربية مرشديها من القناة لتعطيل الملاحة فيها (١٢) .

ويقصد رئيس وزراء إسرائيل آنذاك ديفيد بن جوريون(١٨٨٦-١٩٧٣) فرنسا ، ويعرض عليها خطة تهاجم بمقتضاها إسرائيل مصر ، ثم تتدخل فرنسا وبريطانيا لمطالبة مصر وإسرائيل بسحب جيوشهما عن القناة ، وبرفض مصر المتوقع يكون العذر الكافي لمشاركتهما في مهاجمة مصر (١٣) .

وفي ٢٩ تشرين أول ١٩٥٦ شرعت القوات الإسرائيلية في عدوانها على سيناء ، وبدأت الاشتباكات مع القوات المصرية في الكونتيلا ، وبدأت القوات البريطانية الفرنسية عمليات إنزال بقوات المظلات في بورسعيد وبور فؤاد .

وبعد دفاع مجيد من القوات المصرية والفلسطينية احتلت القوات الإسرائيلية قطاع غزة ، وارتكبت إسرائيل في الأيام الثلاثة الاولى من تشرين ثان ثلاث مجازر في خان يونس ورفح قتل فيها حوالي ٧٠٠ من السكان ، كما نشبت معارك أخرى في أم قطف وأبو عجيلة ومتلا وشرم الشيخ (١٤) .

وفي اليوم التالي ، أنذرت فرنسا وبريطانيا إسرائيل ومصر بوقف القتال خلال ٢٤ ساعة ، ولما رفضت مصر الإنذار في ٣١ تشرين أول ، بدأت الدولتان الهجوم على مصر بقصف المطارات المصرية ، ولكي لا تحاصر القوات المصرية بين القوات الإسرائيلية العابرة سيناء والقوات البريطانية والفرنسية التي كانت متجهة صوب الضفة الشرقية للقناة ، قرر عبد الناصر سحب الجيش المصري من سيناء وتوحيد الدفاعات العسكرية كلها غرب القناة ، وبقيت بعض القوات تقاتل شرق القناة لمشاغلة قوات العدو ، وطلب من القوات الموجودة في مدن القناة - بجانب قوات التحرير والفدائيين - الدفاع عنها حتى آخر طلقة ، وتوزيع السلاح على السكان للمشاركة في القتال (١٥) ، أما عن سلاح الطيران فقد طلب عبد الناصر نقل عدد كبير من الطائرات المصرية إلى سوريا والسعودية ، ومنع الطيارين المصريين من مواجهة الطائرات المهاجمة حفاظاً عليهم (١٦) .

وقد ذكر ذلك في خطابه الشهير في الأزهر في ٢ تشرين ثان ١٩٥٦ بدون الإشارة إلى نقل الطائرات إلى دول أخرى ، فقال :

" ..كان أمامنا حلان لا بد أن نصل فيهما إلى قرار ..

هل يطلع سلاح الطيران ويشترك في المعركة ، ويموت كل الطيارين ، ويقضى على سلاح الطيران ، والطيار يحتاج إلى أربع سنين لكي يتعلم ، أم لا يتدخل سلاح الطيران في المعركة ونترك لهم الجو وندخر سلاح الطيران للمعركة الفاصلة .

هذا القرار كان بحاجة إلى بت ، وكان أمامنا أن نهدم غرض الإنجليز ، فأصدرت أمراً مشدداً بألا يشترك طيارونا في المعركة " (١٧) .

وفي يوم ٣١ تشرين أول وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارهما للحكومة المصرية بسحب قواتها عشرة أميال غرب القناة ، وان تسمح بنزول قوات الدولتين لتحتل مراكز لها في المنطقة ريثما يتم الوصول لتسوية سلمية ، ولكن الحكومة المصرية رفضت

الإنذار ، وأمر ناصر بتعطيل الملاحة في القناة فنسفت فيها بعض السفن المحملة بالإسمنت ، فتم إغلاقها (١٨) .

وعن هذا الانسحاب تحدث ناصر في خطابه في ٢ تشرين ثان ١٩٥٦ ، كاشفاً دوره الرئيس في تفاصيل المعركة ، وخطط المواجهة ، دالاً على خبرة ودراية في علوم الحرب ، فقال :

" .. كان لا بد لنا من اتخاذ القرار الخطير وهو توحيد جبهتنا ، فأصدرت الأمر إلى القائد العام للقوات المسلحة بسحب جميع القوات المسلحة من سيناء إلى غرب قناة السويس حتى تكون بجانب الشعب لملاقاة قوات الاستعمار .

وقد تم انسحاب قواتنا المسلحة من منطقة سيناء ، وتركت قوات انتحارية ، ورجعت جميع قواتنا إلى القنال والدلتا ، ونحن في انتظار الإنجليز والفرنسيين في الدلتا ، ويجب أن تعلموا جميعاً أن قواتنا ليست معزولة ، وبذلك أحبطت المؤامرة الماكرة التي قامت بها بريطانيا وفرنسا بالاتفاق مع إسرائيل لعزل القوات المسلحة المصرية عن الشعب ، وكانت الخطة هي ضرب المدن المصرية بالطائرات وتدمير الجيش في سيناء ، ولكنا كشفنا الخطة ، وحشدت قواتنا لصدها .

وقد وصلت قواتنا الرئيسية إلى القنال تاركة القوات الانتحارية في شبه جزيرة سيناء " (١٩) .

وفي الخطاب ذاته لا ينسى دور بورسعيد العظيم في القتال :

" بور سعيد لم تسلم ، وإنما قاتلت وقاست ، وقاومت وضُربت بقنابل الأسطول والطائرات المعتدية ، بورسعيد هي التي حمت مصر كلها ، بورسعيد هي التي فدت مصر والعروبة ، بورسعيد استطاعت أن تحبط خطط الاستعمار الذي قال أنه سيأخذ مصر في أربع وعشرين ساعة " (٢٠) .

وبدأت الطائرات الفرنسية والبريطانية هجومها على المطارات المصرية مساء يوم ٣١/ ١٠ ، وهاجمت القوات المعادية مدينة بور سعيد التي أبدت مقاومة باسلة كلفت الفريقين الكثير من الضحايا (٢١) .

الإنذار السوفييتي

وفي يوم ٥/١١/٥٦ وجه رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي الماريشال "بولجانين" إنذاراً لبريطانيا وفرنسا ، وآخر إلى إسرائيل ، يهدد في الإنذار الأول بقصف باريس ولندن بالصواريخ ، وفي الثاني تلميح لاستعمال القوة ضد إسرائيل إذا لم توقف أعمالها الحربية .

وقد ورد في **الإنذار الموجه لبريطانيا وفرنسا** ما يلي :

" إن قناة السويس استعملت كمبرر فقط من أجل شن حرب عدوانية مدبرة ضد الأمة العربية بقصد تصفية الاستقلال الوطني لدولها ... وإني لأتساءل في أي موقف تجد فيه بريطانيا - أو فرنسا - نفسها إذا هوجمت بواسطة قوى أكبر منها تملك أنواعاً حديثة من أسلحة الدمار الشامل ؟ إن هذه القوى الكبيرة لن ترسل أساطيلها البحرية أو الجوية لتقتحم الشواطئ البريطانية (أو الفرنسية) ، وبدلاً من ذلك فإنها تستطيع أن تستعمل وسائل أخرى كالصواريخ مثلاً ، وإذا استعملت الصواريخ ضد بريطانيا وفرنسا ، فإنكم بالتأكيد سوف تسمون ذلك عملاً بربرياً ، ومع ذلك فأي فارق بين هذا وبين غزوكم لمصر " (٢٢) .

وورد في **الإنذار الموجه إلى إسرائيل :**

" السيد رئيس الوزراء :

لقد أعربت الحكومة السوفييتية من قبل عن تنديدها بالعدوان المسلح الإسرائيلي ، بالإضافة إلى العدوان الفرنسي ضد مصر ، والذي يؤلف خرقاً واضحاً وصريحاً لميثاق الأمم المتحدة وأسسها ، وفي الجلسة الطارئة للجمعية العامة نددت معظم دول العالم عمل العدوان الذي استهدف جمهورية مصر ، وطالبوا حكومات إسرائيل وبريطانيا وفرنسا إنهاء الأعمال العسكرية بدون تأخير ، وسحب الجيوش المغيرة من المناطق المصرية ، إن جميع البشر المحبين للسلام يشجبون بسخط الأعمال الإجرامية للمعتدين الذين خرقوا وحدة أراضي وسيادة استقلال جمهورية مصر .

وبدون أخذ هذا بالاعتبار ، تستمر حكومة إسرائيل بعملها كأداة في أيدي قوى الإمبريالية الخارجية في هذه المغامرة ، وبهذا تتحدى جميع الشعوب المحبة للسلام في العالم .

إن أعمال حكومة إسرائيل هذه توضح بجلاء التقييم الذي يوضع لجميع تصريحاتها الباطلة عن حب إسرائيل للسلام ، ورغبتها في تعايش سلمي مع الأقطار العربية المجاورة ، وفي هذه التصريحات ، فقد هدفت حكومة إسرائيل في الواقع إلى تحذير يقظة الشعوب الأخرى ، بينما كانت قد بيتت هجوماً غادراً على جيرانها ، لإطاعة إرادة أجنبية ، والعمل بأوامر خارجية .

إن حكومة إسرائيل تلعب بمصير السلام بشكل إجرامي ، وبدون تقدير للمسؤولية ، كما تلعب بمصير شعبها نفسه ، إنها بعملها هذا تزرع الحقد بين شعوب الشرق الأوسط على إسرائيل ، وتضع علامة استفهام على الوجود الحقيقي لها كدولة في الشرق الأوسط .

إن الحكومة السوفييتية باهتمامها الحيوي في الحفاظ على السلام ، والإبقاء على الهدوء في الشرق الأوسط ، تتخذ في هذه اللحظة الخطوات لإنهاء الحرب وكبح المعتدين

نحن نقترح أن تدرس حكومة إسرائيل - وقبل فوات الأوان - أن تنهي إجراءاتها العسكرية ضد مصر.

نحن نطلب منكم ومن البرلمان ، ومن العمال في دولة إسرائيل ، ولجميع شعوب إسرائيل إيقاف العدوان ، وإيقاف هدر الدماء ، وأن تسحبوا جيوشكم من المناطق المصرية "(٢٣) .

وقد تبع الإنذار إجراءات سوفييتية ليثبت السوفييت للدول المعتدية أنهم جادون فيما هم مقبلون عليه .

فقد طلبوا من تركيا السماح لخمس سفن عسكرية سوفييتية بعبور مضيق الدردنيل .

كما ظهرت غواصات سوفييتية في المياه المصرية .

وظهرت أسراب من الطائرات السوفييتية على أجهزة الرادار التركية وهي في طريقها إلى سوريا (٢٤) .

وقد رد ايدن رداً لطيفاً على الإنذار السوفييتي زاعماً أن هدف حملته كان الفصل بين القوات المتنازعة ، وطالب بإنشاء قوة دولية للإشراف على حركة المرور في القناة ، ولإيجاد حلول لمشاكل المنطقة (٢٥) .

ولكن الدول الثلاث المعتدية انصاعت لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فجر يوم ١١/٧ ، وقد قبلت مصر بالقرار .

أثر الإنذار السوفييتي

ولا زال البعض حتى اليوم يحاولون التقليل من قيمة الإنذار السوفييتي وجديته ، وفعاليته على الدول المعتدية .

ويثبت هذه الفعالية ردود فعل الدول الثلاث المعتدية ، ومدى استجابتها للإنذار ، وقد كتب عن هذا الكثير ، وكل ما كتب يثبت الأثر الكبير له ، فكان السبب الأول في انسحاب المعتدين .

ففي بحث أجراه أستاذ العلوم السياسية الأمريكي "مايكل بريشر" عن اتخاذ القرارات في إسرائيل ، أورد تفاصيل عن ذلك القرار بالانسحاب بعد الإنذار السوفييتي .

فبعد الإنذار ، ألح ايزنهاور على بن جوريون بضرورة الانسحاب لكي لا تعرض إسرائيل نفسها لعواقب وخيمة .

ورد **بـن جوريـون** :" إنـك سـوف تجـد إسـرائيل مـستعدة دائمـاً للقيـام بـدورها المتواضع إلى جانب الولايات المتحدة الأمريكية من أجل تعزيز العدل ، وتقوية السلام " (٢٦) .

ولما سئلت **جولدا مئير**- وزيرة الخارجية الإسرائيلية آنذاك - عن سبب قرار بن جوريـون بالانـسحاب مـن سـيناء قالـت: إننـي مقتنعـة بأنـه تـصرف كـرد فعـل للعامـل السوفييتي (٢٧) .

ورد **شمعون** بيريز مدير وزارة الدفاع الإسرائيلي آنذاك : "تسألني عن السبب في قراره؟ إنه التهديد السوفييتي ".

وقـال **أبـا إيبـان** وكيـل وزارة الخارجيـة الإسـرائيلي : " احتمـال قيـام الاتحـاد السوفييتي بهجوم جوي على إسرائيل في اليوم التالي إذا لم يتلق المندوب السوفييتي الدائم إخطاراً من المندوب الإسرائيلي بأن إسرائيل قبلت بالانسحاب " (٢٨) .

ويـضع **عبـد النـاصـر** الإنـذار الـسوفييتي فـي مكانـه الحقيقـي ، فيقـول عنـه فـي ١٩٥٦/١١/٩ :

" .. وفـي اليوم التـالي قامـت روسيا بإنذار بريطانيـا وفرنـسا ، وأبلغتُ أن روسـيا أرسلت إلى بريطانيا وفرنسا عن تصميمها على محو العدوان البريطاني والفرنسي بـالقوة إذا لم ترجع بريطانيا وفرنسا عن عدوانهما " (٢٩) .

ثم يشرح لنا موقف مصر بعد الإنذار الروسي ، فيقول :

" حينما أقول لكم أن موقفنا بعد عشرة أيام أقوى مما كان ، فإنني أعنـي مـا أقـول ، القومية العربية تحققت وأصبحت عملاً بعد أن كانت أقوالاً ، الشعب قوة متحدة ، الجيش والطيران والبحرية قوة متماسكة " (٣٠) .

وفـي ٣ كـانون أول ١٩٥٦ بـدأت القـوات البريطانيـة والفرنـسية بالانـسحاب مـن مصر ، وقد أكملت ذلك في ٢٢ كانون أول ١٩٥٦ .

وفـي الأول مـن آذار ١٩٥٦ بـدأت إسـرائيل انـسحابها مـن سـيناء ، وقـد اكتمـل انسحابها في ٨ آذار ١٩٥٦ .

وبعد أعمال تطهير استمرت ثلاثة أشهر ونصف ، تم فتح القناة للملاحة الدولية في ٩ نيسان ١٩٥٧(٣١) .

انتصار مصري كبير

وإذا كانت مصر قد خسرت معركة ، فقد كسبت حرباً .. وذلك للأسباب التالية :

١- أراد المعتدون احتلال منطقة القناة واسترجاع نفوذهم على قناة السويس ، ولكن ما حصل هو العكس ، فقد أصبحت القناة ملكاً خالصاً لمصر ، وخرج ناصر من الحرب وهو أكثر سيطرة على القناة ، وصارت مصر هي الدولة الوحيدة المخولة بالتصرف في أعمال المرور والرسوم ، وصارت فرنسا وبريطانيا تعاملان كباقي الدول .

٢- أراد المعتدون القضاء على عبد الناصر ، فلم يفشلوا في ذلك فحسب، بل خرج الرجل من الحرب أقوى من ذي قبل ، وصار زعيم العرب بلا منازع .

٣- تحولت الدولتان العظميان بريطانيا وفرنسا إلى دولتين من الدرجة الثانية ، فصار وزنهما العسكري والسياسي معروفاً للجميع .

٤- خسرت بريطانيا وفرنسا الكثير في المجال الدبلوماسي ، فقد قطعت السعودية والأردن والعراق وسوريا علاقاتها مع فرنسا ، وقطعت سوريا والسعودية علاقاتهما مع بريطانيا .

٥- كسب عبد الناصر ومصر التأييد العالمي ضد العدوان الغاشم ، وقد عبر عبد الناصر عن ذلك في خطابه في ٩ تشرين ثان ٥٦ ، فقال :

" اليوم مصر مؤيدة من العالم أجمع ، كل العالم قام ضد المعتدين ، كل دول العالم ما عدا انجلترا وفرنسا وإسرائيل .. ومنزيس الذي تعرفونه جميعاً ، أستراليا ، بل إن الأحرار في انجلترا وفرنسا ، هؤلاء الأحرار واقفون ضد العدوان الغاشم ، ضد تجار الحروب ، ضد الاستعمار، ضد الاستعباد ، العالم كله معنا ، مصر متحدة قوية مصممة بعزم وإيمان ..

.. نهرو وتيتو وسوكارنو وشو إن لاي ، كل قادة العالم الأحرار استنكروا هذا العدوان ، ووصفوه بالإجرام ، وبأنه عمل ضد الإنسانية " (٣٢) .

٦- اطمأن ناصر على إخلاص الجيش ومدى استعداده للقتال ، فلم ينسه من ثنائه وتشجيعه رغم الهزيمة في المعركة ، وكم هو بحاجة إلى كلمات من الرئيس في هذه الظروف ، فيقول ناصر:

" الجيش المصري استطاع أن يعود سليماً متماسكاً ، خسائره في العربات عوضناها من مخازن الجيش البريطاني في القنال ..

إذن خرجنا من هذه المحنة ..

الجيش رجع متماسكاً وقادراً على القتال بشدة .

طيراننا متماسك ، بحريتنا قامت بعمليات حربية حاربت فيها البحرية الفرنسية والبحرية البريطانية ..،عمليات انتحارية ، كان الضباط يخرجون وهم يعلمون أنهم قد لا يرجعون ، كانوا يخرجون على هذا الأساس ، ناس منهم استشهدوا وناس رجعوا ، كانوا خارجين على أساس أنهم ليسو راجعين ، وكانت هذه هي الروح التي حارب بها سلاحكم البحري" (٣٣) .

وسقوط كبير للأعداء

" وبفشل العدوان الثلاثي في ١٩٥٦، أصبح عبد الناصر بطلاً أسطورياً ، بعد أن استطاع أن يتحدى أكبر إمبراطوريتين استعماريتين ، واستطاع أن يخرج من المعركة ليس منتصراً فحسب ، بل وكان ذلك الانتصار بمثابة شهادة وفاة للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية وللعصر الاستعماري كله ، وإيذاناً بانطلاق حركات التحرر في العالم أجمع " (٣٤) .

تعليق

خروج أميركا من المنطقة بسوء سياستها ..

لقد فشلت اميركا فشلاً ذريعاً في سياستها في منطقة الشرق الأوسط في أواخر الخمسينيات ، سواء كان هذا الفشل وراؤه النفوذ الصهيوني على صناعة القرار فيها ، أو بفعل سوء سياسة ساستها .

فهي لم تهتبل فرصة حاجة مصر للمعونة الاقتصادية لبناء السد العالي ، فبعد أن وعدت بالمساعدة ، نكثت بعهودها ، لتمارس مصر حقها في البحث عن مصدر آخر للمعونة والتمويل ، فكان السوفييت في الانتظار ، لتتوجه سياسة عبد الناصر بعد ذلك إلى السوفييت لا غير الذين لم يبخلوا بشيء ، كما سيأتي في الفصول القادمة .

فبدلاً من تحجيم نفوذ الاتحاد السوفييتي ، وإحباط أية نوايا له في الوصول إلى المنطقة ، أعطته الفرصة كاملة غير مشروطة لصداقة مصر ، والتواصل معها في الضيق والفرج ، فأمدها بكل أنواع الإمدادات العسكرية والاقتصادية ، لتصبح مصر عبد الناصر شوكة في حلق الغرب طوال فترة حكم عبد الناصر .

وفي الوقت ذاته قضى ناصر على نفوذ حليفتي أميركا فرنسا وبريطانيا - رمزي الاستعمار القديم - فغادرتا المنطقة بلا عودة .

مراجع الباب الثالث

الفصل الأول

(١)أحمد حمروش ، مصر والعسكريون ، ص ١٩٩
(٢) م ن ، ص ٢٠٠ .
(٣) عبد الرحمن الرافعي ، مقدمات ثورة يوليو ، ص ١٤٣-١٤٤ .
(٤) عبد الناصر ،خطاباته ، ج١ ، ص ٤٨.
(٥) م ن ، ص ٣٤.
(٦) م ن ، ص ٨٣ .
(٧) م ن ، ص ٧٦.
(٨) م ن ، ص ٦٤ .
(٩) م ن ، ص ٤٧ .
(١٠) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٤١.
(١١) عبد الناصر ، م س ، ص ٧٨.
(١٢) م ن ، ص ١٠٩ .
(١٣) د. رؤوف عباس ، م س ، ص ٤١-٤٢ .
(١٤) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١، ص ٣٦ .
(١٥) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٥٤-٥٥ .
(١٦) عبد الناصر ، م س، ص٣٣.
(١٧) م ن ، ص ٣٤ .
(١٨) م ن ، ص ٣٥ .
(١٩) م ن ، ص ٣٨ .
(٢٠) م ن ، ص ٤٨ .
(٢١) م ن ، ص ٣٩ .
(٢٢) م ن ،ص ٤١ .
(٢٣) د.رؤوف عباس، م س، ص ٤٧.
(٢٤) أحمد عطية ، القاموس السياسي، ص٣٨٨ .
(٢٥) د.رؤوف عباس، م س، ص ٤٧.
(٢٦) م ن ، ص ٤٧.

(٢٧) جمال شرقاوي وآخرون ، نضال عبد الناصر ، ص ٣٦٢ .
(٢٨) د.رؤوف عباس، م س، ص٤٨ .
(٢٩) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١، ص٢٤٢-٢٤٤.
(٣٠) م ن ، ص ٣٢١ .
(٣١) جمال شرقاوي وآخرون ، م س، ص ٣٦٢ .
(٣٢) م ن ، ص ٣٦٣ .
(٣٣) محمد عبد الحكيم ذياب ، الناصرية الفكر والممارسة ، ص ٧٣ .
(٣٤) د.رؤوف عباس ، م س ، ص ١٣٢ .
(٣٥) م ن ، ص ١٣٢ .
(٣٦) جمال شرقاوي وآخرون ، م س، ص ١٨١-١٨٧.
(٣٧) م ن ، ص ٢٠١.
(٣٨) م ن ، ص ٣٠٤ .
(٣٩) م ن ، ص ٣٠٦ .
(٤٠) م ن ، ص ٣٣٢ .
(٤١) د.رؤوف عباس ، م س، ص ٨٦ .
(٤٢) جمال شرقاوي وآخرون ، م س، ص ٥٠١ .
(٤٣) د. رؤوف عباس ، م س، ص ٨٣ .
(٤٤) م ن ، ص ٨٤ .
(٤٥) جوجل .

الفصل الثاني

(١)أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، ص ١١٩٠ و أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٤٣-٤٤ .
(٢) أحمد حمروش ، م س ، ص ٤٥ .
(٣) م ن ، ص ٤٧-٤٨ .
(٤) م ن ، ص ٤٩ .
(٥) أحمد عطية الله ، م س، ص ٤٧٧ .
(٦) محمد حسنين هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٢٢- ١٢٣ .
(٧) م ن ، ص ١٢٣ .
(٨) م ن ، ص ١٢٣ .

(٩) عبد الناصر ،خطاباته ، ج٢ ، ص ١٢١ .
(١٠) م ن ، ص ٤٧٦ .
(١١) لاكوتير ، عبد الناصر ، ص ٢٤٥.
(١٢) م ن ، ص ٢٤٧.
(١٣) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٢ ، ص ٣٦٧.
(١٤) م ن ، ص ٣٧٦.
(١٥) م ن ، ص ٣٦٩ .
(١٦) هيكل ، م س ، ص ١٢٣.
(١٧) أجمد عطية الله ، م س، ص ١٦٦ .
(١٨) م ن ، ص ١٦٦ .
(١٩) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ٥٧٣ .
(٢٠) م ن ، ص ٥٧٨ .
(٢١) م ن ، ص ٥٧٩ .
(٢٢) جمال شرقاوي وآخرون ، م س ، ص ١٧٢-١٧٣ .
(٢٣) م ن ، ص ١٧٢-١٧٣ .
(٢٤) جمال شرقاوي وآخرون ،م س، ص ١٧٤ .

الفصل الثالث

(١)أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٦١ .
(٢) م ن ، ص ٦٣ .
(٣) م ن ، ص ٧٨ .
(٤) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ٢٤
(٥) م ن ، ص ٢٣ .
(٦) أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٦٨ .
(٧) م ن ، ص ٦٩ .
(٨) م ن ، ص ٧٠ .
(٩) م ن ، ص ٧٠ .
(١٠) محمد حسنين هيكل ، قصة السويس ، ص ٢٩ .
(١١) أنتوني ناتنج ، ناصر ، ص ١٣٦ .
(١٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ١٩٦ .

(١٣) أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٥٩ .
(١٤) أحمد حمروش، خريف عبد الناصر ، ص ٣٧ .
(١٥) مردخاي براأون ، حرب سيناء ١٩٥٦ ، ص ٢٢.
(١٦) م ن ، ص ٢٢.
(١٧) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ١٩٢ـذ٩٣ .
(١٨) م ن ، ص ١٩٤ .
(١٩) م ن ، ص ٢٠٦ـ٢٠٧ .
(٢٠) م ن ، ص ٢٠٨ـ٢٠٩ .
(٢١) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٧٦ .
(٢٢) أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٧٥ .
(٢٣) د . فؤاد المرسي ، العلاقات المصرية السوفييتية ١٩٤٣ـ١٩٥٦ ، ص ١٨٦ـ ١٨٧ .
(٢٤) م ن ، ص ١٨٨ .
(٢٥) م ن ، ص ١٨٨ .
(٢٦) م ن ، ص ١٨٨ـ١٨٩ .
(٢٧) م ن ، ص ١٨٩ .
(٢٨) م ن ، ص ١٨٩ .
(٢٩) م ن ، ١٨٩ـ ١٩٠ .
(٣٠) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٤٥٠ـ٤٥١ .
(٣١) م ن ، ص ١٥٤ .

الفصل الرابع

(١)د. رؤوف عباس ،ناصر رمز الحلم العربي ، ص١٢٠ ، وموسوعة وكيبيديا .
(٢) د. رؤوف عباس ،م س ، ص ١٢٠ .
(٣) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص٣٧٧ .
(٤) م ن ، ص ٣٨٠ .
(٥) جمال شرقاوي وآخرون ، نضال عبد الناصر ، ص ٣٦٣.
(٦) عبد الناصر ، م س، ص ٣٧٦.
(٧) م ن ، ٣٨٦ .
(٨) م ن ، ص ٣٨١.

(٩) م ن ، ص ٢٨٢-٢٨٣ .

(١٠) م ن ، ص ٣٨٧ .

(١١) جوجل

(١٢) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١٢٥-١٢٧ و أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، ص ٢٥٦ .

(١٣) د.رؤوف عباس ، م س، ص١٢٢ .

(١٤) نواف نصار ، حرب السويس ، ص ٢٧٨-٢٨١ .

(١٥) أمين هويدي ، حروب عبد الناصر ، ص٩٥ .

(١٦) أحمد حمروش ، عبد الناصر والعرب ، ص١٨٣ .

(١٧) عبد الناصر ، م س ، ص ٤٤٢ .

(١٨) أمين هويدي ، م س، ص ٩٢-٩٦ .

(١٩) عبد الناصر ، م س، ص ٤٣١ .

(٢٠) م ن ، ص ٤٣٩ .

(٢١) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١٢٢ .

(٢٢) محمد حسنين هيكل ، ملفات السويس ، ص ٢٥٣ .

(٢٣) أحمد العلمي ،حرب السويس ، ص ١٦٢ .

(٢٤)مردخاي براأون ، حرب سيناء ١٩٥٦ ، ص ١٢٦ .

(٢٥)أنتوني إيدن - مذكرات أنتوني إيدن ، ص ٤١٧ .

(٢٦)أمين هويدي ، م س، ص ١٠٠ .

(٢٧) م ن ، ص ١٠١.

(٢٨) م ن ،- ص ١٠١ .

(٢٩) عبد الناصر ، م س، ص ٤٤٤ .

(٣٠) م ن ، ص ٤٤٤ .

(٣١) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١٢٧ .

(٣٢) عبد الناصر ،م س، ص ٤٤٤ .

(٣٣) م ن ، ص ٤٤١-٤٤٣ .

(٣٤) د.رؤوف عباس ، م س، ص ٤٨ .

الباب الرابع

التنمية

الفصل الأول

منهج التنمية

مقدمة

" إن عبد الناصر لم يترك خراباً ينعق البوم والغربان على أطلاله ، وإنما ترك اقتصاداً قادراً على الاستجابة "(هيكل، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١١١)

لا يشك الدارسون في أن ثورة يوليو كانت وراء تلك النهضة الكبرى التي عمت أرجاء مصر في كل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية ، لأن الثورة أصلاً قامت بسبب سوء أحوال البلاد في النواحي المذكورة جميعاً ، ولو كانت البلاد عكس ما ذكرت لما كان هناك داع للثورة .

ولقد كان الزعيم الراحل واعياً لأحوال البلاد منذ نعومة أظفاره ، فكان يشاهد مظاهر الظلم والاستعباد والتخلف التي تسيطر على مجريات الحياة في مصر ، فتحدث عن ذلك في صغره ، وتناوله في خطاباته بعد الثورة ، فأعلن بعد قيام الثورة أنه ليس بصدد قتال إسرائيل ، لأن عليه أولاً بناء مصر ، فعلق **بن جوريون** على ذلك قائلاً : هذه أخبار سيئة .

لذا كان لا بد أن تشن إسرائيل الحروب المتتالية ضد مصر ، في محاولة لإضعافها والتغلب عليها ، إدراكاً منها لقوة مصر وقاعدتها البشرية والعسكرية الكبيرة ، ومن أجل إيقاف عجلة التقدم الاقتصادي التي تخلق عدواً قوياً متيناً في المستقبل ، وهذا ما لا تريده إسرائيل .

وكانت مصر عبر عشرات السنين الماضية تعتمد في سياستها الاقتصادية على الزراعة ، ولكن حكومة الثورة آمنت أن القيمة المضافة للاقتصاد والتي تتحقق بالاعتماد على الإنتاج الصناعي تفوق بكثير تلك التي تتحقق بالاعتماد على الزراعة ، فكان لا بد من اللجوء للتركيز على القطاعات الاقتصادية الأخرى - وأولها التصنيع - لتحقيق النتائج الاقتصادية المطلوبة .

ولعل نجاح تلك الخطة يعود إلى : قانون الإصلاح الزراعي ، وتأميم السويس ، وتأميم المشاريع الأنجلوفرنسية ، وتأميم المشاريع المصرية الكبيرة ، وسيطرة الدولة على مجمل النشاط الاقتصادي منذ عام ١٩٦١ (١) .

وقد مرت التنمية الاقتصادية بثلاث مراحل ، وهي :

المرحلة الأولى (١٩٥٢-١٩٥٦) واهم سماتها :

١- اجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية .

٢- تشجيع القطاع الخاص للتوجه نحو الصناعة .

٣- إقامة الصناعات الكبرى كالحديد والصلب .

المرحلة الثانية (١٩٥٦-١٩٦١) وأهم جوانبها :

١- تأميم قناة السويس .

٢- تمويل مشروع السد العالي .

٣- تمصير المؤسسات البريطانية والفرنسية والبلجيكية .

٤- نمو الإنتاج الصناعي .

٥- تحول النظام الاقتصادي للنمط الاشتراكي .

المرحلة الثالثة (١٩٦١-١٩٦٥) وأهم ميزاتها :

١- تأميم أغلب الشركات الخاصة .

٢- إدخال قيود جديدة على نشاط القطاع الخاص الذي لم يخضع للتأميم .

٣- تعميق التوجه الإداري للزراعة .

٤- انتهاج أسلوب التخطيط الشامل في التنمية (٢) .

٥- وفي مجال **الصناعة** ، قامت الدولة ب :

١- مشروع كهربة أسوان .

٢- مشروع مصانع الحديد والصلب .

٣- مشروع السماد .

٤- وضع مشروع السنوات الخمس للتنمية الصناعية .

٥- وضعت قانون تنظيم وتشجيع الصناعة لحمايتها من المنافسة الأجنبية .

وقد نتج عن ذلك التخطيط التركيز على استخراج الخامات والمعادن كالفحم والحديد والنحاس والحديد والزنك والرصاص والكبريت والبترول ، كما قامت الصناعات الهندسية والمعدنية والكيماوية والغذائية ، والغزل والنسيج ، وغير ذلك كثير .

غايات كبيرة

وفي خطابه أمام المؤتمر العام للإتحاد القومي في ٩ تموز ١٩٦٠ ، يقول ناصر :

" كان محتماً أن نفتح الطريق أمام العدل ..

ولقد كان ذلك يقتضي أن نسير في طريقين :

أولاً : **تنمية الاقتصاد القومي** حتى تتسع آفاقه إلى حد يسمح لكل مواطن بأن يملك نصيباً منه .

ثانياً : محاولة تقليل الفوارق بين الناس إحقاقاً لمبدأ العدل الاجتماعي ، وتمكيناً للاستقرار داخل الوطن "(٣) .

بمعنى أن العدالة لن تتحقق في ظل الفقر والتخلف ..

ولن تتحقق بوجود الفوارق بين الناس ..

إذن ... فالنهوض بالبلاد اقتصادياً هو الطريق الأمثل لخلق الفرص ، هذه الفرص إذا ما استغلت تستطيع أن توجد العدالة بين الناس ، فالطبقية هي العدو الأول للعدل ، ولا يمكن للعدالة أن تأخذ مجراها بوجود الطبقية والفقر .

وفي الخطاب ذاته ، يوضح غايات التنمية ، فيضيف :

" ..ثم تم وضع الخطة الشاملة للتنمية ومضاعفة الدخل في عشر سنوات ، ومن الناحية الاقتصادية كان هدف الخطة هو مضاعفة الدخل القومي في عشر سنوات ، ومن الناحية الاجتماعية فلقد كان القضاء على الاستغلال ، وإتاحة الفرص المتكافئة أمام كل مواطن ، واستثارة حوافز التقدم والرقي الكامنة في قلب كل فرد ، هي المعالم البارزة للاتجاه الجديد ، ولقد كان هذا التلازم الحيوي بين التطوير الاقتصادي والاجتماعي هو التطبيق العملي لأملنا في إقامة مجتمع ديمقراطي اشتراكي تعاوني " (٤) .

ويزيد غايات التنمية وضوحاً حين يضيف إليها في الخطاب ذاته ما يلي :

١- وجود القطاع العام الذي يملكه الشعب كله .

٢- تمصير وسائل الإنتاج .

٣- مضاعفة الدخل القومي في عشر سنوات .

٤- إيجاد الانسجام بين رأس المال العام ورأس المال الخاص .

٥- تحويل الأجراء إلى ملاك (٥) .

وكأن ناصر هنا يلخص لنا أهداف ثورة يوليو من خلال حديثه عن غايات التنمية الهائلة التي قامت بها حكومة الثورة : العدالة ، إيجاد الفرص ، القضاء على الاستغلال ، تشجيع التقدم والرقي ، التطوير الاقتصادي، التطوير الاجتماعي ..الخ .

وما سبق تم التركيز عليه في الميثاق ، والذي ورد في بابه السادس **"في حتمية الحل الاشتراكي "** ما يلي :

"أولاً - في مجال الإنتاج عموماً :

* يجب أن تكون الهياكل الرئيسية لعملية الإنتاج- كالسكك الحديدية والطرق والموانيء والمطارات وطاقات القوى والسدود ووسائل النقل البري والبحري وغيرها من المرافق العامة - في نطاق الملكية العامة للشعب .

ثانياً - في مجال الصناعة :

* يجب أن تكون الصناعات الثقيلة والمتوسطة ، الصناعات التعدينية في غالبيتها ، داخلة في إطار الملكية العامة للشعب ، وإذا كان من الممكن أن يسمح بالملكية الخاصة في هذا المجال فإن هذه الملكية الخاصة يجب أن تكون تحت سيطرة القطاع العام المملوك للشعب ، وفي ظله .

* يجب أن تظل الصناعات الخفيفة بمنأى دائماً عن الاحتكار ، وإذا كانت الملكية الخاصة مفتوحة في مجالها ، فإن القطاع العام يجب أن يحتفظ بدور فيها يمكنه من التوجيه لصالح الشعب " (٦) .

القضاء على الاستغلال

لا شك أن مبادىء الثورة الستة كانت متناسقة مترابطة ، فالقضاء على الاستعمار مرتبط بالقضاء على حليفه الإقطاع ، والقضاء عليهما مرتبط بالقضاء على الاحتكار والاستغلال ، والتخلص من الثلاثة يعني تحقيق العدالة الاجتماعية .

وعليه ، كان لا بد من القضاء قضاء مبرماً على الاستغلال ، هذا العدو اللدود للفقراء والطبقة المتوسطة في مصر وفي غيرها ، ولكن مصر عانت منه أكثر من غيرها ، فنلاحظ أن هذه الكلمة تتردد كثيراً في تلك الفترة في خطابات عبد الناصر .

يقول في خطاب مطول في ١٩٥٧/١٢/٥ في جامعة القاهرة :

" .. لا يمكن أن يكون هناك مجتمع ترفرف عليه الرفاهية إذا كان هناك استغلال بأية وسيلة من الوسائل .. استغلال للإنسان أو استغلال للفرصة .. أو استغلال اجتماعي أو استغلال سياسي أو استغلال اقتصادي .. هل يمكن إذا استمر الظلم الاجتماعي أن يتحقق المجتمع الذي تسيطر عليه الرفاهية ، ..أو إذا سيطرت الانتهازية ، أو إذا سيطرت الرجعية ، أو إذا سيطرت الرغبة في الانتفاع ؟ .. كلنا نعرف أن الوطنية باستمرار لا تسير أو تتمشى مع الانتهازية .. ولا مع الاستغلال ، ولا مع الرجعية ، لأن الرجعية تعتبر أن الوطنية أول أعدائها " (٧) .

ونقول مع الزعيم الراحل : لن يكون هنالك مجتمع ينعم بالحياة في أبسط صورها وأشكالها في ظل وجود الظلم الاجتماعي والانتهازية والاستغلال بكافة أنواعه ، فكيف به ينعم بالرفاهية وبحبوحة العيش ؟ .

ويواصل ناصر واضعاً الحل :

" ..إذن لكي نحقق مجتمعاً ترفرف عليه الرفاهية ، يجب أن نقضي على استغلال الأقلية للأغلبية ، ونقضي على استغلال الفرصة بأية وسيلة ، واستغلال الإنسان بأي وسيلة ، ونقضي على أي سيطرة مستغلة من الداخل .. ونقضي على أي طبقة تنتهز الفرصة لتنتفع منفعة شخصية " (٨) .

فما ينبه إليه ناصر هنا هو ما عانت منه مصر لقرون مضت ، ألا وهو توزيع الثروة ، فقد كانت ملكاً لطبقة الأقلية المنعمة بكل أصناف التملك والرفاهية ، وكونت ذلك من فقر الآخرين وحرمانهم وجوعهم ، لذا فإن ناصر يدرك عظم المسئولية القادمة ، وأنها بحاجة إلى جهود كبيرة متضافرة لحل مشاكل حملتها الأمة مئات السنين ، فيقول في ٢٤ تموز ١٩٦٢ :

" إنه بات محتماً أن نسرع خطانا على طريق التنمية بأكثر من هذا القدر ، ولقد طلبت إلى الأجهزة المسئولة عن التنمية أن تدرس إمكانية مضاعفة الدخل القومي في أقل من عشر سنوات ، ولا بد لنا أن نسير وان نبني .. وما من جدال أن الإطار الاشتراكي للمجتمع الآن يساعدنا على دفع عجلة الإنتاج بسرعة أكبر مما قدرنا ونحن نضع الخطة .

وعلينا واجب كبير من أجل بناء هذه الأمة ، ومن أجل أن ننجز في ٣٠ سنة ، ما أنجزته أوروبا في ٣٠٠ سنة . . إذا كنا عايزين نعيش عيشة سعيدة " (٩) .

ولا ننس أن البند الرابع من مبادىء الثورة الستة : إقامة العدالة الاجتماعية ، ودارس أحوال مصر الطبقية قبل الثورة لا يكاد يصدق أن تحقيق هذا المبدأ كان ممكناً !

والصفحات القادمة تخبرنا بكل وضوح عن تلك الجهود الكبيرة التي بذلت ، وعن النجاح الكبير الهائل الذي حققته مصر عبد الناصر ، وليس هناك من دليل أقوى من لغة الأرقام .

لا عزاء للقطاع الخاص أو للعهد البائد

واضح إذن أن الثورة لم يكن لديها الكثير للقطاع الخاص ليفرح به ، لا في نواياها ولا في ما تعلنه من خطط وأهداف وغايات ومواثيق ، ولعل السبب في هذا التحريم -

المرغوب فيه للفئة المستهدفة- هو التجربة المريرة التي عاشتها مصر مع هذا القطاع في العهد الخديوي والملكي ، لذا فإن اعتماد الاشتراكية بات أمراً لا بد عنه .

" إن طبيعة العصر لم تعد تسمح بشيء من ذلك .

إن التقدم على طريق النهب ، أو التقدم عن طريق السخرة لم يعد أمراً محتملاً في ظل القيم الإنسانية الجديدة

إن هذه القيم الإنسانية أسقطت الاستعمار ، كما أن هذه القيم أسقطت السخرة " (١٠) .

ولا ينسى ناصر الدور السوفييتي:

وفي هذا الخضم لا ينسى عبد الناصر الدور السوفييتي في تنفيذ الخطط المصرية للتنمية الاقتصادية الرائدة ، فيقول :

" والموضوع الثاني الذي أتذكره اليوم ، هو أننا وقعنا اتفاقية للتعاون الاقتصادي مع الاتحاد السوفييتي ، في أول عام ١٩٥٨ ، وعقدنا مع الاتحاد السوفيتي قرضاً بمبلغ يقرب من ٦٥ مليون جنيه في يناير سنة ١٩٥٨ من أجل المساعدة في التصنيع والتنمية الاقتصادية ، واليوم نفتتح أول مصنع من ثمار هذه الاتفاقية ، فقد تم الاتفاق مع الاتحاد السوفييتي على إنشاء مصانع قيمتها ٤٠ مليون جنيه عام١٩٥٨ حتى الآن ، وبهذه المناسبة أشكر الاتحاد السوفييتي الذي تعاون معنا من أجل تنمية اقتصادنا " (١١) .

الفصل الثاني

تخطيط ناصر العلمي
لمشاريع التنمية[1]

١ـ خطط التنمية :

إن أعظم ما يميز التقدم الصناعي الهائل الذي شهدته مصر بعد الثورة ، هو " التخطيط العلمي " ، فلم تكن الخطة الاقتصادية تسير خبط عشواء ، تدفعها الحماسة وحب الوطن ، وتمتطي مطية الإعلام والإعلان ، والتضخيم والتفخيم ، بل إن ما خطط له بكل عناية، كان مآله النجاح الكبير إلى ما يستحق أن يوصف بالمعجزة .

ورد في الميثاق :

" والصناعة هي الطاقة الخلاقة التي تستطيع أن تتجاوب مع **التخطيط الواعي المدروس** ، وتفي ببرامجه دون ما عوائق غير منظورة ، تصعب السيطرة عليها ، ومن ثم فهي القادرة في أسرع وقت على توسيع قاعدة الانتاج توسيعاً ثورياً حاسماً .

إن اتجاهنا إلى الصناعة يجب أن يكون واعياً ، وأن يأخذ في اعتباره جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية في معركة التطوير الكبرى " (١) .

٢ـ اعتماد الاشتراكية:

ولم تخف الثورة مذهبها القادم الذي ستعتمده في خططها القادمة لإنهاء مشاكل الطبقية والفقر والجهل والاحتكار والاستغلال ، فورد في ميثاقها :

" لكن الطريق الاشتراكي ـ بما يتيحه من فرص لحل الصراع الطبقي سلمياً ، وبما يتيحه من إمكانية تذويب الفوارق بين الطبقات ـ يوزع عائد العمل على كل الشعب طبقاً لمبدأ تكافؤ الفرص .

إن الطريق الاشتراكي بذلك يفتح الباب للتطور الحتمي سياسياً من حكم ديكتاتورية الإقطاع المتحالف مع رأس المال ، إلى حكم الديمقراطية الممثلة لحقوق الشعب العامل كله .

---

[1] ـ أضطر هنا للرجوع إلى كتابي **ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم** لنقل بعض الأرقام والمعلومات ، وأحاول هنا الإيجاز قدر المستطاع ، وبإمكان القارىء العودة لكتابي المذكور للاستزادة . .

إن تحرير الإنسان سياسياً لا يمكن أن يتحقق إلا بإنهاء كل قيد للاستغلال يحد من حريته .

إن الاشتراكية مع الديمقراطية هما جناحا الحرية ، وبهما معاً تستطيع أن تحلق إلى الآفاق العالية التي تتطلع إليها جماهير الشعب " (٢) .

كما ورد في **الميثاق**

" إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر - وصولاً ثورياً إلى التقدم - لم يكن افتراضاً قائماً على الانتقاء الاختياري ، وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية فرضها الواقع ، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير ، كما فرضتها الطبيعة المتغيرة للعالم في النصف الثاني من القرن العشرين " (٣) .

وعليه ، اعتمدت مصر في عهد عبد الناصر التخطيط الاقتصادي الدقيق المدروس ، ووضع خبراؤها خططها الخمسية لتنفذ كل واحدة منها في خمس سنوات ، فكانت الخطة الخمسية الأولى (١٩٥٩-١٩٦٤) تعتمد على زيادة كميات الإنتاج المحلي من السلع ، وزيادة الإنتاج الزراعي ، وزيادة إنتاج الطاقة الكهربائية التي ولدها السد العالي (٤) .

٣- تأسيس وزارة متخصصة للصناعة:

ومن أجل الإشراف على هذه المراحل الكبرى التي وضعتها حكومة الثورة ، أسست حكومة الثورة عام ١٩٦٤ أربع وزارات مسئولة عن النشاط الصناعي وهي :

وزارة التعدين والبترول — وزارة الصناعة الخفيفة

وزارة الصناعة الثقيلة — وزارة القوى الكهربائية

إلا أن الحكومة عادت وأصدرت قراراً في أول تشرين أول ١٩٦٥ حلت بموجبه تلك الوزارات واستبدلتها " بوزارة الصناعة والثروة المعدنية والكهرباء " ، كما أسست هيئة باسم " المؤسسة العامة للأبحاث الجيولوجية والتعدين " ، ويشرف على الوزارة المذكورة نائب لرئيس الوزراء ووزير الوزارة وعدد من الوكلاء (٥) .

الفصل الثالث

فصول من التنمية

١ـ تأسيس الصناعات الكبرى:

وعن ما ذكرناه من إنجازات ، يقول عبد الناصر في خطاب له في جامعة القاهرة في ٥ كانون أول ١٩٥٧ :

" كلنا نعرف أن المصانع الأجنبية الاستعمارية كانت تعمل على الحد من نشاطنا الصناعي .. كانت تعمل على إيقاف التوسع الصناعي .. ولكن حينما كانت الثورة السياسية تأخذ طريقها للقضاء على الاستعمار البريطاني ، والقضاء على الاستبداد السياسي ، كانت الثورة الاجتماعية تأخذ طريقها في نفس الوقت لبناء أساس اقتصادي واجتماعي سليم .

ومنذ سنة ١٩٥٢ ، بدأنا في تنفيذ كهربة خزان أسوان .. هذا المشروع الذي كنا نسمع به سنين طويلة .. وبدأنا في تنفيذ مشروع الحديد والصلب لإنتاج ٢٠٠ ألف طن من الصلب .. وبدأنا في زيادة الطاقة الكهربائية ، وبدأنا في التوسع الصناعي .. توسعنا في صناعة تكرير البترول من ٤٠٠ ألف طن إلى مليون ونصف مليون طن .. بدأنا نبحث عن ثرواتنا الطبيعية ، الثروة المعدنية الموجودة في بلادنا ، والتي كنا ممنوعين من أن نستغلها ونستخرجها ، بدأنا في إقامة صناعات كثيرة جديدة ، وفي توسيع الصناعات القائمة ..صناعات عربات السكك الحديدية ، صناعات الكابلات الكهربائية ، والعدد الكهربائية ، صناعات غذائية ، صناعات كيميائية، توسيع صناعة النسيج ، وكان الإنتاج الصناعي في الخمس سنين الماضية يزيد بمعدل ١٠% كل سنة ، أقمنا صناعة حربية تستطيع أن تنتج في الوقت الحاضر المعدات الحربية اللازمة لنا وفي وقت السلام يمكن أن تنتج إنتاجاً مدنياً يكفي لنا حاجتنا " (١) .

وفي خطاب آخر في ١٩٥٨/١١/٢٧ ، يقول :

" الإنتاج في ١٩٥٢من الطاقة الكهربائية كان ٦٢٩ مليون كيلو وات وصل هذا الإنتاج في سنة ١٩٥٧ إلى مليار و ٦٩٣ مليون كيلو وات ... ضاعفنا إنتاجنا من الكهرباء أكثر من مرتين ونصف ،، وعام ١٩٥٢ كان إنتاج البترول ٢ مليون و ٣٥٠ ألف طن من الإنتاج المحلي ، وصل عام ١٩٥٧ إلى ٣ مليون و ٢٥٠ ألف طن ..

والأسمدة كان الإنتاج عام ١٩٥٢ ١٠٦ ألف طن ، في عام ١٩٥٧ وصل إلى ٢٨٥ ألف طن " (٢) .

ويقول عبد الناصر في ٢٦ تموز ١٩٥٩ :

" عام ١٩٦٠ سنبدأ العمل على إنتاج أول دبابة عربية .
في السنة القادمة سننتج المدافع والعربات المصفحة .
سنبدأ بعد ذلك بصناعة الطائرة " (٣) .

وفي خطاب له في ٨ آب ١٩٥٩ ، يقول عبد الناصر :

" أول سفينة تبنى في الجمهورية يتم بناؤها في ديسمبر ١٩٦٠، وأول سيارة تنتج في شهر سبتمبر القادم ، ماكينات الخياطة قامت بها المصانع الحربية وبدأت ، وأنتجوا أول ماكينة في الشهر الحالي " (٤) .

أرقام مذهلة

ولا أظن القارىء لا يدهش مما ورد في خطاب ناصر في ٩ تموز ١٩٦٠ عن المشروعات الصناعية التي أسست أو طورت في خلال فترة زمنية قصيرة من عهد عبد الناصر ، وننقلها هنا بشيء من الاختصار :

" .. زادت قيمة إنتاجنا الصناعي في الإقليم المصري ٥٠٥ ملايين من الجنيهات في السنة بعد أن كانت ٢٣٩ مليوناً في سنة ١٩٥٢ ..

زاد إنتاجنا من القطن بنسبة ٧١% ، ومن السماد الآزوتي ١٣٥% ، ومن السكر ٧٠% ، ومن الورق ١٤١% ، ومن البترول ٤٨% ، ومن غزل الصوف ٢٣٥% ، ومن نسج الصوف ١٨٠% ،

ومن غزل الحرير الصناعي ٢٠٠% ، ومن نسج الحرير ٩١% ، ومن غزل الجوت ٢٢٣% ، ومن الزجاج ٢٦٣% ، ومن البطاريات السائلة ٣٧٢% ، ومن المصابيح الكهربائية ٢٠٠% ، ومن خامات الألوان ٣٨٠% .

" وفي خلال العام الماضي وحده أنتجنا في بلادنا من هذه الأصناف التي لم يكن لنا سابق عهد بإنتاجها ..

١٦٠٢٧ طن من ألواح الصاج المسحوب .
٢٨٢٧٣ طن من قضبان السكك الحديدية .
٤٥٠ عربة من عربات السكك الحديد
١٧٠٠ طن من الأدوية

٥٠٠٠ طن من المبيدات الحشرية
٢٩٥ ألف إطار من إطارات كاوتشوك السيارات
٥٢١٤٣ وحدة من تيل الفرامل
مليون من أقلام الرصاص
٢١٢٢٧ من أجهزة البوتاجاز
٥٢٩٤٣ من إسطوانات الغاز
٤٠٠٠ ثلاجة كهربائية
٤٠ ألف عداد كهربائي
٢٠٠٠ جهاز لتكييف الهواء
٣٠ ألف جهاز راديو "

ويواصل الزعيم الراحل خطابه ليتحدث عن الانتهاء من **صناعة السيارات والطائرات** ..

" كذلك - أيها الأخوة – خرجت إلى السوق فعلاً خلال الأشهر التي مضت أنواع أخرى من منتجاتنا .. خرجت **سيارة نقل** الركاب العربية .. وخرجت **سيارة نقل البضائع** العربية .. بل إنه ليسعدني أن أعلن الآن أن **أول طائرة نفاثة** صنعت في الإقليم المصري قد طارت بالفعل في الجو العربي منذ عشرة أيام لأول مرة ، وأن هذه الطائرة قد أثبتت صلاحيتها الممتازة للتدريب على الطيران النفاث ، وأن إنتاجنا منها يكفي حاجتنا ، ويكفي حاجة أي بلد عربي يريد تجربتها واستعمالها "(٥) .

أما عن تشغيل اليد العاملة ، فقد صممت خطة السنوات الخمس على أن تشغل ٨٠٠ ألف عامل (٦) .

إذن .. فما أعلنته مصر عبد الناصر من برامج وإنجازات صناعية لم يكن إنجازاً في صناعة البسكويت والبوظة والعصائر ، بل كان في الصناعات الكبيرة التي لا تستطيع الدول الناشئة القيام بها بالحماسة وحدها .

المزيد عن الصناعات

ونضرب هنا بعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر للتطور الصناعي ، والتي يوردها في كتاب له **رئيس الوزراء المصري علي صبري (١٩١٧-١٩٩١)** والذي أشرف عل تنفيذ خطة التنمية الخمسية.

إنتاج الصناعات التحويلية والبترول والكهرباء كان ٣١٣ مليون جنيه عام ١٩٥٢ ، ارتفع عام ١٩٦٠ إلى ٦٦٠،٩مليون جنيه ، ثم ارتفع إلى ٩٥٢،٦ مليون جنيه عام ١٩٦٣ ، لتكون نسبة الارتفاع الأخيرة ٤٢،٦% .

الورق الأهلية	١،٩	٢،٦٤٥	٣٨%
النصر للزجاج	١،٩٨٣	٢،٤٣٥	٢٢،٨%
الشرقية للبترول	٦،١	١٢،٢١١	١٠٠%
النصر للأجهزة	١،٠١٣	٢،٥٨٩	١٥٥%
مصانع النحاس	٤،٣٧٧	٧،١٤٨	٦٣،٣%
الدلتا للصلب	٣،٢٤٥	٣،٩٥٢	٢١،٨%
المصانع الحربية	٣،٩٢٦	٧،١٧٠	٨٣%
قطاع الكهرباء	٤،٨٧	١٨،٣٨	٣٧٧% (٧) .

ويقول في الأول من آب من العام ذاته عن التقدم الملحوظ للصناعة المصرية :

" عام ١٩٥٢ كانت المغازل ٤٢ ألف مغزل ، عام ١٩٥٨كانت ١٠٠ ألف مغزل .

عام ١٩٥٢ كان الإنتاج ٤،٥ مليون متر، ارتفع إلى ١٧،٥ مليون عام ١٩٥٨ "(٨) .

أرقام نهائية عالمية

ويلخص لنا الدكتور سليمان الطماوي ما سبق من تطور صناعي هائل ، فيقول :

بلغ إجمالي قيمة الإنتاج الصناعي - بما في ذلك الصناعات التحويلية والتعدينية والبترول والكهرباء - ٣١٣،٨ مليون جنيه عام ١٩٥٢ .

زاد عام ١٩٦٠ إلى حوالي ٦٦٠،٩ مليون جنيه .

ثم ارتفع عام ١٩٦٣ إلى حوالي ٩٥٢،٦ مليون جنيه ، **وهي نسبة عالية في تاريخ التطور الصناعي في العالم كله** ، فقد تضاعف الإنتاج الصناعي ثلاث مرات منذ سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٣ (٩) .

وبعد خمس سنوات فقط من قيام الثورة ، يلقي الزعيم الراحل في **مجلس الأمة في ٢٢ تموز ١٩٥٧** خطاباً مطولاً وقع في ٣٧ صفحة تناول فيه مختلف القضايا التي تهم مصر والأمة جمعاء ، وقد استعرض التطور الاقتصادي الكبير الذي حدث في مصر في ٩ صفحات ، نقتطف منه :

" تم وضع مشروع التوسع الصناعي على خمس سنوات ..

سيوفر مجال العمل لما يزيد على ٥٠٠ ألف عامل يوزع دخلهم على ٣ ملايين من السكان .

خصص للمشروعات الإنتاجية في ميزانية الدولة في الأربع سنوات الماضية ما معدله ٥٠ مليون جنيه كل سنة ، أي ٢٠٠ مليون جنيه في أربع سنوات .

قامت صناعات جديدة مثل صناعة الكابلات والبطاريات والكاوتشوك والصيني والخزف والجوت والأدوية والأدوات الكهربائية .

أصبح الإنتاج الصناعي يزيد بمعدل ١٠ في المائة كل عام ، وسوف يتعدى هذه النسبة بكثير بعد مشروع السنوات الخمس ، كما أعد برنامج تعديني واسع النطاق .

هذا غير جزء هام في نهضتنا الصناعية تلك هي صناعتنا العسكرية التي أدت رسالة هائلة في سد القوات المسلحة ، وضربت أرقاماً قياسية في عالم الصناعة والتصنيع " (١٠) .

وفي ٨ آب ١٩٥٩ يقول في خطاب له في المحلة الكبرى :

" سيتم إنتاج شاحنة مصنعة بالكامل محلياً .

أنتجنا أيضاً كل ما نحتاجه في مضمار الماكينات الهندسية ، والمنسوجات ، والثياب وكل السلع ، وفي جميع ما ذكر حققنا الاكتفاء الذاتي ، ونحن نصدر أيضاً بضائعنا ...

سنخصص جزءاً جيداً من الأموال المتوفرة للخطة الخمسية للصناعة .

سنبني السفن ونصنع السيارات ، سنؤسس صناعات في القطاعين المدني والعسكري ، لقد نجحنا في تصنيع ماكينات الخياطة ، وأنا سعيد لإبلاغكم بأننا سنصنع عما قريب العربات المصفحة والدبابات .

وفي نهاية ١٩٦٠ سيتم إنتاج أول سفينة من صناعة الجمهورية العربية المتحدة في قاعدة بور سعيد " (١١) .

وتبقى **الصهيونية العالمية** في يقظة تامة ، وقلق شديد مما يخططه ناصر من خطط تنمية وينفذها بلا إبطاء ، لذا هي تسعى بكل الوسائل لإيقاف عجلة التقدم في مصر ..

فلما صرح في ٣٠ تموز ١٩٥٩ :

" .. وأنا حينما قلت منذ ستة أيام أننا سننتج العربات المدرعة وسننتج الدبابات إنما كنت أعلم أن هذا أمر هام لنا ، ولا بد لنا من مجابهة الطامعين ، وفي مجابهة الصهيونية من أن نكون معتمدين كل الاعتماد على أنفسنا " (١٢) .

لما صرح ناصر بذلك لم تنم عين الصهيونية عن هذا التصريح الخطير ، فعلق قائلاً في الخطاب نفسه :

" ولكن رأيت بعد هذا ثورة عارمة في الصحف المأجورة التي تصدر في أمريكا ، هذه الصحف التي تسيطر عليها الصهيونية ، وهي صحف معروفة ، وليست كل الصف مأجورة ، ولكن الصحف المأجورة كأمثال "النيويورك تاييمز" التي تكلمت عليها ٣ أيام ، وتقول :

" لماذا يبني جمال عبد الناصر الدبابات والعربات المدرعة ، وهو يحرم الشعب من كل شيء ، وهذا هو سبيله إلى العدوان ، وهذا أمر يعرض السلام العالمي للخطر " (١٣) .

*****

وكما يرى القارىء ، فلم تكن تجربة ناصر تجربة صغيرة هزيلة خادعة ، بحاجة إلى كلام إنشائي لرفع قيمة تجربته وثورته ، وقيمة قائدها ، بل هي تجربة ماثلة واقعية أدركها كل المصريين في كل محافظاتهم ، وحين يتحدث عنها ناصر يدعم ما يقول بالوقائع والأرقام والتواريخ ، وكذلك كانت كل خطاباته ، سواء ما كان عن التنمية أو عن سواها ، وما ذكره هنا ما هو إلا غيض من فيض .

ويقدم لنا الكاتب والمؤرخ الكبير **محمد حسنين هيكل** منهج عبد الناصر في مشروعه الكبير المتميز في تنمية مصر ، فيقول :

" تحرك ناصر في ثلاثة اتجاهات على طريق التنمية :

١- جاء بالمشروعات التي وردت في وعود وزارات ما قبل الثورة إثناء خطب العرش ، واعتبر أن هذه المشروعات درست بما فيه الكفاية ، وأنشأ مجلساً أعلى للإنتاج خارج الجهاز الحكومي ، وضم فيه مجموعة من أبرز خبراء مصر الاقتصاديين قبل الثورة ، وممن لم تلحق بسمعتهم شوائب ، وجعل على رأسهم حسين فهمي ، وهو من ألمع الأسماء الاقتصادية وقتها ، وكان قد تولى وزارة المالية من قبل ، إلى جانب إسهامه في إنشاء كثير من المشروعات في السنوات السابقة .

ووضعت تحت تصرف مجلس الإنتاج كل المبالغ التي أمكن توفيرها له ورصدها للتنمية ، ووصلت هذه المبالغ إلى أكثر من **ألف مليون دولار** ، وكان من أبرز المشروعات التي نفذت بإشراف مجلس الإنتاج : **مصنع حديد حلوان ، ومصنع السماد في أسوان ، وكهربة خزان أسوان ، وكهربة خط حلوان** ..إلى آخره .

وفي نفس الوقت ، كان جمال عبد الناصر قد أنشأ مجلساً للخدمات خارج إطار الجهاز الحكومي أيضاً ، ووضع على رأسه فؤاد جلال ، وطلب أن يحول إليه كل ما

صودر من ثروة الملك السابق ، ومن أملاك الخاصة الملكية ، وقد بلغت قيمتها في ذلك الوقت سبعين مليون جنيه ، وقد نفذت بها مشروعات الوحدات المجمعة للصحة والتعليم ، وإعادة التدريب والإرشاد الزراعي في الريف ، إلى جانب سلسلة المستشفيات المركزية التي أنشئت في ذلك الوقت .

٢- أقر توصية لمجلس الإنتاج في ذلك الوقت ، بأن يعهد إلى بيت خبرة أمريكي عالمي هو بيت "آرثر دولتيل" الشهير ، بإجراء مسح شامل لإمكانيات مصر الاقتصادية ، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطاً شاملاً ... كان ذلك في سنوات ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ .

٣- أسس جهاز تخطيط وطني ليقوم بأعمال التخطيط للسنوات القادمة .

لذلك كله ، كان لا بد لقوى الاستعمار الحاقدة من محاولة وضع حد لهذه الخطوات الجبارة ، وكما يضيف الأستاذ **هيكل** :

" وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وكانت حرب السويس في حقيقتها **حرب التنمية في مصر** ، فقد كان محورها هو السد العالي ، وكان تأميم قناة السويس هو رد جمال عبد الناصر على سحب المساهمة الأمريكية البريطانية في السد العالي ، وعلى إحجام البنك الدولي إثر ذلك من أن يقوم بتمويل المشروع " (١٤) .

أي أن ما ردت به قوى الاستعمار على ما سبق من خطوات وخطط اقتصادية تمثل في اتحاد تلك القوى ووقوفها مع إسرائيل إزاء هذا العدو الواعي ، المنتمي لتراب هذا الوطن ، ولشعبه ولأمته .

وإثناء حرب السويس وبعدها ، أضاف جمال عبد الناصر إلى إمكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين :

١- قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها .

٢- مجموعة البنوك وشركات التأمين والتجارة الداخلية التي كانت مملوكة للإنجليز والفرنسيين والبلجيك ...التي تم تمصيرها، فكانت أول نواة لقطاع عام يقو بدور طليعي في عملية التنمية "

(١٥) .

ويلخص **محمد حسنين هيكل** ما سبق في كلمات قليلة عن الإنجاز الاقتصادي في عشر سنوات (١٩٥٧-١٩٦٧) ، فيقول :

" طوال هذه السنوات العشر كانت نسبة النمو الاقتصادي في مصر تسير بمعدل ٦،٢% سنوياً بالأسعار الثابتة الحقيقية .

بل إن هذه النسبة ارتفعت في وسط الفترة ، أي من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥ إلى معدل ٦،٦% " ، ويضيف :

" استطاعت مصر في عشر سنوات من عصر عبد الناصر أن تقوم بتنمية تماثل أربعة أضعاف ما استطاعت تحقيقه في الأربعين سنة السابقة على عصر عبد الناصر .

كانت تلك نتيجة لا مثيل لها في العالم النامي كله ، حيث لم يزد معدل التنمية السنوي في أكثر بلدانه المستقلة خلال تلك الفترة عن اثنين ونصف في المائة .

بل إن هذه النسبة كان يعز مثيلها في العالم المتقدم ، باستثناء اليابان وألمانيا الغربية ومجموعة الدول الشيوعية " (١٦) .

وقد تحمل الاقتصاد المصري في زمن ناصر بعد عام ١٩٦٧ المهام الكبرى التالية :

١- عبء إعادة بناء القوات المسلحة .

٢- إتمام بناء السد العالي الذي أعلن عبد الناصر عن الانتهاء منه في ٢٣ يوليو ١٩٧٠ .

٣- القيام بمشروعات ضخمة مثل مجمع الحديد والصلب الذي وصفه أنور السادات بأنه " لا يقل ضخامة عن السد العالي " .

٤- تثبيت أسعار السلع الاستهلاكية لتظل في متناول الجماهير (١٧) .

وننهي بقول الدكتور **عصمت سيف الدولة** عن فترة الحكم الناصري :

" كانت تلك الفترة الرائعة حين كان كل ما نستعمله ونأكله ونشربه ونركبه يحمل ذلك العنوان العظيم (صنع في ج ع م) أي الجمهورية العربية المتحدة "(١٨) .

فهل نستطيع بعد كل هذا - وهو غيض من فيض- أن نقول أن عبد الناصر لم يترك اقتصاداً ...

لقد ترك قاعدة اقتصادية هائلة ، بالنية الصادقة ، والتخطيط العلمي السليم ، والعزم القوي ، والعمل الدؤوب .

******

إذن نحن نقف إزاء **تجربة اقتصادية عملاقة** نادراً ما تحدث في بلاد الشرق ...

فلم تكن المشاريع التنموية الناصرية الهائلة وليدة خطوات وقرارات ارتجالية متسرعة للاستهلاك المحلي ، وللتسويق الإعلامي ، بل كانت قائمة على تخطيط علمي واع مدروس ، وضعه صفوة العلماء المصريين والغربيين ، فكانت النتائج متميزة ، والإنجازات كبيرة باهرة لا ينكرها إلا الحاقدين والجاحدين ، الذين يقيسون الأمور بناء

على إملاءات أحزابهم ، ومواقف فرقهم وتكتلاتهم ، أو بناء على جهل كبير مصدره لا هذا ولا ذاك .. وإذا ما ارتقوا قليلاً أصدروا أحكامهم بناء على ما سمعوه من أحاديث العجائز !

******

ورد في الميثاق – الباب السابع – بعنوان "الإنتاج والمجتمع":

" إن مجالات العمل الصناعي في مصر ليست لها حدود .

إن الصناعة المصرية تقدر أن تمد العمل المبدع الخلاق إلى أقاصي الأرض المصرية .

إن مصادر الثروة الطبيعية والمعدنية ما زالت تحتفظ بالكثير من أسرارها .

إن العمل العلمي الصناعي وحده هو القادر على أن يجعل الأرض المصرية تبوح بكل أسرارها، وتفيض بما في باطنها من ثروات طبيعية ومعدنية لخدمة التقدم .

إن هذه المصادر تستطيع أن تكون عموداً فقرياً للصناعة الثقيلة ، القادرة بدورها على خلق أدوات الإنتاج الجديدة ، وإن أهمية خاصة يجب أن توجه إلى الصناعات الثقيلة ، فبها يمكن أن يوضع الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه الصناعة الحديثة .

.. وبصورة شاملة ،فإن الصناعة يجب أن تضع في برامجها تصنيع كل ما تقدر على تصنيعه من المواد الخام تصنيعاً جزئياً ، أو تصنيعاً كاملاً ، فإن ذلك يحقق أكبر الأهداف من عملية التطوير ..

إنه يحقق زيادة الإنتاج ، ويحقق مواجهة مطالب الاستهلاك ، كما أنه يتيح الفرص للأيدي القادرة على العمل ، والتي تطلبه كحق إنساني مقدس ، وفي نفس الوقت فهو مصدر للنقد الأجنبي الذي يواجه المطالب المتزايدة لمعركة التطوير " (١٩) .

٢- الإصلاح الزراعي :

كان لا بد من القضاء على العدو الأول للفلاح المصري .. الإقطاع ، لذا جرى انتزاع الأراضي من الملاك الكبار حسب القانون ، وتوزيعها على صغار الفلاحين المحرومين .

وقد نص قانون الإصلاح الزراعي الذي أصدرته الثورة في ٧ أيلول ١٩٥٢ (أي بعد ٤٥ يوماً من قيامها) "على تحديد الملكية الزراعية ، وأخذ الأرض من كبار الملاك وتوزيعها على صغار الفلاحين المعدمين ، في تعديلات متتالية حددت الملكية للفرد والأسرة من ٢٠٠ فدان إلى ٥٠ فدان للملاك القدامى " (٢٠) .

ومنذ قيام الثورة بلغ مجموع ما استولى عليه القانون ٩٣٤،٤٥٧ ألف فدان .

وقد تم تعويض من انتزعت ملكياتهم (باستثناء العائلة المالكة) بسندات حكومية تسدد خلال ٣٠ عاماً (٢١) .

ولنقرأ رأي عبد الناصر في الإصلاح الزراعي في ٢٣ شباط ١٩٥٩ ، إذ يقول :

" اليوم نصحح الأمور ونعيد الأرض إلى أصحابها ، هذا .. أيها الأخوة ليس عملاً بدافع الحقد أو الكراهية تجاه أحد ، لكنه يتم من أجل الديمقراطية الاجتماعية ، لأننا لن نستطيع أبداً أن نشعر بالكرامة الوطنية ، أو أن ننعم بحقوقنا في أرضنا ، أو نشعر بوجودنا إلا إن سادت في مجتمعنا ديمقراطية اجتماعية حقيقية .

سنجهد جميعاً : سيحرث الفلاح أرضه ، والعالم سيجهد في عمله لرفع الدخل في هذا البلد ، وزيادة ثرواته ، لأن هذه هي الخطوة الثانية لتحقيق الديمقراطية الاجتماعية .

عندما نوزع الأراضي ، ونقضي على الإقطاعية ، ونخلص أنفسنا من هيمنة رأس المال على الحكم ، ونزيل الاحتكار ، نحقق ، خطوة خطوة أهدافنا لتأسيس العدالة الاجتماعية ، والديمقراطية الاجتماعية، والمجتمع الاشتراكي الديمقراطي " (٢٢) .

ولما زعم البعض أن الثورة قد وزعت الفقر ، ولم تقدم شيئاً للفقراء ، رد قائلاً في خطاب له في ٢٦ تموز ١٩٦١ :

" لقد كان الشعب بأغلبيته الكبرى يشعر بالظلم الاجتماعي ، ويشعر بالحرمان ، وكان يرى موارد البلاد وثرواتها في يد فئة قليلة من الناس ، وكانوا ينظرون إلى الشعب على أنه طبقة من الفلاحين العبيد الذين خلقوا ليخدموهم ، ولكننا اليوم ، ونحن نعلن ثورتنا الاجتماعية ، نعلن أن عهد الظلم الاجتماعي قد انتهى إلى غير رجعة ، وأننا اليوم نعيش في عهد العدالة الاجتماعية .

لقد قالوا في الماضي أن أي إجراء إنما يعني توزيع الفقر ، ولا يعني توزيع الغنى ...

كيف يكون توزيع الفقر مثلاً إذا كنا نترك ١٠٠ فدان لصاحب الأرض ؟ ونوزع على الفلاح المعدم ٥ فدادين ؟ طبعاً فيه فرق كبير بين ال ٥ فدادين وال ١٠٠ فدان .. ولكن ما هي النتيجة اللي بتحصل لهذا ؟ ..الأسرة التي كانت معدومة وتأخذ ٥ فدادين كانت أسرة يمكن تنام من غير عشا ، كان يمكن رب الأسرة لا يستطيع أن يجد العشاء لأولاده ، وأصبح له ٥ فدادين يؤمن يومه ، ويؤمن غده لأولاده ، لم يكن يستطيع أن يعلم *أولاده ، لم يستطع أن يعطي فرصة متكافئة لأولاده ليخرجوا من هذا المجتمع ، ويشعروا فعلاً بالحرية والمساواة* " (٢٣) .

وحديث ناصر هنا واضح ليس بحاجة لشرح طويل ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدعى ما قامت به الثورة من توزيع للأراضي توزيعاً للفقر ، فالذي يملك ٥

فدادين (الفدان يساوي ٤،٢ دونم) أي ٢١ دونماً ، ليس كالمعدم الذي لا يملك شيئاً ، ويكفيه أنه أصبح صاحب أرض يمكنه استغلالها ، وتأمين قوت أولاده ، وأنه قد انتقل من طبقة المستخدمين المعدمين أشباه العبيد ، إلى أبناء الطبقة الوسطى الملاكين.

ويؤكد ناصر أن الغاية من ذلك القضاء على الطبقية ، فيقول في خطاب له في ٢٧ شباط ١٩٥٩ في مدينة حلب :

"عندما أعلنا الديمقراطية الاشتراكية ، ووضعنا حداً للإقطاع ، قررنا أن نقيم العدالة الاجتماعية ، ونضع الأمور في موضعها الصحيح .

أردنا أيها الأخوة ، أن نزيل الفوارق بين الطبقات كي ينعم كل مواطن في وطننا بفرصة متساوية .

بسيرنا على هذا الطريق ، فإننا نقوي أمتنا ، ومجتمعنا مجتمع بدون فوارق طبقية .

بالوحدة ، أيها المواطنون ، وبالعمل المستمر ، سنتمكن من بناء هذه الأمة " (٢٤) .

لا سادة ولا عبيد

ويرى عبد الناصر أن توزيع الأراضي يبني مجتمعاً جديداً ، فيقول في خطاب له في ١٩٦٠/٢/٢٢ :

" ..كان لا بد من القضاء على الفوارق الاجتماعية التي افتعلها الاستعمار بين ربوعنا ، وكان لا بد من أن نحول الأجراء إلى ملاك تخلصوا من كل أنواع السيطرة والاستغلال ، وكان لا بد من أن نقيم العدالة الاجتماعية بكل معناها .. فكان لا بد من أن نقضي عل آثار الماضي ، ثم نعمل ونعمل بكل طاقاتنا لنقيم بين ربوع أمتنا المجتمع الذي نريده ، المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية .

واليوم - أيها الأخوة المواطنون - نحتفل بتوزيع الأرض ، ونحتفل ببناء المجتمع الجديد الذي كافح من أجله الآباء والأجداد ، وبذلوا الدماء والأرواح .

نحتفل ونحن نوزع الأرض ، ونحتفل ونحن نبني المصانع ، ونحتفل ونحن نؤمن العمال ، ونحتفل ونحن نعلن ألا سادة ولا عبيد ، بل كلنا في وطن واحد تجمعنا المحبة ، ويجمع بيننا الإخاء (٢٥) .

ومثل هذا التوزيع للأراضي على المعوزين والمعدمين الذين كانوا يعاملون كالعبيد عند الإقطاعيين ، يخلق إحساساً لديهم بالحرية والإنسانية ، وبأنهم أمسوا قادرين على الإنتاج والمشاركة في تنمية وطنهم ، وكل ذلك يجعلهم يشعرون بالمواطنة الصالحة ، والانتماء والولاء لوطنهم ومجتمعهم .

وكان مجموع الأراضي التي تم استصلاحها في العشرين سنة قبل الثورة ٤٥ ألف فدان ، ولكن في عام ١٩٦٢-١٩٦٣ وحدها تم استصلاح ١١٩،٢٣٠ ألف فدان ، أي أن ما استصلح في عام واحد بلغ ثلاثة أضعاف ما استصلح في عشرين عاماً ، فتأمل !

كما ارتفع رقم الأراضي المستصلحة إلى ٦٣٢،٢٠٠ ألف فدان في نهاية الخطة الخمسية الأولى عام ١٩٦٤-١٩٦٥(٢٦) .

٣- بناء السد العالي :

في ٩ كانون ثان ١٩٦٠ ، أعلن الزعيم الراحل قراره التاريخي بالشروع في بناء السد العالي ، وذلك لتحقيق الأهداف التالية :

١- تخزين مياه الفيضان للانتفاع بها للري .
٢- حماية البلاد من الفيضانات .
٣- استصلاح أراض زراعية جديدة .
٤- توليد طاقة كهربائية لتشغيل المصانع .

الإرهاصات

بعد قيام ثورة يوليو ب ٧٥ يوماً فقط ، اتخذ مجلس قيادة الثورة قراره بالشروع في دراسة مشروع السد العالي في أسوان جنوبي البلاد ، وقد عهد لمجموعة من المهندسين المصريين ولجنة من الخبراء العالميين المتخصصين في تنفيذ السدود بدراسة جدوى المشروع ، وفي ١٤ كانون أول ١٩٥٤ أصدرت اللجنة قرارها بالإجماع بسلامة المشروع ، وقدرت كلفته ب ٤٠٠ مليون جنيه (٢٧) .

وتطلب مصر مساعدة البنك الدولي كونها عضواً فيه ، فكانت أميركا أول الرافضين بعد فرضها شروطاً مذلة قبلها ناصر مناورة منه ، ليثبت للعالم نوايا أميركا تجاه مصر ، وفي ١٩ حزيران ١٩٥٦ أعلن البنك الدولي سحبه عرضه لتمويل السد بعد رفض فرنسا وبريطانيا المساهمة فيه ، فما كان من ناصر إلا أن أعلن تأميم قناة السويس (٢٨) .

وفي ٢٨ تموز ١٩٥٩ يقول ناصر عن مشروع السد العالي ، واصفاً المحاولات الاستعمارية لتحجيم مصر ومشروعها التنموي الهائل ، ومحاولة الزعيم الراحل بناء دولة لا تخضع - بأي صورة من الصور- للقرار والإرادة الغربيين :

" فعندما منعنا المساعدة الأجنبية والقروض الأجنبية ، شعرنا بأننا نعاقب ، شعرنا بان هناك محاولة لكبحنا في وضع نمو متدن ، ومنعنا من تحقيق المجتمع الذي نأمل فيه ،

لأن زراعة مليوني فدان بالنسبة لنا هو هدف عظيم ، إنه زيادة في ثروتنا الزراعية ، ودخلنا بنسبة الثلث مما نحصل عليه الآن ، لهذا لم نتردد بالمضي في تصميمنا على بناء السد العالي ، فأممنا القناة التي اغتصبت منا في الماضي ، والتي حفرتموها بأيديكم .

بعد تأميم القناة ، استطعنا أن نحصل على ٤٦ مليون جنيه ، كانت تأخذهم الدول المسيطرة على القناة ، أي بريطانيا وفرنسا ، وأعلنا أننا سنحول هذه الأموال لبناء السد العالي ، وتنمية الزراعة والصناعة في بلدنا " (٢٩) .

الدور السوفييتي

وقد تحققت هذه الخطط والأماني وبشكل أعظم مما حلم به ناصر ، فقد جرت المفاوضات مع السوفييت لهذا الغرض ، ووقعت اتفاقية معهم في ٢٧ كانون أول ١٩٥٨ ، قدموا بموجبها ٣٤،٨ **مليون جنيه** لاستيراد الآلات وللتكاليف الأولية ، وفي اتفاقية ثانية قدم السوفييت قرضاً آخر بقيمة ٧٤،٨ **مليون** جنيه يسدد على ١٢ قسطاً ، وذلك " بدافع من العلاقات الودية بين البلدين ، ورغبة في زيادة وتوطيد التعاون الاقتصادي والفني بينهما على أساس المساواة وعدم التدخل في الشئون الداخلية ، والاحترام التام للكرامة والسيادة القومية في كل من البلدين " (٣٠) .

ولما لم يكن من طباع عبد الناصر نكران الجميل ، ها هو يشكر السوفييت الذين قدموا مساعداتهم بدون قيد أو شرط ، وبخلاف ما يفعله المستعمرون ، فقال في خطاب له في أسوان بمناسبة الاحتفال ببدء أعمال البناء في السد العالي في ١٩٦٠/١/٩ :

" إننا أيها الإخوة ونحن نحتفل ببناء السد العالي لا بد أن نذكر الدولة التي قبلت أن تساعدنا في هذا العمل .. ساعدتنا بقرض من أجل البناء ، ثم ساعدتنا بمعونة فنية من أجل البناء ، تلك الدولة هي الإتحاد السوفييتي ، وان **مساعدة الاتحاد السوفييتي** لنا بإعطائنا قرض بناء المرحلة الأولى للسد العالي ، والمساعدة الفنية في بناء السد العالي إنما كانت مساعدة خالصة غير مشروطة .. مساعدة تمليها الصداقة .. وتمليها المودة التي تجمع بين الشعب العربي وبين الشعب السوفييتي .. وكانت مساعدته لنا صادقة إلى أبعد الحدود ، لا قيد عليها ولا شرط ، بل لا عنف ولا إرهاق " (٣١) .

وفي رسالة من الزعيم الراحل إلى الرئيس السوفييتي خروشوف في ١٩٦٠/١/١٧يقول فيها :

" ..وإننا لنذكر بمزيد من الشكر أن **شعب الاتحاد السوفييتي** أكد صداقته لشعب الجمهورية العربية المتحدة في كل معاركه ، سواء في ذلك كفاحه الوطني للحصول على استقلاله وصيانة هذا الاستقلال ، أو جهوده الدائبة لصنع حياة أفضل لجميع أبنائه ..

وإني لأنتهز الفرصة لأكرر لكم من جديد تقدير شعب الجمهورية العربية المتحدة وحكومته ، على ما تبذلونه من جهد لمساعدتنا ، وإني لواثق أن التعاون بين مهندسينا وعمالنا العرب وبين المهندسين السوفييت الذين يعملون معنا في السد العالي ، سوف يساعد على تدعيم الصداقة التي آمن به شعبانا ، والتي حاول كل منهما الحفاظ عليها في كل الظروف " (٣٢) .

وفي هذين الحديثين الخطاب والرسالة ، شهادة واضحة على عمق العلاقة التي أقامها الزعيمان ، وإشارة جلية على أن المساعدات السوفييتية لم تكن يوماً مشروطة بتحقيق مكاسب أو غايات في مصر .

يقول ناصر فس خطابه في الاحتفال بانتهاء آخر مرحلة من السد العالي :

" الحمد لله أنني عشت حتى رأيت السد العالي وقد أصبح حقيقة واقعة من أجل رخاء الشعب المصري " (٣٣) .

" وكان بناء السد العالي أروع عمل في القرن العشرين ...

إنه ذلك البناء الذي أمكنه أن يحقق به عملية (ضبط النهر) .. وبذلك استطاع عبد الناصر أن يحل المشاكل التي قامت في الأقصر وأسوان منذ أربعة آلاف سنة ، والتي ظل الشعب يواجهها حتى القرن العشرين ، وحين يقف المرء على قمة السد العالي ، يمكنه أن يتأمل المعنى الكبير الذي يمثله هذا العمل الجبار ، ويمكنه ان يقول لنفسه : إذا كانت جرأة بطلنا قد تصورت هذا المشروع ، فإن روحه الوثابة هي التي ساهمت في تنفيذه وإخراجه إلى حيز الوجود ، رغم كل العوائق والضغوط التي تعرض لها .

وفي ضوء هذا ، أمكن للثورة أن تكون وسيطاً بين الإنسان المصري وأرضه ، ووصياً على العلاقة بينهما ، وبالتالي أمكنها أن تعيد تقييم العلاقة بين الفلاح والنهر ، ذلك التقييم الذي حطم القاعدة الجائرة التي مؤداها "أعطني أرضك وجهدك ، أعطك انا مياهي " (٣٤) .

كما ورد في الميثاق

" لقد خاض الشعب في مصر صنوف الحروب المسلحة ، والاقتصادية والنفسية ، لكي يبني السد العالي ، إن هذا السد أصبح رمزاً لإرادة الشعب ، وتصميمه على صنع الحياة ، كما أنه رمز لإرادته في إتاحة حق الملكية لجموع غفيرة من الفلاحين ، لم تسنح لها هذه الفرصة عبر قرون طويلة ممتدة من الحكم الإقطاعي " (٣٥) .

٤- تطوير التعليم ومجانيته:

كان التعليم بمختلف مراحله في العهد الملكي حكراً على أبناء الذوات من الطبقة البرجوازية لأنه كان بالمال ، فجاءت الثورة لتجعله مجانياً ، فصار متاحاً للجميع بدون استثناء .

وفي خطابه في ٢٢-٧-١٩٥٧، في افتتاح مجلس الأمة ، تحدث ناصر عن الإنجازات في مجال التعليم في السنين الخمس الماضية، فكان منها :

١- بناء ١٢٣٥ مدرسة ، أي بمعدل مدرستين كل ثلاثة أيام .

٢- قفزت ميزانية التعليم من ٢٦ مليون جنيه إلى ٤٥ مليون جنيه .

٣- أنشئت جوائز لتشجيع الممتازين من الطلاب والمعلمين .

٤- كانت البعثات في الخارج ٣٤٦ فصارت ٧٠٠ بعثة .

٥- أصبح المركز القومي للبحوث أكبر مركز مجمع للبحوث في الشرق ، وكان عدد الباحثين فيه ستة فقط ، فصار ١١٠ باحثين .

٦- كان عدد الطلاب في المرحلة الابتدائية ١،٤مليون ، فأصبح ٢،١٧٦ مليون طالب ، وصار عددهم في المدارس الصناعية ٢٢ ألف طالب ، فأصبح ٤٩٥٠٠ طالب ، وفي الجامعات كان عدد الطلبة ٤٢ ألفاً ، فأصبح ٧٤ ألفاً (٣٦) .

وكان عدد طلاب المرحلة الثانوية ١٠٩ آلاف عام ١٩٥٣، فأصبح ٢٩٢ ألفاً عام ١٩٦٩ .

أما عدد طلاب المرحلة الثانوية الفنية فكان ١٥،٥ألفاً عام ١٩٥٣ ، فأصبح ١٩٧ ألفاً عام ١٩٦٩ .

أما طلاب الجامعات ، فقد ارتفع عددهم من ٣٥ ألفاً عام ١٩٥٢ إلى ١٢٢ ألفاً عام ١٩٦٩(٣٧) .

إنجازات أخرى

وقد حققت مصر في عهد الثورة إنجازات كبيرة تطاول ما حققته في الجوانب الأخرى .

فقد يسرت الثورة **التعليم المجاني** بكافة مراحله لكل فئات المجتمع بعد أن كان حكراً على الطبقة البرجوازية ، وكانت جامعات مصر تستقبل الطلاب العرب للدراسة في جامعاتها العريقة مجاناً .

وزاد عدد المتعلمين بنسبة ١٣٢% عام ١٩٦٩ عنه عام ١٩٥٤ ، وبلغت نسبة استيعاب الطلاب ٧٠% .

وبعد أن كان التعليم مركزاً في العاصمة والإسكندرية ، انتقلت مراكز العلم بمدارسها وجامعاتها إلى الأقاليم لإتاحة فرصة التعليم لأبناء العمال والفلاحين والكادحين .

وزادت البعثات للتخصص العلمي من ٢٣٨ بعثة عام ١٩٦٠ إلى ١٥٧٥ بعثة عام ١٩٦٦ (٣٨) .

اعتمادات التعليم : تمت زيادة الإعتمادات المقررة للتعليم العام - بخلاف الجامعات - من ٢٣,٥ مليون جنيه عام ٥٢- ١٩٥٣ إلى ٧٦ مليون جنيه عام ٦٣-١٩٦٤ .

تعديل البرامج التعليمية : لتصحيح الاختلال في العملية التعليمية اعتمدت الدولة الطرق التالية :

١- فرضت دراسة القومية العربية والاشتراكية وتاريخ الثورة في كل مراحل التعليم ، بمستويات مختلفة كل حسب مرحلته .

٢- فتحت معاهد جديدة ذات صفة عملية ، فتم إنشاء مدارس إعدادية عملية ، وأقيمت فصول ملحقة بالمصانع والمعاهد الفنية العالية الصناعية والزراعية والتجارية .

٣- أنشئت المعاهد المتخصصة كمعهد التعدين ومعهد البترول ومعهد الالكترونات ومعهد شؤون القطن .

١- زادت أعداد الطلبة الملتحقين بالجامعات من ٣٥ ألف عام ١٩٥٣ إلى ١٢٠ ألف عام ١٩٦٤(٣٩) .

٢- بنت الدولة عام ١٩٥١ ثلاث مدارس فقط ، وبعد الثورة بدأت تبني ٢٥٠ مدرسة كل عام .

٣- افتتحت جامعة أسيوط عام ١٩٥٧ ، كما أفتتحت كليتان للطب في المنصورة وطنطا ، وتم إنشاء جامعة الأزهر عام ١٩٦١ وفيها مختلف الكليات العلمية والنظرية .
٤- استقبلت مصر في عامي ٦٤- ١٩٦٥ ثلاثين ألف طالب وفدوا من أكثر من مئة دولة للدراسة المجانية في جامعات مصر ومعاهدها ،، ومنهم طلاب من أوروبا والصين وأميركا .
٥- قررت الثورة عام ١٩٥٤ عيد العلم الذي يمنح فيه الزعيم الراحل بنفسه الجوائز النقدية والتقديرية للطلبة المتفوقين (٤٠) .

أما عن جهود الثورة في **محو الأمية** ، فقد ورثت مجتمعاً تزيد نسبة الأمية فيه عن ٨٠% بين الذكور ، وبين النساء تزيد عن ٩٠% ، وقد انخفضت هذه النسب بشكل ملحوظ ، فبلغت عند الذكور ٦٠% في أوائل السبعينيات ، وبين النساء إلى ٨٠% ، وكانت نسبة من تحمل الشهادات من النساء ١% ، ارتفعت إلى ٤% ، وكان عدد الطالبات في التعليم الجامعي ٤ آلاف طالبة عام ١٩٥٣ ، ارتفع إلى ٥٠ ألف عام ١٩٧١ ، أي ارتفع أثني عشر مثلاً في عشرين عاماً ، كما ارتفع عددهن في كليات الهندسة من ١١ طالبة عام ١٩٥٢ إلى ٢٢٨٠ طالبة عام ١٩٧٠ ، وفي كليات الطب من ٧٣٠ طالبة إلى ٧٥٠٠ طالبة ، أي قفز إلى أكثر من عشرة أمثاله في نفس الفترة (٤١) .

٥- تسليح الجيش وبناء علاقة قوية مع الاتحاد السوفييتي:

كان أول تعاون مشترك بين مصر والاتحاد السوفييتي تلك المعاهدة الاقتصادية التي وقعت بين البلدين في آب ١٩٤٣ ، والتي بمضمونها تعهد البلدان بمقايضة القطن المصري بحبوب وأخشاب من الاتحاد السوفييتي (٤٢) .

أما عن العلاقات السياسية والعسكرية فقد بدأت بشكل حقيقي بعد الثورة .

وقد كتب الكثير عن أحوال الجيش المصري قبل الثورة ، وما كان لديه من سلاح فاسد أدى إلى الهزيمة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، رغم الشجاعة والصمود اللذين أبداهما الجيش المصري في معاركه على ثرى فلسطين .

ويسجل السوفييت موقفاً نبيلاً في مجلس الأمن باستخدامهم حق النقض(الفيتو) في ٣٠ آذار ١٩٥١ ، عندما بحث المجلس القيود التي تفرضها مصر على الملاحة في قناة السويس ، وعد الأميركان والانجليز هذا الموقف تدخلاً من السوفييت في شؤون الشرق الأوسط الذي يعتبرونه محمية لهم لا يجوز للآخرين التدخل فيه (٤٣) .

وبعد قيام الثورة بحوالي العام ، وفي ١٨ آب ١٩٥٣ ، وقعت مصر والاتحاد السوفييتي اتفاقاً للمدفوعات ، ثم أتبعته الدولتان باتفاق تجاري وقع في ٢٧ آذار ١٩٥٤ (٤٤) .

ولما شنت إسرائيل هجومها على قرية نحالين الأردنية ، وتقدمت الحكومة الأردنية بشكوى إلى مجلس الأمن ، وقف المندوب السوفييتي بجانبها ، وأيدها في حقها ، فأرسل مجلس النواب الأردني برقية شكر للمندوب السوفييتي مما أثار ثائرة الإنجليز والأمريكيين الذين أنكروا قيام أي علاقة بين دول العروبة والسوفييت (٤٥) .

وكان الاهتمام بتسليح الجيش قد بدأ مبكراً منذ الأيام الأولى للثورة المجيدة ، ولعل السبب هو ما لقيه الضباط والجنود المصريون في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، وفي تصريحه في آب ١٩٥٢ ، يقرأ محمد نجيب المستقبل بكل وضوح قائلاً :

" لا بد أن نحصل على أسلحة حديثة من دولة ما ، وإذا كنت لا أستطيع أن أحدد مَن من الدول سيمدنا بالأسلحة في حالة امتناع أمريكا والديمقراطيات الغربية عن مساعدتنا ، فمن البديهي في هذه الحالة أننا سنلجأ إلى غيرها " (٤٦) .

وقدمت مصر للأمريكيين في تشرين ثان ١٩٥٢ قائمة بحاجتها من الأسلحة تقدر بمئة مليون دولار ، وسافر قائد الجناح علي صبري والقائمقام حسين الفكلاوي إلى أميركا وقضيا عدة شهور هناك ، وقابلوا العديد من المسئولين ولكن بدون نتيجة ، وصرح وزير الخارجية الأمريكي دالاس لمحمد نجيب أن امتناع أميركا عن تسليح مصر استجابة لرجاء تشرشل بذلك لكي لا يستعمل هذا السلاح ضد جنوده في قناة السويس (٤٧) .

ويتحول ثوار يوليو إلى الشرق الاشتراكي ، ولم يندموا على ذلك ...

ففي ٧ تشرين ثان ١٩٥٢ يزور عبد الناصر ومحمد نجيب المفوضية السوفييتية مهنئين بالعيد الخامس الثلاثين للثورة الاشتراكية ، كما تقرر سفر بعثة من وزارة الحربية المصرية إلى دول المجموعة الاشتراكية لأجل التباحث في موضع استيراد السلاح ، وقابل محمد نجيب السفير السوفييتي في مصر في كانون أول ١٩٥٣، فكان أول حديث بين مصر والسوفييت في موضوع السلاح (٤٨) .

وجرت في عام ١٩٥٤ عدة مقابلات في هذا الشأن بين مسئولين مصريين والسفير السوفييتي في القاهرة بدون نتيجة ، إلى أن كان **مؤتمر باندونج الآسيوي** الأفريقي في نيسان ١٩٥٥، والذي شاركت فيه مصر إلى جانب ٢٧ دولة مستقلة .

فقد صارح ناصر الزعيم الصيني شو إن لاي بحاجة مصر للسلاح ، وسأله إذا كان بإمكان الصين إمداد مصر به ، فرد شو إن لاي بأن الصين تستورد سلاحها من الإتحاد السوفييتي ، ولكنه وعد بالاتصال بالسوفييت لهذا الغرض .

وبعد عودة الزعيم الراحل لمصر ، وفي نيسان ١٩٥٥ ، زار السفير السوفييتي في مصر دانيال سولود الرئيس عبد الناصر ، وأبلغه موافقة الاتحاد السوفييتي على إمداد مصر بما تحتاجه من أسلحة ، وطلب معرفة انواعها ومقدارها ، كما أبلغه استعداد بلاده للمساهمة في مشروعات مصر الصناعية (٤٩) .

واستقبل علي صبري مدير مكتب الرئيس العقيد فيمتشنكو الملحق العسكري في السفارة السوفييتية في القاهرة ، وقدم إليه قائمة بالأسلحة المطلوبة ، فوافقت عليها الحكومة السوفييتية فوراً (٥٠) .

وتمت دعوة ديمتري شبيلوف رئيس تحرير صحيفة البرافدا والسياسي البارز لحضور احتفالات مصر بعيد الثورة الثالث ، فلبى الدعوة حاملاً تفويضاً انتهى إلى موافقة السوفييت على صفقة سلاح لمصر قيمتها ٨٠ مليون جنيه (٥١) ، وهو ما دعي عبر التاريخ وفي كل المصادر والمراجع **بصفقة الأسلحة التشيكية** الشهيرة ، والتي كانت أسلحتها سوفييتية ،وأعلن الفريقان أن الاتفاق كان بين مصر وتشيكوسلوفاكية ، درءاً لحدوث مشاكل مع الغرب ، فكانت هذه الصفقة كسراً لاحتكار السلاح الذي كان يفرضه الغرب على العرب ، وفتحاً للإمداد السوفييتي العظيم ، وقد تكونت من :

" ٥٣٠ عربة مصفحة

٢٣٠ دبابة

٢٠٠ ناقلة جنود مدرعة ١٠٠ مدفع ذاتي الحركة

٥٠٠ قطعة مدفعية من أنواع مختلفة

٢٠٠ طائرة مقاتلة وقاذفة

ومجموعة بحرية تضم مدمرات وكاسحات ألغام وثلاث غواصات " (٥٢) .

وقد دفعت مصر ثمن الصفقة بالقطن المصري وخلال ١٢ عاماً (٥٣) .

وبهذه الصفقة فُتحت البوابة السوفييتية الهائلة على مصراعيها لتسليح مصر ، مصر التي خاضت كل حروبها ـ بعد عام ١٩٤٨ ـ بأسلحة سوفييتية.

واستقبل الشعب المصري الصفقة بفرح عارم ، وازداد اسم الزعيم الراحل لمعاناً وشهرة ، فأصبح رمزاً للنضال في مواجهة الاستعمار(٥٤) .

مقتطفات من خطاب الزعيم الراحل في ٢٧ أيلول ١٩٥٥
عن اتفاقية السلاح مع تشيكوسلوفاكية

" ..وإني أحب يا إخواني أن أقول لكم في هذه المناسبة قصة تسليح الجيش .. فحينما قامت الثورة التجأنا إلى كل الدول ، والتجأنا إلى كل ميدان من أجل تسليح هذا الجيش ..

التجأنا إلى انجلترا ، والتجأنا إلى فرنسا ، والتجأنا إلى أمريكا ، والتجأنا إلى باقي الدول من أجل تسليح الجيش ، من أجل السلام ، ومن أجل الدفاع ، فماذا أخذنا ؟

الحقيقة أننا لم نأخذ إلا مطالبات ، فقد أرادوا أن يسلح الجيش بعد أن نوقع وثيقة ، وبعد أن نوقع على مواثيق ، وأننا أعلنا أننا أردنا وصممنا على أن نسلح جيشنا من أجل حريتنا ، ومن أجل شخصيتنا المستقلة ، من أجل حياة ثورتنا .. ومن أجل عزة وطنا ، ومن أجل كرامة مصر .. وأعلنا أننا لن نسلح الجيش على حساب استقلالنا .. إننا لن نسلح الجيش على حساب حريتنا ..

فإن فرنسا كانت تساومنا دائماً ، تساومنا على شمال إفريقيا .. وتقول لنا دائماً أننا نعطيكم السلاح على شرط ألا تنتقدوا موقفنا في شمال إفريقيا .. على شرط أن تتخلوا عن عروبتكم ، عن إنسانيتكم .. على شرط أن نرى المذابح التي تحدث في شمال إفريقيا ونسكت عليها ..

هذه قصة فرنسا ، ولأقول لكم قصة أمريكا .. منذ قامت الثورة ونحن نطالب بالسلاح .. ونحن نوعد بالسلاح ، وماذا كانت النتيجة ؟ كانت الوعود ، وعوداً مرتبطة بشروط ، نأخذ السلاح على أساس أن نوقع على ميثاق أمن متبادل ، نأخذ السلاح على أساس أن نوقع على حلف من الأحلاف ، ورفضنا أن نوقع وثيقة الأمن المتبادل ، ورفضنا أن نوقع على حلف من الأحلاف ، ولم نستطع أبداً يا إخواني أن نأخذ من أمريكا قطعة ممن السلاح ..

إن جيش إسرائيل قد استطاع أن يأخذ الأسلحة من انجلترا ، ومن فرنسا ، ومن بلجيكا ، ومن كندا ، ومن ايطاليا ، ومن دول أخرى متعددة ، وكان هذا الجيش يستطيع أن يجد دائماً من يموله بالسلاح .

.. وانتظرنا حينما وصلنا رد هذا الخطاب من حكومة تشيكوسلوفاكيا من أجل تموينننا بالسلاح .. وهذه الاتفاقية تسمح لمصر بأن تدفع الثمن منتجات مصرية مثل القطن ومثل الأرز ، وقبلنا هذا العرض شاكرين .

وإننا بهذا يا إخواني نحقق هدفاً من أهداف هذه الثورة ، وهو **إقامة جيش وطني قوي** ، وأنا اليوم يا إخواني وأنا أتكلم إليكم أشعر بالضجة التي قامت هنا وهناك .. قامت

ضجة في لندن ، وقامت ضجة في واشنطن ، قامت هذه الضجة من أجل استمرا التحكم .. ومن أجل استمرار النفوذ "(٥٥) .

إذن هو استقلال بعد استقلال ... هذا الذي قام به عبد الناصر ...

فلم يعد مصدر السلاح مقتصراً على دول الاستعمار البغيض ، الذي يتفنن في فرض شروطه ، وتحديد غاياته إذا ما أراد تقديم شيء لدول العالم الثالث ، فكيف إذا كانت لدولة لا تدور في الفلك الغربي ، وتجاهر بعداء دولة الكيان الصهيوني ، وتنادي بالحرية والنهضة لشعوب آسيا وإفريقيا ؟

حقاً لقد كانت صفقة الأسلحة التشيكية درساً قاسياً للإمبريالية العالمية ، وهو أن زمنها قد بدأ نجمه بالأفول ، وأن هذا الاحتكار الغربي للسلاح قد بدأ بالسقوط والانهيار .

لذا لا نستغرب - وبعد الصفقة التشيكية بشهور- أن تتعاقد سوريا مع الاتحاد السوفييتي لشراء السلاح ، وتلتها أفغانستان ، ثم اليمن ، ثم توالت التعاقدات بينه وبين الدول الأخرى (٥٦) .

وجدير بنا أن نورد هنا ما أورده الأستاذ المؤرخ أحمد حمروش عن موقف اليسار المصري ، فقال :

" والحقيقة القاطعة أن اليسار المصري قد رحب بهذه الخطوة ترحيباً شديداً ، واعتبرها نقطة تحول في مسار السياسة المصرية ، تدفع قرارات باندونج لتطبيق عملي .. ولكن معظم قيادات الحركة الشيوعية كانوا في السجون ، ومن هناك أرسلوا برقيات تأييد لجمال عبد الناصر "

ولا ننس أن الاتحاد السوفييتي كان بإمكانه أن يطالب بإطلاق سراح الشيوعيين المصريين في سجون مصر شرطاً لإتمام الصفقة ، ولكنه اعتبر ذلك أمراً داخلياً يخص مصر (٥٧) .

صفقات سوفييتية أخرى

وتتطور العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتي ، فيعود شبيلوف - الذي أصبح وزيراً للخارجية السوفييتية- لزيارة مصر بدعوة منها في حزيران ١٩٥٦ ، لحضور احتفالات مصر بجلاء آخر جندي بريطاني عن مصر ، فاستقبل بحفاوة تليق به وببلاده .

ويضيف الأستاذ حمروش واصفاً المشهد :

" وهدرت في شوارع القاهرة يوم العرض العسكري احتفالاً بعيد الجلاء لمدة أربع ساعات دبابات ستالين ، وقاذفات اللهب ، والمدفعية الخفيفة والثقيلة ، وغطت السماء أسراب طائرات الميراج النفاثة ، وقاذفات القنابل الأليوشن .

وانبهرت الجماهير بما رأته من تسليح حديث ، وزغردت النساء ، وتأثر العرب الذين حضروا العرض العسكري مشاركة لمصر في احتفالها التاريخي ، .. وأرسل الأردن كتيبة من الفيلق العربي ، وأرسل لبنان مجموعة من جنود التزحلق ، واليمن جماعة من تلاميذ المدارس الحربية ، ومن وليبيا والسعودية وسوريا وحدات نظامية .

كان يوماً حافلاً بالنشوة والابتهاج ، وخاصة العسكريين الذين حققوا هدفاً من أعظم أهدافهم ، ولم تعد استعراضاتهم العسكرية هزيلة أو متخلفة " (٥٨) .

وفي يوم ٢٢ حزيران ١٩٥٦ ، صدر بيان مشترك عن زيارة شبيلوف لمصر ، وقد جاء فيه :

" .. ويبدي الرئيس جمال عبد الناصر والسيد شبيلوف ارتياحهما لاتفاق وجهتي نظرهما اتفاقاً كاملاً في المسائل التي تناولها البحث ، في هذا المحادثات ، كما يقران أن إنماء العلاقات المصرية والسوفييتية في كافة الميادين من سياسية واقتصادية وثقافية يتفق مع مصالح الشعبين المصري والسوفييتي ، ويساهم مساهمة فعالة في تدعيم الأمن والسلام .

وأكد الجانبان من جديد ،خلال هذه المحادثات أن العلاقات الودية تقوم بين جمهورية مصر وبين الاتحاد السوفييتي على أساس مبادىء ميثاق الأمم المتحدة ، والمبادىء التي أقرها مؤتمر باندونج " (٥٩) .

ومع الأسف ، لا نكاد نجد خبراً فيما بين أيدينا من مراجع عن صفقات السلاح التي عقدتها مصر مع السوفييت - موردها الوحيد للسلاح- فيما بين ١٩٥٦-١٩٦٧، ولعل سبب ذلك هو التعتيم الذي مارسه السوفييت والمصريون على إمدادات السلاح السوفييتي التي كانت تصل تباعاً لمصر في الخمسينيات والستينيات ، ولعل الطرفين محقان في هذا التعتيم ، لأن مصر كانت أكثر الدول العربية استهدافاً من قبل الصهيونية العالمية بالتجسس ، إدراكاً منها أن مصر عبد الناصر هي العدو الأول لإسرائيل ..!

ولعدم توفر المراجع لهذا الموضوع ، كان لا بد من الرجوع للإنترنت ، فكان فيها معظم ما نريد .

ففي عام ١٩٥٦، حصلت مصر من الاتحاد السوفييتي على :

٢١٥ طائرة ميج ١٧

٦ طائرات زيلين التشيكية

طائرات الميج ١٥ حصلت مصر على ١٣٨ من تلك الطائرة خلال طوال الخمسينات .

طائرات قاذفة اليوشن ٢٨ حصلت مصر على حوالي ٨٠ طائرة واستخدمت في حروب ١٩٥٦ -١٩٦٧- ١٩٧٣

طائرات النقل اليوشن ١٤ حصلت مصر على ما يقرب من ٧٠ طائرة
طائرات النقل انتينوف ٢ على ١٠ طائرات من تلك الطائرة
طائرات ياك ١٨ حصلت مصر على ٣٠ طائرة
الهيل مي ١
الهيل مي ٢

عبد الحكيم عامر
يزور الاتحاد السوفييتي

وبدعوة من حكومة موسكو ، يزور وزير الحربية المصري والقائد العام للجيش المشير **عبد الحكيم عامر** الاتحاد السوفييتي في الأول من تشرين ثان ١٩٥٧ ، فاستقبل بحفاوة بالغة رسمياً وشعبياً ، وامتدت الزيارة إلى ٢١ يوماً ، زار خلالها عدداً من جمهوريات الاتحاد ، والتقى بكبار ساستها وأعلامها العسكريين والاقتصاديين ، وأجرى مباحثات في مواضيع عدة تهم البلدين ، انتهت بتوافق وجهات نظر المسئولين في مصر والاتحاد السوفييتي .

كما التقى عامر والوفد المصري المرافق في اجتماع موسع في الكرملين في ١٩تشرين ثان بالزعيم السوفيتي خروتشوف ، ورئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بولجانين ، ووزير الخارجية أندريه جروميكو، وبعدد آخر من المسئولين السوفييت ، وقد أعرب الفريقان عن رضائهما عن النتائج التي تمخض عنها الاجتماع الذي بحث فيه الجانبان مواضيع سياسية واقتصادية وعسكرية جسدت أواصر الصداقة الحقة بين البلدين ، ولما عاد عامر والوفد المرافق إلى مصر ألقى بياناً مطولاً أمام مجلس الأمة عن زيارته تلك ، وعن المواضيع التي تباحث فيها مع السوفييت ، ومنها :

١- التعاون الاقتصادي لتنفيذ مشروع السنوات الخمس الصناعية في مصر .
٢- تقديم الاتحاد السوفيتي مبلغ ٦٠٠ مليون روبل - رفع لاحقاً إلى ٧٠٠ مليون روبل- لتنفيذ بعض المشروعات في مصر .
٣- تدفع مصر قيمة القرض بفائدة قدرها اثنان ونصف في المئة ، ويسدد القرض في ١٢ عاماً .

كما أطلع عامر مجلس الأمة على ما اطلع عليه والوفد العسكري المرافق من آخر فنون الحرب وأساليبها ، والمناقشات التي خاضها مع العسكريين السوفييت ، وقد قابل

مجلس الأمة خطاب عامر بالتصفيق المتواصل ، وعده بداية طيبة للعلاقات بين القطرين (٦٠) .

هذه الزيارة ، وهذه الاجتماعات الثرية تدلنا على حسن النوايا التي عمرت نفوس المسئولين في البلدين الصديقين ، واجتماع رئيس الدولة نفسه مع الوزير المصري - بجانب تلك الكوكبة من المسئولين السوفييت الكبار - يدلنا على جدية السوفييت في تعاملهم مع الشرق الأوسط ، ومع مصر بشكل خاص ، بتلك الروح المتعاونة ، التي تريد الخير لمصر ، وشعب مصر الذي عبر مجلس أمته عن رضاه التام بتلك الزيارة التي عدها فاتحة طيبة لعلاقات تعاون مشترك بين البلدين ، جمع بينهما الهم المشترك ألا وهو كره الاستعمار .

******

وفي عام ١٩٥٨استلمت مصر من الإتحاد السوفيتي أولى طائراتها التي تطير أسرع من الصوت وهي ميج ١٩ ، ومن الأسلحة البرية حصلت مصر على :

١٥٠ دبابة تي ٣٤

٦٠ دبابة جوزيف ستالين

وعدد من المدفعية متعدد الأعيرة ، ومدفعية ميدان ، ومدفعية الهاوتزر ، وهاونات متعددة الأعيرة . وفي المجال البحري تسلمت مصر غواصات ويسكي ، ومدمرات سيكوري ، كما توالى دخول العديد من أنظمة التسلح البري من لنشات صواريخ ، ولنشات طوربيد ، ولنشات مدفعية ، وفرقاطات مسلحة بالصواريخ ، وقراويط ، وكاسحات ألغام ، وسفن إنزال ، وغواصات روميو " (٦١) .

ثم في عام ١٩٦١ اشترت مصر من الإتحاد السوفييتي طائرات الميج ٢١ الشهيرة والتي تطير بضعف سرعة الصوت ، و هو ما يوازى تقريبا ٢٠٠٠ كم في الساعة ، كما حصلت على طائرات الهيل مي ٤ .

وهنا بدأت مرحلة الاعتماد على التسلح الشرقي بصورة كبيرة ، و قدرت واردات مصر من الأنظمه السوفيتية من عام ١٩٥٥ حتى عام ١٩٧٥ **بأكثر من ٢٠ مليار دولار .**

وفي الفترة من ١٩٦١-١٩٦٧ اشترت مصر عدداً آخر من الطائرات السوفييتية مثل القاذفة توبوليف ١٦ ، وصواريخ كينيل أرض- جو ، كما اشترت طائرات الهجوم

الأرضي سوخوي٧ ، وقامت بتصنيع طائرة التدريب و الهجوم الخفيف حلوان-١٠٠ و ٢٠٠ (٦٢) .

لقد كان الاتحاد السوفييتي مصدرنا الوحيد للسلاح ، وطور ناصر العلاقة به إلى الاستفادة من قدرات السوفييت العلمية والاقتصادية ، فكان الاتحاد السوفييتي عمق الأمان لنا كما يقول محمد حافظ إسماعيل :

" .. لقد كان الدعم السوفييتي عنصراً هاماً من عناصر المناورة السياسية لعبد الناصر ، كما كان الاتحاد السوفييتي يمثل في النهاية خط الارتداد والأمن لمصر فيما لو فشلت المبادرة السلمية ، فلم يكن عبد الناصر يثق في استعداد الولايات المتحدة لتغيير موقفها لكي تحقق تسوية سياسية عادلة " (٦٣) .

وفي خطاب له في مجلس الأمة في ١٩٦٧/٥/٢٩ **يشيد الزعيم الراحل بالدور السوفييتي** ، فيقول :

" الاتحاد السوفييتي هو دولة صديقة لنا ، يقف معنا ، وقف معنا موقف الصديق ، وفي علاقتنا مع الاتحاد السوفييتي - وأنا أتعامل معهم منذ عام ١٩٥٥- لم يطالبنا الاتحاد السوفييتي بأي طلب ، لم أتلق منه طلباً واحداً ، لم يتدخلوا في أمورنا ، لم يتدخلوا في مذهبنا، لم يحاولوا بأي حال من الأحوال أن يتدخلوا في أمورنا الداخلية ، هذا هو الاتحاد السوفييتي كما عرفناه " (٦٤) .

وفي عام ١٩٦٧ و قبل حرب حزيران مباشرة كانت القوات المصرية تمتلك :

٢٠٠ طائرة ميج ٢١

٦ طائرات سيخوي

٣٠ طائرة تيبوليف ١٦

٣٥ طائرة يليشن ٢٨

وعدداً من طائرات ميج ١٥ وميج ١٧ والطائرات الأقدم ، وعدد كبير من طائرات النقل والشحن .

ويؤكد الفريق أول محمد فوزي (١٩١٥-٢٠٠٠)مدى الدعم السوفييتي بعد الهزيمة التي منيت بها الجيوش العربية في حرب حزيران ١٩٦٧ ، إذ يعود الاتحاد السوفييتي في ٩ حزيران ١٩٦٧ ويزود مصر بأسلحة ومعدات جديدة ، فنقل إليها عبر يوغسلافيا :

٣١ طائرة ميج ٢١ ٩٣ طائرة ميج ١٧ .

وقد تم نقل هذه الطائرات بطائرات الأنتينوف ٢٢ في ٥٤ رحلة جوية ، وعن طريق النقل البحري بواسطة ١٥ باخرة نقلت ٤٨ ألف طن من الأسلحة والمعدات (٦٥) .

تكليف عارف وبومدين بالتوسط لدى السوفييت

ويقترح عبد الناصر على الزعيم العراقي عبد الرحمن عارف والزعيم الجزائري بومدين أن يسافرا إلى الإتحاد السوفييتي للتوسط لدى السوفييت لطلب المزيد من الأسلحة ، فسافرا في ١٦ تموز ١٩٦٧، والتقيا بالزعيم السوفييتي بريجينيف الذي ذكر أن ما أرسل لمصر منذ ٨ حزيران ١٩٦٧ كان :

تعويضات كبيرة بواسطة ٥٤٤ سفرة جوية ، و١٥ حمل باخرة من المعدات حملت ٤٨ ألف طن ، ١٥٠٠ من الفنيين والخبراء اللازمين للتدريب على استعمال الأسلحة والعتاد .

وأردف أنهم مستعدون لإرسال ٢٠٠٠ خبير من خيرة الخبراء للتدريب والمشورة (٦٦) .

وقد ذكر وزير الدفاع السوفييتي "غريشكو" للمصريين أن ما لديهم الآن هو ٢٢٠ الف جندي ، و ٩٠٠ دبابة ، و٣٠٠ طائرة ، و١٠٠٠ مدفع ، ولكن كل هذه الأسلحة موجودة لدى جنود لا يجيدون استعمالها بشكل جيد ، لذا لا بد من التركيز على التدريب ، فتم - بعد حرب حزيران بأسبوعين - تكليف المارشال زخاروف رئيس أركان الجيش السوفييتي بالإشراف على رفع سوية هذا الجيش ، كما زود السوفييت مصر ب ١٢٠٠ خبير من كل المستويات لتدريبه (٦٧) .

وبعد التعويض الكبير لما خسرته مصر في حرب ١٩٦٧ ، يعود ناصر في كلمة له في الأول من آذار ١٩٦٨ **ويشيد بما قدمه السوفييت من سلاح بديلاً لما فُقد** ، فيقول :

" الحقيقة إنا بنطلب من الاتحاد السوفييتي وبناخد ..

يعني أنا في يوم طلبت ال ٢١(يقصد طائرات الميج ٢١) وجُم بعد ٤٨ ساعة ، اتعمل جسر جوي ، وجُم أظن ٤٠ طيارة ٢١ في يوم أو يومين ، وأنا طلبت ال ٤٠ طيارة دول ، وجُم لنا بعد ٤٨ ساعة ، ما حديش الحقيقة بيعامل حد هذه المعاملة "(٦٨) .

ونحن نقول مع ناصر : لا أحد يعامل أحداً هذه المعاملة التي لم نحسن تقديرها بعد رحيل عبد الناصر ، خاصة بعد انشقاق بعض الدول عن الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ .

ولنقرأ إشادة أخرى للزعيم الراحل في ١٩٦٨/٤/٢٩، حين يقول :

" إحنا قدرنا نحصل على الأسلحة - بدل اللي خسرناها- من الاتحاد السوفييتي ، والاتحاد السوفييتي عمل كل ما يمكن علشان يستجيب إلى طلبنا في التسليح المطلوب لقواتنا ...

إذن صداقة الأصدقاء أدت دورها ، صداقة الأصدقاء تؤدي دورها في نواحي مختلفة " (٦٩) .

وما أوردته من إشادات هنا هي على لسان الزعيم الراحل نفسه ، والمعني الأول بما يجري في مصر ، فهي ليست إشادة من صحفي أو ضابط أو وزير ، ولا من اشتراكي أو شيوعي .

ترى .. لو طلبت مصر هذه الأسلحة - أو بعضها- من أية دولة أخرى ، غربية أو شرقية ، فما الذي كانت ستناله منها ، سواء في الحلم أو في الحقيقة ؟

عبد الناصر يزور الإتحاد السوفييتي

ويقوم **الزعيم الراحل** بزيارة سرية لموسكو في ٢٢ -١- ١٩٧٠ ، مصطحباً نائبه أنور السادات ووزير الخارجية محمود رياض ووزير الحربية الفريق أول محمد فوزي ، والتقى بالرئيس السوفييتي **بريجينيف** الذي لبى كل مطالب عبد الناصر ، فحصلت مصر على :

١- فرقة كاملة من صواريخ سام ٣ بأفرادها ومعداتها وأجهزتها وحملتها وأسلحتها المعاونة من فرق الدفاع الجوي السوفييتي .

٢- قوة ٣ لواء جوي كامل من :

٩٥ طائرة ميج ٢١ بالقادة والطيارين والموجهين والفنيين السوفييت وأجهزتها وراداراتها .

٥٠ طائرة سيخوي ٩

١٠ طائرات ميج ٢١ تدريب

٥٠ موتور طائرة ميج ٢١ معدلة من ٥١١ .

٤ أجهزة رادار ب ١٥

٣- تدريب ٣ لواءات كاملة من الدفاع الجوي(صواريخ سام ٣)، ورفع مستوى لواءات كاملة من القوات الجوية ميج ٢١ (٧٠) .

وبهذا كله ، أصبح لمصر في بداية عام ١٩٧٠ جيش مجهز تعداده ٧٥٠ ألف مقاتل ، ثم ارتفع الرقم في نهاية العام إلى **مليون مقاتل** (٧١) .

رواية سعد الدين الشاذلي
عن حجم القوات المصرية وأسلحتها

ويحدد لنا رئيس أركان الجيش المصري في حرب أكتوبر **الفريق سعد الدين الشاذلي** (١٩٢٢-٢٠١١)حجم القوات المصرية ومعداتها في حرب أكتوبر فيقول أنها كانت :

١- القوات البرية :

١٩ لواء مشاة راكب

٨ ألوية ميكانيكية

١٠ ألوية مدرعة

٣ ألوية جنود الجو

١ لواء برمائي

١ لواء صواريخ أرض

وكان مع هذه القوات

١٧٠٠ دبابة — ٢٠٠٠ عربة مدرعة

٢٥٠٠ مدفع وهاون — ٧٠٠ قاذف صاروخي موجه

١٩٠٠ مدفع مضاد للدبابات — ٥٠٠٠ آر بي جي

عدة آلاف من القنبلة اليدوية الجوية المضادة للدبابات آر بي جي ٤٣

٢- القوات الجوية :

٣٠٥ طائرة قتال (يضاف اليها ٩٥ للتدريب)

٧٠ طائرة نقل

١٤٠ طائرة هيليوكبتر

٣- قوات الدفاع الجوي:

١٥٠ كتيبة صواريخ سام

٢٥٠٠ مدفع للطائرات من عيار ٢٠ ملليمتر

٤- القوات البحرية:

١٢ غواصة — ٥ مدمرات

٣ فرقاطات — ١٢ قناصاً

١٧ قارب صواريخ — ٣٠ قارب طورين

١٤ كاسحة ألغام — ١٤ قارب إنزال

ويواصل سعد الدين الشاذلي :

أما إذا حاولنا حصر الأسلحة التي قام الاتحاد السوفييتي بإمداد **الدول العربية** بها خلال **الثماني عشرة سنة** التي سبقت هذه الحرب- أكتوبر - فسوف نجد أرقاماً تكاد تكون خرافية :

حوالي ٧٠٠٠ آلاف دبابة

حوالي ١٨٠٠ طائرة

حوالي ١٨٠٠٠ مدفع من مختلف الأعيرة

حوالي ١٥٠ قطعة بحرية

وأكثر من مليوني قطعة سلاح صغيرة من بنادق ورشاشات و آر بي جي ..الخ .

إن هذا الحجم من السلاح يوضح لنا مدى قدرة الاتحاد السوفييتي كدولة عظمى على التأثير في الأحداث في منطقة الشرق الأوسط " .(٧٢)

مما سبق ، يتبين لنا **دور عبد الناصر** الكبير والبارز في العناية والاهتمام بالجيش المصري وتسليحه ، بجهوده التي بذلها لإقامة علاقة قوية مع الاتحاد السوفييتي ، فأقام السوفييت جسراً جوياً وبحرياً لنقل المعدات والذخائر لمصر ، بجانب الخبرات السوفييتية التي حملها المدربون والخبراء السوفييت لتدريب الجيش المصري .

ولا ننس أن هذا الجسر قد شمل القمح ، الذي كان السوفييت مصدره شبه الوحيد .

وهكذا .. أرسى عبد الناصر قواعد علاقات متينة مع السوفييت ، الذين دخلوا مصر- وبعض الدول العربية- كقوة إنقاذ من الاستعمار الذي حاول فرض الاحتكار على السلاح ، فلا يقدمه إلا لمن يتبعه في أطماعه العسكرية ، أو يكون ردفاً وداعماً له في سياسته المعادية للعرب ، فيتم احتواؤه بذلك الاحتكار ، ولكن السوفييت وقفوا مع مصر الوقفة الشجاعة الملتزمة ، غير طامعين في مركز، وبدون فرض حلف أو سياسة أو فلسفة على المنطقة ، وقد أثبت السوفييت ذلك ليس في الإمداد الهائل بالسلاح فحسب ، بل بالوقوف مع مصر في النواحي الأخرى ، وأهمها تمويل السد العالي ، بعد أن رفضت دول الغرب دعم هذا المشروع الكبير الذي جنت منه مصر الكثير على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

وقد كان الزعيم الراحل مدركاً تماماً أهمية الجيش لدولته الفتية ، وكذلك أهمية القوة المصرية في المنطقة ، فكانت خطة التسليح نابعة من فلسفة الثورة ، ومن مواد **الميثاق** الذي ورد فيه :

" إن هذا المجتمع الجديد الذي يبنيه الشعب العربي في مصر على دعائم الكفاية والعدل يحتاج إلى درع واق في عالم لم تصل مبادئه الأخلاقية إلى مستوى تقدمه العقلي .

إن دور القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة هو أن تحمي عملية بناء المجتمع ضد الأخطار الخارجية ، كما أنه يتعين عليها أن تكون مستعدة لسحق كل محاولة استعمارية رجعية تريد ان تمنع الشعب من الوصول إلى آماله الكبرى .

من أجل ذلك فإن الشعب يمنح قواته المسلحة ما يجعلها دائماً في وضع الاستعداد ، وفي مكان القوة ، وفي الموضع الذي تتمكن منه دائماً أن تخدم أمانيه بالولاء المطلق ، وبالإخلاص المتفاني .

إن القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة يجب أن تملك تفوقاً حاسماً في البر والبحر والجو ، قادراً على الحركة السريعة في إطار المنطقة العربية التي تقع مسئولية سلامتها في الدرجة الأولى على القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة ، كذلك فإن هذه القوات لا بد لها في تسليحها أن تساير التقدم العلمي الحديث ، وأن تملك من الأسلحة الرادعة ما يكبح جماح القوى الطامعة ويقدر على هزيمتها إذا ما تحركت بالعدوان " (٧٣) .

ولا نخالف هيكل حين يقول عن علاقة عبد الناصر بالسوفييت :

" لقد فوجيء الاتحاد السوفييتي بظاهرة جمال عبد الناصر التاريخية : زعامة وطنية قادرة على ان تمثل وتبرز إرادة قومية ، مستقلة وتقدمية ، وسجلها في معاداة الاستعمار قاطع ، واتجاهها إلى التنمية الشاملة واضح ، ثم أن هذا كله يحدث في منطقة حيوية بالغة الأهمية كالشرق الأوسط ، خصوصاً بموقعه القريب وراء ظهر الاتحاد السوفييتي " (٧٤) .

ردود ناصرية على السوفييت

الفوائد متبادلة

ومن استعراضنا الطويل لشخصية عبد الناصر ، سواء مع أعدائه او أصدقائه ، لا نستغرب ما صرح به في لقاء له مع الزعماء السوفييت (بريجنيف ، كوسيجين ، بودجورني) حين قال :

" إن الاتحاد السوفييتي قد حقق لنفسه فوائد ضخمة من مواقفنا ، إن خلافنا الأول مع الولايات المتحدة كان بسبب الأحلاف العسكرية ، ونحن رفضناها حرصاً على استقلال سياستنا ، ولو كنا قبلناها لأدى ذلك إلى تطويقكم ، ومحاصرتكم بين حلف جنوب شرق آسيا ، وحلف بغداد ، وحلف الأطلنطي ، إن سياستنا المستقلة فتحت لكم أبواب البحر الأبيض والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي ، وكنتم قبل ذلك محبوسين في البحر

الأسود ، انتم بسياستنا المستقلة استطعتم الوصول إلى إفريقيا "(٧٥) ، وحديث ناصر هذا لا يخلو من منطق ، قبل أن يدل على شجاعة ناصر ، وسعة اطلاعه ، وفهمه للجغرافيا السياسية للمنطقة .

والاتحاد السوفييتي بدوره وجد في عبد الناصر ما لم يحلم به ، من شخصية قيادية شجاعة ، لا تهادن اعداءها ولا تجاملهم ، وخطها السياسي وطني قومي واضح لا شك فيه ، وهو يرأس مصر ذات الموقع الجغرافي الأمثل بين الدول العربية ، وبين آسيا وإفريقيا ، وهو موقع مثالي لحماية ظهر الاتحاد السوفييتي فيما لو كان هناك اعتداء غربي عليه .

مراجع الباب الرابع

الفصل الأول

(١)د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٦٢ .
(٢) م ن ، ص ٦٣ .
(٣) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣، ص ٣٩٨ .
(٤) م ن ، ص ٣٩٩ .
(٥) م ن ، ص ٤٠٠-٤٠١ .
(٦) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٥٦ .
(٧) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٢، ص ٦١٠ .
(٨) عبد الناصر، الميثاق ، ص ٦١١ .
(٩) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٢٠٦ .
(١٠) عبد الناصر ، م س ، ص ٥١ .
(١١) م ن ، ص ٣٢٨ .

الفصل الثاني

(١)عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٦٨ .
(٢) م ن ، ص ٦١ .
(٣) م ن ، ص ٥٢،
(٤) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٦٥.
(٥) أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، ٧٣١ .

الفصل الثالث

(١)عبد الناصر ،خطاباته ،ج٢، ص٥٩٧ .
(٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٣، قسم ١، ص ٢٩٠ .
(٣) عبد الناصر ، خطابات ١٩٥٩ ، ص ٣٥٤ .
(٤) م ن ، ص ٧٧٦.
(٥) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣، قسم ٢ ، ص ٣٩٩ .
(٦) م ن ، ص ٧١٦ .

(٧) علي صبري ، التطبيق الاشتراكي ، ص ٤٦-٥٥ .
(٨) م ن ، ص ٣٨٥ .
(٩) د. سليمان الطماوي ، ثورة يوليو بين ثورات العالم ، ص٣٥٨.
(١٠) عبد الناصر ،خطاباته ، ج ٢، ص ٥٢٤ .
(١١) عبد الناصر ، خطابات ١٩٥٩ ، ص ٤٢٥ .
(١٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣، قسم ١، ص ٧١٧ .
(١٣) م ن ، ص ٧١٧ .
(١٤) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٠٤-١٠٥ .
(١٥) م ن ، ص ١٠٤-١٠٦ .
(١٦) م ن ، ص ١٠٧ .
(١٧) م ن ، ص ١٠٧ .
(١٨) د.عصمت سيف الدولة ،هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ، ص ٣١٧.
(١٩) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٦٩-٧٠ .
(٢٠) موسوعة ويكيبيديا .
(٢١) د.محمود عبد الفضيل ، الاقتصاد المصري ، ص١٤- ١٦ .
(٢٢) عبد الناصر ، خطابات ١٩٥٩ ، ص ٦٦-٦٧ .
(٢٣) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ٧٧ .
(٢٤) عبد الناصر ، خطابات ١٩٥٩ ، ص ٩٤ .
(٢٥) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣ ، قسم ٢ ، ص ١٦٧ .
(٢٦) د.سليمان الطماوي ، م س ، ص ٣٥٦ .
(٢٧) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٣٥٦ .
(٢٨) م ن ، ص ٦٠ .
(٢٩) عبد الناصر ، خطابات ١٩٥٩ ، ص ٣٦٥ .
(٣٠) يوسف أبو الحجاج ، السد العالي والتنمية الاقتصادية ، ص٦٨ .
(٣١) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣، قسم ٢، ص ٣٩ .
(٣٢) م ن ، ص ٤٩ .
(٣٣) عبد المجيد فريد ، محاضر اجتماعات عبد الناصر ، ص ١٠٧.
(٣٤) حسن الفكهاني ، موسوعة عبد الناصر ، ص ١١٢ .
(٣٥) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٦٦ .
(٣٦) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٢ ، ص ٥٢٩ .

(٣٧) الانترنت .
(٣٨) عبد الناصر ، م س ، ص ١٥٢ .
(٣٩) م ن ، ص ١٥٣ .
(٤٠) م ن ، ص ١٥٤ .
(٤١) سعد الدين إبراهيم وآخرون ، مصر والعروبة وثورة يوليو ، ص ١٤٢ .
(٤٢) الانترنت ، مقال لحسن نصر .
(٤٣) أمين سعيد ، الثورة ، ص ٣٢٣ .
(٤٤) م ن ، ٣٢٤ .
(٤٥) م ن ، ص ٣٢٤ .
(٤٦) أحمد حمروش ، مصر والعسكريون ، ص ٦٠ .
(٤٧) م ن ، ص ٦٢-٦٣ .
(٤٨) م ن ، ص ٦٥ .
(٤٩) أحمد حمروش ، م س، ص ٦٩ .
(٥٠) أمين سعيد ، م س، ص ٣٢٦ .
(٥١) أحمد حمروش ، م س، ص٦٩-٧٠ .
(٥٢) هيكل ، حرب السويس ، ص ٢٩ .
(٥٣) أحمد حمروش ، م س، ص ٧٠ .
(٥٤) م ن ، ص ٧٤ .
(٥٥) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٢، ص ١٩٤-١٩٥ .
(٥٦) أحمد حمروش ، م س، ٧٥ .
(٥٧) م ن ، ص ٧٥ .
(٥٨) أحمد حمروش ، مجتمع عبد الناصر ، ص ٧٩ .
(٥٩) أمين سعيد ، الثورة ، ص ٣٢٧ .
(٦٠) أمين سعيد ، العدوان ، ص ٣٤٢-٣٤٣ .
(٦١) الانترنت .
(٦٢) م ن .
(٦٣) محمد حافظ إسماعيل ، أمن مصر القومي ، ص ١٦٨ .
(٦٤) د. هدى عبد الناصر ، المجموعة الكاملة لخطب وتصريحات جمال عبد الناصر ، ص ٢٥٣ .
(٦٥) الفريق أول محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، ص ١٩٤.

(٦٦) حسن مصطفى ، معارك الجبهة المصرية ، ص ١٨-١٩ .

(٦٧) م ن ، ص ١٠-١١ .

(٦٨) د.هدى عبد الناصر ، م س ، ٤٣٧ .

(٦٩) م ن ، ص ٥٢٧ .

(٧٠) الفريق أول محمد فوزي ، م س ، ص ٣١٨-٣١٩ .

(٧١) م ن ، ص ٢٣٥ .

(٧٢) سعد الدين الشاذلي ، حرب أكتوبر ، ص ١٦٩-١٧١ .

(٧٣) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٨١ .

(٧٤) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٧٧ .

(٧٥) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ١٥٦ .

الباب الخامس

عبد الناصر والقومية

سئل عبد الناصر عما يتوقع أن يحدث للعرب لو أنه مات ، فقال لسائله :

" ..هل تظن أنني أنا الذي خلقت القومية العربية ، هي التي خلقتني ، لست أنا الذي أثيرها ، بل هي التي تحملني، إنها قوة هائلة ، ولست أنا إلا أداتها ، ولو لم أكن موجوداً لأوجدت واحداً ، عشرة ، ألفاً غيري ، يحلون محلي ، إن القومية العربية لا يمثلها رجل واحد ، أو مجموعة من الرجال ، إنها لا تتوقف على جمال عبد الناصر ، ولا على الذين يعملون معه ، إنها قوة كامنة في ملايين العرب الذين يحمل كل منهم شعلة القومية ، إنها تيار جارف ، ولا تستطيع أية قوة في العالم ، ولن تستطيع ، تحطيمها طالما احتفظت بالثقة بنفسها "

جمال عبد الناصر

" عن العروبة والإسلام

عصمت سيف الدولة ، ص ٣٨"

الفصل الأول
القومية
والقومية العربية

" أمـــا الحقـــوق القوميـــة للشعـــوب الآسيوية والإفريقية ، فمن الطبيعي أنه مـــا كـــان يفكر فيهـــا أحد من كتـــاب القرن التاســـع عشر في أوروبـــا ، لأن جميـــع الكتـــاب والمفكريـــن كانـــوا يزعمـــون بـــأن الشعـــوب المذكـورة ليســـت متأخـرة فحسب ، بل محرومـة مـــن قابليـــة التقدم أيضـــاً " (ساطـــع الحصـري ، آراء ودراسـات في الفكـر القومي ، كتاب العربي ، يوليو ١٩٨٥)

كانت الفترة التالية لحرب السويس (١٩٥٦-١٩٦٧) فترة الفوران القومي في المنطقة العربية ، وكان لعبد الناصر الدور الأكبر في تشجيع الانتماء القومي، وتعزيزه وتطويره ، ولكن جهود عبد الناصر التي سبقت حرب السويس لم تكن مصرية إقليمية ، بل إن تصريحاته وخطاباته في تلك الفترة المبكرة من عمر الثورة - قبل الثورة وبعدها - تدل على شعور قومي مبكر ، وإدراك لضرورة الوحدة العربية ، ومدى خطورة هذه الوحدة على الاستعمار الذي حاربها بقوة ، وحاول بكل الوسائل أن يحول دون نشوئها ونجاحها .

تعريف القومية

عرف أستاذنا **أحمد عطية الله** في كتابه النفيس "القاموس السياسي " القومية بقوله :

" جملة العوامل المعنوية التي تربط جماعة إنسانية ، وتضمها في إطار وحدة تعرف بالوحدة القومية ، وتعرف هذه الجماعة باسم "الأمة" (١) .

واعتبر الأستاذ عطية الله من مقومات القومية : وحدة الجنس ، وحدة اللغة، وحدة المعتقدات والتقاليد ، التاريخ ، وحدة الأماني والآمال المستقبلية .

وفي قاموسه "**المورد**" عرفها العلامة **منير بعلبكي** بقوله :
" وعي قومي يمجد أمة معينة ، ويضع التوكيد على تعزيز ثقافتها ومصالحها " (٢) .

وعرفها السادة مؤلفو " موسوعة السياسة " بقولهم :
" مصدرها اللغوي من القوم ، أي جماعة تجمع بينهم رابطة معينة.
في الدلالة السياسية للمفهوم ، يرتبط مفهوم القومية بمفهوم الأمة ، من حيث الانتماء إلى أمة محددة ، والأمة هي الشعب ذو الهوية السياسية الخاصة الذي تجمع بين أفراده روابط موضوعية وشعورية وروحية متعددة تختلف من شعب لآخر، مثل اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ والحضارة ..." (٣) .

وعرفها محررو Macmillan Encyclopedia بأنها :
" عاطفة شعبية تضع وجود الأمة ورفاهيتها في المكان الأعلى في ميزان الولاءات السياسية ، وفي المصطلح السياسي : تعني رغبة الفرد للعمل من أجل أمته ضد السيطرة الأجنبية ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، وتتضمن القومية شعور المجموعة بالتاريخ واللغة والجنس والقيم المشتركة ، وتكمن أهميتها في دورها في إشباع وتأكيد الروابط التي تجعل الدولة وجوداً متماسكاً قابلاً للنمو " (٤) .

وعرفها العالم البلغاري **إيفانوف** تعريفاً شاملاً بقوله :
" إن الأمة جماعة من الناس ، لهم شخصية جسمية ونفسية واحدة، وتقاليد واحدة ، وآمال مشتركة ، والعناصر التي تؤلف الشخصية القومية وتحافظ عليها هي : وحدة الجنس ، والحدود الجغرافية ، واللغة ، والدين ، والأدب والتراث الفكري ، ونمط الحياة ، والوحدة السياسية ، والتاريخ الواحد ، والتقاليد المشتركة ، والمظاهر الثقافية المشتركة ، وكلما ظهرت هذه العناصر في قومية من القوميات واتضحت ، كانت منظماتها موحدة ، والشعور القومي يحركها مضطرماً عنيفاً " (٥) .
بينما عرفها الفيلسوف الفرنسي **إميل دوركايم** (١٨٥٨-١٩١٧) بقوله :
" جماعة إنسانية تريد - لأسباب تتعلق بالأصل ، أو بالتاريخ فقط - أن تحيا في ظل قوانين معينة ، وأن تشكل دولة سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، وهو الآن مبدأ مقرر

عند الأمم المتمدنة ، انه متى ثبتت هذه الإرادة الموحدة نفسها باستمرار ، حُق لها أن تعتبر الأساس الثابت الوحيد للدول" (٦) .

ويقول روبرت إمرسن :

" الأمة جماعة من الناس ، يشعرون أنهم يخصون بعضهم بعضاً ، وذلك في معنى مزدوج ، هو أنهم يتقاسمون عناصر عظيمة الأهمية من التراث المشترك ، كما أن لهم مصيراً مشتركاً في المستقبل " (٧) .

وعرفها مؤلفو قاموس " Reader's Digest" بأنها :

١- فخر المرء وإخلاصه لأمته ومصالحها .

٢- شعور قوي بالهوية الوطنية ، وغالباً يكون مرتبطاً بالاستقلال أو الانفصال (٨) .

بينما عرفها مؤلفو قاموس " Random House " بأنها :

١- روح أو طموح وطني .

٢- إخلاص المرء لمصلحة أمته .

٣- الرغبة في تقدم أمة المرء واستقلالها .

٤- سياسة تأكيد اهتمام المرء بمصالح أمته ، ناظراً إليها مفصولة عن مصالح الأمم الأخرى أو المصالح العامة لكل الأمم (٩) .

ويعرف الفيلسوف والأنثروبولوجي الإنجليزي ارنست **جلنر**(١٩٢٥-١٩٩٥) مؤلف كتاب "الأمم والقومية" القومية بقوله :

" القومية هي ، قبل كل شيء ، مبدأ سياسي يجب بموجبه أن تلتقي الوحدة السياسية والوحدة القومية ... والشعور القومي هو الشعور بالغضب الذي يستثيره انتهاك هذا المبدأ ، أو الشعور بالرضى الناجم عن تحقيقه ، والحركة القومية محركة بشعور من هذا النوع " (١٠) .

وكأن جلنر بهذا التعريف يترجم القومية العربية في أوضح صورها ، فقد التقت الوحدة السياسية العربية بالشعب المقيم عليها ، وكان الشعور بالرضى من احترام الآخرين لهذا الكيان ، والشعور بالغضب لما قد يلحق به من أذى أو امتهان ، وهذا ما ردده عبد الناصر كثيراً في خطاباته .

وبناء على ما سبق ،لا غرابة أن يحذر **روبرت إمرسن** من قيام الدول على غير الأساس القومي ، فهو يراها معرضة للإنهيار ، فيقول :

" إذا أقيمت الدولة على أية قاعدة غير القاعدة القومية - كما هو الحال في أي نظام استعماري بموجب تعريفه - فإن أسسها لا تلبث أن تمسي موضعاً للريبة في عصر

القوميات ، وهنالك احتمال أن يطاح بدولة كهذه حالما يصحو شعبها لإدراك ذاتيته القومية ، فيقيم مكانها بناء آخر أشد ما يكون التصاقاً بالأسس القومية " (١١) .

وبعد أن يقدم المفكر والسياسي العراقي الأسبق **عبد الرحمن البزاز** (١٩١٣-١٩٧٣) جملة من تعريفات القومية عند علماء الشرق والغرب ، يخلص إلى تعريف **القومية العربية** بقوله :

" عقيدة راسخة تتطلب الإيمان بالأمة العربية المتميزة ، وخصائصها الثابتة ، وطابعها المعين ، كما أنها حركة تهدف إلى جمع شتات هذه الأمة ، وتمكينها من التحرر التام ، والانعتاق الكلي من كل القيود المفروضة عليها من الداخل والخارج "(١٢) .

وعرف السادة محررو موسوعة السياسة **القومية العربية** تعريفاً نموذجياً شاملاً بقولهم :

" حركة سياسية قومية تهدف إلى تحقيق استقلال الشعب العربي استقلالاً تاماً ، وبعث الحضارة العربية ، وتحقيق الوحدة بين الأقطار العربية ، لتشكل الأمة العربية دولة واحدة تستطيع أن تساهم في الحضارة الإنسانية ، وتشارك في بناء عالم قائم على العدل والحرية "(١٣) ، وقد حوى هذا التعريف العناصر الأساسية للقومية العربية ، وأسباب قيامها .

ظهور القومية العربية

لا يختلف الباحثون طويلا في أصول ظهور القومية العربية ، و يكادون يجمعون على أن أواخر القرن التاسع عشر قد شهدت بدايات الدعوة القومية العربية ، وذلك للواقع المظلم فقراً وجهلاً وبؤساً الذي سببه الحكم التركي للبلاد العربية ، وتأثراً بالقوميات الأوروبية التي انتعشت في ذلك الوقت كالقومية الإيطالية والقومية الألمانية ، فكانت الكتابات الداعية للتخلص من الحكم التركي ، ويتقدم هؤلاء الدعاة عبد الرحمن الكواكبي ، وبطرس البستاني ، وناصيف اليازجي ، وشكري العسلي وحقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ورضا الصلح وشفيق المؤيد ، وقد ساهم هؤلاء مع كوكبة أخرى من المناضلين في تأسيس عدد من الجمعيات المناهضة للحكم التركي ، مثل :

الجمعية العربية السورية عام ١٨٧٠ في باريس .

جمعية الوطن العربي عام ١٩٠٥ في باريس .

الجمعية العربية الفتاة في باريس عام ١٩١١ .

المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٢ .

حزب العهد ، والذي أسسه ضباط عرب في الجيش العثماني عام ١٩١٢.

جمعية العلم الأخضر وأسست عام ١٩١٣ .
جمعية العلم عام ١٩١٤ في الموصل .
وما بين الحربين العالميتين ظهر :
عصبة العمل القومي في لبنان عام ١٩٣٣
مؤتمر الطلاب العرب في أوروبا في بروكسل عام ١٩٣٨(١٤) .

بين الوطنية والقومية

ومع الأسف ، فإن القواميس (الإنجليزية بالذات) تخلط بين **الوطنية والقومية** ، فيلاحظ الباحث أن معنى كليهما واحد فيها ، وهو **Nationalism** ، (وهذا ما ورد في القواميس الثلاثة السابقة التي ذكرت) ، وتهمل القواميس والأبحاث التمييز بينهما ليكون المزج بين المصطلحين كبيراً .

ويتنبه الأستاذ **عبد الرحمن البزاز** لهذا الأمر ، فيقول :

" ثمة التباس آخر حري بنا أن نتنبه إليه ، وهو الخلط بين مصطلحي " قومية " و" وطنية" ، واستعمالهما تجوزاً أحياناً كمترادفين .

إن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة أرض تعرف باسم الوطن ، وهي قد تعني أحياناً الاهتمام بشئون ذلك الوطن ، والتعلق به بالعواطف والأحاسيس ، باعتباره التربة التي تضم رفاة الآباء والأجداد " .

"على حين أن القومية تعني أولاً وقبل كل شيء ، ارتباط الفرد بجماعة من الناس تعرف باسم الأمة ، والحرص على مصالح هذه الجماعة ، والعمل من أجلها ، وعلى ذلك فالشعور القومي ينمي الوطنية بهذا المعنى ، أي يشيع بين الأفراد حب البلاد والتعلق بها ، ولكن القومية أوسع من الوطنية كثيراً ، وفيها من الشمول والتجريد و "العقائدية" ما ليس في الوطنية " (١٥) .

ثم يضيف ليجلو ما سلف قائلاً :

" وقد تشمل القومية أوطاناً مجزأة ومتعددة ، فالقومي الألماني مثلاً يرى في ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية والنمسا ، والجزء الذي ضمته روسيا إليها من بروسيا ، أجزاء متفرقة من وطن قومي واحد .

وقد تنمي القومية أحاسيس لولاءات متعددة أو متنافرة أحياناً ، فالقومي العربي في العراق أو المغرب يحب العراق أو المغرب باعتباره وطنه الصغير ، ويحب في الوقت ذاته ، كل الأقطار العربية باعتبار الوطن العربي وطناً عربياً كبيراً واحداً ...

صحيح إن الوطنية والقومية تكادان تكونان مترادفتين في نتائجهما النهائية بالنسبة لكثير من الشعوب الأوروبية اليوم ، فالوطنية الفرنسية - بهذا المعنى - كالقومية الفرنسية ، كما أن الإيطالية أو السويدية كالقومية الإيطالية والسويدية ..ولكن الأمم التي لم يتم تحررها بعد ، ولم يتم توحدها ، كالأمة العربية ، يختلف فيها مصطلحا قومية ووطنية اختلافاً بيناً ، وأكثر من ذلك إن في تأكيد الوطنية ، والتشديد عليها ، وإثارتها بصورة ضيقة وعنيفة ، وسيلة لمعاكسة العقيدة القومية ، بل وطعنها أحياناً " (١٦) .

وحديث الأستاذ الكبير لا يجانب الحقيقة في شيء ..

فالوطني الفرنسي لا يختلف مع القومي الفرنسي

والوطني الإيطالي لا يختلف مع القومي الإيطالي ..

وكذلك الأمر عند بقية الدول - أو القوميات - التي يتكون كل منها من كيان واحد أو دولة واحدة ..

ولكن الأمر جد مختلف عندنا نحن العرب ، فالكلمتان ليستا مترادفتين بأي حال من الأحوال ، سواء تم تحريرنا - كما يقول الأستاذ البزاز - أم لم يتم ، فالخطر ماثل واضح ، فإذا كنا في النصف الأول من القرن العشرين مشغولين بإزاحة الاستعمار عن صدورنا ، فنحن اليوم أولى بالصمود أمام هذا الغرب المتربص بنا جميعاً كي لا يعود إلينا من جديد فلا يبقي منا أحداً ، وبالطبع فنحن لا ننسى قاعدته الطامحة إسرائيل !

إذن ، فالتأكيد على الوطنية ، والتشديد عليها- فيما بيننا- ضار بقوميتنا ، وندعوه بالإقليمية التي يقف القوميون ضدها بكل وضوح وقوة .

ويقدم المفكر العربي **ساطع الحصري** (١٨٨٠- ١٩٦٨) تمييزاً آخر بينهما ، فيقول :

" الوطنية والقومية من أهم النزعات الاجتماعية التي تربط الفرد البشري بالجماعات ، وتجعله يحبها ، ويفتخر بها ، ويعمل من أجلها ، ويضحي في سبيلها .

ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن ، والشعور بارتباط باطني نحوه ، والقومية هي حب الأمة ، والشعور بارتباط باطني نحوها ، والوطن - من حيث الأساس - إنما هو قطعة من الأرض ، والأمة - في حقيقة الأمر- إنما هي جماعة من البشر .

فنستطيع أن نقول - بناء على ذلك - أن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ، والقومية هي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف باسم الأمة .

ولكن ما تجب ملاحظته في هذا الصدد ، أن مفهوم الوطنية لا يختلف - في الحقيقة - عن مفهوم القومية ، كل هذا الاختلاف ، كما أن الوطن يتضمن بطبيعته حب المواطنين

الذين ينتمون إلى ذلك الوطن ، كما أن حب الأمة يتضمن - في الوقت نفسه - حب الأرض التي تعيش عليها الأمة .

ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقارباً كبيراً " (١٧) .

وخلاصة ما أورده المفكران العربيان هو :

١- أن القومية ذات معنى ومدى أوسع وأشمل من الوطنية .

٢- التشديد على الوطنية وإثارتها بصورة ضيقة يؤدي إلى معاكسة القومية ، وقد يطعنها .

والذين أقاموا في عدة دول عربية عاشوا - مع الأسف - ضيق الأفق هذا عند العنصريين العرب ، وشاهدوا التجمعات القطرية الانعزالية التي تدل على ضعف الحس القومي عند ممارسيها ، فكان ذلك يؤدي إلى عنصرية بغيضة تمارس أحياناً بشكل واضح مقيت ، وقلما تجد من يحاول إصلاح ذلك أو تجنبه .

ولنتأمل ما يقوله **عبد الناصر** في فترة يقول بعض الدارسين - كما سيأتي - أنه لم يكن فيها مشغولاً بالقومية ، فها هو يخاطب في نادي الضباط بالقاهرة وفود الطلاب العرب في ١٩٥٤/٥/٢٩ قائلاً :

" كنت أتخيل دائماً الوطن العربي ، والقوة العربية ، ولم تسمح لي الفرصة للاجتماع بالعرب حتى أتيحت لي اليوم ، فماذا شعرت ؟

الحقيقة أنني لم أتمكن من التفرقة بينكم ، أي بين الجزائري والعراقي ، أو بين الأردني والسوري ، ولم أتمكن من أن أفرق بين الأسماء والأقطار ، فكلكم قد اجتمع تحت اسم واحد هو **العروبة** ، وقد شعرت في الوقت نفسه شعوراً قوياً بالأخوة لكم لأنني أخ يقف بين أخوته ، أخ في الدين وفي **القومية العربية** ، والمشاعر والأهداف " (١٨) .

وناصر - بدون أن يقصد - لخص هنا لنا القومية العربية في كلمات قليلة ، قالها لا شعورياً في وضع عملي تجسد أمامه .. ، فالكل **أخوة في الدين والقومية والمشاعر والأهداف** ، فماذا بقي يا ترى من عوامل أخرى نريد من الزعيم الراحل أن يذكرها كي نتعلم معنى القومية ؟

ويعود في الخطاب نفسه ويؤكد ما ذكرت :

" نعم لم هذه الضجة الكبرى ؟ ولم هذه التفرقة بين العرب ؟ فإننا إذا نظرنا إلى الماضي وجدنا التاريخ يربط بين العرب بالوحدة ، هذه الوحدة التي أقلقت العالم ، فأراد الاستعمار استعباد العرب ، والقضاء على قوميتهم ، فلم يتمكن .

هذا الاستعمار الذي لم يتمكن من التفرقة بيننا برسم الحدود وتخطيطها ، فجاء يعمل لها بالسيف .. ويحاولون اليوم الدخول في تجربة أخرى ، هي استعمال الدسيسة والخداع بين شعوب العرب " (١٩) .

وهذا الحديث يشرح الحديث الأول ويسنده ..

فالقومية عدو لدود للاستعمار ، لأنه يفضل أن يقابلنا متفرقين مختلفين ، على أن يواجهنا متحدين متحابين ، وما كان لإنجازاته في بلادنا أن تكون لولا تلك الفرقة ، وذلك الخلف ..

وعوامل وحدة العرب موجودة واضحة يراها المستعمرون ، لذا لا جدوى - كما يأمل ناصر - من رسم الحدود بين الدول العربية ، ولأن الاستعمار لم يصل لما يريد بذلك لجأ إلى الدسيسة والخداع ليحقق غاياته الاستعمارية .

الفصل الثاني

ضعف الفكر القومي في مصر
قبل ثورة يوليو ١٩٥٢

" ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق التاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة " المازني " (عروبة مصر لأحمد عبد المعطي حجازي ، ص ٣٣٠)

أهلية مصر للقيام بالدور القومي

دارسو تاريخ مصر وحضارتها ، وما وصلت إليه من منزلة ثقافية علمية ، بارزة وريادية ، وما تملكه من مراكز علمية وفنية ، وجامعات عريقة ، إضافة إلى موقعها الجغرافي ،لا يمكن أن ينكروا أهلية مصر وقدرتها على القيام بالدور القيادي القومي للدول العربية ، وقد عبر عن ذلك القومي المعروف ساطع الحصري قائلاً :

" لقد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التي تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة في إنهاض القومية العربية ، لأنها تقع في مركز البلاد العربية بين القسمين الإفريقي والآسيوي منها ، كما أنها تكوّن أكبر كتلة من الكتل التي انقسم إليها العالم العربي بحكم السياسة والظروف ، وهذه الكتلة قد أخذت حظاً أوفر من غيرها من الحضارة الحديثة ، وأصبحت أهم مركز من مراكز الثقافة في البلاد العربية ، وهي أغنى هذه البلاد بأجمعها ، كما أنها أقدمها في تشكيلات الدولة العصرية ، وأقواها في الآداب ، وأرقاها في الفصاحة ، وكل ذلك ما يجعل مصر " الزعيمة الطبيعية " للقومية العربية ، ولهذا السبب نجد أن جميع الذين حملوا الإيمان القومي في نفوسهم ، وعملوا على إنماء روح القومية العربية في جميع البلاد العربية وجهوا وجوههم شطر مصر ، وانتظروا منها الحركات والأعمال التي تضمن النصر في هذا السبيل " (١) .

وكم هو رائع أن ثورة أحمد عرابي كانت تسمى في زمنها "ثورة العرب"، أو ثورة "أولاد العرب " ضد سيطرة العناصر الشعوبية من أتراك وشركس ، وان احمد

عرابي كان يؤكد انتماءه للعرب بتصريحه أنه من نسل قبيلة عربية جاءت إلى مصر من العراق . (٢)

ضعف الفكر القومي في مصر قبل ثورة يوليو

وكم هو مؤسف أن الفكر القومي لم يجد طريقه بشكل فعال إلى فكر الأحزاب المصرية قبل الثورة ، إذ لا نجد له أثراً ملحوظاً في ذلك العهد .

وكم هو مستغرب أن تكون الفكرة العربية بعيدة كل البعد عن فكر الزعيم الوطني الكبير سعد زغلول (١٨٤٠-١٩٢٧) ...

فقد " اتصل بعض السياسيين العرب بسعد وهو في باريس يدافع عن قضية مصر ، وعرضوا عليه توحيد جهودهم ، والقيام بعمل عربي مشترك ضد الاستعمار ، فرد سعد عليهم " إن قضيتنا مصرية وليست عربية " ، وروى عبد الرحمن عزام أنه كان يتكلم ذات يوم عن الوحدة العربية أمام سعد ، فقاطعه سعد متهكماً : " إذا جمعت صفراً مع صفر فالنتيجة صفر "، وقد أفصح سعد بهذا عن معارضته لأي فكرة عربية " (٣) .

وإذا كان سعد بهذه الردود يخبرنا بحالة اليأس التي وصل إليها من الأمة وضعفها ، فالمطلوب منه أن يكون محفزاً لهممها ، وداعياً لوحدتها ، لا محبطاً مثبطاً لعزيمتها ، فالمصدر نفسه يخبرنا أنه لما أنيع خبر وفاته ، أعلن العرب الحداد عليه ، وأقيمت له مهرجانات التأبين في شتى بقاع العرب ، وكان من بين العرب من سماه " سعد العرب " !(٤) .

ويقول الأستاذ المؤرخ أحمد حمروش :

" أما الأحزاب الوطنية الناشئة فقد أجمعت على فكرة القومية العربية ، ورفعت الأحزاب اليسارية شعار الكفاح المشترك ضد الاستعمار ، ووضعت (مصر الفتاة) التحالف مع الدول العربية هدفاً من أهدافها ، وكذلك (الإخوان المسلمون) الذين تبنوا إقامة روابط عربية وإسلامية " (٥) .

ويضيف الأستاذ حمروش في الصفحة ذاتها :

" ولكن فكرة القومية العربية لم تكن راسخة ، ولم تكن هي الحركة المحورية للنضال ضد الاستعمار ، ولم تظهر أحزاب قومية تتبنى فكرة القومية العربية ، وتثير اهتمام الجماهير بها ، وحزب البعث العربي الاشتراكي الذي تبنى عقيدة القومية العربية ، ورفع شعار (الوحدة والحرية والاشتراكية) ، وحقق نجاحاً واضحاً في جذب الجماهير إلى آرائه وأفكاره في المشرق العربي ، لم يصل إلى مصر " ، ويضيف الأستاذ حمروش :

" وقد قال لي أكرم الحوراني أن تركيز حزب البعث خلال الفترة بين إنشائه وقيام حركة الجيش في مصر على المشرق العربي ، وعدم بذل جهود ملموسة في الاتصال بالضباط والمثقفين المصريين فقط ، يعتبر تقصيراً من ناحية العمل الحزبي " (٦) .

ومن غرائب السياسة المصرية في العهد الملكي أن " إسماعيل صدقي" وزير الداخلية عام ١٩٢٥ أصدر أمراً باعتقال الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد بلفور صاحب الوعد المعروف إثناء مروره بالقاهرة لافتتاح الجامعة العبرية بفلسطين .

ووقفت حكومة محمد محمود عام ١٩٢٩ ضد ثورة شعب فلسطين ، وكتبت جريدتهم (السياسة) تهدد الوطنيين الفلسطينيين في مصر بالطرد لتهييجهم الرأي العام خوفاً من غضب بريطانيا ، ومن أي عامل يثير الشعب المصري الكاره لحكمهم " (٧) .

" وأوفدت حكومة زيور باشا أحمد لطفي السيد مندوباً عن الجامعة المصرية لحضور افتتاح الجامعة العبرية سنة ١٩٢٥" (٨) .

واشتركت حكومة إسماعيل صدقي بمعرض تل أبيب الصهيوني عام ١٩٣٢ رغم تحذيرات القوى الوطنية الفلسطينية ، وقد عادت المعروضات المصرية كلها إلى مصر لأن الفلسطينيين الذين كانوا يشكلون ٨٠% من السكان قد قاطعوا المعرض ، كما لم يشتر اليهود منها شيئاً ، كما أمر صدقي بإغلاق صحيفة الشورى الفلسطينية ، وأبقى على صحيفة إسرائيل (٩) ، هذه الصحيفة - كما يقول المصدر ذاته - كانت منبراً للدعاية الصهيونية في مصر ، وكانت تقوم بذلك جهاراً ، وكان هناك صحيفة أخرى مخلصة للصهيونية تدعى الشمس ، وثالثة اسمها الاتحاد الإسرائيلي تمثل طائفة القرائين في مصر (١٠) .

فما الذي بقي يا ترى لدى حكومات مصر الملكية ؟ وماذا مارس إسماعيل صدقي من وسائل الدعم للصهيونية ومحاربة الفلسطينيين ولم يصل إلينا ؟

وكم هو غريب أن نقرأ هذه الأخبار عن سياسة مصر قبل الثورة ضد فلسطين وشعب فلسطين ، وهل هو من المعقول أن يصل بأولي الأمر في ذلك العهد المظلم إلى اعتقال من يهتف ضد وزير الخارجية البريطاني الصهيوني بلفور ، أو التهديد بطرد الفلسطينيين المحتجين ضد احتلال بريطانيا بلادهم ؟ ثم تزيد من محبتها لليهود فتشاركهم معارضهم ، وافتتاح جامعاتهم ؟

فماذا كان من المحتمل أن تقوم به الحكومات المصرية لو لم تكن بريطانيا تحكم مصر وتستعمرها ، وتنكل بشعبها الفقير المعدم ؟

فإذا كان هذا ما اجترأت الصحف ووسائل الإعلام على نشره آنذاك ، والحدثان حدثا في عهد الملك فؤاد ، أليس المخفي أعظم من فصول السياسة المصرية وخفاياها في عهده أو في عهد الملك فاروق ؟

وأين هذا كله من سياسة ثورة يوليو وتوجهاتها العربية الوحدوية القومية ؟ والتي أفنى الزعيم الراحل عمره في الدعوة إليها ، وممارستها والسعي لتحقيقها ، وقد كلفه هذا الكثير من المعارك والصراعات ، ومواجهة الاستعمار المتربص ، المعادي للقومية والوحدة .

ولا يتسع المقام هنا للحديث الطويل ، وللشرح والتعليل ، ولكن بعض الباحثين يلخص لنا بعض أسباب هذه **الإقليمية البغيضة** التي كانت سائدة في مصر في ذلك العهد ، ويجملها في :

أولاً - العوامل الذاتية :

١- النمو التاريخي الذي انفرد به المجتمع المصري ، فالاستقلال الذي نالته مصر عن العثمانيين في معاهدة لندن عام ١٨٤٠ ، جعلها تتميز عن بقية الدول العربية الخاضعة للعثمانيين ، كما أن أسرة محمد علي قد مارست استبعاد العنصر العربي ، واستندت للأرستقراطية التركية .

٢- تقدم التيار الإسلامي على التيارات الفكرية الأخرى التي سادت مصر منذ نهاية القرن الثامن عشر ، وهذا أدى إلى تراجع الاتجاهات القومية الأخرى .

ثانياً : **العوامل الموضوعية :**

١- الدور الذي قام به الاستعمار في عزل مصر عن الدول العربية ، وإهماله اللغة العربية ، وفرضه اللغة الإنجليزية ، وإلغاء الجيش الوطني .

٢- مسئولية العرب في عدم إشراك مصر في قضاياهم القومية .

٣- الدور السلبي لبعض السوريين في مصر ، وتعاونهم مع الاستعمار البريطاني في أعمال الإدارة والترجمة ، ومعاداتهم للحركة الوطنية المصرية ، وقد كانت صحيفة المقطم ومجلة المقتطف اللتين أسسهما سوريون لسان حال هذه التوجهات (١١) .

ونضيف إلى ما سبق ، الصراع القائم بين الأحزاب في العهد الملكي وما سبقه ، ثم أن أسرة محمد علي مارست الانغلاق على مصر ، وإذا ما درسنا عهد الملك فؤاد والملك فاروق نجد أنه لم يكن لديهما أي شعور قومي تجاه بقية الأقطار العربية ، فلا نجد في أخبارهما وما كتب عنهما من تراجم أي أثر لمثل هذا التوجه ، بل إن ما نجده هو

العكس ، فهما منهمكان في الصراع الحزبي الداخلي ، غير مبالين بموجات الاستعمار التي اجتاحت أقطار الوطن العربي ، والتي كان من الممكن أن تلفت انتباههما لما يلاقيه هذا الوطن من ويلات مشتركة !

ولا ننس صعوبة المواصلات ، وسبل الاتصال في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، والجهل والتخلف ، وانتشار الأمية ، كل ذلك ساعد على تباعد أهل الفكر ، وتشتت الوطنيين ودعاة الوحدة ، ومحاربة الأتراك ودول الاستعمار الأوروبي لهم ، كل ذلك حال دون التوجهات والدعوات القومية .

دور بعض الكتاب المصريين في تعزيز النزعة الإقليمية المصرية

ويلعب بعض أنصار الإقليمية ، والنزعة الفرعونية ، من الكتاب المصريين دوراً غير قليل في تعزيز النزعة الانعزالية المصرية ، متخذين من الفرعونية متكأ لعزل مصر عن شقيقاتها العربيات ، فطوراً ينادون جهاراً بالعودة للحضارة الفرعونية أو اليونانية، وتارة بالمناداة باتباع حضارة الغرب وسلخ مصر عن العرب ، وإهمال كل الصلات العربية التي تربط مصر بالعرب ، ومن هؤلاء :

الكاتب توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧)

يعد رائداً في مجال الردة ، وإحياء الدعوة الفرعونية ، والدعوة إلى انسلاخ مصر عن العرب ، وقد شرع في هذه الدعوة قبل ثورة يوليو بوقت طويل ، ولكنه وجد هامشاً من الحرية أكبر بعد وفاة عبد الناصر ، " ولكن الخطير حقاً هو في توقيت الدعوة الفرعونية ، القديمة الجديدة ، الذي يتوافق ويتناغم مع دعاوي القطيعة مع العرب ، والصداقة مع الإسرائيليين ، فمصر في رأي الحكيم يجب ألا تشغل بقضايا غيرها من العرب ، فقد شبوا عن الطوق ، ويمكن أن يتولوا أمورهم بأنفسهم ،ومصر يجب أن تنسلخ من ضميرها العربي ، ومن تراثها العربي ، ومن مكانتها العربية، وأن تغير من دستورها وتاريخها ، وكل ما يمثل عروبتها " (١٢) .

الدكتور طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٤)

ويجرد الدكتور **طه حسين** معظم كتابه "**مستقبل الثقافة في مصر** " المنشور عام ١٩٣٨ ، لتلك الغاية الانعزالية الواضحة ، مشدداً على الارتباط بمصر القديمة ، فيقول :

" .. وأنا ..مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكاراً ، ولن تخترع اختراعاً ، ولن تقوم إلا على مصر القديمة الخالدة ، وبأن مستقبل الثقافة في مصر لن يكون إلا امتداداً صالحاً راقياً ممتازاً لحاضرها المتواضع المتهالك الضعيف " (١٣) .

ولا ينسى الغرب ، وضرورة الانتماء له ، واعتناق حياته المادية ، غير قلق بتحريم ما يحرمه ديننا الحنيف منها ، مهملاً الحضارة الإسلامية العريقة ، فيقول :

" حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات ، وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد ، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية ، نتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ، ونتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون ، نفعل ذلك عن علم به ، ونعمد له ، أو نفعل ذلك عن علم وعلى غير عمد ، ولكننا ماضون فيه على كل حال ، وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عما نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها عليه الأوربيون " (١٤) .

ولما أراد أن يسدي النصيحة لأبناء مصر في سبل أخذ الحضارة، قال في الكتاب نفسه في مقال بعنوان " وجوب الصراحة في الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية " :

" ..إنما هي واضحة بينة مستقيمة ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد ، وهي : أن نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يُكره ، وما يحمد منها وما يعاب .

ومن زعم غير ذلك فهو خادع أو مخدوع " (١٥) .

فهل يليق هذا الحديث من أديب عربي مسلم له مكانته المعروفة بين أدباء العرب ، أليس ما يبثه في تضاعيف كتابه هذا هو السم الزعاف لأبناء وطنه وأمته ؟

ترى من هو الخادع أو المخدوع في هذا الحديث الواضح الجلي ؟

وفي مناسبة أخرى يقول :

" لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة ، فالفرعونية متأصلة ، وستبقى كذلك ، ويجب أن تبقى ، والمصري مصري قبل كل شيء ، ولن يتنازل عن مصريته مهما كانت الظروف " (١٦) .

وفي أكثر من خمسين صفحة من كتابه "مستقبل الثقافة في مصر " خصصها طه حسين للحديث عن الحضارة المصرية ، وصلتها الوثيقة باليونان والفراعنة ، يبذل جهداً ملحوظاً لكي لا يذكر أية صلة لمصر بالعرب والعروبة ولو بحرف واحد !

الكاتب سلامة موسى (١٨٨٠-١٩٥٨)

وكان أشد خصومة للعرب والعروبة من طه حسين ، وأوضح في طرح آرائه واقتراحاته في سبيل الابتعاد عنهما ، والتنصل منهما ، فيقول في كتابه " اليوم والغد " الصادر عام ١٩٢٨ في مقال بعنوان **"هل من وطنية فرعونية"** :

" ولكن هل الغاية من التخلص من آسيا ، والشرق، والتاريخ العربي، أن نعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها ؟

لست أشك في أننا لو فعلنا ذلك لكان أصلح لنا ، فمصر وطننا ، وماذا يعيبنا إذا كببنا على درس تاريخه ؟ وخاصة بعد إذ ثبت أن مصر هي أصل حضارة العالم كله ، فكأننا ندرس العالم بدرسها .

خير لنا أن ندرس الفراعنة من أن ندرس العرب ، لا لأنهم جدودنا فقط ، بل أيضاً لأن في درسهم تفتيقاً للأذهان ، إذ يقف من تاريخ نشوء الحضارة المصرية القديمة على تطور الذهن البشري ، وإيمانه بالعقائد الأولى ، وكيف نشأت الأديان والأساطير ، وأسست الملوكية ، وحقوق الامتلاك ونحو ذلك ، فمعرفة تاريخ المصريين القدماء هي تربية جديدة لنا " (١٧) .

إذن فالكاتب الحصيف ليس ناقماً على العرب فقط ، بل إن هذه النقمة تشمل قارة آسيا برمتها ، والشرق كله ، لكي لا يبقى بالتالي سوى هذه التماثيل والحجارة الفرعونية ليؤمن بها ، ويدعو إلى دراستها وتقديسها !

ويقول ممعناً في الدعوة للانسلاخ عن الأمة العربية :

" ..هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي ، سراً وجهراً ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب ، وفي كل ما اكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارىء تلك النزعات التي اتسمت بها أوربا في العصر الحديث ، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب ، ويتنصلون من الشرق ، ليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوربية "

كما يقول :" ليس علينا للعرب أي ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب ، وبعثرة لقواهم " (١٨) .

أي أن سلامة موسى - كما يقر ويعترف - حريص على دس السموم في كل ما يكتب ، فغايته تدمير العقول ، وتوجيه الشباب إلى كره أوطانهم ، ونبذ أديانهم ، والولاء لشيء واحد لا غير .. الغرب ، قبلته الأولى ، وغايته القصوى .

ولا ينسى سلامة موسى اللغة العربية الفصحى من نقمته وكراهيته وحقده ، فيقول عنها :

" ولست أنقم على اللغة الفصحى إلا لشيئين ، أولهما صعوبة تعلمها ، وثانيهما عجزها عن تأدية أغراضنا الأدبية .

أما من حيث الصعوبة فإنه يكفي أن نقول أننا نتعلمها كما نتعلم لغة أجنبية ، وأن أحسن كتابنا يخطيء فيها ،لا أقول عشرات الأغلاط ، وإنما مئات الأغلاط " (١٩) .

ثم يسارع إلى ربطها بموضوع النقمة والكراهية الأصلي ، فيضيف في المقال ذاته :

" ومما يمكن أن ينقم على اللغة الفصحى أيضاً أنها تبعثر وطنيتنا المصرية ، وتجعلها شائعة في القومية العربية ، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ، ويعجب بأبطال بغداد القدماء ، بدلاً من أن يشرب الروح المصرية ، ويدرس تاريخ مصر ، فنظره متجه أبداً نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، مع أننا في كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب ، والثقافة تقرر الذوق والنزعة ، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق ، وأنه لأنفع لنا وللشرق أن ينزع هو إلينا ، لا أن ننزع نحن إليه " (٢٠) .

إذن فجريرة اللغة العربية أنها تدفع محبيها ، والمتعمقين فيها لحب العرب ، وأبطال العرب ، وهذا ما يكرهه الكاتب الكبير ، وقد يولد هذا الحب حباً آخر وهو حب الشرق والانتماء إليه ، وهذا أيضاً يقع في سلم المحظورات لعاشق الفرعونية ، ومحب الغرب .

فأية خدمة هذه التي يقدمها دعاة الفرعونية للغرب المستعمر المتربص لهذه الأمة ، الناقم على لغتها وحضارتها ودينها ؟

وكيف يفسر لنا سلامة موسى ما أورده في كتابه " تربية سلامة موسى" (١٩٤٧) في مقال بعنوان : " التدابير الإنجليزية لفقرنا وجهلنا ومرضنا " الوصف المطول لآثار الاستعمار البريطاني على مصر والأمة ؟ ذلك الوصف الذي اقتبست معظمه في كتابي "حرب السويس" ، والذي أعتبره نموذجياً في وصف الاستعمار وسياساته وأساليبه ، وأهدافه وغاياته .

إن هذا التقلب والتلون ليس في صالح سلامة موسى ولا سواه من أهل القلم والفكر ، إذ أنه يدعو أي قارىء لإعادة النظر في فلسفته - أي سلامة موسى- وأهدافه من الكتابة .

أما زعمه أن اللغة العربية الفصحى لغة صعبة بحيث أننا حين نتعلمها كأننا نتعلم لغة أجنبية ، فهو أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع ..

فلو أننا خاطبنا أي أميّ عربي بالفصحى لفهم ما نقول ، وبشكل أفضل بكثير مما لو تواصلنا معه بلهجتنا العامية ، فكيف يكون التفاهم لو أننا استعملنا الفصحى مع الطبقة المتعلمة ؟ لا شك أن التفاهم سيكون في غاية السهولة (وقد جربنا ذلك في عدة بقاع من الوطن العربي) ، ولا أظن أن سلامة موسى يستطيع أن يقنعنا بأن هذا الزعم خاطىء ، وهذا بالتالي يثبت أن تعلم العربية الفصحى لا يمكن أن يكون صعباً كتعلمنا لغة أجنبية .

ولكن ماذا يكون الحال لو أننا ألغينا اللغة العربية الفصحى من مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا مدة من الزمن ، وأردنا التواصل مع أبناء جلدتنا في بلاد العروبة ؟ هل سيطالبنا سلامة موسى بأن نعلّم كل اللهجات العربية في مدارسنا لكي يستطيعوا فهم ما يقوله السوداني والموريتاني والمصري والمغربي ..الخ ؟

ولا ننس أن إهمال الفصحى يخلق صعوبة كبيرة في قراءة القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول محمد عليه السلام ، وهذه الأمور لا تقلق سلامة موسى كونه كان علمانياً مجاهراً بعلمانيته .

أما قوله : " وأن أحسن كتابنا يخطىء فيها ،لا أقول عشرات الأغلاط ، وإنما مئات الأغلاط " ، فهو زعم مردود عليه كسابقه ، فإذا كان أحسن كتابنا يخطىء مئات الأخطاء في كتابته بالعربية فلماذا اختار أن يكون كاتباً ، وكيف نقبل ادعاءه هذا اللقب الذي يحتاج إلى تعلم العربية وإتقانها كأول مطلب ؟

وماذا عن الإنتاج الأدبي الكبير لسلامة موسى نفسه ؟

فلا أحد يزعم أن فيه مئات الأغلاط ، إلا إذا أراد سلامة موسى أن يقول لنا أنه كان يرسل هذا الإنتاج لمدقق لغوي يدققه له ، ويصحح تلك الأخطاء المئات قبل أن يدفع به للمطابع ، وهذه كارثة أخرى !

أحمد لطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣)

وهو من مشاهير الدعوة لانسلاخ مصر عن العرب ، واستعمال العامية بدل اللغة الفصحى ، وكان عضواً في مجلس النواب ، ووزيراً سابقاً ، ونائب رئيس الوزراء في حكومة إسماعيل صدقي ، وقد لقب بأستاذ الجيل .

يقول الدكتور أنيس الصايغ :

" كرس أحمد لطفي السيد قلمه ولسانه لمحاربة الاتجاهات العربية في مصر في فترة ما بعد حرب فلسطين ، مثلما كان قد فعل قبل نصف قرن ، وهذا مقطع من مقال له في الموضوع نفسه نشر في المصور في ١٩٥٠/٥/٥ :

" كنت ألح في تأييد مصرية المصريين ، لأن منهم من كانوا يدعون أنهم عرب ، ومنهم من يدعون أنهم أتراك أو شراكسة ، ولو كان اليونان حينما ملكهم الأتراك قد خرجوا عن قوميتهم ، لبادت شخصيتهم ، ولماتت في نفوسهم أطماع الاستقلال ببلادهم ، ولاستحال عليهم أن يردوها اليوم ، وبذلك نحن المصريين يجب أن نتمسك بمصريتنا ، ولا ننتسب لوطن غير مصر ، مهما كانت أصولنا حجازية أو سورية أو شركسية أو غيرها ، ويجب أن نحافظ على قوميتنا ، ونكرم أنفسنا ووطننا ، ولا ننتسب إلى وطن آخر ، ونخصه وحده بكل خيرنا ، وكل منافعنا ، ونحيطه بكل غيرتنا " (٢١) .

وكان لطفي السيد يدعو إلى :

١- قصر التعليم على أبناء الأعيان ، وعارض مجانية التعليم .

٢-أيد المستشرقين في دعوتهم الهدامة إلى استعمال العامية بدل الفصحى .(مع أنه كان رئيساً لمجمع اللغة العربية ، إذن ففي تسنمه هذا المنصب أصل البلاء على اللغة العربية !) .

٣- مقاومة التضامن الإسلامي ، ومن ذلك معارضته مساعدة المصريين لإخوتهم الليبيين خلال الغزو الإيطالي لهم عاد ١٩١١ .

٤- تأييده لوجهة نظر الاستعمار البريطاني في تملك الجاليات الأجنبية لأراضي في وطنه مصر .

٥- تمجيده للحاكم البريطاني لورد كرومر - أعدى أعداء وطنه مصر - ووصفه له بأنه من أعظم الرجال .

٦- تجريده سياسة صحيفة " الجريدة " (لسان حال حزب الأمة) عندما كان رئيساً لتحريرها لتأييد التبعية للاستعمار البريطاني ، واتباع الفكر الغربي (٢٢) .

ومما قاله لطفي السيد عن اللورد كرومر(١٨٤١-١٩١٧) المعتمد البريطاني في مصر ، والحاكم الفعلي لها مدة ٢٤ عاماً :

" وما يذكر لجناب اللورد كرومر من علو الهمة ، والثبات على مبدئه أن كبار الأعيان طلبوا إليه أن يقدموا له هدية تذكاراً لشخصه يذكر به المصريون الذين أقام بينهم هذا الزمن الطويل ، موفور القسط من الرفعة الذاتية ، والشمم ، وحسن اللقاء ، والحلم " (٢٣) .

... إذن فنحن أمام شخصية تحب الاستعمار وتقدره ، وتعمل في خدمته بكل إخلاص وتفان .

فلا نجد اتجاهاً وطنياً تمارسه بلاده وتنتهجه إلا وللطفي السيد دور معادٍ له ، فهو ناقم على كل ما هو وطني أو قومي .

وقد كتب عنه الشيخ عبد العزيز جاويش قائلاً :

" مكانك مكانك أيها الجبان ، فما لك بميادين تميتك صورتها ، وتصعقك ذكراها ، إن لم تشأ فخير لك أن تحفر الأرض بأظافرك ، وأن تتردى فيها ، ثم أرطم رأسك بالحجارة ، حتى يخرج دماغك ذلك المخ الذي كان سبب شقائك ، وأصل بلائك " (٢٤) .

ردود القوميين من كتاب مصر

إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠-١٩٤٩)

كتب المازني في مجلة الرسالة في ٢٦ آب ١٩٣٥ مقالاً بعنوان "القومية العربية " ، نقتطف منه :

" ... ذلك أني أومن بما أسميه " القومية العربية " ، وأعتقد أن من خطل السياسة ، وضلال الرأي ، أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسعيها ، غير عابئة بشقيقاتها ، أو ناظرة إليها ، ويحنقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوروبا ، وليست من الشرق ، وعندي أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا ، وان هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية - إذا لم تفقدنا إياها - ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب ، والعلم ينقل ، وقد نقل من الشرق إلى الغرب ، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغير جلده ، أو يخسر خصائصه "

ويقول عن الحضارة الفرعونية :

" إنها لمدنية باهرة لهذه الحضارة القديمة ، وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضارة القديمة ، ولكنها بارت واندثرت ، ولم يبق إلا الأثر المدفون في التراب ... ولكن المدنية العربية - أو قل الإسلامية إذا شئت - لم تفن ، ولم تبد ، ولم تندثر ، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان ، وهذه تكتسب وتستفاد ، ولكنها فيما عدا ذلك بقيت حية ، وأبقى منها لغتها بكنوزها المختلفة ، فهي- أي المدنية العربية - عامل مؤثر بوجوده ، لا بذكراه كالعامل الفرعوني ، ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التي يقيمها الغرب ، ويرفع منها سدوداً بيننا وبين إخواننا ..

ولو أن هذه القومية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة من أمل في حياة مأمونة " (٢٥) .

وحين يقرأ متتبع المقالات السابقة مقال المازني لا يجد صعوبة في إدراك أنه يرد على ما فيها من دعوة فرعونية ، وتعلق بالغرب ، وانعزالية عن العرب والشرق .

أحمد حسن الزيات (١٨٨٥- ١٩٦٨)

ومن الذين ردوا على تلك الدعوات الأديب المصري أحمد حسن الزيات ، الذي كتب في مجلته الرسالة في ١٩٣٣/١٠/١مقالاً حاسماً يقول فيه :

" هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً من التاريخ العربي ، نسخت ما قبلها مثلما تنسخ الشمس الضاحية سوابغ الظلال ، أزهقوا إن استطعتم هذه الروح ، وامحوا ولو بالفرض هذا الماضي ، ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان من مصر ، وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط ، وأشباح طائفة ترتل كتب الأموات ، وجباه ضارعة تسجد للصخور ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا ، وأنكرت الحياة ، لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ، لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها ، إلا في رسالة العرب .

أنشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الأهرام ، وعظمة النيل ، وجمال الوادي ، وحال الشعب ، ولكن أذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وأن القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار امرىء القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور ، وتغذي العالم ، هي أدعى إلى الفخر وأبقى على الدهر ، وأجدى على الناس من صفائح الذهب ، وجنادل الحجارة " (٢٦) .

ويضيف : " لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلاً من كتاب المجد العربي ،لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ، ولا سنداً لقوتها ، ولا أساساً لثقافتها إلا في رسالة العرب ...

إنما تتفاضل الأمم بما قدمت للخليقة من خير ، وتتفاوت الأعمال بما أجدت على الإنسان من نفع ، أليس الخزان خيراً من الكرنك (معبد فرعوني) والأزهر أفضل من الأهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الآثار؟ " (٢٧) .

إذن هو تاريخ مصر من تاريخ هذه الأمة العربية ، تاريخ نسخ ما كان قبله من أموات وأشباح ..

فماذا يعود للمصريين لو أنهم نشروا القبور من عهد الفراعنة ، وناجوا الصخور مستمطرين الماضي السحيق الذي لا يجيب ، ولو فعل لنطق بلسان اللوم والسخرية .

وماذا يكسب المصريون لو أنهم أطالوا الإطراء للأهرام ، ذاكرين ضخامتها ، متغزلين بقدمها وعراقتها ، وبكوا على الهالكين من بناتها ؟ فاللسان الذي سينطقون به عربي صميم ، وما حملته حضارة العرب عبر العصور أجدى كثيراً وأنفع من التماثيل

والهياكل والمعابد ، وهذا التراث هو الهوية والمستقبل والأمل ، والوحدة والقوة ، فكيف لمصر أن تنفصل عنه جذورها ، وتنفصم عراها ؟ .

عبد الرحمن عزام (١٨٩٣-١٩٧٦)

وقد كتب في صحيفة البلاغ راداً على طه حسين ، وذلك عام ١٩٣٣ ، وعلى قصر ما وجدناه من مقاله هذا إلا أنه واضح وبليغ :

" ..لقد قبل المصريون دين العرب ، وعادات العرب ، ولسان العرب ، وحضارة العرب ، وأصبحوا عرباً في طليعة العرب ، والذي نعلمه من البحث في أنساب أقاليم مصرية بأكملها ، أن أكثرية دماء أهلها ترجع إلى العرق العربي ، وأن فرداً واحداً من تسعين في المائة من سكان مصر لا يستطيع أن ينكر أن عروقه تجري فيها الدماء العربية ، والواقع الملموس أن مصر الآن من جسم الأمة العربية في مكان القلب ، تلك هي الأمة العربية ، تلك هي أمتنا التي ننتسب إليها ، ونفخر بتاريخها " (٢٨) .

*****

ويسعدنا حقاً أن نلمح بارقة من أمل ، ونشعر بشيء من العزاء لدى قراءتنا عن تلك الفترة من تاريخ مصر ، ما يذكره الأستاذ أحمد حمروش " أن الأحزاب الناشئة مثل(مصر الفتاة) قد وضعت في برنامجها هدف التحالف مع الدول العربية ، و(الإخوان المسلمون) كان من أهدافهم إقامة روابط عربية إسلامية ، وجمعية (الشبان المسلمين) نشطت لجمع التبرعات لضحايا ثورات شعب فلسطين " (٢٩) .

الإقليميون الجدد !

في كتابه "المأزق ، مصر والعرب الآخرون"والصادر عام ١٩٨٧ ، يورد الإعلامي السوري الأستاذ عبد الهادي البكار النص الكامل لمقال له نشره في مجلة كل شيء اللبنانية في العدد ٨٥٣ عام ١٩٧٠ بُعيد وفاة عبد الناصر ، يتحدث فيه عن محاولات بعض الكتاب المصريين جر مصر خارج نطاق الأسرة العربية ..(٣٠) .

فيذكر عتاب الشاعر المصري صالح جودت لأم كلثوم لأنها عزمت أن تغني مرثية نزار قباني في عبد الناصر ، ووجه الإعتراض أن قباني شاعر غير مصري !(٣١) .

وفي السياق ذاته يذكر البكار معركة فنية بين عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ، فيصرح عبد الحليم للإذاعة " أن مصر اعتادت على ان تفتح أبوابها للفنانين الأجانب "

متهماً فريد الأطرش بكل الفظاظة الإقليمية بأنه أجنبي غريب عن مصر العربية " مع أن الإذاعة السورية كانت تتبنى عبد الحليم عام ١٩٥٢ ، وتذيع أغانيه - كنجم عربي- في الشام التي لم يكن يعرفه فيها أحد آنذاك (٣٢) .

إلا أن الموضوع الأهم في مقالة الأستاذ البكار إفراد صحيفة الأهرام - بعيد وفاة ناصر أيضاً - صفحتين كاملتين للكاتب اليساري لويس عوض يحلل فيه رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم والمنشورة عام ١٩٣٤ ، والتي يقول فيها الحكيم "أن العيوب التي طرأت على مواصفات الإنسان المصري فأضعفت أصالته هي عيوب طارئة ، تغلغلت فيه عبر موجتين استعماريتين إحداهما الاستعمار العربي "(٣٣) .

ويعلق الأستاذ البكار على ما سبق ، فيقول :

" للأسف لم يشأ الدكتور لويس عوض أن يتذكرمن رواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم ، وفي هذه المرحلة بالذات التي تحاول الإقليمية المصرية الانفصالية خلالها الخروج من تحت طبقة التراب - الغبار ، غير هذا التأكيد على (لا عروبة المصريين) كصفة وردت في كتاب لتوفيق الحكيم صدر عام ١٩٣٤ ، ويجيء اليوم الدكتور لويس عوض ليبعث هذه الصفة - الإتهام ، بقلمه من جديد ، في مرحلة ما بعد عبد الناصر الذي ذهب قبل تأكيد عروبة مصر .

وفي حقيقة الأمر فإن ما قاله عبد الحليم حافظ عن فريد الأطرش ، وما قاله صالح جودت عن نزار قباني ، وما كتبه الدكتور لويس عوض في الأهرام ، ليس سوى ظواهر مسموعة ، أو مقروءة ، لتيار حاول دائماً أن يرفض شرعية الناصرية لمحاولة تأكيد عروبة مصر ، وكان رفضه هذا - حين كان جمال عبد الناصر حياً - رفضاً واجفاً ، خجولاً ، وخبيثاً أيضاً ! " (٣٤) .

..إن الردود السابقة - والتي صاغتها أقلام مصرية- على الانعزاليين ، ودعاة الاقليمية ، كافية للرد على " الاقليميين الجدد " ، كون الغايات واحدة ، والأهداف لم تتغير ، ولم يجن هؤلاء الانعزاليون سوى تسجيل أسمائهم كأعداء للأمة ، وبأقلامهم هم .!

*****

أثر هذه الدعوات الهدامة على الأمة ...

ويمكن للباحث تلخيص أثر هذه الدعوات وغاياتها فيما يلي :

١- إحداث الانشقاقات في الأمة العربية والإسلامية .

٢- دفع دعوات الانشقاق الخفية في الدول العربية والإسلامية للظهور العلني ، وتشجيعها ودعمها .
٣- تشجيع دولة العدو الصهيوني للنفاذ إلى معاقل العروبة والإسلام بالتفريق والهدم .
٤- خدمة العدو الصهيوني والغرب بتشجيع عناصر الاستعمار وأتباعه والمفتونين به في الدول العربية والإسلامية ، وموقف لطفي السيد من كرومر خير مثال لذلك .
٥- القضاء على صفات الوطنية والانتماء والولاء لهذه الأمة .
٦- خلق الفرص ، والتربة الخصبة المناسبة لوسائل الإعلام المعادية – وما أكثرها هذه الأيام - للنفاذ إلى وحدة الأمة بالتخريب والتفريق

إن الدعوة الفرعونية لم يكن لها من غاية سوى تمزيق الأمة وتفريقها ، ويشمل هذا التفريق مصر نفسها ، ولا غرابة أن يصاحب هذه الدعوة دعوات أخرى في الاتجاه نفسه ، تساند كل منها الأخريات ، كاستبدال الفصحى بالعامية ، ونبذ الأديان ، والدعوة إلى العلمانية ، وانتهاء بتمجيد الاحتلال الأجنبي ، وابتكار محاسن ومزايا له ...

والحمد لله أن قيض لهذه الأمة من يرد على دعاتها ، ومن مصر نفسها ، ومن هؤلاء الكتاب الشرفاء إبراهيم عبد القادر المازني وأحمد حسن الزيات وعبد الرحمن عزام ورجاء النقاش ، وغيرهم .

إن أقل ما يمكن أن نرد به أن هؤلاء الانعزاليين لا يمثلون مصر العربية ، مصر عبد الناصر ، مصر التي شاهدناها أول أمس ، الرابع من أيار ٢٠١١ ، ترعى على أرضها اتفاقية المصالحة الوطنية الفلسطينية بين فتح وحماس ، هذه المصالحة التي انتظرها الشعب الفلسطيني - بكافة أطيافه السياسية - بفارغ الصبر ، وكان أول رافضيها دولة العدو الصهيوني .!

وما هذه المظاهرات التي نقلتها وسائل الإعلام المصرية والعربية اليوم (٦ أيار ٢٠١١)، والتي جرت في شوارع القاهرة ، مطالبة بفتح الحدود المصرية الفلسطينية ، وطرد السفير الإسرائيلي من القاهرة ، وقطع الغاز المصري عن إسرائيل ، إلا تعبيراً دافئاً عن روح القومية العربية ، والتي ستظل جذورها- بعون الله- ضاربة في أعماق التراب المصري ما دامت مصر ، وما دامت هذه الوشائج الحارة الرابطة بين الأشقاء العرب .

الفصل الثالث
عبد الناصر والقومية

" إذا كان العالم قد عاش من قبل في عصر النهضة ، ثم عاش بعد ذلك في عصر الفضاء ، فإننا نعيش اليوم في عصر الوحدة العربية " "عبد الناصر ، دمشق ، ٢٥ شباط ١٩٥٨ " (أحمد حمروش ، عبد الناصر والعرب ، ص٢٩)

قومية عبد الناصر قبل ثورة يوليو

تبدأ اهتمامات ناصر القومية في فترة مبكرة من حياته ، فقد كان ذلك إثناء حياته المدرسية الممتدة بين ١٩٢٥-١٩٣٦، وكان يشارك خلالها في المظاهرات الطلابية في مناسبات مختلفة .

ويؤرخ لذلك في كتابه " **فلسفة الثورة** " ، حين يقول مؤكداً على أن الدائرة العربية هي أوثق الدوائر ارتباطاً بمصر :

" فلا شك أن **الدائرة العربية** هي أهم الدوائر ، وأوثقها ارتباطاً بنا ..

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً **بالدين** ، فنقلت مراكز الإشعاع الديني ، في حدود عواصمها ، من مكة إلى الكوفة ، ثم إلى القاهرة ، ثم جمعها الجوار في إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي ، أن الوعي العربي بدأت يتسلل إلى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائي في إضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة (يقصد نوفمبر) احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ، ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين ، اغتصبته من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا أخرج في حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها ؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع عندما أصبحت طالباً في الكلية الحربية ، أدرس حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة " (١) ؟.

وعن حرب فلسطين عام ١٩٤٨ يقول :

" ولست أريد أن أدخل في تفاصيل حرب فلسطين الآن ، فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك في شعورها ، وفي تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، وإذن فهي جميعاً ، كل منها في بلادها ، قد تعرضت لنفس العوامل ، وحكمتها نفس القوى التي ساقتها إلى الهزيمة ، ونكست رأسها بالذل والعار " (٢) .

إذن .. ما يصرح به هنا عبد الناصر ، وفي تلك الفترة المبكرة من حياته العسكرية إشارات واضحة جلية على شعوره القومي ، وإدراكه للقومية العربية التي تجسدت في حرب فلسطين ، فكل الجيوش زحفت إلى فلسطين يدفعها شعور واحد ، إذن فهي متحدة في المشاعر والغايات والأهداف ، وكانت حرب فلسطين خير جامع لها ، ومن المفروض أن تكون الظروف - الخيبة والمرارة - التي خرجت بها هذه الجيوش من تلك الحرب عامل آخر لوحدتها .

ويؤيد ما سبق ، حديث **لمحمد حسنين هيكل** ، يقول فيه :

" إن القول أن عبد الناصر اكتشف **البعد العربي** بعدما حارب على أرض فلسطين هو الأقرب إلى الواقع ، وفي " فلسفة الثورة " نلاحظ قوله أنه في تلك الفترة رأى الفلسطيني يحارب إلى جانب العراقي إلى جانب السوري إلى جانب المصري إلى جانب الأردني .

وعلى أرض فلسطين اكتشف حقيقة الوجود الإسرائيلي ، وحقيقة الاستعمار ، وشاهد الأطراف القومية حيال قضية فلسطين .

وعلى أرض فلسطين تكونت لديه حقيقة أساسية هي : الدفاع عن مصر مرتبط بالوضع في سوريا ، وفلسطين هي التي تربط هاتين الحلقتين ، أي مصر وسوريا .

وعلى أرض فلسطين تكونت لديه قناعة أن العالم العربي وحدة .

ولم يطل به الأمر لتكريس هذه القناعة ، ففي " فلسفة الثورة " عام ١٩٥٣ ، تحدث عن دوائر ثلاث : الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الإفريقية .
واستحوذت الدائرة العربية على تفكيره ومشاعره ، لأنه بدأ يقتنع تماماً بأن الساحة الكبرى للصراع مع الاستعمار هي الأرض العربية " (٣) .
أي أن الدرس القاسي الذي تعلمه ناصر من حرب فلسطين ١٩٤٨ جعله يدرك الحقيقة الناصعة التي حملها بقية عمره ، وهي أن هذا الوطن المترامي الأطراف كل طرف فيه مرتبط بالآخر ، أخ له في الصراع مع الاستعمار الطامع المتربص ، مشارك له في المسير والمصير ، وأن هذا الوجود الإسرائيلي ما هو إلا أداة استعمارية لإبقاء هذا الوطن ممزقاً ، ليكون هدفاً سهل المنال .

أما عن تاريخ **اتخاذه القومية مذهباً سياسياً** ، فيقول ناصر في ١٩٥٧/٤/١في حديث صحفي :
" لقد تبلورت في ذهني فكرة القومية العربية كمذهب سياسي عندما كنا ندرس في كلية أركان الحرب (درس فيها مابين ١٩٤٦-١٩٤٨) المشكلات الاستراتيجية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط ، كنت قد قرأت تاريخ العرب منذ أقدم العصور ، وعرفت أنه عندما كان العرب وحدة متماسكة استطاعوا رد المعتدين على أعقابهم ، كما حدث أيام الحروب الصليبية ، ولكن بعد أن فرق المستعمرون بين العرب أصبحوا عرضة للهزيمة ، وفريسة للسيطرة الأجنبية .. وكانت هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني طوال فترة المناقشة التي كانت تدور حول وسائل الدفاع عن مصر ، ولأول وهلة أتضح لنا أن مصر ، مثلها في ذلك مثل كل جزء من أجزاء الوطن العربي ، لا يمكن أن تضمن سلامتها إلا مجتمعة مع كل شقيقاتها في العروبة ، في وحدة متماسكة قوية" (٤) .
ولا أجدني أخالف عبد الناصر الرأي في معظم ما ورد في الاقتباس السابق ، فالأمة العربية أو الإسلامية كانت تتعرض للهزائم في وقت تفرقها وتشرذمها ، ولكن المثال الذي ضربه وهو النصر الذي تحقق على الصليبيين في حطين لم يكن موفقاً ...
فصلاح الدين الأيوبي الذي رد الصليبيين وهزمهم في حطين وفي غيرها من مواقعه الكبيرة **لم يقاتلهم لأسباب وطنية أو قومية ، لأنه أصلاً لم يكن عربياً ، بل كان قتاله وكفاحه جهاداً إسلامياً في سبيل الله** ، وقام بتوحيد المسلمين في الشام ومصر قبل معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٧ على ثرى فلسطين .

ثوار يوليو والعرب قبيل الثورة وبعدها

وقفنا طويلاً في الباب الثاني - الفصل الثاني " عبد الناصر في فلسطين " ، في حديث مطول عن دور ناصر والقوات المصرية في حرب فلسطين ، وهنا لا بد من التنويه بدور ثوار يوليو العربي في نواحي أخرى قبيل الثورة .

لم يكن ثوار يوليو في منأى عن مجريات الثورة الفلسطينية قبل عام ١٩٤٨ ، فقد قام عبد اللطيف البغدادي بقيادة سرب من الطائرات إلى مطار المفرق الأردني حاملاً الأسلحة للثوار الفلسطينيين ، كما التقى البغدادي بالضابط السوري فوزي القاوقجي (١٨٩٠-١٩٧٧) قائد جيش الإنقاذ العربي ، وأخبره أن حكومة مصر قد رفضت تطوع الضباط المصريين في حرب فلسطين ، واقترح على القاوقجي الهروب بطائرات مقاتلة إلى سوريا ، وقام هؤلاء الضباط بتجهيز ١٥ طائرة للانضمام للجيش السوري ، وأنشأوا مع السوريين مطاراً سرياً شرق دمشق بستين كم (٥) .

وطلب البغدادي من القاوقجي تكليف أحد رجاله ليقوم بمهمة الاتصال بين الفريقين ، فحضر خبير في أجهزة اللاسلكي ، وأقام فترة ينتظر دوراً يقيم به (٦) .

وكانت حرب ١٩٤٨ الفرصة الوحيدة التي أتاحت للعسكريين المصريين الاحتكاك بعرب فلسطين" وكانت الصلة تزداد وثوقاً مع أخطار الحرب وتضحياتها، وفي هذه المرحلة اكتشف العسكريون المصريون أن ظروفهم التي أدت إلى عدم انتصارهم على القوات الصهيونية ترجع أساساً إلى تهتك النظام الملكي القائم في مصر " (٧) .

بعد صدور قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ، كان مفتي فلسطين **أمين الحسيني** يقيم في مصر لاجئاً سياسياً ، فتوجه إليه عبد الناصر عارضاً خدماته وخدمات مجموعته التي كونها في الجيش كمدربين ومقاتلين في صفوف الثوار الفلسطينيين، ولكن أمين الحسيني اعتذر عن قبول العرض انتظاراً لموافقة الحكومة المصرية ، ولما رُفض العرض ، تقدم عبد الناصر بطلب إجازة ليقاتل متطوعاً مع المتطوعين ، وكذلك فعل عدد من الضباط المصريين ، ولكن الحكومة المصرية عادت وأمرت رسمياً بمشاركة القوات المصرية في القتال وذلك في ١٦ أيار ١٩٤٨(٨) .

أما بعد ثورة يوليو ، فإذا غاب الاهتمام الكبير بالعرب لفترة قصيرة ، فهو لانشغال ثوار يوليو بالمشكلات الكبرى التي واجهتهم كأي ثورة تهدف إلى تغيير النظام الحاكم برمته ، وتغيير كل تبعاته وآثاره ، قبل أن ترسي قواعدها على أسس قوية ، فلم يكن لديهم وقت لبلورة أفكارهم ، أو اعتناق نظرية ما ، أو الانتماء لجهة ما .

لذا لا نجد ذكراً للقومية العربية في منشورات الضباط الأحرار قبل الثورة ، ولا في أهدافهم الستة المعلنة التي تخلو من أية إشارة للعرب وقضاياهم ، وكذلك جاء برنامج تنظيم الثورة الأول "هيئة التحرير" خالياً من أي كلمة عن القومية العربية (٩) .

" ولكنه لم يكن ابتعاداً عن عقيدة ، أو انصرافاً عن يقين " (١٠) ، فقد أثبتت الأيام- بعد فترة قصيرة - مدى انتماء الثورة وزعيمها العربي لهذا الوطن العربي الكبير ، والتضحيات الكبيرة التي قدمتها مصر للعرب في العهد الناصري .

ويسارع العرب إلى الاطمئنان على هذا الحدث الكبير ، ورجاله الأماثل..

فتوجهت بعض الهيئات العربية في بغداد إلى السفارة المصرية طالبة أن يكون النص في الدستور على أن تكون مصر عربية (١١) .

وبعد عام من الثورة يرسل علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال المغربي رسالة لمحمد نجيب مستنجداً به ضد فرنسا التي كانت تحيك مؤامرة لخلع السلطان محمد الخامس (١٢) .

ولما وصل أديب الشيشكلي إلى مصر كأول رئيس عربي يزورها استقبل بحفاوة ، ووصفته صحيفة المصري بأنه محرر سوريا (١٣) .

وافتتحت في مصر **إذاعة صوت العرب** في ٤ تموز ١٩٥٣ - أي قبل أن يكتمل العام على الثورة - معبرة عن توجهات مصر العربية ، واقفة مع الثوار العرب في تونس والمغرب والجزائر وغيرها من الدول العربية التي كنت ما تزال تقاوم الاستعمار ، ومن هذه الإذاعة أعلنت ساعة الصفر لثورة الجزائر ، ومن مصر تم إعداد إذاعة سرية للجزائر عام ١٩٥٥(١٤) .

لذا لم يكن غريباً أن يتوجه أحمد بن بيللا إلى مصر عند ما حكم عليه بسبب هجوم وقع في وهران (١٥) .

يقول عبد الناصر في العيد الثاني للثورة وكأنه يقرأ المستقبل :

" مشاكل العرب هي مشاكل المصريين ... وإذا كانت مشكلة الاحتلال استنفذت إلى الآن الجزء الأكبر من جهد المصريين ، فإنها لم تصرفهم أبداً عن المشاركة في كل جهد عربي من أجل تحرير العرب" (١٦) .

وقد أثبتت الأيام صحة ما قاله ناصر وتوقعه ، فقد كانت مشاكل العرب وقضاياهم طوال عهده هي مشاكل مصر وقضاياها ، من المغرب حتى البحرين ، ولم يحدث أي حدث سياسي أو عسكري في أي دولة عربية إلا وكان لمصر موقفها المعلن تجاهه ، وبكل قوة ووضوح ، بل وترسل الفرق العسكرية للوقوف مع هذا البلد أو ذاك ضد أي غاز أو محتل ، وهذا حدث مع عدة أقطار عربية .

وشرع صلاح سالم في جولة طويلة إلى البلاد العربية في النصف الثاني من عام ١٩٥٤ ، فزار لبنان واليمن، والعراق التي قابل فيها الملك فيصل ورئيس وزرائه نوري السعيد ، كما زار السعودية (١٧) ، ومع أن المصادر لا تخبرنا بغايات هذه الجولة ، إذ يبدو أن قيادة الثورة كانت تريد عقد علاقات ودية مع الدول الشقيقة ، كذلك فإن المنطقة كانت تعيش صراعاً قوياً بسبب سياسة الأحلاف التي شرعت فيها بريطانيا آنذاك ، وقد وقف عبد الناصر ضدها بكل قوة وعناد ، فكان السبب الأكبر في فشلها .

متى ظهر مفهوم القومية العربية في الخطاب الناصري ؟

تحتاج منا الإجابة عن هذا السؤال لبحث طويل في خطابات الزعيم الراحل ، خاصة تلك الفترة السابقة لعام ١٩٥٥، كون الزعيم الراحل شرع في استعمال هذا المفهوم بصورة مكثفة في هذا العام والذي تلاه .

وفي كتابها المتميز " التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٧٠) دراسة في علم المفردات والدلالة " ، تقول الدكتورة مارلين نصر :

" إن مفهوم القومية العربية الذي غاب عن الخطاب الناصري في عامي ١٩٥٣و ١٩٥٤ ، لم يظهر للمرة الأولى إلا في عام ١٩٥٥ ، ولكن هذا الاستعمال ظل محدوداً حتى عام ١٩٥٦ ، حين شهد فجأة نهوضاً عارماً " (١٨) .

وهذا الحديث بحاجة إلى شيء من الدقة ..

فقد ورد التعبير "**القومية العربية**" في خطاب له في ١٩٥٤/٥/٢٩ (وهو الذي أوردت معظمه في الفصل السابق) عندما قال :

" وقد شعرت في الوقت نفسه شعوراً قوياً بالأخوة لكم لأني أخ يقف بين أخوته ، أخ في الدين وفي **القومية العربية** ، والمشاعر والأهداف ...

فإننا إذا نظرنا إلى الماضي وجدنا التاريخ يربط العرب بالوحدة ، هذه الوحدة التي أقلقت العالم ، فأراد الاستعمار استعباد العرب ، والقضاء على **قوميتهم** ، فلم يتمكن (١٩) .

وفي الخطاب ذاته ورد تعبير : القوة العربية .

وفي هذه الفترة من خطابات عبد الناصر (١٩٥٢-١٩٥٤) ، تتناثر العبارات والمفردات القريبة من القومية العربية في الخطاب الناصري ، مثل :

الحركات القومية ، المبادىء القومية ، الوحدة العربية ، أماني الشعب العربي ، إخواني في العروبة والإسلام ، شعوب العرب الشقيقة ، راية العروبة ،العالم العربي ، العزة القومية (تكررت في خطاب ١٩٥٤/٥/٢٣ سبع مرات) .

وكل ما سلف جاء في سياقات قومية عربية وحدوية ، كقوله في خطاب له في الرابع من تموز ١٩٥٤ بمناسبة مرور عام على إنشاء إذاعة **صوت العرب** :

" باسم العروبة الخالدة المجيدة ، باسم الأمة العربية الواحدة ، عالم العروبة والإسلام ، العروبة شعاره الأسمى ،لأنه من العرب وبالعرب وللعرب ، آمنوا بعروبته ، أحييكم وأحيي وحدتكم العربية الخالدة ، من أجل العروبة " ، كما يقول فيه :

... ولم يمض على صوتكم الحر " صوت العرب" عام واحد حتى كان العرب جميعاً يلتفون حوله ، فقد صدر من مصر العربية ، **ولذلك كانوا واثقين من عروبته ، فالعروبة شعاره الأسمى ، وهم مؤمنون به ، لأنه من العرب وبالعرب وللعرب "(٢٠) .**

أو في حديث له لصحيفة لوموند الفرنسية في ١٩٥٤/٨/٢ :

" إننا نعتزم بعد أن تمت تسوية مشكلة قناة السويس معاونة جميع الدول العربية والإسلامية على تحقيق أمانيها القومية " ،(٢١) وغير ذلك كثير ..

إذن ... فما أوردناه هنا من مفردات وتعبيرات لا يمكن أن يعتبرها كاتب أو باحث أنها لا تمت بصلة للقومية العربية ، بل هي في صلب الاتجاه القومي ، داعمة له ، مشتقة من الشعور به ، والانتماء إليه .

ويسند ما أسلفت ، أن الدكتورة مارلين تقول في هامش الصفحة ٢١٠ من كتابها المذكور :

" ومع أننا لم نتفحص كل الخطب التي ألقاها عبد الناصر عامي ١٩٥٢- ١٩٥٤، فإننا نستطيع أن نؤكد أن استعمال "القومية العربية" بشكل مكثف قد بدأ في عام ١٩٥٦ " (٢٢) .

وهنا لا نختلف مع الدكتورة الفاضلة ، فاستعمال الزعيم الراحل " القومية العربية " قد أصبح مكثفاً خلال ذلك العام ، وسوف نأتي على ذكر أسباب ذلك وشرحها ، ومنها قيام حلف بغداد ، والعدوان الثلاثي ، وكلاهما كان ضد القومية العربية ، وسوف نتطرق لذلك في حينه ، ولكن عدم تفحص الدكتورة مارلين لخطب ناصر في الفترة الناصرية السابقة لعام ١٩٥٦ ، لا يعني أن عبد الناصر لم يستعمل تعبير " القومية العربية " فيها ، أو أنه لم يستعمل مرادفاتها .

وتضيف الدكتورة :

" لقد كان استعمال عبد الناصر " للقومية العربية" مقصوراً **جغرافياً على فلسطين** ، ولم يكن قد أعلن بعد أن القومية العربية هي قومية مصر ، ولكن هذا لا يعني أن عبد الناصر كان ينادي في حينه بقومية "مصرية" ، **فاستعمال القومية المصرية لم**

يظهر أبداً في الخطاب الناصري ، هذا مع العلم بأنه حتى عام ١٩٥٦ ، كانت صفة " قومي" تقتصر على الإطار المصري " (٢٣) .

وتقصد الدكتورة أن ذكر القومية المصرية لم يرد في خطابات ناصر على الإطلاق ، ولكنه كان إذا ذكر المفردة " قومي" قبل عام ١٩٥٦ ، كان يقصد بها فلسطين أو مصر فقط .

ومن ذلك قوله في خطاب في ١٩٥٥/٣/٣ راثياً بعض الشهداء المصريين الذين سقطوا على ثرى فلسطين ، قاصداً حلفاء إسرائيل :

" عملوا على تثبيت اليهود في هذه البقعة من الأرض ، وعملوا على إزالة القومية العربية من تلك البقعة المباركة " .(٢٤)

وهذا ما تقصده الدكتورة مارلين بقولها : مقصوراً جغرافياً على فلسطين .

وقد وجدتُ هذا صحيحاً في خطابه في ١٩٥٤/٥/٢٣، فقد تكرر فيه التعبير " **العزة القومية** " سبع مرات ، كان يقصد بها كلها مصر لا غير .

وذكر التعبير ذاته للغاية ذاتها في خطابين ألقاهما في يوم واحد هو ١٩٥٤/٥/٣٠، وحدث الأمر ذاته في خطابات ٦/٢٤ و ٧/٣ و٧/٦ و٧/٢٨ و١٩٥٤/٨/٣، وفي خطاب ١٩٥٤/٩/٥ كرر العزة القومية ١١ مرة ، وعدا خطاب ١٩٥٤/١٢/١ وفيه كرر التعبير ذاته ٤ مرات ، لا نجد تعبير " العزة القومية " في خطاباته حتى نهاية العام .

وإذا كان هذا القصد من التعبير القومي قد اتفق مع ما تقوله الدكتورة مارلين في ما ذكرت من الخطب .. فهو يستخدم التعبير **"العزة القومية"** في ١٩٥٤/٧/٢٤ في حديث بمناسبة العيد الثاني للثورة ، داعياً فيه للوحدة ، ويبدأه بقوله : إخواني المصريين والعرب ، وفيه يقول :

" ولست أشك أن قلوبكم كقلوبهم ترفرف في هذا اليوم حول المعاني السامية التي تبعثها ذكرى الخلاص في قلب كل عربي في مصر وغير مصر ، فإن الشعور بالكرامة **والعزة القومية** ليجمعنا اليوم وإياكم ، وإنه ليوحدنا عاطفة وأملاً في المستقبل لبلادنا العزيزة "(٢٥) ، فمعناها هنا عربي خالص .

وفي خطاب آخر له في ٦-١- ١٩٥٥ ، في احتفال السوريين المقيمين في مصر لتكريمه ، نجد المعاني القومية غزيرة تؤكد التوجه القومي بكل صدق ، يقول ناصر :

" إن عزتنا من عزتكم ، وكرامتنا من كرامتكم ، وقوتنا من قوتكم ، هذا مبدأنا وإيماننا وطريقنا الذي نسير فيه بالعمل ..، والعمل وحده ، فلن تكون هناك عزة أو كرامة بلا عمل ، ولن تكون هناك قوة بلا عمل .

فنحن حينما قمنا بهذه الثورة ، لم نكن نبغي عزة مصر وحدها ، ولكنا كنا نبغي عزة العرب وقوتهم وكرامتهم جميعاً ..

لقد ابتلينا في فلسطين ، وفقدنا العزة والكرامة والقوة ، ولهذا قمنا بالثورة ، نحن نشعر أن عزتنا مرتبطة بعزتكم ، ففي هذا السبيل نسير ، والله يوفقنا " (٢٦) .

كذلك ما قاله ناصر في خطاب له في قطاع غزة في ١٩٥٥/٣/٢٩، حيث كان الأجدر به أمام الفلسطينيين(حسب كلام الدكتورة) أن ينادي بقومية مقصورة على فلسطين مثلاً ، يقول ناصر :

" ..لن ننسى مطلقاً المؤامرات التي دبرت للقضاء على القومية العربية في فلسطين ، وإننا لن ننسى فلسطين أبداً ..

إن المؤامرات التي انتهت بهذا النصر للصهيونية العالمية لم تنته بعد ، **ونحن العرب أمة واحدة** يجب أن تتجه إلى المستقبل لنحمي **قوميتنا** التي استطاعوا أن ينفذوا إليها ، وان يُحلوا محلها في أرض عربية حبيبة قوميات غريبة " (٢٧) .

فهل في هذا الحديث قومية فلسطينية أو قومية مصرية ؟ إنها قومية عربية في فلسطين ، كما هي قومية عربية ممكن وجودها في أي دولة عربية أخرى ...

وفي خطاب آخر له في ١٩٥٥/٣/٣١ ، يقول غاضباً على رئيس الوزراء العراقي **نوري السعيد** الذي التقى به في أيلول ١٩٥٤ في القاهرة :

" فلما قلت له أن الباكستان وتركيا لا تستطيعان نجدتك ، قال : ..إن فكرة **القومية** التي تتكلم فيها هذا الكلام الكثير ، إيش الأردن ، وإيش سوريا ، وإيش المغرب .. وهذا الكلام لا أومن به " (٢٨) ، أي أن ناصر قد ألح على نوري السعيد بقدرة القومية العربية على الصمود والتصدي للاستعمار وأعوانه ، فلم يعجب هذا الحديث نوري السعيد ..!

ويضيف ناصر في الخطاب نفسه راثياً العراق وحكومته :

" وسرنا على طريقنا ، نعنى بمبدأ **الدفاع عن العرب بسواعد العرب** ، ما دام العراق قد خرج فليكن تحالف جديد من بقية **الدول العربية** ، ليستمر المبدأ في طريقه ، وتوجد قوة عربية لها كيانها تعمل طبقاً لهذا المبدأ .

..أما إذا أردنا أن نخضع للسيطرة ، ونسير وراء الأوهام والكلام الجميل البراق ، فسنفقد شخصيتنا **وقوميتنا** ، ونسير إلى ما لا نحبه ولا نرضاه..

...ولكن ثورتنا لا ترضى بهذا ، ولهذا فنحن نحارب في المحيط العربي " (٢٩) .

وكما يقول في خطاب له في ١٩٥٥/٧/٦ :

" نحن هنا نكون جيشاً تعداده ٢٢ مليوناً يحمي مصر والدول العربية **والقومية العربية** ... "(٣٠) .

إذن ... فكل ما أوردناه من الأدلة الدامغة الجلية يدل على استعمال الزعيم الراحل تعبير "**القومية العربية** " في وقت مبكر من عمر الثورة ، قاصداً به الأمة العربية جمعاء ، فلا التعبير مقصور على فلسطين ، ولا على مصر .

وكل ما ذكرناه من الأمثلة وردت في خطابات ناصر قبل عام ١٩٥٦ ، هذا العام الذي شهد فيه الخطاب الناصري تأكيداً كبيراً على القومية العربية ، بنطاقها الكبير ، ومعناها الحقيقي ، الذي يبتغيه كل عربي منتمٍ لأمته ، محب لوطنه الكبير .

دستور ١٩٥٦ والقومية العربية

ولما تم وضع الدستور المصري في مطلع عام ١٩٥٦ ، جاء في مقدمته :

" نحن الشعب المصري الذي يشعر بوجوده متفاعلاً في الكيان العربي الكبير، يقدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربي المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها "

وكانت مادته الأولى :

" مصر دولة عربية ذات سيادة ، وهي جمهورية ديمقراطية ، والشعب المصري جزء من الأمة العربية " (٣١) .

فما سبق من تعبيرات عن القومية كان القصد منه :

١ ـ القومية سبيل للوحدة أمام خطر العدو الصهيوني والاستعمار.

٢ـ هي سبيل للحفاظ على الهوية العربية أما التحديات المعادية ، وسياسات التغريب .

٣ـ هي سبيل الوحدة لمواجهة المستقبل .

القومية في الخطاب الناصري قبيل عدوان ١٩٥٦

يعود هذا التطور في المفهوم الناصري للقومية العربية لعدة أسباب ، منها :

١ ـ **النجاح الكبير لثورة يوليو،** وتجاوب الشعوب العربية معها منحا قادة الثورة الثقة بالنفس - بعد أن توطد مركزهم في مصر- لمواصلة جهودهم لتحقيق الوحدة العربية .

ويجلو عبد الناصر هذا السبب بقوله في خطاب له في دمشق في ١٩٥٨/٢/٢٦ :

" كافحنا في الماضي السيطرة ، وكافحنا الاستعمار وأعوان الاستعمار ، هؤلاء الناس الذين كانوا يتحالفون مع الاستعمار من أجل المصالح الخاصة ، **واليوم ونحن نشعر بأن الموقف في أيدينا** ، وأننا أصحاب الموقف موضع التنفيذ ، نشعر أن هذا الوقت ، وهذا العهد حدث كبير وحدث خطير ، فنحن في عصر الوحدة.. الوحدة العربية التي

حلمنا بها ، وحلم الآباء بها مئات السنين ، وكافحوا من أجل الوصول إلى تحقيقها " (٣٢) .

٢- **تنامي خطر العدو الصهيوني** ، وحرص دول الغرب على بقاء إسرائيل وتفوقها على الدول العربية في التسليح ، مما يتطلب تجميع القوى العربية لمواجهة هذا العدو الصهيوني التوسعي .

يقول ناصر في ١٩٥٦/٥/٣٠ منبهاً للخطر القادم :

" إن مؤامرة الاستعمار على العرب أعطت فلسطين للصهيونيين ليمحو جزءاً من القومية العربية ، وكلما التهموا جزءاً من الكيان العربي التهموا جزءاً آخر ، ونحن في صميم هذا الكيان ، فالشعوب العربية كلها واحدة لا يمكن عزل أرض منها عن الأخرى ، ولا يمكن حماية مكان إلا بحماية جميع الأماكن "(٣٣) .

وكان قد أكد الغاية التي وجدت من أجلها إسرائيل ، وهي تفتيت شعوب المنطقة ، حين قال في ١٩٥٦/٥/١٣:

" إن الخطة الكبيرة هي القضاء على القومية العربية في المنطقة ، ولم يعد ذلك سراً .

إن المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في الشهر الماضي في إسرائيل طالب بتحرير باقي فلسطين من العرب ، وطالب بتحرير الوطن الإسرائيلي الذي يحلمون به من النيل إلى الفرات من العرب " (٣٤) .

ويقول في اليوم التالي ١٩٥٦/٥/١٤ :

" وبالنسبة لإسرائيل ، كلنا يعرف ما هي الأسباب التي من أجلها خلقت إسرائيل ، لا من أجل وطن قومي لليهود فحسب ، ولكنها خلقت لتكون عاملاً من عوامل القضاء على **القومية العربية** الموجودة في هذه المنطقة المتوسطة من العالم ، خلقت إسرائيل لإضعافنا ، ولإثارة المتاعب في طريقنا ...

..كانت هناك صفقة مدافع متوسطة لإسرائيل ، كانت هناك صفقة كبيرة ، وكانت هناك كذلك صفقة طائرات لإسرائيل أيضاً ، ولم يقل أحد شيئاً ، لأنهم كانوا يحسون بأن إسرائيل تحقق أهدافهم في هذه المنطقة بإزالة **القومية العربية** " (٣٥) .

فعندما أرادت مصر الحصول على السلاح من تشيكوسلوفاكية - أو من الاتحاد السوفييتي - قامت قيامة الغرب ، وقام الكل يدافع عن السلام في الشرق الأوسط ، وإن تسليح مصر يهدد السلام العالمي ، أما تسليح إسرائيل فلا يهدد أحداً ، فالتفوق الإسرائيلي يجب أن يُضمن ويصان ، يقول ناصر في الخطاب ذاته :

" عندما حصلنا على السلاح ، ثاروا ، وقلبوا الدنيا رأساً على عقب ، وقالوا إن مصر حصلت على السلاح ، وبدأ ممثلو إسرائيل في مجلس العموم البريطاني ، أقول

الإنجليز الذين يمثلون مصالح إسرائيل في مجلس العموم البريطاني ، بدأوا يتكلمون عن السلاح الذي حصلت عليه مصر ، ولا يكاد يمر أسبوع دون أن يتحدثوا فيه عن السلاح الذي حصلت عليه مصر ، ويطالبون بالإسراع في تسليح إسرائيل (٣٦) .

٣- **الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة** على قرى ومدن حدود الدول العربية المتاخمة لإسرائيل ، مثل :

١- مذبحة قلقيلية في ١٠ تشرين أول ١٩٥٣ ، واستشهد فيها سبعون مدنياً .

٢- مذبحة قبية في ١٥ تشرين اول ١٩٥٣ ، واستشهد فيها ٦٩ مدنياً .

٣- مذبحة غزة في ٢ شباط ١٩٥٥ ، واستشهد فيها ٥٦ مدنياً ، وجرح ١٠٣.

٤- الاعتداء على خان يونس في ٣٠ أيار ١٩٥٥ ، واستشهد فيه ٢٠ مدنياً ، وجرح عشرون .

٥- مذبحة كفر قاسم في ٢٩ كانون ثان ١٩٥٦ ، واستشهد فيها ٦٧ مدنياً ، وجرح ١٤٣(٣٧) .

ومثل هذه الإعتداءات تصور استهانة العدو الصهيوني بالأمة المتفرقة ، مما يستدعي تضافر القوى وتوحيد الجهود العربية .

٤- **قيام الأحلاف في المنطقة** ، والتي كانت غايتها عودة الاستعمار إلى المنطقة من جديد ، والاستحواذ على مقاليد بعض الدول وإراداتها ، وقد نادت مصر بسياسة الحياد الايجابي ، ومقاومة الأحلاف ، التي كشفت مبكراً نواياها وأهدافها مما أدى إلى فشلها .

ويؤكد ناصر هذا الموقف في ١٩٥٦/٥/٣٠ بقوله :

" ولقد عارضنا حلف بغداد وحاربناه ، لأن المستعمرين أرادوا أن يجعلوه قاعدة يثبون منها على الأردن ولبنان وسوريا ومصر والسودان " (٣٨) .

ويقول ناصر في ١٩٥٦/٥/٣٠:

" قوتنا في قوميتنا ، إذ يجب أن تتماسك هذه القومية وتترابط في الدفاع عن مصالحها ضد المؤامرات الاستعمارية التي تتربص بنا ، وتريد أن تضع يدها على الضعيف فينا لتلتهمه أولاً ، ثم تلتهم الآخرين "(٣٩) .

وفي خطاب له في ١٩٥٦/٦/١ :

" هوجم حلف بغداد البريطاني ، لأنه حلف بريطاني ، ولأننا نعتبر أن خطة مصر أن تسير مع خطة العروبة ..

كنا نعتبر أن حلف بغداد ليس إلا قاعدة للهجوم علينا ، الهجوم على سوريا ولبنان ، والهجوم على الأردن والمملكة العربية ومصر والسودان وليبيا ... قاومنا ذلك بكل ما يمكن من وسائل ، وكنا مدافعين عن حريتنا ، وعن استقلالنا وعن قوميتنا ، وقلنا أن دفاعنا يجب أن ينبثق من أنفسنا " (٤٠) .

٥- **استمرار الكفاح العربي ضد الاستعمار** في بعض الدول العربية كالجزائر واليمن وفلسطين لنيل الاستقلال ، وعن موقف مصر العربي تجاه هذه الدول يقول ناصر في ١٩٥٨/٢/٢٦ :

" أما النقطة الثالثة فهي **القومية العربية** ، إننا بمسؤوليتنا تجاه القومية العربية ..تجاه كل وطن عربي .. تجاه كل وطن يقاسي من سيطرة الاستعمار .. تجاه الجزائر التي تحارب من أجل الاستقلال .. تجاه فلسطين التي اغتصبت حقوقها الدول الكبرى " (٤١) .

ويؤكد حرص مصر على الوقوف مع الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، فيقول في ١٩٥٦/٦/١:

" ليس معقولاً أبداً أن لنا أطماع في الجزائر ، فكل ما نطمع فيه أن تتحرر وأن تستقل ، وان تعود إلى أبنائها .

هذه **القومية العربية** هي الخطر الداهم بالنسبة للاستعمار .. سيحاول الاستعمار بكل وسيلة من الوسائل أن يبذر بذور الشر والفتنة بين الأمة العربية .. وسوف يقول أن مصر تريد نفوذاً في جهة ما ، هذا هو كلام الاستعمار ، وهذه هي طريقته .. طريقته فرّق تسد التي استعملها بين الأفراد والأحزاب ، ويستعملها اليوم بين الدول .

.. نحن مع **القومية العربية** مجتمعة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي ..

هذه سياستنا الخارجية ، وأهدافنا الخارجية ، وهذه هي العوامل التي بنينا عليها الاستراتيجية المصرية ، إنها مبنية على **القومية العربية** ، والحرية العربية ، والأمن العربي "(٤٢) .

إذن ، فما نخلص إليه أن **ثورة يوليو قد تبنت الوحدة العربية ، والفكر القومي منذ شهورها الأولى** ، وأكدت ذلك لما أدرك قادتها الأخطار التي تحيق بالأمة ، وتهدد كيانها ومستقبلها ، مستغلة فرقتها وتشرذمها .

يقول الأستاذ عبد الرحمن البزاز عن قومية ثورة يوليو :

" كانت هذه الثورة - على الرغم من عدم إفصاحها عن هذه الحقيقة في مرحلتها الأولى - ثورة شاملة لا يمكن أن يقتصر مداها على محيط مصر الضيق ، بل كان وفاقاً

لطبيعة الأشياء ، أن تستحيل إلى ثورة سياسية ، وثورة اجتماعية ، وثورة عربية في آن واحد ، وهكذا تركزت قواعد عروبة مصر بهذه الثورة التي كان يتمناها الغرب ثورة إقليمية ضيقة ، تقف عند حدود مصر وحدها " (٤٣) .

العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ والخطاب القومي الناصري

وبناء على ما سبق من أدلة وشهادات على التوجه القومي الواضح في السياسة الناصرية ، فلن يكون مستغرباً أن يتأكد هذا التوجه ويشتد إثر التهديد بالعدوان عام ١٩٥٦ ، وخلاله وبعده ، وهو ما دعي لاحقاً بالعدوان الثلاثي ، أو حرب السويس .

هذا العدوان أشعر ناصر وسواه من الوطنيين العرب أن الوحدة باتت مطلوبة لصد أي عدوان محتمل ضد الأمة العربية ، وأن القوى الاستعمارية ما زالت تشكل خطراً على الأمة .

وفي **خطاب تأميم القناة الشهير** في ١٩٥٦/٧/٢٦ ، ينذر الزعيم الراحل بالأخطار القادمة التي تهدد الأمة ، وبالمعارك التي ستخوضها ، يتنبأ بذلك كله وكأنه يقرأه في كتاب ، وقد تحقق ذلك في حياته ، وبعد وفاته ، وهذا دليل واضح جلي على الوعي السياسي العميق لدى ناصر ،مما اهله لقراءة المستقبل ، إذ يقول :

" **أمامنا معارك طويلة لنعيش أحراراً كرماء أعزاء** ، واليوم وجدنا الفرصة ، ووضعنا أساس العزة والوحدة والكرامة ، من أجل حرية الإنسان ، ومن أجل رفاهية الإنسان ، ولا بد أن نجد الفرصة لنشر هذه المبادىء ، نقاوم الاستعمار ، وأعوان الاستعمار ، أمامنا أيام طويلة مستمرة من أجل كرامة هذا الوطن ، هذه المعارك لم تنته ، ولن تنتهي ، ويجب أن نكون على حذر وحيطة من ألاعيب المستعمرين وأعوان المستعمرين .

.. هذه أيها المواطنون هي المعركة التي نسير فيها ، هذه أيها المواطنون هي المعركة التي نخوضها الآن ، معركة ضد الاستعمار ، وضد أساليب الاستعمار ، وضد وسائل الاستعمار ، معركة ضد إسرائيل صنيعة الاستعمار التي خلقها الاستعمار ليقضي على **قوميتنا** كما قضى على فلسطين " (٤٤) .

فالنوايا التي تحدثنا عنها باتت واضحة جلية ، إثر دخولها حيز التنفيذ ، والعدو الذي كان يعد ويتوعد ، يهاجمنا الآن بكل حقد وجبروت ، مستعملاً كل أدوات القتل والدمار ، فلا تردعه بيانات الاستنكار ، ولا ترده القوانين والمواثيق الدولية .

وهو ليس بالقادم لاسترجاع نفوذه على القناة ، واسترداد دخله الكبير منها الذي طالما حصل عليه خلال عشرات السنين السابقة فحسب ، بل هو قادم للبقاء ، واسترداد دول وممالك استعمرها ردحاً من الزمن ، تعينه إسرائيل وليدة الصهيونية العالمية ، التي وجدت في هذا العدوان الفرصة الأغلى للنيل من مصر الثورة ، فما الذي سيرده والبلاد خارجة لتوها من قبضته التي لم تترك سوى الفقر والجهل والتخلف ؟

فاغتصاب فلسطين ومنحها لإسرائيل - قاعدته التي أسسها لتظل خنجراً مغروزاً في الخاصرة العربية - لم يكن كافياً لشفاء قلوب المستعمرين ، لذا فالهدف الآن القومية العربية بالتفتيت والتشتيت ، وزرع أسباب التشاحن والتنابذ والتباغض .

وقد كان أثر العدوان الثلاثي مقلوباً على أصحابه ، فما الذي حصل لتلك القومية بعد العدوان ؟

يجيب ناصر في الخطاب ذاته :

" والأعداء يهدفون إلى القضاء على **القومية العربية** ، الشعوب العربية في كل مكان تعاونت معنا ضد الاستعمار ، وضد مصالح الاستعمار ، من العراق إلى مراكش ، دخلنا المعركة وكانت **القومية** كلاماً .. وخرجنا وقد أصبحت عملاً حقيقياً .

الشعوب العربية عرضت نفسها للخسارة ، ولكنها كانت ضربة قاضية للأعداء ، **القومية العربية** هي الهدف ، هي الغرض .

إن **القومية العربية** لم تكن كلاماً يقال ، بل أصبحت عملاً فعالاً ، بريطانيا اليوم لا يصلها بترول ، والعرب تعاونوا معكم في كل الميادين ، نسفوا أنابيب النفط ، وعرضوا أنفسهم للخسارة ، إنها خسارة لهم لكنها ضربة قاضية للأعداء وكسب **للقومية العربية** ، عمل متماسك ، إذن إن الهدف الذي كانت تهدف إليه بريطانيا قد فشل ، **فالقومية العربية** اليوم أقوى مما كانت عليه في أي يوم " (٤٥) .

ويقول في نشوة بالغة في ١٩٥٦/٨/١٢ ، مشيداً بالمواقف العربية حيال تأميم القناة :

" ... ثم بدأت الأصوات العربية في العالم العربي تقول إنها ليست قناة السويس ولكنها قناة العرب ، وبدأت القومية العربية تظهر في أحسن صورها ، وأجلى معانيها .

وبدأت التأييدات من الملوك والرؤساء والشعوب العربية ..بدأت القومية العربية تظهر كيانها وحقيقتها

قرأت مقالاً في الصحف الأجنبية عن القومية العربية ، وكان المقال يقول : إن القومية العربية أصبحت خطرة بعد عام ١٩٥٢ ، وبعد كتاب فلسفة الثورة .

ثم فكرت أننا كعرب ، يجب أن نكون قومية واحدة ، يجب أن نكافح في سبيل القضية الواحدة .

وسئلت مساء اليوم في المؤتمر .. هل هناك خطة موضوعة ، ومنظمة مدبرة حتى يحدث ما حدث في البلاد العربية ؟

فقلت : أنتم لا تفهمون .. من هو هذا الرجل الذكي الذي يستطيع أن يقوم بكل هذا التنظيم ؟

إنها القومية العربية أصبحت حقيقة واقعة ..

إن الشعوب العربية تعتبرها طريق وجودها وعزتها وكرامتها .

لقد ظهرت القومية العربية بعد تهديد مصر "(٤٦) .

فناصر هنا يعبر عن المشاعر الوطنية الفياضة التي غمرت الوطن العربي إبان الاستعداد الاستعماري لغزو مصر ، وكيف أن هذا التهديد قد جمع العرب حتى ظن المراقبون أنها خطة منظمة مدبرة ، ليسخر منهم عبد لناصر !

العدوان الثلاثي ١٩٥٦وتجسيد القومية العربية

ولما وقع العدوان على مصر في تشرين أول ١٩٥٦ ، وهو ما عرف بالعدوان الثلاثي ، أو حرب السويس ، كان للشعوب والحكومات العربية مواقفها المشرفة المعززة للقومية العربية .

فبعد ضرب محطات الإرسال المصرية في أبو زعبل ، أعلنت إذاعتا عمان ودمشق : هنا القاهرة .

وأعلنت سوريا عزمها على المشاركة بجيشها في الحرب .

ودبر الضابط السوري عبد الحميد السراج نسف أنابيب النفط الممتدة من العراق إلى موانيء سوريا ولبنان لنقله إلى أوروبا .

وأتلف الشعب العراقي بعض الأنابيب على أراضيه ، وحصل الأمر ذاته لهذه الأنابيب في السعودية والأردن ..

واجتاحت المظاهرات ليبيا وقطر والبحرين والكويت (٤٧) .

ولا غرابة أن يكون عبد الناصر في قلب الأمة طوال السنين التي تبعت ذلك الزمن العربي الجميل .

القومية عمل فعال ..

وفي خطابه في ١٩٥٦/١١/٩ ، بعد فشل العدوان الثلاثي يشيد عبد الناصر بالقومية العربية ومناصريها ، فبعد أن استعرض المواقف المشرفة لبعض الزعماء العرب ، يقول:

" هذا موقف الدول التي تحالفنا معها .. موقف مشرف يدعو إلى الاعتزاز ، وإلى الثقة .

هذه دولنا الحليفة ، لماذا أقول هذا ؟

لأن راديو الأعداء يقول : أين القومية العربية ؟

والأعداء يهدفون إلى القضاء على القومية العربية ، الشعوب العربية في كل مكان تعاونت معنا ضد الاستعمار ، وضد مصالح الاستعمار ، من العراق إلى مراكش ، دخلنا المعركة وكانت القومية العربية كلاماً .. وخرجنا وقد أصبحت عملاً حقيقياً .

الشعوب العربية عرضت نفسها للخسارة ، ولكنها كانت ضربة قاضية للأعداء ، القومية العربية هي الهدف ، هي الغرض .

هدف الاستعمار أنهم يريدون أن يقضوا على هذا التكتل ، وأنا قلت لكم منذ أشهر أن القومية العربية قد انبثقت .

إن القومية العربية لم تكن كلاماً يقال ، بل أصبحت عملاً فعالاً ، بريطانيا اليوم لا يصلها بترول ، والعرب تعاونوا معكم في كل الميادين ، نسفوا أنابيب البترول ، وعرضوا أنفسهم للخسارة ، إنها خسارة لهم ، لكنها ضربة قاضية للأعداء وكسب للقومية العربية ، عمل متماسك ، إذن إن الهدف الذي كانت تهدف إليه بريطانيا قد فشل ، فالقومية العربية أقوى اليوم مما كانت عليه في أي يوم ، العرب اليوم من رؤساء وشعوب وحكومات رجل واحد مع مصر في هذه المحنة ، بل في هذه المعركة ، وهي معركة يضرب بها المثل في سبيل الحرية والكرامة " (٤٨) .

ما يقصده الزعيم الراحل أمام هذه الهجمة المعلنة المخطط لها من قبل ، فالقومية العربية لم تكن كلاماً يقال ، أو خطابات تكتب وتلقى ، بل إن العدوان الثلاثي أثبت وجودها وتجسدها ، فالكل تعاون في ساحته وميدانه ، لذا ، فبما أن القومية العربية كانت هي الهدف ، فما جناه الاستعمار كان العكس ، فالقومية لم تهزم فحسب ، بل وقف الكل وقفة رجل واحد ضد العدوان .

والقومية تحمي من الاستعمار

ويؤكد دور القومية العربية في حماية الأمة من الاستعمار ، فيقول في ١٩٥٧/٢/١١ ، فيقول :

" هذه هي القومية التي استطاعت أن تحمينا حينما تآمر علينا الاستعمار .

إن الاستعمار حين جند جنوده ليواجه مصر ، كان يعتقد أنه سيواجه شعباً منعزلاً ، ولكنه فوجيء بالقومية العربية تتحفز وتنطلق ، وتهدد وتعمل لتقضي عليه ، وتقضي على مصالحه .

هذه هي القومية التي نؤمن بها ، مصالح متبادلة ، حماية وأمن ضد الاستعمار ، وضد المستعمرين ، وضد الأطماع وضد الطامعين " (٤٩) .

وتجسيد آخر ...

ولما حشدت تركيا جيوشها لغزو سوريا عام ١٩٥٧ ، سارعت مصر عبد الناصر لإرسال قوات مسلحة إلى سوريا بقيادة عبد الحكيم عامر ، وهذا يحدث لأول مرة منذ عهد محمد علي الكبير عندما أرسل جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم ، هذا إلى جانب دعمها للجزائر منذ بداية ثورة يوليو إلى أن نالت الجزائر استقلالها .

كما أرسلت مصر فرقاً من الجيش المصري إلى اليمن في حربها ضد الانفصاليين الذين وقفت معهم بريطانيا وإسرائيل إلى أن نال اليمن استقلاله ، وأصبح بحر العرب بحراً عربياً ، وتمت السيطرة على باب المندب الذي يصل بين البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي ، بحيث تم إغلاقه أمام البحرية الإسرائيلية في حرب أكتوبر ١٩٧٣ فتعطل تلقائياً بذلك ميناء إيلات الإسرائيلي .

إذن - كما يرى ناصر - هذه القومية أصبحت غداة العدوان تطبيقاً عملياً لما يحمله أهلها من انتماء وولاء لقوميتهم ، فكان أول مبادراتهم قطع النفط عن بريطانيا .

ويقول في ١٩٥٧/٧/٢٢ في مجلس الأمة في بعد مرور عام على تأميم قناة السويس مؤكداً على تاريخية هذه القومية العربية ، ومدى ضرورتها :

" ولا بد أن ندرك .. أن **القومية العربية** هي أمضى أسلحتنا في الدفاع عن وطننا ، سواء في ذلك حدودنا المصرية المحلية ، أو حدودنا الشاملة .

إن **القومية العربية** نداء عاطفي ، ورابطة تاريخية ، ومصلحة مشتركة ، .. ثم هي بعد ذلك كله ضرورة استراتيجية تفرضها مقتضيات الدفاع العسكري البحت " (٥٠) .

لهذا كله كان أول أهداف عبد الناصر وغاياته القومية العربية والوحدة العربية ، وإيقاظ الأمة وتحذيرها مما يحيق بها من أخطار وأعداء ، فقال في خطابه في الإسكندرية في٢٦ تموز ١٩٥٧ :

" ..لهذا فنحن ننادي عندما نجد انحرافاً فنحذر قائلين : فيه انحراف عن القومية العربية ، ونعلن رأينا بصراحة وشجاعة ، لأننا بهذا نوقظ الوعي في الشعوب العربية ، نوقظ الوعي فيكم ، ونقول أين الخطأ وأين الصواب ، لئلا تتكرر مأساة سنة ١٩٤٨ ، وتلافياً لتخلي بعض الجيوش عنا عندما كنا نحارب ثم تقع الجيوش في مأساة .. وحتى لا تلاقي الجيوش الأخرى نفسها وجهاً لوجه وحدها أمام جيوش إسرائيل .

ولهذا حينما ننادي بالقومية العربية ، وحينما ننادي بالتضامن العربي ، إنما نهدف إلى قومية عربية حقيقية ، القومية الحرة المستقلة التي تنبعث في المنطقة ، التي تنبعث من ضمير أبنائها ، والتي تنبعث من أهداف أبنائها .

ولكننا أيها الإخوة المواطنون لن نقبل أبداً بأي حال من الأحوال ، أن يشترك عربي ليخدم خطط الاستعمار ، أو ليحقق أهداف الاستعمار .

ولهذا ، فإننا سنستمر مدة طويلة بدون تحقيق التضامن العربي ، إننا لن نتضامن مع الخونة ، ولن نتضمن مع المنحرفين ، ولن نتضامن مع الذين فرطوا في بلدهم ، ولن نتضامن مع الذين باعوا بلدهم للاستعمار ، ولكنا أيها الأخوة المواطنون نعتقد أننا بهذا إنما نعبر عن القومية العربية كلها في كل مكان ، وفي كل بلد عربي "(٥١) ، ويعطي الثقة بالقومية العربية التي باستطاعتها أن تكتفي بقواها الذاتية ، فتستغني عن أي انحياز للقوى الكبرى ، فيقول في الخطاب نفسه :

".. وعدم انحياز في سياستنا ، لن نكون ذيلاً لكتلة من الكتل لا شرقية ولا غربية ، القومية العربية هي سلاح لكل دولة عربية ، والقومية هي سلاح يستخدم ضد العدوان ، وأن المعتدي لا بد أن يعرف أنه إذا اعتدى على أية دولة عربية ، وأي بلد عربي ، ستهدد مصالحه ، **سياستنا تنبع من بلدنا ، سياستنا تنبع من مصلحتنا ، سياستنا تنبع من** ضميرنا ، سياستنا تهدف لمصلحة هذا الشعب ..إلى رفع مستوى معيشة هذا الشعب ، وإلى إقامة مجتمع ترفرف عليه الرفاهية " (٥٢) .

وفي خطاب له في ١٩٥٧/١٢/٥يحذر من موقف الاستعمار المعادي للقومية العربية ، فيقول :

" بدأت معركة مريرة في جميع الوطن العربي بين التحرر والسيطرة .. بين القومية العربية وأعداء القومية العربية .. بين الشعارات الخالصة الحقيقية وبين الشعارات الزائفة التي تنادي بالتضامن من أجل خدمة الاستعمار ومصالح الاستعمار ...

كانت المعركة طويلة مريرة بين القومية العربية وبين أعداء القومية العربية ، استخدم الاستعمار في هذه المعركة كل الأسلحة التي يمكن أن يستخدمها ، وفي نفس الوقت كان يقول أنه يحارب الشيوعية ، ولكنه لم يستطع إلا أن يعترف ...

وأعلنوا في صحفهم وجرائدهم أنهم يرون أن القومية العربية أخطر من الشيوعية ، والمارد العربي يطلع من القمقم .. وتضامن المصالح الاقتصادية ، واستغلال الثروات العربية، وسيطرة مناطق النفوذ ..أين يذهب هذا كله ؟ "(٥٣) .

وكم هو طبيعي أن تنشأ هذه المعركة الضروس بين القومية العربية والاستعمار الذي يستخدم كل إمكانياته وأسلحته في خوضها ...إنها معركة التحرر والرفض ضد العدوان والاستعمار ، هذا الاستعمار الذي لا يرغب إلا في خنوع ضحاياه واستسلامهم لواقع هو يفرضه عليهم ، فكأنه قدر مفروغ منه !

فبعد أن أعلن هذا الاستعمار أنه يحارب النفوذ الشيوعي في المنطقة ، اضطر للاعتراف أن القومية العربية أخطر من الشيوعية ، لذا هو يحاربها هي لا غير ..

فلماذا يراها أخطر من الشيوعية ؟

إن المنطقة العربية منطقة نفوذ سابق له ، لذا هو يريدها أن تظل كذلك ، فقد رحل عنها بقواه العسكرية ، وهو يريدها الآن منطقة نفوذ اقتصادي وسياسي في حماه ، ودول تابعة لسياساته باتخاذ العملاء والتابعين ، فيحكمها بطريق غير مباشر .

ثم .. وهذا هو الأهم ، فهذه القومية تقف أمام إسرائيل ، الدولة التي أنشأها كمسمار جحا في المنطقة ، ولم يكن في حسبانه أن تقف الدول العربية كابحة لجماحها ، قوة ماثلة أمام غاياتها التوسعية ، فكيف به إن اتحدت هذه الدول العربية تحت شعار " القومية " ، لذا يستعمل الاستعمار أساليب الحرب غير المعلنة كاحتكار السلاح ، والتشكيك والتخويف ، والترغيب باتخاذ العملاء من الساسة والإعلاميين والرجعيين وسواهم ، وقد يلجأ إلى الحرب المعلنة كما حدث في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ .

وقد ترتكب هذه القومية جريرة أخرى ... وذلك بعقدها أواصر الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية ، فتمدها هذه الدول بالسلاح والخبرات العسكرية والعلمية ، إذن امتلكت دول الاستعمار كل أسباب الحقد والكراهية والعداء لهذه القومية العربية ، التي أرسى الزعيم الراحل قواعدها ، وبث مبادئها ، وطالما تغنى بها في خطاباته وتصريحاته .

وقد أوضح ناصر الفقرة السابقة في خطاب ٢٢ تموز ١٩٥٧قائلاً :

" وكان خلافنا الأساسي ينبع من مصدرين

الأول أننا كنا نريد دفاعاً يحمي الشرق الأوسط من أي عدوان مهما كان مصدره .

والثاني أننا كنا نريد دفاعاً ينبثق من داخل المنطقة نفسها ، ويرتكز على شعوبها .
وكانوا يريدون دفاعاً مشتركاً ، يدخلون فيه ويسيطرون عليه " (٥٤) .

على دروب القومية الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨

لذا لا غرابة أن تعلن الوحدة بين مصر وسوريا في الأول من شباط ١٩٥٨ بعد إلحاح من الضباط السوريين، وقد دعي الاتحاد "الجمهورية العربية المتحدة" ، وقد عبر ناصر عن تفاؤله بهذه الوحدة قائلاً في إحدى خطبه في دمشق :

" إذا كان العالم قد عاش من قبل في عصر النهضة ، ثم عاش بعد ذلك في عصر الفضاء ، فإننا نعيش اليوم في عصر الوحدة العربية " (٥٥) .

كما قال في اليوم الأول للوحدة معبراً عن سعادته بها ، واعتداده وتفاؤله الكبير بمستقبلها :

" لقد كنا نتكلم عن القومية العربي ، وكانت القومية العربية شعارات وهتافات ، وكانت القومية العربية نداءات عاطفية ، ونداءات معنوية ...

واليوم أيها الإخوة المواطنون ، بعد أن كانت القومية العربية هتافاً وشعارات ، أصبحت حقيقة واقعة .

اليوم اتحد الشعب العربي في سوريا مع الشعب العربي في مصر ، وكونت الجمهورية العربية المتحدة ، هذه الجمهورية المتحدة ستكون سنداً للعرب جميعاً ، ستكون قوة للعرب جميعاً ، ستعادي من يعاديها ، وتسالم من يسالمها ، وتتبع سياسة تنبع من نفسها ، سياسة تنبع من ضميرها ...

اليوم نشعر أن القومية العربية تتحقق حقاً ، اليوم ننظر إلى المستقبل ، نشعر أنه سيكون بعون الله مليئاً بالعزة والكرامة .." (٥٦) .

موقف عبد الناصر من الانفصال

ورغم حدوث الانفصال عن مصر بانقلاب عسكري في سوريا في ١٩٦١/٩/٢٨ ، ظل عبد الناصر متماسكاً رابط الجأش ، فلم يهاجم أحداً ، بل وأبقى على اسم الجمهورية العربية المتحدة ، وقال في ١٩٦١/١٠/٥:

" أعان الله سوريا الحبيبة على أمورها ، وسدد خطاها ، وبارك شعبها ، وستبقى الجمهورية العربية المتحدة رافعة أعلامها ، مرددة نشيدها ، مندفعة بكل قواها إلى بناء نفسها لتكون سنداً لكل كفاح عربي ، ولكل حق عربي ، ولكل أمل عربي "(٥٧) .

ويقصد بذلك أن مصر عبد الناصر لن تغير مواقفها تجاه شقيقاتها العربيات ، فإذا فشلت الوحدة ، فالقومية موجودة لا تفشل ولا تزول .

وقد حيد ناصر التدخل العسكري لضرب حركة الانفصال لأنه كان يدرك أن مثل هذا التدخل سيسفر عنه سقوط الكثير من القتلى من المصريين والسوريين ، ولاقتناعه بأن معاونيه كان لهم دور في الانفصال (٥٨) .

ويضيف محمد حسنين هيكل :

" إن صدمة الانفصال كانت بالنسبة لعبد الناصر صدمة في الأمل ، أمل تحقيق الوحدة العربية ، وكانت أيضاً صدمة في مشاعره تجاه الشعب السوري ، لأن عبد الناصر كان يشعر بالكثير من العاطفة والولاء نحو هذا الشعب .

ولعل أكثر ما أرهق عبد الناصر هو شعوره أن الانفصال مفروض على الشعب السوري ، مفروض عليه بالمؤامرات ، ومن قبل أقلية "(٥٩) .

اتفاق الوحدة بين مصر وسوريا والعراق ١٩٦٣

وبعد الانفصال عن سوريا بعامين ، كانت التجربة الوحدوية الثانية لناصر ، فبعد مباحثات استمرت أحد عشر يوماً ، وعلى أسس الديمقراطية والاشتراكية ، وقعت اتفاقية الوحدة بين الدول الثلاث في ١٧ نيسان ١٩٦٣ ، ولكن الانقلابات التي وقعت في سوريا والعراق حالت دون نجاح التجربة(٦٠) .

اتفاق ثنائي بين مصر والعراق

بعد الانقلاب الذي أطاح بعبد الكريم قاسم في العراق ، اجتمع عبد الناصر بالمشير عبد السلام عارف في ٢٧ أيار ١٩٦٤، ووضعا السطور الأولى لقيام قيادة سياسية موحدة للبلدين ، ولكن الظروف السياسية السائدة في العراق حالت دون التطبيق الفعلي لهذه الوحدة (٦١) .

ووحدة ثالثة بين مصر والسودان وليبيا ١٩٦٩

في ٢٥ كاون اول ١٩٦٩ اجتمع الزعماء الثلاثة ناصر وجعفر النميري ومعمر القذافي ، وانضمت سوريا إلى الدول الثلاث بعد وفاة ناصر مباشرة ، إلا أن الواقع أثبت أن هذه المشروع - كسواه- لم يسلك درب الواقع العملي (٦٢) .

القومية العربية في الميثاق

وفي **"الميثاق"** الذي قدمه عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في أيار ١٩٦٢ ، وقرأه على المجتمعين في ست ساعات ، يقول في بابه التاسع مؤكداً على إصراره على الوحدة العربية التي توفر لها عوامل عديدة للوحدة الراسخة القوية :

" إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة في صنع التقدم ، وفي دعمه وحمايته تمتد لتشمل الأمة العربية كلها .

إن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة ، وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته .

يكفي أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل .

ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التي تصنع وحدة الضمير والوجدان .

ويكفي أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير .

إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها - مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية - ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية .

إن مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذي كان يفرض التقاء حكام الأمة العربية ، ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات .

إن وحدة الأمة العربية قد وصلت في صلابتها إلى حد أنها أصبحت تتحمل مرحلة الثورة الاجتماعية "(٦٣) .

يؤكد الزعيم الراحل في كلمات قليلة ، مسئولية الدولة الأم "الجمهورية العربية المتحدة" ، فيقول بصراحته المعهودة ، وبكل ثقة ومحبة وإخلاص ، أن دورها ممتد ليشمل الأمة العربية كلها .

ويؤكد أيضاً أن الوحدة بين الدول العربية حاصلة لا شك فيها ، فلا حاجة بها للبحث عن عوامل توحدها .

فهي تملك ما لا يملكه الآخرون من عوامل واضحة أكيدة ...

إن لديها وحدة اللغة والتاريخ والأمل ، لذا يفشل من يحاول طعن كل هذه العوامل لمجرد حصول خلاف ما بين الحكومات يعزوه ناصر للصراع الاجتماعي .

فالتقاء الحكام - في نظره- لا تفرضه طبيعة الوحدة وشروطها ، لأن هذا مفهوم سطحي للوحدة ، كون وحدة الهدف الراسخة عند القواعد الشعبية في الأمة العربية تتفوق على لقاء الحكام ، بل وتسد الفجوات الناشئة من اختلاف مراحل التطور .

الاستعمار والوحدة العربية

ويواصل عبد الناصر :

" ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكري ، ولا أساليب الانتهازية الفردية ، ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شيء إلا على دلالتها بأن النظام القديم في العالم العربي يعاني جنون اليأس ، وأنه يفقد أعصابه تدريجياً وهو يسمع من بعيد في قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها .

إن وحدة الهدف لا بد أن تكون شعار الوحدة العربية في تقدمها من مرحلة الثورة السياسية إلى الثورة الاجتماعية " (٦٤) .

وهذا حدث ثوري لا يخلو من تحريض وتشجيع لفئة ، وفي نفس الوقت فيه إثارة لمخاوف لفئة أخرى ..!

فعبد لناصر يرى أن الانقلاب العسكري صار مسوغاً ..

فأساليب النظام القديم الانتهازية والفردية والرجعية باتت معروفة للشعوب ، لذا أمسى هذه النظام صريع جنون اليأس ، فهو في عزلته في برجه العاجي البعيد عن هموم الشعب وعذاباته يسمع وقع أقدام الثورة القادمة ، التي تسير في خطى سريعة حثيثة نحو غاياتها المشروعة ، لذا فقد يوصل الخوف والرعب هذا النظام لحالة من اليأس المسببة للجنون ..! لذا باتت الشعوب العربية متحدة تلقائياً بوحدة الهدف وهو الثورة .

ولا ينسى ناصر **الاستعمار** الذي غادرت فلوله بلاد العرب ، لذا صار له دور آخر ، فيقول عنه في الميثاق :

" إن الاستعمار الآن غير مكانه ، ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة ، وكان مخبؤه الطبيعي بحكم الظروف داخل قصور الرجعية .

إن الاستعمار نفسه دون أن يدري ساهم في تقريب يوم الثورة الاجتماعية ، وذلك حين توارى بمطامعه وراء العناصر المستغلة يوجهها ويحركها .

وليس من شك أن الثورات الأصيلة تستفيد من حركات خصومها في مواجهتها ، وتكتسب منها قوة دافعة .

إن الاستعمار كشف نفسه ، وكذلك فعلت الرجعية بتهالكها على التعاون معه ، وأصبح محتماً على الشعوب ضربهما معاً ، وهزيمتهما معاً ، تأكيداً لانتصار الثورة السياسية في بقية أجزاء الوطن العربي ، ودعماً لحق الإنسان العربي في حياة اجتماعية أفضل لم يعد قادراً على صنعها بغير الطريق الثوري " (٦٥) .

وهذا حديث تحريضي يطاول سابقه وضوحاً وجرأة ، وجمالاً وإشراقاً ..

فالاستعمار عندما كان يحكم البلاد كان دوره وسلوكه واضحين ..

أما بعد أن غادر البلاد العربية ، فقد قرّب موعد الثورة فيها بدون أن يدرك ذلك !!
فهو الآن يلعب لعبة باتت مكشوفة للشعوب الراصدة لتحركاته ..

فبما أنه لا يستطيع العودة لمستعمراته ثانية ، بات يوجه عناصره ويحركها نحو غاياته وأهدافه ، ليستفيد الثائرون من هذا السلوك بخلق أسباب لثوراتهم ، فهو لم يكشف نفسه فحسب ، بل كشف عملاءه وعرّاهم ، فصار لزاماً على الشعوب أن تضرب الاثنين معاً بدون إبطاء ولا تريث ، إذ لم يعد هناك حل آخر أمام الشعوب سوى السير على هذا الطريق الثوري لتنال رقيها الاجتماعي .

وكأن الزعيم الراحل هنا يشرح لنا- بقصد أو بدون قصد - أسباب ثورة يوليو ، ويحرض على أن يحذو المظلومون في الأرض حذو مصر وثوارها الأماجد ، تلك الثورة التي لم تنجح في إزالة النظام البائد وأذنابه في مصر فحسب ، بل استطاعت قيادتها الواعية أن تمد يد المساعدة للدول العربية الأخرى ، فساعدتها على نيل حريتها واستقلالها ، وأمضى زعيمها الراحل عمره في جمع كلمة الأمة ، وتوحيد جهودها ضد الاستعمار والقوى الرجعية التي تدور في مداره .

لماذا يعادي الاستعمارالوحدة العربية ؟

وفي خطاب له في ١٣ تشرين ثان ١٩٥٨ ، يطرح عبد الناصر هذا السؤال : لماذا يحارب الاستعمار القومية العربية ؟ ويجيب عليه بقوله :

"... الحرب النفسية ، حرب الدسائس ، حرب التشهير ، حرب التخويف ، حرب الاقتصاد ، حرب الإشاعات ... لماذا الاستعمار يجند كل قوته ضد القومية العربية ؟ لأنه يشعر أن تحقيق القومية العربية ، وانتصار القومية العربية ، يعني أنه ستقوم بين أرجاء هذه المنطقة أمة عظمى لن تقبل أن تخضع لمناطق النفوذ ، ولن تقبل أن تكون داخل الأحلاف ، ولن تقبل سياسة الانحياز ، ولكنها ستصمم على أن تكون ذات سياسة مستقلة تنبع منها ، وتتبع لمصلحتها ، ولا تكون ذيلاً كما أرادوا أن يجعلوها في الماضي .

لماذا يحارب الاستعمار القومية العربية ؟

لأنه يشعر بأنه إذا فتت هذه الأمة يستطيع أن يتغلب عليها ، إذا فتت الأمة فسيكون لكل منا دوره ، وسيكون الآخرون في انتظار دورهم ، إذا فتت أي بلد في هذه المنطقة ، إذا فتت هذه البلاد فإنه سيستطيع أن يعيد التاريخ ، وإذا نظرنا إلى الماضي - أيها الأخوة - نرى أنه على الدوام كان النصر لهذه الأمة حينما تضامنت ، وحينما اتحدت ، وحينما تفرقت كلمة هذه الأمة استطاع الاستعمار أن يسيطر عليها ، وأن يخضعها ، حينما ننظر إلى الماضي - أيها الأخوة المواطنون - نرى أن هذه الأمة العربية كانت دائماً تشعر

بالقوة والمنعة ، حينما تضامنت واتحدت ، ولكنها كانت دائماً تسقط تحت الذل ، وتحت الاحتلال ، حينما تتفرق وحدتها ، وحينما تتفرق كلمتها "(٦٦) .

وينبه الزعيم الراحل لفلسفة ثورة يوليو ، ونهجها وغاياتها منذ قيامها ، ولا يجامل تلك الدولة الصديقة العظمى - الاتحاد السوفييتي - التي وقفت مع مصر في السراء والضراء ، فيضيف :

" هذا - أيها الأخوة- هو الذي دعانا من أول يوم من أيام هذه الثورة ، **أننا نرى في القومية العربية الأمان الوحيد لكل عربي** ، ونادينا من أول يوم من أيام هذه الثورة أن الدفاع عن هذه الأمة العربية يجب أن ينبثق من بين أرجاء الأمة العربية ، لا من الأحلاف التي تسيطر عليها دولة كبرى ، وأن سياستنا يجب أن تكون سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز "(٦٧) .

نعم .. هذه هي قراءة التاريخ ..

فعندما كانت هذه الأمة موحدة كانت هي الأقوى ، وكانت مرهوبة مهيبة الجانب ..

لذا ، قبل أن يشرع صلاح الدين في حرب الصليبيين واسترداد القدس، قام بتوحيد بلاد الشام ومصر ، مكوناً قوة قادرة على حرب الصليبيين قبل خوض معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٩ م .

وعندما أمست الأمة ممزقة أصبحت صيداً سهلاً لكل قوى الاستعمار عبر التاريخ ، وكان آخرها الاستعمار الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، فكم كانت مهمة ناصر صعبة في لم الشمل ، وجمع الكلمة .

وعليه ، كانت سياسة ثورة يوليو وزعيمها الراحل ، فقد بذل ناصر الكثير في سبيل الوحدة العربية ، عالماً كل العلم ، أن الاعتماد على النفس يسبق الاعتماد على الآخرين في الحشد والردع .

موقع مصر وأسباب الوحدة العربية والإفريقية ..

ولا ينسى عبد الناصر موقع مصر الجغرافي الذي تتميز به مصر ، فمثلت الحد الأوسط بين الدول العربية ، بل وشعوب المنطقة ، وهذا ما يسوغ لها المشاركة في أحداث المنطقة وفي مصيرها ، فيقول في الميثاق :

" إن شعبنا يمد نواياه المعززة بالأعمال لتحقيق التعاون الدولي عبر كل المحيطات ، وإلى كل الأقطار .

وإذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة إفريقية ، ويؤمن بتضامن آسيوي إفريقي ، ويؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به ،

ويؤمن برباط روحي وثيق يشده إلى العالم الإسلامي ، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة ، وبولائه لميثاقها الذي استخلصته آلام الشعوب في محنة حربين عالميتين ، تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة ..

.. إن شعبنا شعب عربي ، ومصيره يرتبط بوحدة مصير الأمة العربية .

إن شعبنا يعيش على الباب الشمالي الشرقي لإفريقيا المناضلة ، وهو لا يستطيع أن يعيش في عزلة عن تطورها السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

إن شعبنا ينتمي إلى القارتين اللتين تدور فيهما الآن أعظم معارك التحرير الوطني ، وهو أبرز سمات القرن العشرين " (٦٨) .

هي أشكال عدة من الوحدة هذه التي يحث عليها عبد الناصر ..

فهي وحدة عربية تجمع الدول العربية بأسباب الوحدة الكثيرة ..

ويضيف إليها ناصر الوحدة الإفريقية رافداً آخر ، فالقارة السمراء كانت مستعمرة لدول عدة من دول الاستعمار ، إذن فقد شاركت الدول العربية عذاباتها وثوراتها.

وهذا يذكر ناصر بوحدة أخرى وهي الآسيوية الإفريقية ، ليكون في ذلك تضامن وتجمع أكبر من أجل المصالح المشتركة .

ويتوج هذه الانتماءات بالانتماء الروحي - الأقوى والأوثق - للعالم الإسلامي الواسع في القارتين - وخارجهما أيضاً- ليجعل من هذه الوحدات الكبيرة تضامناً هائلاً ضد الاستعمار وأعداء الأمة .

وما سبق هو ما تقتضيه الزعامة الحقة ..

فالزعيم الحقيقي يبحث عن أسباب القوة والشموخ لأمته ، لا عن أسباب الفرقة والتشرذم ، واليأس والقنوط ..

وناصر هنا يتحدث وكأنه قد وضع خارطة العالم أمامه ، وراح يتأملها ويدرسها بعين القائد العسكري الحاذق ، الواعي المثقف ، باحثاً لأمته عن أسباب القوة والمنعة فيها ، وقوة ما حولها ، ومن يحيطون بها ، ليخرج بأعظم النتائج التي تفيد هذه الأمة ، وتعظم من شأنها ، وتقلل من هيبة أعدائها ، وتترك لهم اليأس والخوف ، والتردد في أي خطر قادم قد يفكرون في تشكيله وإعداده .

وقد كان ذلك ختاماً للميثاق ، وآخر فقراته .

وينسجم هذا الحديث تماماً مع ما أورده الكاتب الهندي كارنيجا - المعاصر لعبد الناصر - في كتابه "كيف نجح عبد الناصر " ، حين يقول :

" عندما بدأت طبول النجاح تدق للعالم معلنة انتصار ثورة عبد الناصر ، فيرجع العالم صدى دويها ، اعتبر العالم بأسره ثورة مصر تعبيراً آخر جديداً وقوياً عن البعث

الإفريقي والآسيوي ، وعندما تحقق لهذه الثورة النصر الأساسي بتحرير مصر ، هلل العالم لهذا النصر ، كجزء من المنجزات المتعلقة بمصير سبعين في المائة من أبناء الجنس البشري الذين تمتد أوطانهم في إفريقيا وآسيا فوق ما يربو على خمسين في المائة من وجه الكرة الأرضية .

ولقد انسجمت ثورة مصر في أهدافها وغاياتها مع التطلعات الشاملة التي اجتاحت البلاد الخاضعة للاستعمار ، وكان لها الفضل في توجيه ضربة قاصمة إلى النظام الاستعماري .

وبينما كان عبد الناصر يتحدث عن استقلال مصر في علاقاتها الدولية ، كانت الأجزاء الأخرى من الوطن العربي تستقبل كلماته باعتزاز ، والإحساس بالكرامة ، لقد كان يتكلم في الواقع باسم العرب جميعاً ، وسرعان ما أصبح عبد الناصر الصوت الصادق الذي يعبر عن الشعب العربي في العراق وسوريا ولبنان والأردن والعربية السعودية واليمن "(٦٩) .

ويقول الكاتب البريطاني " **لورنس مارتن** " في كتابه "الحياد وعدم الانحياز " واصفاً انتماء ناصر الأول :

" .. ولا شك أن إخلاص عبد الناصر الأول والأخير للقومية العربية التي يعتبر قائدها الأكبر ، والناطق بلسانها ، وان هذا الإخلاص هو الذي يقرر مواقفه من الشيوعية ، ومن الولايات المتحدة على السواء .. وقد يكون من المتعذر الحكم على سياسة عبد الناصر الحيادية والمستقلة من دراسة خطبه وبياناته وتصريحاته وحدها ، ولكن الشيء المؤكد أنه يميل بعض الميل للكتلة الشيوعية "(٧٠) .

أقول للسيد لورنس مارتن :

لن يضير عبد الناصر والناصريين من بعده أن يكون ناصر يميل بعض الميل- أو كل الميل- للكتلة الشيوعية ، إذ لم يخيره أحد في الجهة التي يميل إليها ، ولم يستشره أحد ، كما لم يستشر أحداً ، في الكتلة التي عليه ممارسة الود والصداقة معها ، فالواقع هو الذي فرض ذلك ، والتاريخ - والسيد مارتن من كتابه- ، تخبرنا كل أسفاره وتفاصيله أن الغرب لم يكن في صفنا ولو ليوم واحد في صراعنا مع العدو الصهيوني ، بل مارس الوقوف العلني مع إسرائيل في الحرب والسلم ، وإمدادها بكل ما تحتاجه من مال وسلاح ، وتأييدها في المحافل الدولية ، وتوج ذلك كله بالقتال معها في العدوان الثلاثي ، وعلى عكس ذلك كان الإتحاد السوفييتي ، الذي لم يكن لنا من نصير سواه في صراعنا مع إسرائيل والقوى التي تقف وراءها ، وقد كان معنا في أحلك الظروف وأصعبها ، بتقديم

السلاح والخبرات ، والغذاء والمال والرجال ، ومن نافلة القول أن نقول أن الحروب الأربع التي خضناها ضد إسرائيل خضناها بسلاح سوفييتي .

وأنهي حديث "ناصر والقومية " بهذا الاقتباس للأستاذ الفاضل "حسن الفكهاني " في كتابه "موسوعة عبد الناصر" ، يقول فيه :

" وإذا كنا ننظر إلى عبد الناصر على انه ابن مصر الذي حقق آمالها وأهدافها ، فهذا يعني بالضرورة أنه أيضاً ابن الجمهورية العربية المتحدة ، **ذلك لأنه ليس هناك تعارض بين الوطنية المصرية والقومية العربية** .. فمصر هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي ، فهناك من المقومات الأساسية ما يجعل مصر تنتمي إلى أمتها العربية ، منها اللغة المشتركة ، والتاريخ الملتحم ، والمصلحة المترابطة ، والعقيدة السائدة ، وهذه الأسس متوفرة في القومية العربية بطريقة فريدة ربما لم تتوفر في قومية أخرى معروفة .. بل لا نغالي إذا قلنا أن العنصر العربي إنما ينتمي في حقيقته إلى أصل مشترك مع العنصر المصري ، فكلاهما أقارب جنسياً منذ ما قبل الإسلام ، بل وما قبل التاريخ ، فالاختلاط الجنسي المصري العربي كان في الحقيقة زواجاً بين أقارب بعيدين ، ولهذا قيل أنه إذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافياً ، فإن مصر قد مصرتهم جنسياً .

ولقد أعطى جمال عبد الناصر المثل الأعلى لعروبته من خلال كفاحه الشاق ، وجهاده المضني حتى آخر لحظة من حياته ، وحسبنا أن نشير إلى انه قد بدأ نضاله الثوري على ارض فلسطين ،وختم حياته وهو يناضل من أجل فلسطين ، **ولقد حمل جمال عبد الناصر أعباء أمته بأسرها طوال حياته بدون كلل أو ملل ، واستطاع أن يرفع صوتها مدوياً في آفاق العالم ، وأن يرد إليها عزتها وكرامتها وكبرياءها ، حتى صار معروفاً بأنه بطل القومية العربية الذي يريد أن يحطم الحواجز المفتعلة بين الدول العربية بغية توحيدها ، وانصهارها في دولة عربية كبرى .**

وبعد ، فقد كان عبد الناصر بطلاً في حياته ، وبطلاً في ثورته ، وبطلاً في معاركه ، وكان أيضاً بطلاً في موته ، فهو لم ينكس رأسه أبداً .. فقد مات واقفاً مثلما تموت الأشجار وهي واقفة "(٧١) .

مراجع الباب الخامس

الفصل الأول

(١)أحمد عطية ، القاموس السياسي ، ص ٩٤٢ .

(٢) منير بعلبكي ، المورد ، ص ٦٠٥ .

(٣) عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، موسوعة السياسة ، ج٢، ص ٨٣١.

(٤) Macmillan Encyclopedia ,vol 14, p 46

(٥) عبد الرحمن البزاز ، بحوث في القومية العربية ، ص ٨٦.

(٦) م ن ، ص ٨٨ .

(٧) روبرت إمرسن ، من الاستعمار إلى الاستقلال ، ص ١٢٤ .

(٨) Great Illustrated Dictionary, vol 2 , p 1134

(٩) The Random House dictionary , p 952

(١٠) أنطون حمصي ، قاموس الفكر السياسي ، ص ٩٩.

(١١) روبرت إمرسن ، م س، ص ١٢٥.

(١٢) عبد الرحمن البزاز ، م س ، ٩ .

(١٣) عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، م س، ج٤ ، ص ٨٣٢.

(١٤) صبحي غندور ، الإنترنت .

(١٥) عبد الرحمن البزاز ، م س ، ص ٤٠ .

(١٦) م ن ، ص ٤٠-٤١ .

(١٧) قراءات في الفكر القومي ، ص ٥٥ .

(١٨) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١، ص ٢٠٩ .

(١٩) م ن ، ص ٢٠٩ .

الفصل الثاني

(١)محمد جابر الأنصاري ، تحولات في الفكر والسياسة ، ص ١٤٩-١٥٠.

(٢) د.عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ص ٦٠ .

(٣) د. أنيس صايغ ، الفكرة العربية في مصر ، ص ١٤٢.

(٤) م ن ، ص ١٤٢ .

(٥) سعد الدين إبراهيم ، مصر والعروبة وثورة يوليو ، ص ٨٥ .

(٦) م ن ، ص ٨٥ .

(٧) أحمد حمروش، ناصر والعرب ، ص ١٢ .

(٨) د.عواطف عبد الرحمن ، مصر وفلسطين ، ص ١١٠.

(٩) م ن ، ص ١١٠.

(١٠) م ن ، ص ١٠ .

(١١) م ن ، ص ٤٧-٦١.

(١٢) د. أنيس صايغ ، عبد الرحمن البزاز ، م س، ص ٩ .

(١٣) د. طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، ص ١٨ .

(١٤) م ن ، ص ٢٢ .

(١٥) م ن ، ص ٣٩ .

(١٦) محمد جابر الأنصاري ، تحولات الفكر والسياسة ، ص ١٤٧ .

(١٧) سلامة موسى ، اليوم والغد ، ص ١٩٠-١٩١ .

(١٨) أنور الجندي ، جيل العمالقة والقمم الشامخة في ضوء الإسلام ، ص ١٦٦ .

(١٩) م ن ، ص ٧٢ .

(٢٠) م ن ، ص ٧٥.

(٢١) د.أنيس صايغ ، م س، ٢٦٠ .

(٢٢) أنور الجندي ، م س، ص ٣٥-٣٦ .

(٢٣) م ن ، ص ٤٦ .

(٢٤) م ن ، ص ٤٧-٤٨ .

(٢٥) عبد المعطي حجازي ، عروبة مصر ، ص ٣٢٦-٣٣٠ .

(٢٦) محمد جابر الأنصاري ، م س ، ص ٥٣-٥٤ .

(٢٧) م ن ، ص ٥٣-٥٤ .

(٢٨) م ن ، ص ٤٧ .

(٢٩) أحمد حمروش ، عبد الناصر والعرب ، ص ١٢ .

(٣٠) عبد الهادي البكار ، المأزق ، ص ٢٢٤-٢٤٤ .

(٣١) م ن ، ص ٢٢٥ .

(٣٢) م ن ، ص ٢٢٥ .

(٣٣) م ن ، ص ٢٣٠.

(٣٤) م ن ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

الفصل الثالث

(١) عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، ص ٨٦-٨٧ .
(٢) م ن ، ص ٩٣ .
(٣) فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ٩٩ .
(٤) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ٤٩١.
(٥) أحمد حمروش ، عبد الناصر والعرب ، ص ١٦-١٧ .
(٦) م ن ، ص ١٧ .
(٧) م ن ، ص ١٨ .
(٨) هدى عبد الناصر ، الانترنت .
(٩) سعد الدين إبراهيم ، مصر والعروبة وثورة يوليو ، ص ٨٦ .
(١٠) أحمد حمروش ، م س، ص ١٨ .
(١١) م ن ، ص ١٩ .
(١٢) م ن ، ص ١٩ .
(١٣) م ن ، ص ١٩ .
(١٤) م ن ، ص ٢٠ .
(١٥) م ن ، ص ٢٠ .
(١٦) م ن ، ص ٢٠ .
(١٧) م ن ، ص ١٩ .
(١٨) د.مارلين نصر ، التصور القومي في فكر جمال عبد الناصر ، ص ٢٠٩ .
(١٩) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١، ص ٢٠٩ .
(٢٠) م ن ، ص ٢٢٦ .
(٢١) م ن ، ص ٢٨١ .
(٢٢) د. مارلين نصر ، م س ، ٢١٠ .
(٢٣) م ن ، ص ٢١٠ .
(٢٤) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢، ص ٣٨ .
(٢٥) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .
(٢٦) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
(٢٧) م ن ، ص ٤٧ .
(٢٨) م ن ، ص ٥٣ .
(٢٩) م ن ، ص ٥٦ .

(٣٠) م ن ، ص ١٢١ .
(٣١) سعد الدين إبراهيم ، م س ، ص ٨٩ .
(٣٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٣، قسم ١، ص ٨٠ .
(٣٣) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢ ، ص ٢٨٢.
(٣٤) م ن ، ص ٢١٦ .
(٣٥) م ن ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
(٣٦) م ن ، ص ٢٧١ .
(٣٧) الانترنت .
(٣٨) عبد الناصر ، م س ، ص ٢٨٢ .
(٣٩) م ن ، ص ٢٨٢ .
(٤٠) م ن ، ص ٣١١ .
(٤١) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣ ، قسم ١، ص ٨١ .
(٤٢) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٢ ، ص ٣١٢-٣١٣ .
(٤٣) عبد الرحمن البزاز ، بحوث في القومية العربية ، ص ٤٢٣ .
(٤٤) عبد الناصر ، م س ، ص ٣٦٣-٣٦٤ .
(٤٥) م ن ، ص ٤٤١ .
(٤٦) م ن ، ص ٣٩٦-٣٩٧ .
(٤٧) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٦ .
(٤٨) عبد الناصر ، م س ، ص ٤٤١ .
(٤٩) م ن ، ص ٤٧٧-٤٧٨ .
(٥٠) م ن ، ص ٥٤٩ .
(٥١) م ن ، ص ٥٦٣ـ ٥٦٤ .
(٥٢) م ن ، ص ٥٧٢ .
(٥٣) م ن ، ص ٦٠٢-٦٠٣ .
(٥٤) م ن ، ص ٥٣١ .
(٥٥) سعد الدين إبراهيم وآخرون ، م س، ص ٩٠ .
(٥٦) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٣، قسم ١ ، ص ٤٧ .
(٥٧) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٣، قسم ٢ ، ص ٨٧١ .
(٥٨) فؤاد مطر ، م س، ص ١٩٥ .
(٥٩) م ن ، ص ١٩٤ .

(٦٠) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٨٤ .

(٦١) أحمد عطية ، القاموس السياسي ، ص ٧٧٩ .

(٦٢) د.رؤوف عباس ، م س، ٨٥ .

(٦٣) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٩٤-٩٥ .

(٦٤) م ن ، ص ٩٥ .

(٦٥) م ن ، ص ٩٦ .

(٦٦) عبد الناصر ، خطاباته ، ج٣ ، قسم ١، ص ٢٧٢ .

(٦٧) م ن ، ص ٢٧٢ .

(٦٨) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ١٠٧ .

(٦٩) حسن الفكهاني ، موسوعة عبد الناصر ، ص ٧٧ .

(٧٠) م ن ، ص ٧٦ .

(٧١) م ن ، ص ١١٨-١١٩ .

الباب السادس
دليل الأحداث في مسيرة جمال عبد الناصر ١٩٥٢ - ١٩٦٦

الباب السادس
دليل الأحداث في مسيرة
جمال عبد الناصر
١٩٥٢-١٩٦٦

١٩٥٢

٢٣ تموز: عبد الناصر يقود ثورة يوليو .

٢٦ تموز : الملك فاروق يوقع وثيقة التنازل عن العرش لولده فؤاد ، ويغادر البلاد من ميناء الإسكندرية على الباخرة "المحروسة" ، والتي أمر ناصر بإعادتها إلى مصر لأنها ملك الشعب .

٧ أيلول : استقالة حكومة علي ماهر آخر وزارة في العهد الملكي .

٩ أيلول : الرئيس محمد نجيب يشكل وزارته الأولى ، وتولي عبد الناصر منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية .

٩ أيلول : صدور قانون الإصلاح الزراعي .

١٠ كانون أول : محمد نجيب يعلن سقوط دستور ١٩٢٣ .

١٩٥٣

١٦ كانون ثان : محمد نجيب يصدر قراراً بحل الأحزاب السياسية ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب ، وقيام فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات .

١٧ آذار: عبد الناصر يصرح لمدير وكالة الأنباء المصرية بقوله : إننا نريد جلاء ناجزاً كاملاً لدولة الاستعمار غير مشروط .

٢٧ نيسان : بدء مباحثات الجلاء بين حكومة الثورة والحكومة البريطانية .

٦ أيار : ناصر يعلن توقف المباحثات المصرية البريطانية .

١٨ حزيران : إعلان إلغاء النظام الملكي في مصر وقيام الجمهورية .

٤ تشرين أول : تعيين المقدم زكريا محي الدين وزيراً للداخلية مكان عبد الناصر الذي احتفظ بمنصبه نائباً لرئيس الوزراء .

١٩٥٤

١٣ كانون ثان : مجلس قيادة الثورة يصدر قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين .

٢٥ شباط : استقالة الرئيس محمد نجيب من جميع مناصبه .

٢٧ شباط : مجلس قيادة الثورة يعلن عودة اللواء الركن محمد نجيب رئيساً للجمهورية .

٢ آذار : أنتوني إيدن وزير خارجية بريطانيا يعلن استئناف المباحثات مع مصر .

١٠ آذار: توقيع اتفاق تجاري بين مصر والإتحاد السوفييتي ينص على أفضلية المعاملة

١٩ نيسان : أعلن وزير الإرشاد القومي صلاح سالم استقالة محمد نجيب من منصب رئاسة الوزارة ، وتكليف عبد الناصر بتشكيل الحكومة الجديدة .

٢٠ نيسان : عبد الناصر يوزع الأراضي على المنتفعين بقانون الإصلاح الزراعي .

١١ تموز : ناصر يرأس الجانب المصري في مفاوضات الجلاء مع بريطانيا بعد استئنافها .

٣١ آب : ناصر يعلن لصحيفة أميركية أن الدول العربية يمكن أن تدخل مع الغرب في مشروع للدفاع عن الشرق الأوسط .

١٩ تشرين أول : توقيع معاهدة الجلاء مع بريطانيا .

٢٦ تشرين أول : محاولة فاشلة لاغتيال عبد الناصر بإطلاق محمود عبد اللطيف المنتمي للإخوان المسلمين ثماني رصاصات عليه وهو يلقي خطاباً في الإسكندرية ، ولكنه لم يصبه بأذى .

١٤ تشرين ثان : مجلس قيادة الثورة يعفي محمد نجيب من جميع مناصبه ، وتولي عبد الناصر رئاسة الجمهورية .

١٧ تشرين ثان : ناصر يتسلم منصب رئيس الدولة ومنصب رئاسة مجلس الثورة بتفويض من المجلس نفسه .

٧ كانون أول : تنفيذ حكم الإعدام بأقطاب الإخوان المسلمين ، وهم :

محمود عبد اللطيف (سمكري) (الذي أطلق النار على عبد الناصر)

يوسف طلعت (تاجر حبوب بالاسماعيلية)

هنداوي دوير (محام بأمبابة)

عبد القادر عودة (محام)

إبراهيم الطيب (محام بمكتب عبد القادر عودة)

محمد فرغلي (واعظ بالإسماعيلية)

كما صدر حكم بإعدام المرشد العام **حسن الهضيبي** ، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة نظراً لكبر سنه ومرضه .

١٩٥٥

١٥ شباط : ناصر يستقبل الزعيم الهندي نهرو في القاهرة .

٢٤ نيسان : اشتراك عبد الناصر في مؤتمر باندونج باندونيسيا للدول الأفروآسيوية.

١٢ تموز : صدور بيان مشترك في دلهي عن مباحثات ناصر ونهرو يندد بالأحلاف العسكرية ويصفها بأنها خطر على السلام .

١٩ تموز : ناصر يستقبل الزعيم الاندونيسي أحمد سوكارنو في القاهرة .

٢٤ أيلول : الحكومة المصرية تلغي المحاكم الشرعية وسائر المحاكم الدينية في مصر .

٢٧ أيلول : ناصر يعقد مع الاتحاد السوفييتي ما يسمى بصفقة الأسلحة التشيكية .

٢٠ تشرين أول : توقيع اتفاق في دمشق لتوحيد قيادة الجيشين المصري والسوري .

٢٧ تشرين أول : توقيع اتفاقية عسكرية دفاعية بين مصر والسعودية تقضي بتوحيد قيادة الجيشين .

٢٨ كانون أول : الزعيم اليوغسلافي تيتو يزور القاهرة ويلتقي بعبد الناصر .

١٩٥٦

٥ كانون ثان : صدور بيان مصري يوغسلافي مشترك يدين الأحلاف العسكرية .

١٦ كانون ثان : إعلان الدستور المصري الجديد في مؤتمر شعبي حضره ٣٠٠ ألف شخص .

٢١ حزيران : الشعب المصري يوافق في استفتاء له على الدستور بنسبة ٩٩،٨% ، وعلى انتخاب عبد الناصر رئيساً للجمهورية بنسبة ٩٩،٨٤ % .

٢١ حزيران : صدور بيان مشترك في القاهرة عن زيارة وزير الخارجية السوفييتي شبيلوف بضرورة إنماء العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين البلدين .

١٣ تموز : التقى ناصر الرئيس اليوغسلافي تيتو في بريوني .

٢٦ تموز : أعلن تأميم قناة السويس .

١٨ آب : مصر ترفض الإشراف الدولي على القناة وتحصيل الرسوم .

١٣ أيلول : مصر ترفض تأسيس هيئة مستعملي القناة لأن ذلك معناه الحرب .

١٩ أيلول : الاتحاد السوفييتي يصدر بياناً رسمياً بأن تشكيل هيئة مستعملي القناة قد يؤدي إلى نشوب نزاع مسلح .

٢٦تشرين أول : إعلان قطع العلاقات مع بريطانيا وفرنسا واستراليا .

٢٩تشرين أول : بداية الهجوم الإسرائيلي على غزة وسيناء .

٣١ تشرين أول : صدور بيان رسمي عن القيادة البريطانية الفرنسية بأن قواتهما الجوية المشتركة بدأت قصف الأهداف العسكرية في مصر .

٥ تشرين ثان : الاتحاد السوفييتي يهدد بقصف لندن وباريس وتل أبيب بالصواريخ إذا لم توقف أعمالها الحربية ضد مصر .

٩ تشرين ثان : عبد الناصر يعلن من فوق منبر الأزهر الشريف: إن المعتدين فرضوا علينا القتال ولكنهم لن يفرضوا علينا الاستسلام .

٢٣ كانون أول : انسحاب آخر جندي من جنود العدوان من بور سعيد .

١٩٥٧

الأول من كانون ثان : إلغاء اتفاقية الجلاء الموقعة بين مصر وبريطانيا في ٩ تشرين أول ١٩٥٤.

١٤ آذار : تسلمت مصر رسمياً مهام إدارة قطاع غزة .

٢٩ آذار : بدأت السفن عبور قناة السويس .

١٧ أيار : مصر تعلن منع السفن الإسرائيلية عبور القناة .

٢١ أيار : مصر تسمح للسفن البريطانية والفرنسية بعبور القناة .

٢٨ أيار : عبد الناصر يصدر قراراً بتشكيل الاتحاد القومي .

١٠ تموز: وصول نهرو إلى القاهرة لإجراء مباحثات مع ناصر .

١٩ تموز : أعلن أنه قد تم في نيسان الماضي اكتشاف مؤامرة لاغتيال عبد الناصر وجميع وزرائه .

١٣ تشرين أول : نزول قوات مصرية في ميناء اللاذقية تعزيزاً لدفاع سوريا ضد أي اعتداء من تركيا أو إسرائيل .

١٦ كانون أول : عقد في القاهرة مؤتمر التضامن الآسيوي - الإفريقي .

١٩٥٨

١١ كانون ثان : وصول الرئيس الإندونيسي سوكارنو إلى القاهرة .

١ شباط : إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة باتحاد مصر وسوريا بعد جلسة تاريخية لعبد الناصر والرئيس السوري شكري القوتلي مع ممثلي جمهوريتي مصر وسوريا في قصر القبة في القاهرة.

٣ شباط : عبد الناصر يقرر حل جميع الأحزاب السياسية .

٥ شباط : مجلس النواب السوري يوافق على الدستور المؤقت للجمهورية العربية المتحدة وترشيح ناصر لرئاسة الدولة الجديدة .
١٢ آذار : أصدر ناصر قراراً بحل الأحزاب السياسية في سورية .
٢٨ نيسان : عبد الناصر يزور الإتحاد السوفييتي .
٢٩ نيسان : أميركا تفرج عن الأرصدة المصرية المجمدة لديها .
١٤ تموز : انقلاب في العراق يلغي النظام الملكي ، ومقتل الملك فيصل الثاني ورئيس وزرائه نوري السعيد ، والنظام الجديد يعلن اعترافه بالجمهورية العربية المتحدة التي ردت باعتراف مماثل .
١٥ تموز : نزول قوات من الأسطول السادس الأمريكي إلى البر اللبناني بطلب من الرئيس اللبناني كميل شمعون ضد الثورة الوطنية التي قامت ضده .(في ٣١ آب رشح البرلمان اللبناني قائد الجيش فؤاد شهاب لمنصب الرئيس ، فتولى منصبه في ٢٣ أيلول) .
١٦ تموز : ناصر يصرح بأن نزول القوات الأميركية في لبنان يعد تهديداً للدول العربية .
٢٠ تموز : الحكومة الأردنية تقطع علاقاتها مع الجمهورية العربية المتحدة لأنها اعترفت بالجمهورية العراقية .
٢٧ تموز : ناصر يفتتح مصنع الحديد والصلب في حلوان .
٤ أيلول : ناصر يفتتح مصنعاً للذخيرة الثقيلة .
٢٣ تشرين أول : الاتحاد السوفييتي يقدم قرضاً مالياً لمصر بقيمة ٤٠٠ مليون روبل لتنفيذ مشروع السد العالي .
٢٢ كانون أول : توقيع اتفاق مع السوفييت لتمويل عدد من المشروعات الصناعية وإنشاء خمسة مطارات في مصر .
٢٣ كانون أول : ناصر يلقي خطاباً في بورسعيد بمناسبة عيد النصر يحمل فيه على الحزب الشيوعي السوري .

١٩٥٩

٣١ كانون ثان : راديو موسكو يرد على حملات مصر ضد الشيوعيين العرب .
٢٣شباط : أقيم في دمشق عرض عسكري بحضور ناصر والمارشال تيتو ، وتم توزيع سندات تمليك أراض على الفلاحين .

١٨ آذار : إسرائيل تشكو إلى الأمم المتحدة مصادرة مصر لبضائع إسرائيلية عبرت قناة السويس .

١٨ حزيران : مصر تؤكد على سياستها بمصادرة البضائع الإسرائيلية من وإلى إسرائيل عبر القناة .

٢١ تشرين أول : ناصر يخول عبد الحكيم عامر نائب الرئيس للإقليم الشمالي (سوريا) سلطات واسعة .

٩ كانون أول : ناصر يعطي إشارة البدء **ببناء السد العالي** .

٣٠ كانون أول : ناصر يقبل استقالة أربعة وزراء بعثيين بمن فيهم أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية .

١٩٦٠

٢٦ آذار : توقيع ثلاث اتفاقيات مع الولايات المتحدة لتقديم قروض بقيمة ١٦،٥ مليون جنيه لتمويل بعض المشروعات .

١٠-١٥ نيسان : ناصر يبدأ رحلة للهند والباكستان .

٢٦ نيسان : صدور بيان مشترك عن زيارة سوكارنو لمصر .

١٩ أيار : مباحثات بين عبد الناصر ونهرو في القاهرة .

٥ حزيران : ناصر يبدأ زيارة لليونان ويوغسلافيا .

٧ آب : ناصر يعلن استعداد مصر لمساعدة الكونغو عسكرياً .

٢٦ أيلول : اشتراكه مع الوفد المرافق في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك ، وإلقاؤه خطاباً فيها من ١٨ صفحة .

٢٩ أيلول : اجتماع أقطاب الحياد الخمسة في نيويورك : ناصر ونهرو وتيتو وسوكارنو ونكروما (رئيس غانا) .

١٤ كانون أول : ناصر يعلن عن استعداد مصر لمساعدة جيش الصومال الوطني على التسليح .

١٩٦١

٨ كانون ثان : ناصر يشترك في مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء .

٢٣ كانون ثان : ناصر يدعو مجلس الأمة لوضع دستور دائم للجمهورية العربية المتحدة .

٢٤ آذار : ناصر يفتتح مؤتمر الشعوب الأفريقية في القاهرة .

٤ أيار : ناصر يبعث برسائل لرؤساء الدول غير المنحازة للاتفاق على عقد مؤتمر قمة لعدم الانحياز .

٢٥ حزيران : بلجيكا تقطع علاقاتها مع الجمهورية العربية المتحدة .

١٩ تموز : ناصر يصدر قراراً بأن يكون لعمال أي شركة أو مؤسسة ٢٥% من الأرباح بجانب الأجر، وبوجود أعضاء منهم في الإدارة .

٢٠ تموز : أصدر عبد الناصر قانوناً بتأميم جميع البنوك وشركات التأمين وتعويض حاملي الأسهم بسندات خلال ١٥ عاماً .

٢٥ تموز : تحديد الحد الأقصى لملكية الأراضي ب ١٠٠ فدان .

١ أيلول : مشاركته في مؤتمر دول عدم الانحياز في بلغراد وإلقاؤه كلمة فيه .

٢٨ أيلول : حركة انقلابية في سوريا تنهي الوحدة مع مصر .

٢٨ أيلول : ناصر يلقي بياناً عبر الإذاعة حول وقائع مؤامرة الانفصال .

٥ تشرين أول : أعلن عبد الناصر أنه سيترك سوريا تقرر مصيرها .

٩ تشرين أول : قدم الوزراء السوريون الأربعة عشر استقالاتهم من وزارة الجمهورية العربية المتحدة .

١٢ تشرين أول : مصادرة ممتلكات عدد كبير من المصريين والأجانب في مصر .

١٩٦٢

٣١ كانون ثان : اختتم في القاهرة مؤتمر أجهزة فلسطين .

٣١ آذار : مباحثات مشتركة في القاهرة بين ناصر واحمد بن بيلا نائب رئيس الوزارة الجزائرية المؤقتة .

٢١ أيار: ناصر يقدم مشروع الميثاق الوطني - الذي قام بإعداده - للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في مصر الذي أقره وصادق عليه في ٣٠ حزيران ١٩٦٢ .

٦ حزيران : توقيع اتفاق للوحدة الاقتصادية في القاهرة بين دول الأردن ومصر والمغرب وسوريا والكويت .

٢ تموز : أعلن قيام الاتحاد الاشتراكي العربي .

٢١ تموز : أعلن رسمياً أن مصر قد أطلقت بنجاح نوعين من الصواريخ المصرية **"القاهر" و" الظافر"** إلى مسافة ٣٧٠ ، ٦٠٠ كم .

٢٧ أيلول : في اليمن : الزعيم عبد الله السلال يطيح بحكم الإمام البدر ويعلن النظام الجمهوري ، وفرار البدر إلى السعودية ليبدأ الحرب من هناك ضد الثورة .

١١ تشرين أول : أعلنت حكومة الثورة في اليمن الحرب على السعودية ، وأعلنت القاهرة مساندتها الكلية لحكومة اليمن في هذه الحرب.
٦ كانون أول : مصر تقدم للجزائر قرضاً بعشرة ملايين جنيه بلا فوائد .

١٩٦٣

١٣ كانون ثان : تمليك ٢٥ ألف فدان للعمال الزراعيين .
٨ شباط : مصر تعترف بالانقلاب الذي أطاح بحكم عبد الكريم قاسم في العراق .
٤ نيسان : الاتفاق على إعادة العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بعد أن ظلت مقطوعة منذ العدوان الثلاثي .
١٣ نيسان : تأميم منشآت تصدير القطن ومحالج القطن .
٤ أيار : ناصر يقوم بأول زيارة للجزائر .
٢٦ أيار : ناصر يوقع مع رؤساء ٣٣ دولة إفريقية ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا .
٢٠ حزيران : قرض سوفييتي لمصر بقيمة ٤٠ مليون روبل لتمويل بعض المشاريع الصناعية .
١٢ آب : تأميم ٢٢٨ شركة ومنشأة صناعية ، وإنهاء عقود استغلال المناجم وتأميم أموالها.
١٥ أيلول : مصر تقطع علاقاتها مع البرتغال .
١١ تشرين ثان : التأميم الكامل لبعض الشركات التجارية وشركات النقل الداخلي والبحري والأدوية ومصانع الذخيرة .

١٩٦٤

١٢ كانون ثان : ناصر يفتتح أول مؤتمر قمة عربي في القاهرة .
١٦ كانون أول : الزعماء العرب يتفقون على توحيد القيادات العسكرية العربية .
٢٦ كانون أول : الاتحاد السوفييتي يعلن تأييده المطلق لقرارات الرؤساء والملوك العرب .
٢٢ شباط : ناصر يعلن ضرورة تصفية القواعد البريطانية في المنطقة العربية وخاصة ليبيا .
١٨ شباط : ناصر يصدر قراراً بتعيين أنور السادات وحسن إبراهيم نائبين للرئيس .

٢٤ آذار : ناصر يأمر بنقل ملكية جميع الصحف إلى عمالها ومحرريها .
٢٦ آذار : مجلس الأمة ينتخب بالإجماع أنور السادات أميناً له .
٩ آذار : تأميم ١١٩ شركة مقاولات .
٢٣ نيسان : ناصر يزور القوات المصرية في اليمن .
٩ أيار : مصر تشهد استقبالاً تاريخياً للزعيم السوفييتي خروتشوف لدى وصوله مصر ، والاتحاد السوفييتي يمنح مصر قرضاً بمبلغ ٢٥٢ مليون روبل .
١٠ أيار : خروتشوف يلقي خطاباً في مجلس الأمة المصري .
١٥ أيار: ناصر يشترك مع الرئيس السوفييتي خروتشوف في الاحتفال بتحويل مجرى نهر النيل عند السد العالي .
٢٧ أيار : وقع مع الرئيس عبد السلام عارف اتفاقية الوحدة مع العراق .
١٦ حزيران : أصبحت مصر أول دولة عربية وإفريقية تصدر الموارد الذرية المشعة للعلاج الطبي والأبحاث الزراعية والصناعية .
١ تموز : ناصر يعلن نهجاً جديداً وهو أن توحيد الجيوش والطيران في الدول العربية بدون وحدة دستورية بينها لأن لهذه الوحدة مصاعب .
١٣ تموز : ناصر والرئيس اليمني عبد الله السلال يوقعان اتفاقاً لتشكيل مجلس تنسيق مشترك .
١٧-٢١ تموز : ناصر يرأس مؤتمر القمة الإفريقي الثاني المعقود في القاهرة .
٥ أيلول : ناصر يفتتح مؤتمر القمة العربي الثاني في الإسكندرية .
٥ تشرين أول : ناصر يشارك في مؤتمر عدم الانحياز في القاهرة .

١٩٦٥

٢٠ كانون ثان : ناصر يقبل ترشيح مجلس الأمة له لفترة رئاسية جديدة .
١٨ شباط : فضح صفقة الأسلحة الألمانية الغربية لإسرائيل .
٢٢ شباط : بورقيبة يصل القاهرة ويجتمع بناصر .
٢٤ شباط : ناصر يستقبل رئيس ألمانيا الشرقية .
١٦ آذار : إعادة انتخاب ناصر رئيساً للجمهورية بنسبة ٩٥% .
٢٧ نيسان : الحزب الشيوعي المصري يتخذ قراراً بحل نفسه .
١٣ أيار : ناصر يعلن قطع العلاقات مع ألمانيا الغربية .
٢٨ آب : بداية محادثات في موسكو بين وفدي مصر والاتحاد السوفييتي .
١ أيلول : ناصر يزور يوغسلافيا .

١٤ أيلول : اشترك في مؤتمر القمة العربي في الدار البيضاء .
٥ تشرين ثان : عودة عبد الناصر من جولة إفريقية استمرت ١٦ يوماً حضر خلالها المؤتمر الإفريقي في العاصمة الغانية أكرا .
٢٩ كانون أول : التوقيع في القاهرة على اتفاق تجاري بين مصر والاتحاد السوفييتي مدته خمس سنوات .

١٩٦٦

٣ كانون ثان : توقيع اتفاقية القمح الثانية بين مصر وأميركا .
١٨ أيار : بيان مشترك عن محادثات ناصر ورئيس الوزراء السوفييتي إلكسي كوسيجين عبر فيه الجانبان عن ارتياحهما لسير التعاون بين البلدين .
٩ آب : توقيع اتفاقية تشجيع انتقال رؤوس الأموال والاستثمارات بين مصر والكويت .
٢٤ تشرين أول : ناصر يشترك في المؤتمر الثلاثي لدول عدم الانحياز مع انديرا غاندي وتيتو.
٥ تشرين ثان : اشترك في مؤتمر الوحدة الأفريقية في أديس أبابا .

مراجع الباب السادس

١- أحمد عطية ، القاموس السياسي .

٢- حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر .

٣- د. رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي .

٤- شعراوي خليل ، عبد الناصر والناصرية .

الباب السابع

حرب حزيران ١٩٦٧

الفصل الأول

المنطقة فوق بركان

" إن أمريكا وإسرائيل قررتا
عام ١٩٦٥ أن التخلص من
عبد الناصر بانقلاب داخلي
غير ممكن بسبب شعبيته ، و
قوة مركزه ... وان الوسيلة هي
هزيمته في حرب محدودة تفقده
ثقة العرب واحترامهم "
"الصحفي الأميركي أنتوني بيرسن"
(خريف عبد الناصر ص ٨٧)

لا زال الباحثون والمؤرخون في الشرق والغرب يؤكدون على أهمية منطقة الشرق الأوسط في حسابات دول الاستعمار ومخططاتها ، وغاياتها وأطماعها ، فلا يكاد يظهر كتاب أو بحث عن هذه المنطقة إلا ويذكر كاتبه هذه الأهمية ، ويؤكد عليها ، وعلى ما قاله السابقون عن خطورتها في أسباب الصراع السابق واللاحق بين الشرق والغرب ، وبين العرب ودول الاستعمار ، وبين العرب وإسرائيل ومن يقف وراءها ، لذا لا تكاد أسباب حرب حزيران عام ١٩٦٧ تختلف في جوهرها عن أسباب الحروب الأخرى التي نشبت في المنطقة ، وإن كان لكل حرب ظروفها ومسبباتها الخاصة بها ، إلا أن الحصيلة الكبرى تشير للأسباب ذاتها .

أسباب حرب حزيران

وفي هذه العجالة ، وقبل أن نأتي على ذكر الأسباب المباشرة ، نحاول ذكر الأسباب الجوهرية لهذه الحرب ، وهي :

١ـ رغبة إسرائيل في التوسع الإقليمي على حساب جاراتها من الدول العربية ، وبالذات مصر لتحقيق مكاسب أكثر .

٢- الموقع الجغرافي المتوسط لمصر بين قارتي آسيا وإفريقيا ، وإشرافها على قناة السويس ، والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط ومضائق تيران .
٣- مركز مصر القيادي سياسياً وعسكرياً بين الدول العربية ، ومشاريع الوحدة التي كان ناصر يبذل قصارى جهده لتحقيقها بين الدول العربية .
٤- مركزها الثقافي العلمي الكبير والعريق ، وأداؤها لدورها الطليعي في هذا المجال قبل قيام الثورة وبعدها .
٥- مركزها السياسي البارز بين دول آسيا وإفريقيا ، وقد ظهر ذلك جلياً في اجتماعات ناصر بزعماء الدول في القارتين خاصة في مؤتمر باندونج ١٩٥٥ .
٦- سعي القيادة المصرية الدائم لتقدم مصر وتطورها في جميع المجالات ، وبالذات المجال العسكري ، ودعمها لقوى التحرر العربية ، وتحقيقها النجاح في ذلك كما حصل في اليمن والجزائر والمغرب .
٧- التجارب العسكرية السابقة لإسرائيل مع مصر في حروب ١٩٤٨ و١٩٥٦ ، ولم تكن بالتجارب السارة لإسرائيل وأحلافها ، وقد ذكر راندولف تشرشل في كتابه "حرب الأيام الستة : " كانت قيادة الجيش الإسرائيلي العليا مقتنعة **أن أكبر خطر يهددها هو مصر** ، ونظراً لضيق حدود إسرائيل ، ولكثافة سكانها ، لم يكن الإسرائيليون يجهلون ضرورة نقل المعركة إلى خارج أرضهم ، لذا يجب أن يخرجوا جميعاً ويجابهوا العدو في سيناء " (١) .
٨- التخلص من عبد الناصر الرافض دائماً توقيع المعاهدات السلمية والحلول الاستسلامية مع إسرائيل .
٩- رفضه الانضمام لحلف عسكري تديره أميركا ، دالاً بذلك على وطنيته وانتمائه القومي ، وثقته بنفسه وشعبه ، فكان الرد الأميركي منع السلاح عن مصر .
١٠- دعمه لثورة اليمن والتي كانت إسرائيل تقاتل ضدها طمعاً في إجهاض الثورة ، والتي كان نجاحها سيؤدي لسيطرة اليمن على مضيق باب المندب طريق إمداد الغرب بالبترول .
١١- التأييد الأميركي المطلق لإسرائيل ، والإمدادات الأميركية الضخمة التي كانت تتوالى عليها خاصة عامي ٦٦- ١٩٦٧، مما منحها الثقة للشروع في الحرب .
١٢- حرص أميركا على مصالحها في المنطقة العربية التي تحتوي منابع البترول الذي يدير عجلة الاقتصاد الأميركي ، ليتوصل الرئيس الأمريكي جونسون إلى أن الحفاظ على هذا العامل الأساسي يقتضي القضاء على عبد الناصر ، وإسقاط نظامه (٢) .

وكانت علاقات مصر بأميركا في تأزم متصاعد ..

فها هو لوشيوس باتل السفير الأمريكي السابق في القاهرة يصرح في ٦ نيسان ١٩٦٧ قائلاً :

" من الصعب أن يجد الإنسان شخصاً معادياً للخطط الأمريكية أكثر من ناصر "

ويتبعه السناتور واين مورس قائلاً :

" إن عبد الناصر يمثل تهديداً لمصالح أمريكا ليس في منطقته فحسب ، بل وفي العالم أجمع " (٣) .

وبعد انسحاب فرنسا من حلف الأطلنطي ، اتخذت أميركا قرارها بحماية غرب أوروبا ، ومحاولة إخضاعها للنفوذ الأمريكي ، لذا يصرح هنري سباك نائب رئيس وزراء بلجيكا بما قاله دين راسك وزير الخارجية الأمريكي :

" إن العقبة الرئيسية في تحقيق هذا الهدف هو جمال عبد الناصر ، الذي ساءت علاقته بأمريكا بعد سحب تمويل السد العالي ، والذي فضح سياسة أمريكا الإمبريالية اللاأخلاقية ، وقال ما تحرج السوفييت والكتلة الشرقية عن قوله " (٤) .

ويقول الدكتور رؤوف عباس معلقاً على الظروف السائدة آنذاك :

" وفي عام ١٩٦٧ أحست أمريكا أن الظروف الدولية قد أصبحت مواتية لإطلاق العنان لإسرائيل Unleash Israel ، لتنفيذ المؤامرة الأمريكية الإسرائيلية التي تهدف لإسقاط عبد الناصر ، ولم تقدم أميركا مساعدات إضافية لإسرائيل في ذلك العام ، كجزء من خطة الخداع ، وحتى لا تعطي لعبد الناصر فرصة أن يدعي أن أمريكا ساعدت إسرائيل في عدوانها على العرب ، وذراً للرماد في العيون ، ولأن الاستعداد لتنفيذ المؤامرة كان قد اكتمل بالفعل في عام ١٩٦٦ ، وسميت خطة المؤامرة اسماً كودياً "**عملية صيد الديك الرومي** "(٥) .

ولا تختلف أسباب الحرب التي ذكرت كثيراً عما اعترف به وزير الدفاع الإسرائيلي **موشيه ديان** ، والذي أقر بأنها :

١- " تدمير أكبر حجم ممكن من السلاح السوفييتي .

٢- تحطيم معنويات الجيش المصري وإذلاله ، حتى لا يقبل مرة أخرى أن يقاد إلى معركة ضد إسرائيل مهما كانت الظروف .

٣- الوصول بالهزيمة العسكرية إلى حد الإهانة ، حتى لا تعود مصر مهما كانت دعاويها إلى مكان الصدارة في العالم العربي .

٤- الجمع بين هذه العوامل كلها معاً ، بحيث تؤدي إلى إسقاط النظام وجمال عبد الناصر على رأسه .

٥- " بتحقيق ذلك ، فإن إسرائيل تستطيع أن تفلت بهدفها الأكبر في العملية كلها ، وهو الضفة الغربية للأردن ، بما فيها القدس ، بدون أن تتعرض لأي ضغط من جانب الولايات المتحدة ، ذلك لأنها سوف تعطي ل "جونسون" كل ما أراده ، وبالتالي لا يستطيع أن يحرمها في المقابل من كل ما تريده " (٦) .

وقد أثبتت الأعوام القليلة اللاحقة أنه لم يتحقق لديان ودولته مما أراد سوى الهدف الخامس ، وسوف نأتي على ذلك بالتفصيل .

الأسباب المباشرة للحرب

١- الحشود الإسرائيلية ضد سوريا :

وهذا العامل لا يخلو من خداع إسرائيلي غربي ، ولكنه يدل أيضاً على قومية ناصر ، وانتمائه العربي الأكيد .

وقد أحسنت إسرائيل التمثيل بأنها تنوي مهاجمة سوريا ..

ففي ٥ نيسان شرع رئيس الوزراء الإسرائيلي ليفي اشكول ، ورئيس هيئة الأركان إسحاق رابين في تهديد سوريا ، ويعلنان عن زحف قريب نحو دمشق ..

وفي ٧ نيسان ١٩٦٧ قامت الطائرات الاسرائيلية بغارة على سوريا أسقطت خلالها ٦ طائرات سورية من نوع ميج السوفييتي .

وتلقى ناصر رسالة من الزعيم السوفييتي بدجورني عن استعدادات إسرائيل لتوجيه ضربة لسوريا .

كما تلقى رسالة أخرى من صلاح الطرزي سفير سوريا في موسكو تؤكد هجوماً إسرائيلياً على سوريا في الفترة ما بين ١٦ و ٢٢ أيار (٧) .

وفي ١٦ أيار ، زار وزير الخارجية السوري إبراهيم ماخوس مصر ، واجتمع بناصر ، وأكد له وجود الحشودات الاسرائيلية ضد سوريا ، وتأكيدات السوفييت لذلك (٨) .

وهنا يطرح المؤرخ الكبير محمد حسنين هيكل السؤال الحق ويتركه بدون إجابة :

" ولست أعرف ماذا كانوا يقولون عنه أو عن مصر لو أنه وقف ساكتاً ، ولم يتحرك ، وترك سوريا للغزو وحدها ؟ " (٩) .

والجواب بالطبع : لظهرت علينا تصريحات يزعم أصحابها أنها خطيرة ، ومؤلفات جديدة ، ومراجع كثيرة ، يزعم مؤلفوها أن ناصر قد خان الأمة ، وسلم الأوطان ، وأنه لا يتقن إلا فن الخطابة ..!

وقد كان رد عبد الناصر السريع في ١٣ أيار ، بإصداره الأوامر بحشد قوات مصرية في سيناء تأهباً للغزو القادم الوشيك (١٠) .

تأكيدات سورية

وفي اجتماع مجلس الدفاع العربي في القاهرة في آذار ١٩٦٧ ، ألح الوفد السوري على طلب الطائرات والمدافع المضادة للطائرات توقعاً لهجوم إسرائيلي على سوريا (١١) .

وفي ١٣ أيار قامت سوريا بإبلاغ مجلس الأمن بأن التهديدات الإسرائيلية هي تمهيد لعدوان الإسرائيلي ضد سوريا (١٢) .

تأكيدات إسرائيلية - سوفييتية..

وها هو وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان يطلب من سفراء إسرائيل في الخارج " أن يعربوا عن أن إسرائيل قد تضطر لاستخدام القوة ضد سوريا " (١٣) ، وكأنه يهيء العالم لما إسرائيل مقبلة عليه ، او يريد جس نبض الأعداء والأصدقاء على السواء .

كما أعلن إسحاق رابين رئيس أركان الحرب الإسرائيلي في ١٢أيار ١٩٦٧ :" إننا سوف نشن هجوماً خاطفاً على سوريا ، وسنحتل دمشق لنسقط الحكم فيها ، ثم نعود " (١٤) .

وأعلن ليفي إشكول رئيس وزراء إسرائيل "أن إسرائيل مستعدة لاستخدام القوة ضد سوريا "(١٥) .

ولما تلقى محمود رياض رسالة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي التي يطلبون فيها موافقة مصر على وقف العمليات العسكرية ، قال في رده :

" لقد حشدنا قواتنا في سيناء بناء على المعلومات التي أرسلها إلينا الاتحاد السوفييتي عن نية إسرائيل بالهجوم على سوريا .

وأن السفير السوفييتي بالقاهرة قد أيقظ الرئيس جمال عبد الناصر لكي يبلغه بان الاتحاد السوفييتي يطلب من مصر عدم القيام بهجوم على إسرائيل ، وهو نفس ما أبلغتنا به الولايات المتحدة رسمياً " (١٦) .

٢- إغلاق مضائق تيران :

وفي ٢٣ أيار ١٩٦٧ ، أعلنت القيادة المصرية إغلاق خليج العقبة عند مضائق تيران أمام السفن الإسرائيلية (١٧)، فاكتملت بذلك الحجج الإسرائيلية أمام الرأي العام ، فقد غدت مظلومة مهيضة الجناح ، والعرب يهددونها من كل جانب .

ومع أن كل الأدلة - خاصة ما ظهر فيما بعد من مذكرات ومؤلفات - تثبت النوايا الإسرائيلية لمهاجمة مصر والعرب ، فقد خلقنا لهم بهذا الإغلاق عذراً لم يحلموا به للهجوم على الدول العربية المجاورة ، وبالذات مصر الغاية والهدف دائماً ..

٣- طلب إنسحاب القوات الدولية من سيناء :

أما أمر ناصر بانسحاب القوات الدولية من صحراء سيناء ، والتي كانت تفصل بين الفريقين المتحاربين ، ففيه كلام كثير ، ونحاول هنا اختصاره بأقل ما يمكن ..

فقد " طلبت مصر من الأمم المتحدة تجميع قوات الطوارىء الدولية التي تحتل نقاط مراقبة على الحدود المصرية الإسرائيلية في قطاع غزة ، ولكن الأمين العام يوثانت قال إنه من الناحية الشكلية والقانونية لا يستطيع تنفيذ الانسحاب الجزئي لقوات الطوارىء الدولية ، فإما أن تنسحب كل القوات أو لا تنسحب على الإطلاق ، ولم يكن أمام مصر سوى الانسحاب الكلي للقوات " (١٨) .

وفي كتابه " ناصر" يصادق الكاتب ووزير الخارجية البريطاني الأسبق الإنجليزي أنتوني ناتنج (١٩٢٠-١٩٩٩) على الرواية السابقة ،ولكنه يشكك في نوايا يوثانت ، فيضيف بعد أن يحمّل ناصر مسؤولية هذا التصعيد :

" ولكن في الوقت نفسه يبدو غريباً نوعاً ما ألا يقترح يوثانت ، في ضوء هذا الوضع الخطير ، الاجتماع مع عبد الناصر في القاهرة إلا بعد أن تلقى طلباً رسمياً من عبد المنعم رياض بالانسحاب الكامل لقوات الطوارىء الدولية ، والأغرب من هذا أنه بالرغم من ترحيب الرئيس عبد الناصر بحرارة بفكرة الزيارة ، فإن السكرتير العام لم يشرع في القيام بها إلا بعد أربعة أيام أخرى ، وخلال هذه الفترة قرر عبد الناصر نهائياً إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية "(١٩) .

وشكوك ناتنج في مكانها ، فهل كان هناك تنسيق بين يوثانت وإسرائيل أو أميركا بترك ناصر يتخذ قراراته الحاسمة لخلق العذر لإسرائيل بالشروع في الحرب ؟

كما يشكك بعض الباحثين في توجهات يوثانت ، ويرى أن له ميولاً نحو إسرائيل ، فقد كتب الكاتب الصهيوني دافيد كمشي "أنه حينما كان أوثانت سفيراً بالولايات المتحدة

صرح لوفد من اليهود الأمريكيين سنة ١٩٥٨ بأن اليهود شعب آسيوي في الأصل ، وأن الآسيويين يرحبون بعودتهم إلى قارتهم الأصلية " (٢٠) .

ويضيف **أمين هويدي** مدير المخابرات المصرية والمستشار السابق لناصر بعض الشرح لهذه القضية ، فيقول :

" وسوف تكشف الأيام عن أبعاد التآمر الذي اتفق عليه ، وعن الأدوار التي خصصت للاعبين ، وقد لوحظ منذ بداية الأحداث إصرار كامل على عدم تهدئة الموقف ...

فالقاهرة لم تطلب سحب قوات الطوارىء الدولية ، ولكنها طلبت أن تعيد هذه القوات تجميع نفسها في أماكن خاصة ، حتى لا تتعرض لأي صدام محتمل ، إلا أنه روي سحب القوات بصفة شاملة .

ثم لم تغلق مصر خليج العقبة غلقاً كاملاً بل سمحت بمرور القوافل الاسرائيلية .

واستجابت مصر للاتصالات الدولية لكي لا تبدأ بالعدوان ، بل وافق عبد الناصر على إرسال بعثة برئاسة السيد زكريا محي الدين لندون جونسون رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، وحدد ٥ يونيو ١٩٦٧ موعداً لسفر البعثة وهو نفس اليوم الذي حدث فيه العدوان . ! " (٢١) .

أما مسئولية القرارين فهي تعود إلى القيادتين السياسية والعسكرية معاً ، إذ يفيدنا أمين هويدي أيضاً بأن قرار الإغلاق لم يكن من عبد الناصر وحده ، فقد صدر " بعد اجتماع القائد السياسي مع القائد العسكري ، وموافقة الأخير على أن الأمر يستدعي هذه التعبئة ، ويستدعي حشد قواته في سيناء على عجل ، كما يتضح من المؤتمرات التي رأسها ، والمسجلة في سجلات الحرب .

" ولم يصدر قرار غلق خليج العقبة إلا بعد اجتماع القيادة السياسية بكامل أعضائها ، ولم يعترض أحد على هذا القرار ، ووافق المشير عامر ضمن من وافقوا على القرار ، واتخذ الإجراءات المعقدة اللازمة لتنفيذه .

كما أن سحب قوات الطوارىء الدولية تم بخطاب صادر من مكتب القائد العام للقوات المسلحة وقع عليه رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة "

ويضيف أمين هويدي ما يفيدنا بمدى نفوذ عامر في مثل هذه القرارات الصعبة ، فيقول :

" ولو أن القائد العسكري اعترض على أحد هذه القرارات لكان له تأثيره الحتمي ، ولا يمكن لأحد أن يصدق أن عبد الحكيم عامر كان عاجزاً عن الاعتراض .

فلا يجوز والحالة هذه أن يقال أن القرار السياسي اتخذ من وراء ظهر القيادة العسكرية .

ولا يجوز - في نفس الوقت- أن يقال أن القرار السياسي اتخذ من وراء القيادة السياسية " (٢٢) .

وجاء رأي **هيكل** مطابقاً لما أورده أمين هويدي ، فقال في كتابه " لمصر لا لعبد الناصر " :

" ودعيت اللجنة التنفيذية العليا لاجتماع طارىء، وطرح أمامها موضوع إغلاق خليج العقبة ، وقررت اللجنة العليا بإجماع الآراء إغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية تمسكاً بحق السيادة ، ونزولاً على مقتضيات حالة الحرب ، واستجابة لمطلب عربي ملح ، ثم إقراراً بأمر واقع نشأ عن سحب قوة الطوارىء الدولية من كل سيناء .

اللجنة كلها ، بإجماع الآراء ، قررت ، ولم يكن قراراً انفرادياً من جمال عبد الناصر " (٢٣) .

يقول ناصر في خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦٧ :

" في يوم ٢٣ مايو أعلنا إغلاق خليج العقبة بالنسبة للسفن الإسرائيلية ، بعد كده بالتغييرات السياسية التي تمت في إسرائيل في بداية شهر يونيو ، ومع متابعتنا لما يجري هناك أصبح احتمال الحرب١٠٠% " (٢٤) .

أميركا تضاعف مساعداتها لإسرائيل

وتحقيقاً لما سلف من غايات ، تضاعف أميركا من مساعداتها لإسرائيل تمهيداً للعدوان .

فقد كان مجموع مساعداتها العسكرية لها ١٢ مليون دولار عام ١٩٦٥ ، ارتفع إلى ٩٠ مليون عام ١٩٦٦ ، أي بزيادة ٥٥٠% .

وارتفعت المساعدات الاقتصادية والعسكرية لها من ٦١ مليون عام ١٩٦٥ ، إلى ١٢٦ مليون عام ١٩٦٦ ، أي بزيادة ١٠٠% .(٢٥)(حلم ٩٩) ، وإمعاناً في الخداع ، أعلنت أميركا أنها لن تدعم الطرف الذي يبدأ بالقتال ، وقد ثبت دعمها ومشاركتها في الأعمال القتالية ضد مصر خلال الحرب (٢٦).

وسيأتي شرح ذلك في الصفحات القادمة .

عبد الناصر يحاول تجنب الصدام

ويثبت سير الأحداث والأبحاث أن عبد الناصر - بحكمته المعهودة ، وخبرته العميقة - قد حاول تجنب الصدام المسلح مع إسرائيل ، لأسباب عدة ، منها :

١- إدراكه العميق أن مثل هذا الصدام مع إسرائيل سيدفع الولايات المتحدة إلى التدخل إلى جانب حليفتها إسرائيل ، وحتى لو حصل الانتصار العربي فإن أميركا سوف تحبطه وتجهضه .(وقد حصل ذلك كما سيأتي) .

٢- كان يرى أن القوات المصرية بحاجة إلى ١٥ عاماً لاستيعاب السلاح السوفييتي الحديث ، وكان يقيس ذلك ابتداء من عام ١٩٥٧، لذا كانت الفترة المناسبة للوصول إلى هذا الاستيعاب لن تكون قبل عام ١٩٧٢ .(وهذا يدل على ذكاء حاد وخبرة عميقة ، فقد صح ذلك - بصورة شبه تامة- لاحقاً وبالذات في حرب أكتوبر).

٣- كان ناصر يرى أنه بوجود إسرائيل بين الدول العربية ، فإن إحكام الحصار العربي عليها ممكن بعدم التعامل معها ، وتشديد الضغط عليها ، ليؤدي ذلك إلى سقوطها ، فلا يجيء استعمال السلاح ضدها إلا في مرحلة لاحقة مناسبة ، بتحقيق انتصارات متتالية عليها ، فتكون النهاية فشل المشروع الصهيوني في فلسطين (٢٧) .

أما هذه النقطة فهي بحاجة للنقاش ...

فمقاطعة إسرائيل اقتصادياً وسياسياً لوجودها بين الدول العربية لا يكون لها كبير الأثر كما لو كانت تقع في وسطها تماماً ، فطوال العهد الناصري لم يكن للعرب علاقات معها ، فهل كان لهذه المقاطعة أثر يعول عليه ؟ والسبب انفتاحها على البحر المتوسط من جهة الغرب ، بجانب عبور البواخر إليها من البحر الأحمر، لتنفتح أمامها قارات العالم الخمس .

وتأتي المساعدات الأمريكية لإسرائيل خير منجد لها وخير معين ، ولا أظن أن أحداً يشك في قوة الاقتصاد الأمريكي ونفوذه ، وأثره على الاقتصاد العالمي ، فكيف بتبنيه دعم دولة واحدة كإسرائيل .

وماذا عن دعم دول الغرب المتواصل لها ، فهل بإمكان الحصار العربي إيقاف هذا السيل العرم من المساعدات العلمية والاقتصادية والعسكرية .

فهل كان الزعيم الراحل يقصد حصار إسرائيل من البحرين الأحمر والأبيض المتوسط مثلاً ، وهل هذا ممكن في ظل حالة التمزق العربي الراهنة ؟

دايان يتولى وزارة الدفاع

وفي الأول من حزيران ، يبلغ ليفي أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي رئيس الأركان الأسبق موشيه دايان(١٩١٥-١٩٨١) موافقة مجلس الوزراء على تعيينه وزيراً للدفاع ، فكان تعليق دايان على ذلك ما قاله " لونستون تشرشل الابن في حديث صحفي نشر في اليوم التالي ، فإن وصول ٨٠ ألف جندي مصري إلى سيناء كان السبب في عودتي مرة أخرى إلى الوزارة "(٢٨) .

خداع أمريكي

وتبقى الجهود الأمريكية موجهة لخدمة إسرائيل ، فلا تعبأ بمبادىء أو تعهدات ، أو مواثيق أو أخلاق ، فكيف إذا كان الموقف المطلوب متعلقاً بمسائل مصيرية .

يقول ناصر في خطاب ٢٣ يوليو ١٩٦٧:

" إننا تعرضنا لخديعة دبلوماسية.. لعملية تضليل سياسى خطيرة لم نتصور أن تقدم عليها دولة كبرى أو قوة كبرى، الخديعة السياسية كانت من أمريكا، خطابات الرئيس الأمريكى، ومناشدات الرئيس الأمريكى، وطلبوا منا ان احنا نتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة، وكلامه أنه مستعد يبعت نائب الرئيس ، وأنه مستعد يبحث معانا كل الأمور والوسائل التى تخرج العالم كله من الأزمة.

جاء الأمين العام للأمم المتحدة، تعاونا مع الأمين العام للأمم المتحدة إلى أقصى حد، طلب منا مهلة، واحنا وافقنا بالنسبة لخليج العقبة، وقال إنه هو عايز هذه المهلة لكل الناس علشان تستطيع أن تتنفس وتتدبر أمورها.

إن مافيش سفن إسرائيلية تمر فى القناة، ومافيش شحنات استراتيجية أيضاً لإسرائيل تمر بالقناة، وفى نفس الوقت احنا ما نمارسش عملية التفتيش. قبلنا هذا الموضوع ، اعتبرناه حل من السكرتير العام للأمم المتحدة ، بحيث يدى مهلة للوقت للجميع ليبحثوا الموضوع.

بعد كده وصل مبعوث للرئيس الأمريكى هنا، واتكلم المبعوث على أساس ان أحد نواب الرئيس يسافر إلى أمريكا، وأنا وافقت على الفكرة على أساس أنه يقابل الرئيس "جونسون" ويشرح له موقفنا، وبعثت بعد كده للرئيس الأمريكى رسالة وقلت له : ان احنا بنرحب بزيارة نائب الرئيس الأمريكى ، ولكنى فى نفس الوقت مستعد ان أنا أبعت

نائب الرئيس زكريا محيى الدين إلى واشنطن علشان يقابلك ويشرح لك وجهة النظر العربية ، طبعاً فى اليوم التالى جالى الرد إنهم يرحبوا بسفر زكريا محى الدين إلى واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكى، وطلبوا مننا تحديد الموعد، حددنا الموعد يوم الثلاثاء ٦ يونيو، وكلنا نعرف إن العدوان بدأ يوم الاثنين ٥ يونيو ..

كل دا حصل قبل المعركة، كان خديعة!! خديعة لحساب مين؟ علينا أن نتساءل طبعاً خديعة لحساب العدوان الإسرائيلي الاستعماري، خديعة لحساب خطة أمريكية وضعت ودبرت لنا، وباقول من سنتين، الغرض منها القضاء على الأنظمة الثورية الحرة اللى ما بتسمعش كلام الدول الكبرى، واللى ما بترضاش تقعد فى مناطق النفوذ "(٢٩) .

وكم كان الموقف الأميركي مضللاً ..يقول محمود رياض وزير الخارجية المصري آنذاك :

" ففي الوقت الذي كانت فيه واشنطن تبعث إلينا فيه بالرسل للتوصل لحل سلمي للأزمة ..

وفي الوقت الذي كان فيه يوجين روستو يستدعي السفير المصري في واشنطن ، ليؤكد له أن الولايات المتحدة سوف تناهض العدوان بقوة ، ويؤكد له باعتباره وكيلاً لوزارة الخارجية الأميركية أن إسرائيل لن تبدأ الحرب مطلقاً ..

وفي الوقت الذي يحدد لنا فيه جونسون يوم الخامس من يونيو بالذات موعداً لاستقبال زكريا محي الدين ...

في هذا الوقت كله ، وخلال هذا الوقت كله ، كان جونسون وكبار مساعديه يعرفون على وجه الدقة أن إسرائيل سوف تشن الحرب ضدنا يوم ٥ يونيو ، بل ويتفاوض مع رئيس المخابرات الإسرائيلية على مجرى تلك الحرب " (٣٠) .

هذه هي أميركا التي فضل أنور السادات إقامة العلاقات الوثيقة معها ، ولأجل ذلك ، وليكسب رضاها التام - كما ظن- قام بإلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية في آذار عام ١٩٧٦ (٣١) .

تفسير لناصر ..

ويدلي عبد الناصر بتصريح مهم في ١٩ شباط ١٩٧٠ يفسر فيه بعض ما حدث في تلك الفترة ،فيقول :

" لم أرد شن الحرب سنة ١٩٦٧ ، والقادة الإسرائيليون يعرفون ذلك جيداً ، لم يكن في نيتي إقفال خليج العقبة بوجه السفن الإسرائيلية ، لم أطلب إلى يوثانت أن يسحب

قوات المتحدة من غزة وشرم الشيخ المشرف على مدخل الخليج ، لكن فقط من جزء من الحدود الممتدة من رفح إلى إيلات ..إلا أن أمين عام الأمم المتحدة قرر - بناء على نصيحة موظف أمريكي كبير في المنظمة - سحب جميع هذه القوات ليضعني في موقف المجبر على إرسال القوات المصرية إلى شرم الشيخ ، وإقامة الحصار ، وهكذا وقعنا في الفخ الذي نصب لنا "(٣٢) .

وعليه ، لا نستغرب أن يحمّل الرئيس الأمريكي جونسون سفيره لدى القاهرة رسالة لعبد الناصر يطالبه فيها عدم البدء في العدوان على إسرائيل ، وزادت أميركا على ذلك خداعاً آخر بتصريحها أنها ترحب بزكريا محي الدين لزيارة واشنطن للتباحث في حل النزاع سلمياً ، وظلت الزيارة معلقة حتى بدأ العدوان الإسرائيلي (٣٣) .

وخداع إسرائيلي ...

وفي ٣ حزيران يعقد وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان مؤتمراً صحفياً لا يذكر الحرب فيه بحرف واحد ، بل أوهم الحاضرين بحلول سلمية قادمة ، وقد قال عن هذا المؤتمر فيما بعد في مذكراته :

" وفي المؤتمر الصحفي تلوت ملخصاً عن الحالة ، ثم استمعت إلى الأسئلة ، وأجبت عليها ، ودارت كلها حول ما إذا كنت أظن أن الأزمة ستقرر في مجلس الأمن ، أو في ميدان القتال ، وحاولت أن أنقل انطباعاً بأننا نأمل في أن تحل في الأزمة من خلال الجهود الدبلوماسية " (٣٤) .

تحذيرات ناصر المتكررة من هجوم إسرائيلي

وقد ورد في التقرير الذي أعدته لجنة التحقيق في هزيمة حزيران ، والتي رأسها الفريق عبد المنعم رياض ما يلي :

يوم ٢٥ مايو (أيار) ناصر يجتمع بقادة القوات المسلحة ، ويرجح احتمال الحرب بنسبة ٦٠% .

يوم ٢٨ مايو ، اجتماع آخر لناصر في مقر القيادة العليا للقوات المسلحة يشرح فيه آخر تطورات الموقف السياسي .

يوم ٢٩ مايو اجتماع آخر لناصر مع القيادة ويرجح فيه احتمالات الهجوم بنسبة ٨٠ %

وفي اجتماع آخر- لا يذكر هيكل تاريخه - يرفع عبد الناصر نسبة حصول الهجوم الإسرائيلي إلى ٩٠% (٣٥) .

ولكن ما صرح به الزعيم الراحل في اجتماع عسكري سياسي **يوم الجمعة ٢حزيران ١٩٦٧** لا يترك مجالاً لمؤرخ بأن مسئولية الهزيمة تقع على القيادة العسكرية بنسبة ٩٥% أو أكثر ، وقد حضر الاجتماع المشير عبد الحكيم عامر وأنور السادات وزكريا محي الدين وحسين الشافعي وعلي صبري وقادة القوات المسلحة .!(٣٦).

فقد ذكر ناصر أن نسبة الهجوم ١٠٠% ، وحدد موعد الهجوم الإسرائيلي في مدة يومين أو ثلاثة (أي ٤ أو ٥ حزيران) ..وفي رواية الفريق محمد فوزي " إلا أنه عاد فأكمل حديثه الذي كان أقرب إلى تأكيد إنذاري بأن إسرائيل ستبدأ هجومها يوم ٥ يونيو "(٣٧) .

رأي المخابرات المصرية

ومع أن مدير المخابرات آنذاك صلاح نصر يرى أن المخابرات الحربية تقع عليها مسئولية وضع المعلومات العسكرية أمام القيادة السياسية ، فهو يضيف :

" أنه يوم ٣ يونيو وصلت الساعة الثامنة مساء رسالة من المخابرات الإيطالية قالت فيها أنه صدرت الأوامر في إسرائيل بتعزيز استعدادات المقاومة والوقاية المدنية ، استعداداً لرد الفعل الناتج عن هجوم إسرائيلي مفاجيء .. وكانت المخابرات يوم ٣ يونيو قد حددت عن طريق مصادرها الخاصة أن إسرائيل ستقوم بضربتها الأولى خلال ٤٨ ساعة ، وعلى أساس هذه المعلومات عقد عبد الناصر المؤتمر السياسي العسكري في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وحضره نوابه وقائد الطيران الفريق صدقي محمود وبعض القادة العسكريين ... وأن المعلومات التي تم الحصول عليها بمعرفة إدارة المخابرات الحربية عن طريق مكاتبها في كل من غزة والعريش ومصادر أخرى كانت كافية تماماً ، وتوضح حجم قوات العدو وأوضاعه ، ونواياه المحتملة " (٣٨) .

وشرح ناصر تصوره للمعركة الوشيكة قائلاً :

"ستقوم على أساس توجيه إسرائيل ضربة جوية ضد قواتنا ودفاعنا الجوي حتى يتم شلها وإخراجها من المعركة ... وطلب من العسكريين الاستعداد لتلقي هذه الضربة ، واتخاذ ما يلزم لتقليل خسائرها إلى الحد الأدنى ، حتى يمكننا بعدئذ توجيه ضربة رادعة ضد قوات العدو الجوية " (٣٩) .

وقد ذكر هذا أيضاً في خطاب له في ٢٣ يوليو١٩٦٧ ، فقال :

" وقلت في هذا الاجتماع يوم الجمعة - ٢ يونيو - أنه لابد لنا أن نتوقع ضربة من العدو في خلال ٤٨ ساعة إلى ٧٢ ساعة لا تتأخر عنها أبداً ، على أساس كل ما كانت تشير به دلائل الحوادث والتطورات، وقلت أيضاً في هذا الاجتماع إنني أتوقع أن يكون العدوان يوم الاثنين ٥ يونيو ، وأن الضربة الأولى ستوجه إلى قواتنا الجوية ، وكان موجود في الاجتماع قائد الجوية .. "(٤٠) .

إذن .. ما الذي بقي لدى القيادة السياسية متمثلة في الرئيس ولم تخبر به السادة قادة القوات المسلحة ؟

وما هي المعلومات الإستخباراتية التي كانوا ينتظرون الحصول عليها من رئيسهم ليتقوا الضربة القادمة ؟ خاصة وأن ناصر قد حدد الهدف الأول للهجوم الجوي وهو القوات الجوية .

إن قراءة السطور السابقة تترك المؤرخ الحصيف نهباً للشكوك بأن هزيمة حزيران على الجبهة المصرية كانت مقصودة متعمدة !!

ويروي **محمد فوزي** الحوار الذي جرى حول هذه المرحلة الدقيقة قائلاً :

" حول هذه النقطة قام نقاش انحصر في الخسائر المحتملة لقواتنا الجوية ، وإمكانية توفير القدرة لها لشن ضربة مضادة ، وقد قدر الفريق أول صدقي محمود الخسائر المتوقعة في قواتنا الجوية من ١٥ إلى ٢٠ في المائة ، لكنه قال : إن هذا الإجراء يعني فقد المبادأة من جانبنا ، وربما أدت هذه إلى تكسيح قواتنا الجوية ، وقد نطق الفريق أول صدقي محمود "تكسيح" باللغة الإنجليزية (يقصد كلمة Cripple)

تطورت المناقشة التي اشترك فيها الرئيس والمشير عامر والفريق أول صدقي محمود إلى استحسان ملاقاة الضربة الجوية من إسرائيل أولاً ، بدلاً من فقد عطف العالم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، والتي قدر الرئيس عبد الناصر احتمال دخولها إلى جانب إسرائيل ، وما سيترتب على ذلك من موقف سيء بالنسبة لنا عالمياً .

وفي آخر المناقشة تم الاتفاق على اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية في قواتنا الجوية للتقليل من تأثير الضربة الجوية الأولى من إسرائيل ، وتوفير القدرة لها لشن ضربة جوية مضادة "(٤١).

ولا نجد فيما بين أيدينا من مراجع شيئاً يستحق الذكر من الإجراءات الوقائية التي اتخذها القواد المصريون وقواتهم للتقليل من تأثير الهجوم القادم ، بل ما نجده هو العكس تماماً .. الإهمال واللامبالاة ..

إسرائيل تستعد ١١ عاماً لحرب حزيران ...

ولننظر بشيء من التأمل إلى الطرف الآخر للصراع ، كيف تعاملت إسرائيل مع هزيمتها في حرب السويس ، وكيف استعدت للحرب القادمة ..

فبعد خوضها حرب السويس عام ١٩٥٦ ، أدركت إسرائيل قوة مصر ، وما يمكن أن تكون عليه مصر خلال السنوات التي تلت تلك الحرب ، وقد بدأت تتلقى السلاح السوفييتي الحديث ، والذي سيجعل مصر الستينيات غير مصر ١٩٥٦ ..

لذا صرفت إسرائيل ١١ عاماً في التحضير والتدريب للمعركة القادمة ..!

صرفتها في شراء الأسلحة الجديدة ..

أضافت خزانات لطائراتها لزيادة مداها لقطع مسافات أطول .

اتخذت ترتيبات خاصة فيما يخص الموازنة بين ما تحمله الطائرات من صواريخ وما تحمله من وقود .

حصلت على معلومات دقيقة عن الأهداف التي ستقصفها ، وطريقة قصف كل هدف .

اخترعت قنابل خاصة لتدمير الممرات ، وحددت طرق الاقتراب لكل هدف .

دربت طياريها على الطيران المنخفض لتفادي أجهزة الإنذار(٤٢) .

وصاحب ذلك كله نشرها جواسيسها في الدول المجاورة لها ، وكان منهم إيلي كوهين ، الذي ألقي القبض عليه وأعدم في سوريا في أيار ١٩٦٥، والجاسوس الألماني "ولفجانج لوتز" الذي تم اكتشاف أمره في مصر وتم استبداله ب٥٠٠ ضابط مصري أسير من أسرى حرب حزيران ، أما الطيار العراقي منير روفا فقد تمكن من الطيران بطائرة" ميج ٢١" من بغداد إلى إسرائيل ، فقام خبراؤها بفحصها ودراستها دراسة كاملة (٤٣) ،هذه الدراسة أثبتت لهم(كما ادعى خبراؤهم) أن طائرة الميراج الفرنسية أقوى من الميج السوفييتية ، وهذا ما زادهم ثقة قبيل خوضهم حرب حزيران لأن طائرات الطرف الآخر أمست معروفة مكشوفة (٤٤) .

معلومات وافرة عنا لدى العدو ..

وعليه ، لم يكن هناك لدينا شيء لم تطلع عليه إسرائيل لتخاف منه ..! فكل شيء كان مرصوداً مكشوفاً وربما منذ زمن بعيد ، فقد ورد في تقرير لجنة التحقيق في الهزيمة :

" كان الملاحظ دقة المعلومات المتوفرة لدى طياري العدو عن مطاراتنا ، توضح شكلها وأبعادها وأماكنها ، كذا مواقع الصواريخ الموجهة م ط ومناطق تدميرها على الارتفاعات المنخفضة ، ومواصفات أغلب محطات الرادار وأشكالها ، ومواصفات طائراتنا وخصائصها الفنية ، وكيفية التعامل معها ، ولهذا كان الاستطلاع بالنسبة للعدو مكتملاً ، ويفوق إمكانياته، لأن العدو لا يوجد لديه استطلاع إلكتروني ، وأن الفوتور(طائرة) لا يمكن أن تعطي الصورة الكاملة ، والمعلومات الدقيقة التي شوهدت على خريطة أحد قادة الأسراب الذي سقطت طائرته في الاعتداء يوم ١٩٦٧/٦/٥ ، ويُقصد بذلك أن العدو قد حصل على دعم كبير خارجي في ناحية الاستطلاع "(٤٥) .

ويؤكد الفريق أول محمد فوزي ما مضى ، فيقول بنبرة يفوح منها الحزن :

" أسئلة كثيرة تؤكد أن عناصر استطلاع ومخابرات إسرائيل عن قواتنا كانت جاهزة ودقيقة ، بل إني لا أستبعد أن ترددات شبكاتنا اللاسلكية والسلكية كانت سهلة المنال في أيديهم "(٤٦) .

وماذا نقول بعد ذلك ؟

المخفي أعظم

وهذه اعترافات خطيرة تدل على مدى الجهد المبذول من قبل قوات العدو وخبرائه للوصول إلى أدق التفاصيل عن قواتنا ومعداتنا ، بحيث لم يعد هناك أي جزئية - على ما يبدو- لم يحصلوا عليها ، ولا يهمنا هنا مصدر المعلومات بقدر ما يهمنا إدراكنا لعلمية عمل العدو ودقته ونجاحه .

ويطل علينا هنا السؤال المرير : ما هي المعلومات التي توفرت لديهم عنا ولم نعرفها بسقوط تلك الطائرة ؟

وفي المقابل يقول التقرير نفسه عما كنا نملكه من معلومات عن العدو:

" النقص الواضح في المعلومات عن الأهداف المعادية لدى الطيارين الذين سيقومون بتنفيذ الخطة الهجومية ، وان المعلومات التي كانت متيسرة تعتبر قليلة جداً " (٤٧) .

وبعد هذا كله لا نستغرب ما صرح به بن زوهار مؤرخ حياة بن جوريون قائلاً :" لم تغير أزمة السويس شيئاً من خطط إسرائيل التي كانت ستهجم على أية حال ، ولكنها سهلت لها أصعب الأمور ، وهو السلاح والحلفاء "(٤٨)

حشود ..

وبأرقام رئيس الأركان المصري خلال حرب حزيران ، ووزير الحربية فيما بعد الفريق أول محمد فوزي فإن ما حشدته القيادة المصرية في سيناء كان ١٠ آلاف ضابط ، و١٣٠ ألف جندي ، منهم ٨٠ ألفاً احتياط (٤٩) .

أما ما حشدته إسرائيل في سيناء فكان ٢٦٠ ألفا جندي وضابط من بين ٣٢٥ ألفاً كانت قد حشدتها للجبهات الثل

الفصل الثاني

الحرب

ورغم كل ما سبق من تحذيرات ، يؤخذ الجيش المصري وقادته على حين غرة ، وهذا من الأمور التي لا يصدقها رجل الشارع العادي ، فكيف بالعسكريين والباحثين !

ففي صباح يوم الإثنين الخامس من حزيران الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة - وهو توقيت دقيق يكون فيه القادة المصريون في طريقهم لقواعدهم فلا مجال للاتصال بها - توجهت أمواج الطائرات الإسرائيلية نحو المطارات المصرية في كل مكان في مصر ، بادئة بمحطات الرادار وأجهزة الدفاع الجوي ، وثنت عليها بالقواعد الجوية الموجودة في سيناء والقناة .

واستهدفت الطائرات المغيرة أولاً القواعد البعيدة في وادي النيل مثل بني سويف والأقصر ، ففيهما تتجمع الطائرات المصرية القاذفة التي تخشى إسرائيل مشاركتها في الحرب .

أما الموجة الثانية فقد استهدفت القواعد التي في سيناء والقاهرة مثل : العريش ، بير جفجافة ، بير تمادا ، جبل لبنى، أبو صوير ، كبريت ، أنشاص ، القاهرة ، غرب القاهرة (١) .

وحسب رواية دايان فقد شارك في الموجة الأولى من الهجوم الإسرائيلي ١٨٩ طائرة ، وفي الثانية ١٦٤ طائرة ، ليكون المجموع ٣٥٣ طائرة(٢) .

وفي رواية هيكل كان عدد الطائرات المشاركة في الهجمات جميعاً على الجبهة المصرية ٤٩٢ طائرة ، قامت بألف طلعة جوية (٣).

وفي رواية أحمد حمروش كان عددها ٤٠٠ طائرة (٤) .

وقد استغرقت الهجمات الجوية ثلاث ساعات إلا عشر دقائق فقط (٥) ، ولكنها كانت كافية لإنجاز المهمة المطلوبة بامتياز .

وقد استخدمت اسرائيل طائرات ميراج ٣ و ٥ الفرنسية ، أما طائرات الفوتور فقد استخدمت لقصف المطارات البعيدة مثل الأقصر وراس بناس (٦) .

ويضيف الأستاذ المؤرخ أحمد حمروش :

" كان ضياع القوات الجوية مؤشراً لنتيجة المعركة .

وكان دليلاً على أن خطة العدوان الإسرائيلي قد اختمرت وجهزت منذ وقت طويل أولاً ، وأنها اعتمدت على القوة الذاتية ثانياً "(٧) .

وواضح أن الهجوم الإسرائيلي- الذي بدأ الساعة ٨،٤٥ صباح يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ كان مكثفاً ومخططاً بعناية ، وان خرائط القادة المهاجمين كانت دقيقة ، فقد وصلت الطائرات الإسرائيلية للمطارات المصرية في مختلف مواقعها وأصابت أهدافها بدقة.

وفي مذكرات وزير الحربية المصري الأسبق الفريق أول محمد فوزي(١٩١٥-٢٠٠٠) معلومات غزيرة عن أوضاع مصر العسكرية خلال حرب ٦٧ وما بعدها ..

فقد تم قصف محطات الرادار وأجهزة الدفاع الجوي ، وقصفت في سيناء ٤ مطارات، وفي منطقة القناة ٣ مطارات ، وحتى مطار مدينة المنصورة تم تدمير ما عليه من طائرات (٨). وهنا لا بد أن نأخذ برأي الفريق فوزي بالنسبة لأعداد الطيارين ، فهو يشير إلى النقص الشديد في عدد الطيارين المقاتلين المصريين، والطيارين المهندسين ، لدرجة تأثرت بها القوات المسلحة ، وكان على مصر أن لا تدخل في أي صراع مسلح في ظل هذا النقص (٩) .

وقد تمكن ٣٠ طياراً مصرياً من التحليق والاشتباك مع الطائرات الاسرائيلية ، فاستشهد منهم ١٢ طيارا ، أما قوات الدفاع الجوي فقد أطلقت صواريخ السام إلا أن إصاباتها لم تكن دقيقة لضعف التدريب (١٠) .

وعن المحاولات العربية للرد ، وعن الهجمات اللاحقة على الأهداف العربية الأخرى يقول المؤرخ أحمد حمروش :

" حاولت بعض الطائرات السورية ضرب مصفاة البترول في حيفا ، وقصف مطار ماغادو بالقنابل ، ولكن الطائرات الإسرائيلية لحقت بها ودمرتها قرب دمشق ، بعد أن ألحقت بإسرائيل خسائر جسيمة .

وقصف الطيران الأردني مطاراً إسرائيلياً دمر فيه طائرة نقل ، ورد الإسرائيليون على هجوم الطيران الأردني المحدود العدد ، فقصفوا مطار عمان والمفرق وألحقوا بهما خسائر فادحة .

وفي صباح ذلك ٦ يونيو قصف الطيران العراقي ناتانيا ، فرد الإسرائيليون بتدمير قاعدة ٣ القريبة من الحدود الأردنية .

في مساء ذلك اليوم كانت ٤١٦ طائرة حربية لأربع دول عربية قد دمرت وهي جميعاً على أرض المطارات ، عدا ٢٤ طائرة أسقطت إثناء المعارك في الجو، وخسرت إسرائيل ٣٧ طائرة "(١١). وفي رواية إسرائيلية خسر العرب ٣٩٠ طائرة ، أما خسائر مصر وحدها فقد كانت ٣٠٠ طائرة جرى تدميرها في ١٧ مطاراً (١٢) .

وقد رجح بعض الباحثين مشاركة القوات الجوية الأمريكية والبريطانية في العدوان ، فقد أذاعت دمشق تسجيلاً لطيار إسرائيلي يؤكد انضمام ١٧ طائرة بريطانية للطيران الإسرائيلي قبل الحرب بعشرة أيام (١٣) .

وفي خطاب استقالته ، أكد عبد الناصر وجود قوى أخرى شاركت إسرائيل هجومها الواسع على دول المواجهة العربية ، فقال :

"..مما يوحي منذ اللحظة الأولى أن هناك قوى أخرى وراء العدو، جاءت لتصفى حساباتها مع حركة القومية العربية ، ولقد كانت هناك مفاجآت تلفت النظر" (١٤) .

وبعد اكتساح المطارات ، شرعت الطائرات الإسرائيلية في الهجوم على القوات المصرية البرية ، وشاركتها في الهجوم القوات البرية ، فبعد أن حاصرت غزة ، هاجمت مدرعاتها خان يونس ورفح والشيخ زويد والعريش ، وتم احتلال هذه المواقع بعد قتال عنيف ، ومقاومة باسلة ، ورغم غياب الغطاء الجوي فقد كان هناك وحدات قاتلت بكل بسالة وعناد (١٥) .

وقد طبقت القوات الإسرائيلية مقولة عيزر وايزمان (١٩٢٤-٢٠٠٥) قائد القوات الجوية عام ١٩٥٨- ١٩٦٦ ، فقد صرح عام ١٩٦٣ :

" في حالة الحرب مع العرب ، فإن أفضل وسائل الدفاع هو تجنب العمليات فوق أرض إسرائيل ، والعمل على تهديد دمشق ، واحتلال الضفة الغربية ، والاندفاع نحو قناة السويس ، فلو اكتفت إسرائيل بالدفاع عن تل أبيب ، فسيكون ذلك انتحاراً جماعياً ، إذ ليس أمامها أي عمل استراتيجي بري ، لذلك فإن العمل الاستراتيجي يجب أن يكون هو العمق الجوي " (١٦) .

فأي قراءة للمستقبل هذه ، وأين نحن من هذا العلم العميق بمقتضيات الصراع والقتال ؟ .

وعليه ، كانت ساح المعارك صحراء سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان ، عدا بعض الهجمات على إسرائيل والتي تم إجهاضها باكراً ، ودفعت مصر - الهدف الأول لكل هجوم ولكل حرب - الثمن الباهظ لتلك الحرب التي حقق صانعوها بعض غاياتهم منها .

مأساة الانسحاب من سيناء

وبعد أربع وعشرين ساعة من بدء القتال على الجبهة المصرية ، لم يكن هناك من الخيارات الكثير ، كان قرار الانسحاب ، والمختلف عليه بين المؤرخين ، فهل كان صاحبه عامر أم ناصر !

وليست المشكلة في صاحب القرار بقدر ما هي المشكلة في أسلوب تنفيذه ، ففي حرب السويس كانت الأوامر بأن تظل فرق من الجيش تشاغل وتقاتل الجيش الإسرائيلي المندفع في سيناء حتى آخر طلقة وآخر رجل ، ريثما تتم عملية انسحاب الفرق الأخرى كلها ،وذلك لحماية الجيش المنسحب من الاشتباك مع الجيش الإسرائيلي ، وقد تم ذلك بنجاح وبأقل الخسائر (١٧) .

أما في حرب حزيران فلم تكن هناك خطة للانسحاب ...!

ويقدم لنا وزير الحربية الأسبق **أمين هويدي** وصفاً موجزاً لعملية الانسحاب المحزنة ، فيقول :

" .. وللحق ، فإن المشير عامر كان قد كلف مجموعة عمل خاصة بعد ظهر يوم ٦ يونيو ١٩٦٧ لعمل خطة عامة للانسحاب ، وهذه المجموعة أشارت عليه بأن يتم الانسحاب على ثلاث ليالٍ إلى مناطق المضايق ، ولكن حينما عرضت خطتها على المشير ذكر لهم أنه أصدر تعليماته للوحدات مباشرة بالانسحاب إلى غرب القناة !!

وبزغت شمس يوم ٧ يونيو على آلاف العربات والمعدات والمركبات والأفراد وقد اكتظت بها الطرق ، وتوقفت المركبات القادمة من الطرق العرضية لمرور القوات من الطرق الرأسية ، وتوقف المرور بدوره في الطرق الرأسية لأن الطريق استقبل أكثر من طاقته من العربات والمعدات ، وأصبحت قواتنا في سيناء لقمة سائغة للقوة الجوية المعادية .

فالقوات كلها أرجلها في الهواء ..لا قوات في المواقع تحمي انسحاب القوات الأخرى .. والطرق مسدودة .. والكباري لا تسمح بالمرور المتدفق .. وحدث ما حدث .."(١٨) .

لذا أصبحت القوات المنسحبة غرضاً سهلاً لوابل من الصواريخ والقنابل والنابالم من طائرات العدو الذي لم يحلم بأن يكون نجاحه بهذا القدر ..

وعن هذا الانسحاب يقول الفريق صلاح الحديدي :

" وصلت الفوضى نتيجة إتباع هذا الأسلوب أن قراراً تاريخياً ضخماً وهو الانسحاب والجلاء عن سيناء بكافة القوات قد اتخذ دون الرجوع إلى المستشارين والمحترفين ، بل ظلوا جاهلين به فترة من الوقت حتى أحسوا برد فعله عن طريق المصادفة ، فحاولوا الأخذ بزمام الموقف دون جدوى "(١٩) .

ومع ذلك ، كان هناك قتال بين القوات الإسرائيلية المندفعة غرباً والقوات المصرية ..

ففي صباح ٧ حزيران اشتبكت ألوية الفرقة الرابعة مع القوات الإسرائيلية في وادي الجدي وطريق الإسماعيلية والمدخل الغربي لمضيق متلا (٢٠) .

وفي ٨ حزيران دارت معركة في منطقة رمانة بين مجموعة مصرية مكونة من عشرين دبابة مع قوات العدو المتقدمة على الطريق الساحلي ، واشترك في المعركة طائرات للطرفين (٢١) .

وفي رواية **الفريق أول محمد فوزي** ما يعطينا فكرة واضحة عن مأساة الانسحاب ، وهوية الذي اتخذ القرار ، يقول فوزي :

" ..وقد طلبني **المشير** بعد ظهر يوم ١٩٦٧/٦/٦ ، قائلاً لي : عاوزك تحط لي خطة سريعة لانسحاب القوات من سيناء إلى غرب قناة السويس ، ثم أضاف : وأمامك ٢٠ دقيقة فقط .

فوجئت بهذا الطلب ، إذ أنه أول أمر يصدر إلي شخصياً من المشير ، الذي كانت حالته النفسية والعصبية منهارة ، بالإضافة إلى أن الموقف لم يكن يسمح بالمناقشة أو الجدل ، أو معرفة دوافع التفكير في مثل هذا الأمر ، فقد كانت القوات البرية في سيناء عدا قوات الفرقة ٧ مشاة متماسكة حتى هذا الوقت ، ولم يكن هناك ما يستدعي إطلاقاً التفكير في انسحابها .

أسرعت إلى غرفة العمليات حيث استدعيت الفريق أنور القاضي رئيس الهيئة ، واللواء تهامي مساعد رئيس الهيئة ، وجلسنا فترة قصيرة نفكر في أسلوب وطريقة انسحاب القوات ، بعد أن أعطيت طلب المشير إلى كليهما ، وانتهى بنا الموقف إلى وضع خطوط عامة جداً ، وإطار واسع لتحقيق الفكرة ، ودونها اللواء تهامي في ورقة ، وكان هذا الإطار يحدد خطوط انسحاب القوات ، وتوقيت التمركز في هذه الخطوط .

توجهنا نحن الثلاثة إلى المشير ، وكان منتظراً خلف مكتبة واضعاً إحدى ساقيه عل كرسي المكتب ، ومرتكزاً بذقنه على ساقه الموضوعة فوق الكرسي .

بادرت المشير بقولي :" على قدر الإمكان ، وقدر الوقت ، وضعنا خطوطاً عامة لتحقيق فكرة سيادتك ، ونرجو الإذن بأن يقرأها اللواء تهامي ، وبدأ اللواء تهامي في القراءة بقوله : ترتد القوات إلى الخط كذا .... يوم كذا ، ثم إلى الخط ... يوم كذا ، وأن يتم ارتداد القوات بالتبادل على هذه الخطوط لحين وصولها إلى الخط الأخير غرب قناة السويس بعد أربعة أيام من يوم البدء في الانسحاب - أي أن يتم الانسحاب في أربعة أيام وثلاث ليال .

عندما سمع المشير الجملة الأخيرة الخاصة بتحديد مدة الانسحاب ، رفع صوته قليلاً موجهاً حديثه لي : " أربعة أيام وثلاث ليال يا فوزي ، أنا أعطيت أمر الانسحاب خلاص "

ثم دخل إلى غرفة نومه التي تقع خلف المكتب مباشرة بطريقة هستيرية ، بعد أن زاد وجهه احمراراً إثناء توجيه الحديث ، بينما انصرفنا نحن الثلاثة مندهشين من حالة المشير .

بعد ذلك وصلت الأخبار من سيناء عن طريق الإسماعيلية "قيادة القناة" أن المشير قد أصدر أمره إلى قائد قوات العريش بانسحاب قواته بأسلحتها الشخصية فقط إلى غرب القناة في ليلة واحدة ، والغريب أنه لا يمكن وصول هذه المعلومات عن قرار الانسحاب بعد ظهر يوم ١٩٦٧/٦/٦ ، أي حوالي الساعة الخامسة مساء ، إلا إذا كان الأمر قد صدر فعلاً قبل الظهر من المشير إلى قائد ما ، لم يكن نستطيع حتى تلك اللحظة الاستدلال عليه " (٢٢) .

فلماذا يريد المشير من بقية القادة خطة انسحاب متأخرة وقد أصدر أوامره منذ ساعات- قبل الظهر- بالانسحاب ؟ والسطر الأول من هذا الحديث يخبرنا أن المشير قد استدعى فوزي بعد ظهر ذلك اليوم !

فما الذي كان ينويه المشير ؟ وماذا كان يخطط ؟

إن هذا الحديث يخبرنا بعدة أمور كلها ليست في صالح المشير عامر :

١- لم يكن لدى عامر الكفاءة العسكرية الكافية لاتخاذ قرار خطير كقرار الانسحاب ، لذا لا بد من الاستعانة بالآخرين من أهل الخبرة والعلم ، بدون أن يحاول إضافة شيء لما سيتخذونه من قرارات ، ويرسمونه من خطط !.

٢- من وصف حالة المشير واضح أنه لم يكن أهلاً للمنصب الموكل إليه ، ولا يملك الشجاعة الكافية للقيام بمهامه .

٣- ودليل على ما سبق ظنه أن الانسحاب لا يحتاج إلى الوقت الذي ذكره القادة الكبار ، وكان يظن أن تنفيذه لا يحتاج إلا ليوم واحد ، وربما ساعات !

٤- اكتشاف أنه كان قد أصدر أمر الانسحاب في وقت لاحق يدل على أنه كان ينوي إحالة المسئولية إلى سواه ، أو أنه كان يريد الانسحاب والهزيمة وتعرية النظام ، والخبر التالي يدل على ما نقول ...

عامر يتصل بعبد الناصر

ومما يرويه الفريق أول محمد فوزي أن حديثاً تلفونياً " بين المشير عامر والرئيس عبد الناصر ، يطلب الأول فيه الرأي عن إمكانية الصمود في المضايق بدلاً من الانسحاب رأساً إلى غرب القناة ، فلم يتلق رداً من الرئيس سوى جملة مُرة – كما علمت فيما بعد هي : يعني كنت أخذت رأيي في الانسحاب الأول وجاي دلوقت تسألني رأيي عن المضايق ؟ " (٢٣) .

وفي رواية أخرى كان المشير ينقل الأخبار الزائفة للرئيس بإصداره بيانات كاذبة بأن الجيش المصري يتقدم في الجبهة ، وهو يعلم أن الإسرائيليين هم الذين كانوا يتقدمون (٢٤) .

ووصلت القوات الإسرائيلية إلى القناة مساء ٧ حزيران ، وكانت تلقي القبض على الضباط الذي يصلون للقناة وتعيدهم إلى مكان تجمع الأسرى في العريش ، وتسمح للجنود - لكثرتهم - بالعبور ، حيث تولت نقلهم للضفة الأخرى قوارب مدنية (٢٥) .

وفي خطاب له في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ قال أنور السادات " أن الجيش المصري لم يعط فرصة للحرب ، وإذا كان هناك أمر بالانسحاب فقد تم بدون علم عبد الناصر " (٢٦) .

أي أن غياب القيادة العسكرية عن وعيها ، وغياب التنسيق بين القادة في ساح المعركة ، وضعف القدرة العسكرية ، وهبوط المستوى العلمي للقائد العام ، ونتج عن ذلك عدم وجود غطاء جوي لحماية عملية الانسحاب ، كل ذلك أدى إلى انسحاب عشوائي فاشل ، وإلى خسائر فادحة سنأتي على ذكرها .

ومن الغرائب الأخرى التي يحار الباحث في تفسيرها :

١- **إشارات مبكرة :** تم التقاط العديد من الإشارات اللاسلكية المشفرة من قبل القيادة المصرية السياسية والعسكرية تؤكد الهجوم الإسرائيلي الوشيك (٢٧) .

٢- **تحركات بحرية أمريكية :** اتصلت المباحث المصرية بمكتب المشير عامر تخبره بتحركات مريبة لحاملات طائرات أمريكية تقترب من إسرائيل لتغطية أي هجوم جوي .

٣- **هجوم مبكر :** أن هجوماً إسرائيلياً قد بدأ في الساعة السابعة والربع (أي قبل الهجوم الحقيقي بتسعين دقيقة) على المحور الأوسط لسيناء ، وقد احتلت القوات المهاجمة موقعاً مصرياً في منطقة "أم بسيس " الأمامية ، وكأنه كان هجوماً اختبارياً لرد الفعل المصري ، إلا أن القيادة لم تعط اهتماما له .

٤- **نشاط مكشوف للعدو**: كان هناك نشاط محموم على طول الجبهة تمثل في وحدات الاستطلاع لجيش العدو ، وقد لاحظت ذلك الوحدات المصرية الأمامية التي أدركت أن العدو كان يجري إجراءات فتح لقواته ، وقد وصلت أخبار ذلك كله للقيادة التي لم تطلع عليها إلا الساعة العاشرة إلا ثلث !

٥- **إشارة عجلون** : وأرسل قائد الجبهة الأردنية الفريق عبد المنعم رياض إشارة لاسلكية من عجلون بأن راداراتها قد رصدت تحركات العدو الجوية استعداداً للهجوم على الجبهة المصرية ، وقد زعمت القيادة المصرية أن مفتاح الشيفرة قد تم تغييره صباح ٥ حزيران ، وقد أقر قائد مصري أنه لو تم التقاط الإشارة لتمكنت الطائرات المصرية من إحباط الهجوم (٢٨) .

٦- **حفلة أنشاص** : ومن أغرب الغرائب أن قاعدة أنشاص الجوية كان الطيارون فيها - وعلى رأسهم قائد سلاح الجو الفريق أول صدقي محمود- ليلة الخامس من حزيران يحيون حفلاً ساهراً غنائياً راقصاً أحيته كوكبة من الفنانين المعروفين ، وقد استمر الحفل حتى فجر اليوم التالي ، يوم النكبة ، فكانت قاعدة أنشاص من أول أهداف القصف الجوي ، وكان من المقرر أن تقام الحفلة ليلة الأول من حزيران ، ولكنها أجلت - لأسباب مجهولة- لليلة الخامس منه ...ليلة الهجوم !(٢٩) .

ويقلل المؤرخ الكبير حسنين هيكل من أثر حفلة أنشاص ، فيقول أنها لم تكن سبباً للهزيمة ، وأن الإسرائيليين كانوا يقيمون الحفلات المشابهة قبل المعارك..(٣٠) .

نعم إن أسباب الهزيمة أكبر بكثير من حفلة راقصة ، ولكن إقامتها في هذه الظروف وفي قاعدة للطيارين المستهدفين بالهجوم لا تدل على الاستهتار فحسب ، بل تثير الريبة والشكوك في الدافع وراءها ، أما تأجيلها من الأول حتى الخامس من حزيران فهو يوحي بترتيبات تآمرية تهدف إلى تعرية النظام ، وفضحه وهزيمته .

٧- **المشير في الجو** : وهذا خبر من الأخبار التي تستحق الوقوف عندها طويلاً حتى نفهم المستوى الهزيل في التخطيط العسكري الذي حاربت به مصر عام ٦٧.

فقد اختار المشير عامر - وكان معه نصف القادة - صباح يوم الهجوم لزيارة الجبهة ، فكان قادة سيناء في انتظاره ، فلما شاهدوا طائرات العدو قادمة ظنوها طائرات المشير ، ولم يدركوا هويتها إلا بعد أن أسقطت حمولتها على الطائرات المصرية في المطار ، ساعتئذ عرف الجميع أن الحرب قد بدأت ! فأي جاهزية هذه وأي استعداد في يوم حددته القيادة السياسية بأنه يوم الهجوم ؟ وهل هو غريب أن يظن المؤرخون أن عامر كان يتآمر على صديقه ؟

٨ـ **قادة غائبون** : ومن الأمور الغريبة التي تستحق الذكر ما يرويه اللواء عبد الحميد الدغيدي قائد الطيران في سيناء عن لامبالاة القادة المصريين صباح الهجوم ، فيقول :

" إن قائد الجبهة كان غائباً ، وقائد الجيش كان غائباً ، وكان القادة الذين يتلونهم غائبين .. ، كل هؤلاء غير موجودين في قياداتهم ، مراكز عملياتهم لحظة نشوب القتال ، وكانت هذه أول حرب من نوعها في تاريخ الحروب ، تبدأ وكل قادتها بعيدون عن مواقعهم ، ولم نقرأ أو نسمع عن شيء كهذا حدث في تاريخ الحروب ، قديمها وحديثها " (٣١)، أما أنور السادات فاعترف أنه قد عرف بالهجوم الاسرائيلي من الراديو (٣٢) .

مشاركة بريطانية أمريكية

ومن الأدلة الدامغة على التواطؤ البريطاني مع إسرائيل ، أن طياراً إسرائيلياً أسقطت طائرته على الجبهة السورية قد اعترف أن ١٧ طائرة بريطانية قد انتقلت من قاعدتها البريطانية في قبرص لتنضم للطيران الإسرائيلي بهدف المشاركة في العدوان (٣٣) .

وكان الفريق عبد المنعم رياض - الذي كان يقود الجبهة الأردنية خلال الحرب - قد أبلغ عبد الناصر أن طائرات أميركية بريطانية قد شاركت إسرائيل في هجومها على مصر (٣٤) .

الخسائر

فقدت مصر في هذه الحرب من الشهداء ٩٨٠٠ ضابط وجندي ، واستردت ٣٧٩٩ أسيراً ، وردت لإسرائيل ٢١٩ أسيراً (٣٥) ، وقتل من قوات العدو ٦٧٩ فرداً (٣٦) .

وقد تطوع عدد كبير من المدنيين المصريين للبحث عن مفقودي الجيش في الصحراء ، فتم إنقاذ حوالي ثمانية آلاف جندي وضابط مصري في أسبوع (٣٧) .

وعن الخسائر في المعدات ، فقد خسرت مصر ٩٠٠ مدفع ، و ٧٠٠ دبابة ، و ٨ آلاف سيارة ، في حين احتفظت القوات البحرية بمعداتها وأفرادها بدون أي خسارة (٣٨) .

أما عن الخسائر في الطائرات فالرواية الأرجح ما يرويه أحمد حمروش وهي فقدان مصر ٣٠٠ طائرة (وهو ما يذكره ناتنج)، بينما خسرت إسرائيل ٣٧ طائرة (٣٩) .

وأستبعد رواية هيكل الذي يقول أن ما خسرته مصر كان ١٧٠ طائرة فقط (٤٠) ، خاصة وأن محمد فوزي يقول أن نسبة ما دمر من القاذفات الثقيلة مما كان لدى مصر كان ١٠٠% ، ومن القاذفات الخفيفة ١٠٠% ، ومن المقاتلات القاذفة والمقاتلة ٨٥% .(٤١)(فوزي ١٦٠)

ويروي سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات ، **أسباب الهزيمة كما رآها ناصر** ، فيقول أنها كانت ست ، وهي :

١- الثقة الزائدة بالنفس ، وعدم الاستفادة من دروس حرب ١٩٥٦ .

٢- نقص المعلومات عن العدو أدى إلى الإهمال ، وعدم أخذ الأمور بجدية ، وكان الرئيس قد أكد لقائد الطيران أن الضربة الأولى ستكون صباح الاثنين وستكون ضد سلاح الطيران .

٣- القيادة العسكرية لم تكن على قدر المسئولية ، لذا لم تأخذ الأمور بجدية .

٤- عدم قدرة القيادة على التصرف بعد ضربة الطيران .

٥- الخطط المعدة كانت ارتجالية تحكمها الثقة بالنفس .

٦- الخلط بين الوهم والواقع ، فالقيادة كانت ترى البدء بالهجوم ، وهذا مستحيل من الناحية السياسية كما رأى ناصر(٤٢) .

٧- بقاء قادة الجيش في مواقعهم منذ عام ١٩٥٦بدون أي تطور لمهاراتهم التكتيكية والاستراتيجية (٤٣) .

ويخرج الدكتور رؤوف عباس ببعض **الدروس المستفادة** من حرب حزيران ١٩٦٧، منها :

" ١- أهمية توحيد القيادة العسكرية ، ورفع كفاءة الاتصال بين القيادات والأسلحة المختلفة ، فكان تعدد القيادات المسئولة عن الحرب في ٦٧ من أهم أسباب الكارثة ، حيث ظلت كل قيادة من قيادات الجيش تعمل في جبهة منعزلة عن الأخرى .

٢-أهمية وضوح الرؤية الاستراتيجية**Clarity of Strategic Vision** والتحليل والتخيل ، والتخطيط العلمي لإدارة الصراع المسلح مع العدو .

٣- أن الصراع بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية في ١٩٦٧ قد جعل الهزيمة مثل كارثة ، الكل يعرف أنها آتية ، ولكن أحداً لا يستطيع منعها ، مما جعل النكسة مثل المصيبة التي لا مفر منها .

٤- أهمية رفع درجة وسرعة وقدرة الجيش على رد الفعل **Military Reflexes** لأقصى درجة .

٥- عدم الانزلاق على المستوى التكتيكي لسياسات لا يمكن دعمها بالقوة العسكرية المتاحة ، أو تحيد عن الرؤية الاستراتيجية لإدارة الصراع .
٦- صعوبة امتصاص الضربة الأولى في الحرب الخاطفة ،فإن لم يكن من الحرب بد ، فمن الأفضل الاستعداد للهجوم .
٧- أن القوى العالمية تميل للإعتراف بالأمر الواقع ، وان الطرف الأقوى هو الذي يستطيع فرض شروطه في النهاية "(٤٤) .

ونضيف إلى ما سبق :

١- نقص الكفاءة لدى عامر :

كان الضعف والإهمال ، وعدم تحمل المسئولية من عيوب عامر ومثالبه ، ويدل على ذلك :

١- أن القائد العام للقوات المسلحة عبد الحكيم عامر لم يكن أهلاً لمنصبه ذاك ، لذا جاءت خططه وردود فعله موافقة لقدراته المتواضعة ، وهذه مسئولية ناصر والقيادة العامة التي كان لديها أكثر من واحد يصلح لهذا المنصب ، والرتب التي كانوا فيها عند قيام الثورة أعلى من عامر !

٢- كيف يفسر لنا المؤرخون هذا الإهمال للمعلومات التي ذكرها عبد الناصر للقيادة عن الهجوم على المطارات ، وموعده الدقيق الذي ذكرته معظم المصادر ، هذه المصادر نفسها هي التي تسرد مجريات المعارك ، وضياع القيادة ، وعدم قدرتها على عمل شيء أمام الهجوم غير المباغت ، في فترة كانت خلاله الناس العاديون يتوقعون حصول الحرب في أي لحظة ، فكيف بكبار الضباط والقادة .

ولم يكن هيكل ظالماً لعبد الحكيم عامر حين وصفه وصفاً تدل الأحداث ومجريات الأمور أنه كان صائباً ، يقول هيكل :

" ويمكن القول دون تجن أن عبد الحكيم عامر لم يكن صالحاً لتولي قيادة القوات المسلحة في ظروف الصراع الضخم ، الدولي والإقليمي ، الذي كانت مصر تخوضه في تلك السنوات ، كما أن ظروفه الشخصية ، وما نتج عنها من أحوال نفسية أدت إلى تلاشي ما بقي من صلاحيته للقيادة ، وليس هناك شك في أن هذه كانت واحدة من المسئوليات الكبرى التي يتحملها جمال عبد الناصر من وجهة النظر السياسية ، والغريب أنه في بعض اللحظات كان جمال عبد الناصر يظن أن عبد الحكيم عامر سوف يعطي كل ما عنده في هذه المعركة ، لأنه فيها يدافع عن نفسه كما يدافع عن بلده ، وكانت المشكلة أن عبد الحكيم عامر ، بصرف النظر عن بعض الجوانب الإنسانية في شخصيته ، لم يكن

لديه كثير يعطيه في الدفاع عن أي شيء ، والشاهد أن ضربة الطيران التي فاجأته ، أصابته بحالة من الضياع الكامل منذ أول ساعة في المعركة "(٤٥) .

ولا نختلف مع هيكل أن المسئولية الكبرى في تعيين ضابط برتبة رائد قائداً لجيش كالجيش المصري تقع على عبد الناصر في الدرجة الأولى ، ولكن ألا يرى هيكل أنها مشكلة نظام ، أو لم يكن بين الضباط الأحرار الذين أنهوا عهد نظام بأكمله من يعترض على هذا الواقع المرير ؟ وأن هناك من القادة المصريين من لديه الكفاءة الأعلى لمثل هذا المنصب ؟

ويقول المؤرخ عبد الله إمام : " كانت حياة عبد الحكيم عامر بعيدة تماماً عن الانضباط العسكري ، بل لعله كان يكره في حياته هذا الانضباط ، ... فقائد الجيش يأوي إلى فراشه كل ليلة مع مشارف الفجر ، وهذا القائد يترك الأوراق المهمة والمذكرات مهملة ، يوقعها في أي مكان أو لا يوقعها .. ولا بد للضابط ان يكون أشد الناس انضباطاً "(٤٦) .

٢- عدم أهلية كبار الضباط:

ويضيف أحمد حمروش سبباً ثالثاً للكارثة يعرفه أكثر من سواه ، ألا وهو مدى أهلية وكفاءة كبار الضباط الذين كانوا بجانب عامر ، فيقول :

" .. ولو أن القيادة العامة للقوات المسلحة كانت في مستوى المعركة ، ولم تفقد سيطرتها ، لأمكن للجنود أن يواصلوا القتال في ظروف أفضل رغم عم وجود غطاء جوي ..

المشكلة كانت في ضباط الرتب العليا ، الذين استكان معظمهم إلى حياة بعيدة عن الروح العسكرية الصادقة ، وكانوا في أعماقهم لا يتحمسون للثورة ، ولا يؤمنون بالاشتراكية ، ولذا فقدوا - إلى حد كبير - حسهم الوطني ، واستعدادهم لأداء واجبهم العسكري ..

ظلت عقلية ضباط الرتب العليا جامدة ، وغير مستنيرة من الناحية الاجتماعية أو السياسية .. ولم تصل مطلقاً إلى المستوى الذي وصلت إليه القيادة السياسية للثورة .. كان جمال عبد الناصر أكثر استنارة ووعياً .. ولكنه لم يفلح في رفع مستوى القيادات العسكرية إلى الحد المطلوب في قيادة معركة تحرر وطني ضد الإمبريالية "(٤٧) .

٣- ضعف التدريب :

وكم هو مفجع ما يخبرنا به الفريق أول محمد فوزي عن مستوى التدريب العسكري الذي حصل عليه ضباط الجيش المصري وأفراده قبل الحرب ..!

فهو يقول عن الخطة التدريبية السنوية للجيش : " وأعلم بعد ذلك أن بعض قادة الألوية "المقربين" طلبوا من المشير عدم إتمام الخطة ، حتى لا يحاسبون ، أو تتم متابعتهم ، لتخوفهم من ظهور نتائج سيئة ، فكانت النتيجة أنه لم يتم تدريب أي لواء من الجيش في سنوات ما قبل ١٩٦٧ ، شاهدت هذه المأساة بنفسي تتكرر طوال أعوام ٦٥، ٦٦، ١٩٦٧ ، وفي أغلب الأحيان تأتي تقارير ضرب النار وهي تدريبات غاية في الأهمية ، وترتب عليها القيادة العليا قياساً معيناً لدقة الإصابة ، كثيراً ما تأتي هذه التقارير غير صحيحة ، ومدون بها بيانات زائفة ، وهي أخطر ما وصل إليه حال التدريب القتالي الفردي والجماعي في القوات المسلحة ....

كما كانت تقارير متابعة التدريب التي ترفع إلى المشير مضللة ، لتظهر مجهود القائمين على التدريب فقط ، بدون التفات لإظهار الحقيقة ، وكانت هذه الأساليب المضللة والخادعة هي الوسيلة المفضلة لدى قادة الأفرع الرئيسة للقوات المسلحة ، وهم المسئولون بعد المشير عن تدريبهم "(٤٨) .

ومن الغرائب التي يرويها محمد فوزي أن المشير عامر لم يقم بزيارات تفتيشية ، أو حضور حصص تدريب سوى ثلاث مرات في الفترة ما بين ٦٢-١٩٦٧.

وأن الدبابات المعاونة للمشاة لم تطلق طلقة واحدة في العام التدريبي ٦٥-١٩٦٦ ، وأن مقدار ما استهلكته هذه الدبابات من الوقود لا يتعدى ١١% من المخصص لها للتدريب في العام نفسه (٤٩) .

إذن فالخلل كان في القيادة العسكرية ، وليس في القيادة السياسية للبلاد ، فالقيادة السياسية أدت واجبها كاملاً في إقامة العلاقات القوية مع الاتحاد السوفييتي ، الدولة الوحيدة التي وقفت معنا في الحروب الأربع التي خاضتها مصر ضد إسرائيل ، وللحق ، لا نكاد نجد تقصيراً في أداء السوفييت واجبهم نحو حليفتهم مصر ، ولكن الخلل جاء من القيادة العسكرية المصرية التي تهاونت وأهملت ، وربما تعمدت الإهمال والتهاون لأغراض سنأتي على ذكرها ، فكانت الهزيمة غير المبررة سوى بإهمالها ، وعدم أهليتها لقيادة جيوش كبيرة في معارك مصيرية .

الفصل الثالث

عودة الروح ورفض الهزيمة

" إن الغارات الإسرائيلية في مطلع عام ١٩٧٠ كانت تستهدف إسقاط نظام حكم جمال عبد الناصر، تماماً كما حدث في غارة غزة في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥، وحرب السويس ١٩٥٦، وحرب الأيام الستة ١٩٦٧ "
(الكاتب الأميركي مكمجيان ، خريف عبد الناصر لأحمد حمروش ص٥٧ ٢ ٥٧)

عبد الناصر يتنحى عن الحكم

وفي التاسع من حزيران ١٩٦٧، قرر الرئيس جمال عبد الناصر التنحي عن الحكم ، وتكليف زكريا محي الدين بمنصب رئيس الجمهورية ، وألقى كلمة بذلك عبر التلفاز المصري الساعة الثامنة إلا ثلث مساءً في ذلك اليوم ، قال فيها :

أيها الإخوة :

لقد تعودنا معاً في أوقات النصر وفي أوقات المحنة.. في الساعات الحلوة وفي الساعات المرة ، أن نجلس معاً ، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة، وأن نتصارح بالحقائق ، مؤمنين أنه من هذا الطريق وحده نستطيع دائماً أن نجد اتجاهنا السليم ، مهما كانت الظروف عصيبة ، ومهما كان الضوء خافتاً .

ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة ، لكني واثق أننا جميعاً نستطيع - وفي مدة قصيرة - أن نجتاز موقفنا الصعب ، وإن كنا نحتاج في ذلك إلى كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الأدبية ، ومقدرة العمل المتفانية ، لكننا - أيها الإخوة - نحتاج قبل ذلك إلى نظرة على ما وقع ، لكي نتتبع التطورات وخط سيرها في وصولها إلى ما وصلت إليه .

إننا نعرف جميعاً كيف بدأت الأزمة في الشرق الأوسط في النصف الأول من مايو الماضي ، كانت هناك خطة من العدو لغزو سوريا ، وكانت تصريحات ساسته وقادته العسكريين كلها تقول بذلك صراحة ، وكانت الأدلة متوافرة على وجود التدبير .

كانت **مصادر إخواننا السوريين قاطعة** في ذلك ، وكانت معلوماتنا الوثيقة تؤكده ، بل وقام أصدقاؤنا في **الاتحاد السوفييتي** بإخطار الوفد البرلماني الذي كان يزور موسكو في مطلع الشهر الماضي ، بأن هناك قصداً مبيتاً ضد سوريا.

ولقد وجدنا واجباً علينا ألا نقبل ذلك ساكتين ، وفضلاً عن أن ذلك واجب الأخوة العربية ، فهو أيضاً واجب الأمن الوطني ، فإن البادئ بسوريا سوف يثني بمصر.

ولقد تحركت قواتنا المسلحة إلى حدودنا بكفاءة شهد بها العدو قبل الصديق، وتداعت من أثر ذلك خطوات عديدة ، منها انسحاب قوات الطوارئ الدولية ، ثم عودة قواتنا إلى مواقع شرم الشيخ المتحكمة في مضايق تيران، والتي كان العدو الإسرائيلي يستعملها كأثر من آثار العدوان الثلاثي الذي وقع علينا سنة ١٩٥٦، ولقد كان مرور علم العدو أمام قواتنا أمراً لا يحتمل ، فضلاً عن دواعي أخرى تتصل بأعز أماني الأمة العربية .

ولقد كانت الحسابات الدقيقة لقوة العدو تظهر أمامنا أن قواتنا المسلحة ، بما بلغته من مستوى في المعدات وفي التدريب ، قادرة على رده وعلى ردعه ، وكنا ندرك أن احتمال الصراع بالقوة المسلحة قائم ، وقبلنا بالمخاطرة.

وكانت أمامنا عوامل عديدة ، وطنية وعربية ودولية ، بينها رسالة من الرئيس الأمريكي " ليندون جونسون" سلمت إلى سفيرنا في واشنطن يوم ٢٦ مايو تطلب إلينا ضبط النفس ، وألا نكون البادئين بإطلاق النار، وإلا فإننا سوف نواجه نتائج خطيرة .

وفي نفس الليلة فإن السفير السوفييتي طلب مقابلتي بصفة عاجلة في الساعة الثالثة والنصف من بعد منتصف الليل، وأبلغني بطلب ملح من الحكومة السوفيتية ألا نكون البادئين بإطلاق النار.

وفي صباح يوم الاثنين الماضي الخامس من يونيو جاءت ضربة العدو ، وإذا كنا نقول الآن بأنها جاءت بأكثر مما توقعناه ، فلابد أن نقول في نفس الوقت وبثقة أكيدة إنها جاءت بأكبر مما يملكه ، مما أوضح منذ اللحظة الأولى أن هناك قوى أخرى وراء العدو، جاءت لتصفي حساباتها مع حركة القومية العربية ، ولقد كانت هناك مفاجآت تلفت النظر:

أولها : أن العدو الذي كنا نتوقعه من الشرق ومن الشمال جاء من الغرب ، الأمر الذي يقطع بأن هناك تسهيلات تفوق مقدرته ، وتتعدى المدى المحسوب لقوته ، قد أعطيت له .

وثانياً : فإن العدو غطى في وقت واحد جميع المطارات العسكرية والمدنية في الجمهورية العربية المتحدة ، ومعنى ذلك أنه كان يعتمد على قوة أخرى غير قوته العادية ، لحماية أجوائه من أي رد فعل من جانبنا ، كما أنه كان يترك بقية الجبهات العربية لمعاونات أخرى استطاع أن يحصل عليها.

وثالثاً : فإن الدلائل واضحة على وجود تواطؤ استعماري معه ، يحاول أن يستفيد من عبرة التواطؤ المكشوف السابق سنة ١٩٥٦، فيغطي نفسه هذه المرة بلؤم وخبث، ومع ذلك فالثابت الآن أن حاملات طائرات أمريكية وبريطانية كانت بقرب شواطئ العدو تساعد مجهوده الحربي ، كما أن طائرات بريطانية أغارت في وضح النهار على بعض المواقع في الجبهة السورية وفي الجبهة المصرية ، إلى جانب قيام عدد من الطائرات الأمريكية بعمليات الاستطلاع فوق بعض مواقعنا.

ولقد كانت النتيجة المحققة لذلك أن قواتنا البرية التي كانت تحارب أكثر المعارك عنفاً وبسالة في الصحراء المكشوفة ، وجدت نفسها في الموقف الصعب ، لأن الغطاء الجوى فوقها لم يكن كافياً إزاء تفوق حاسم في القوى الجوية المعادية ، بحيث أنه يمكن القول - بغير أن يكون في ذلك أي أثر للانفعال أو المبالغة - إن العدو كان يعمل بقوة جوية تزيد ثلاث مرات عن قوته العادية .

ولقد كان هذا هو ما واجهته أيضاً قوات الجيش العربي الأردني التي قاتلت معركة باسلة بقيادة الملك حسين ، الذي أقول - للحق وللأمانة - إنه اتخذ موقفاً ممتازاً، وأعترف بأن قلبي كان ينزف دماً وأنا أتابع معارك جيشه العربي الباسل في القدس وغيرها من مواقع الضفة الغربية، في ليلة حشد فيها العدو وقواه المتآمرة ما لا يقل عن ٤٠٠ طائرة للعمل فوق الجبهة الأردنية .

ولقد كانت هناك جهود رائعة وشريفة ، لقد أعطى الشعب الجزائري وقائده الكبير هواري بومدين بغير تحفظات وبغير حساب للمعركة ، وأعطى شعب العراق وقائده المخلص عبد الرحمن عارف بغير تحفظات وبغير حساب للمعركة ، وقاتل الجيش السوري قتالاً بطولياً معززاً بقوى الشعب السوري العظيم وبقيادة حكومته الوطنية ، واتخذت شعوب وحكومات السودان والكويت واليمن ولبنان وتونس والمغرب مواقف مشرفة ، ووقفت شعوب الأمة العربية جميعاً بغير استثناء على طول امتداد الوطن العربي موقف الرجولة والعزة ، موقف التصميم ، موقف الإصرار على أن الحق العربي لن يضيع ولن يهون، وأن الحرب دفاعاً عنه ممتدة مهما كانت التضحيات والنكسات على طريق النصر الحتمي الأكيد .

وكانت هناك أمم عظيمة خارج العالم العربي قدمت لنا ما لا يمكن تقديره من تأييدها المعنوي ، لكن المؤامرة - ولابد أن نقول ذلك بشجاعة الرجال - كانت أكبر وأعتى ، ولقد كان تركيز العدو الأساسي على الجبهة المصرية ، التي دفع عليها بكل قوته الرئيسية من المدرعات والمشاة ، معززة بتفوق جوي رسمت لكم من قبل صورة لأبعاده ، ولم تكن طبيعة الصحراء تسمح بدفاع كامل ، خصوصاً مع التفوق المعادي في الجو ، ولقد أدركت أن تطور المعركة المسلحة قد لا يكون مواتياً لنا ، وحاولت مع غيري أن نستخدم كل مصادر القوة العربية ، ولقد دخل البترول العربي ليؤدى دوره ، ودخلت قناة السويس لتؤدى دورها، وما زال هناك دور كبير مطلوب من العمل العربي العام ، وكلي ثقة في أنه سوف يستطيع أداءه .

ولقد اضطرت قواتنا المسلحة في سيناء إلى إخلاء خط الدفاع الأول ، وحاربت معارك رهيبة بالدبابات والطائرات على خط الدفاع الثاني .

ثم استجبنا لقرار وقف إطلاق النار ، أمام تأكيدات وردت في مشروع القرار السوفيتي الأخير المقدم إلى مجلس الأمن، وأمام تصريحات فرنسية ، بأن أحداً لا يستطيع تحقيق أي توسع إقليمي على أساس العدوان الأخير، وأمام رأي عام دولي - خصوصاً في آسيا وإفريقيا - يرى موقفنا ، ويشعر ببشاعة قوى السيطرة العالمية التي انقضت علينا.

وأمامنا الآن عدة مهام عاجلة :

المهمة الأولى : **أن نزيل آثار هذا العدوان علينا**، وأن نقف مع الأمة العربية موقف الصلابة والصمود ، وبرغم النكسة فإن الأمة العربية بكل طاقاتها وإمكانياتها قادرة على أن تصر على إزالة آثار العدوان.

والمهمة الثانية: **أن ندرك درس النكسة** ، وهناك في هذا الصدد ثلاث حقائق حيوية :

١- إن القضاء على الاستعمار في العالم العربي يترك إسرائيل بقواها الذاتية ، ومهما كانت الظروف ومهما طال المدى ، فإن القوى الذاتية العربية أكبر وأقدر على الفعل .

٢ - إن إعادة توجيه المصالح العربية في خدمة الحق العربي ضمان أولى ، فإن الأسطول الأمريكي السادس كان يتحرك ببترول عربي، وهناك قواعد عربية وضعت قسراً - وبرغم إرادة الشعوب - في خدمة العدوان .

٣- إن الأمر الآن يقتضى كلمة موحدة تسمع من الأمة العربية كلها، وذلك ضمان لا بديل له في هذه الظروف .

نصل الآن إلى نقطة هامة في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا : هل معنى ذلك أننا لا نتحمل مسئولية في تبعات هذه النكسة ؟

وأقول لكم بصدق - وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة - فإنني على استعداد لتحمل المسئولية كلها، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه ..

لقد قررت أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر .

إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها ، وأريد أن يكون واضحاً أمامهم أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر.

والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائماً بأنها إمبراطورية لعبد الناصر، وليس ذلك صحيحاً ، لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل جمال عبد الناصر، وسوف يبقى بعد جمال عبد الناصر.

ولقد كنت أقول لكم دائماً : إن الأمة هي الباقية ، وأن أي فرد مهما كان دوره ، ومهما بلغ إسهامه في قضايا وطنه ، هو أداة لإرادة شعبية، وليس هو صانع هذه الإرادة الشعبية .

وتطبيقاً لنص المادة ١١٠ من الدستور المؤقت الصادر في شهر مارس سنة ١٩٦٤ ، فلقد كلفت زميلي وصديقي وأخي **زكريا محيي الدين** بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية ، وأن يعمل بالنصوص الدستورية المقررة لذلك ، وبعد هذا القرار فإنني أضع كل ما عندي تحت طلبه ، وفى خدمة الظروف الخطيرة التي يجتازها شعبنا .

إنني بذلك لا أصفى الثورة ، ولكن الثورة ليست حكراً على جيل واحد من الثوار، وإني لأعتز بإسهام هذا الجيل من الثوار، لقد حقق جلاء الاستعمار البريطاني ، وحقق استقلال مصر، وحدد شخصيتها العربية ، وحارب سياسة مناطق النفوذ في العالم العربي ، وقاد الثورة الاجتماعية، وأحدث تحولاً عميقاً في الواقع المصري أكد تحقيق سيطرة الشعب على موارد ثروته وعلى ناتج العمل الوطني، واسترد قناة السويس، ووضع أسس الانطلاق الصناعي في مصر، وبنى السد العالي ليفرش الخضرة الخصبة على الصحراء المجدبة ، ومد شبكات الكهرباء المحركة فوق وادي النيل الشمالي كله، وفجر موارد البترول بعد انتظار طويل .

وأهم من ذلك وضع على قيادة العمل السياسي تحالف قوى الشعب العاملة ، الذي هو المصدر الدائم لقيادات متجددة تحمل أعلام النضال الوطني والقومي مرحلة بعد مرحلة ، وتبنى الاشتراكية ، وتحقق وتنتصر.

إن ثقتي غير محدودة بهذا التحالف القائد للعمل الوطني ، الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين والرأسمالية الوطنية ، إن وحدته وتماسكه ، والتفاعل الخلاق داخل

إطار هذه الوحدة قادر على أن يصنع بالعمل ، وبالعمل الجاد ، وبالعمل الشاق - كما قلت أكثر من مرة - معجزات ضخمة في هذا البلد ، ليكون قوة لنفسه ، ولأمته العربية، ولحركة الثورة الوطنية ، وللسلام العالمي القائم على العدل .

إن التضحيات التي بذلها شعبنا ، وروحه المتوقدة خلال فترة الأزمة ، والبطولات المجيدة التي كتبها الضباط والجنود من قواتنا المسلحة بدمائهم ، سوف تبقى شعلة ضوء لا تنطفئ في تاريخنا، وإلهاماً عظيماً للمستقبل وآماله الكبار، لقد كان الشعب رائعاً كعادته ، أصيلاً كطبيعته، مؤمناً صادقاً مخلصاً.

وكان أفراد قواتنا المسلحة نموذجاً مشرفاً للإنسان العربي في كل زمان ومكان ، لقد دافعوا عن حبات الرمال في الصحراء إلى آخر قطرة من دمهم ، وكانوا في الجو - وبرغم التفوق المعادي - أساطير للبذل وللفداء وللإقدام، والاندفاع الشريف إلى أداء الواجب أنبل ما يكون أداؤه .

إن هذه ساعة للعمل وليست ساعة للحزن ، إنه موقف للمثل العليا وليس لأية أنانيات أو مشاعر فردية .

إن قلبي كله معكم ، وأريد أن تكون قلوبكم كلها معي، وليكن الله معنا جميعاً ، أملاً في قلوبنا وضياءً وهدى .

والسلام عليكم ورحمة الله (١) .

****

تعليق على خطاب التنحي

يظل الزعيم الراحل ملتزماً بقضايا أمته وهمومها حتى الرمق الأخير ...

لذا هو في كتاب تنحيه حريص على مصالح أمته ، ومصيرها ومستقبلها ، فلا يقدم الاستقالة مكتفياً بنصها الحرفي القصير الذي يريحه ، بل يقدم لنا صورة عما حدث ، ويقدم النصائح الكبيرة لأمته وشعبه ، وللحاكم القادم الذي سيتحمل المسئولية من بعده .

لقد كان خطاب التنحي وثيقة تستحق الوقوف عندها ، للأسباب التالية :

١- لا يترك ناصر شعبه وأمته فريسة اليأس ، بل **يعطي الأمل** بزوال آثار العدوان قريباً ، وأن ذلك ليس بالأمر الصعب على من يعزم على ذلك ، وهذه من صفات القائد الناجح ومزاياه، فهو الذي لا يترك شعبه ورعيته فريسة اليأس والقنوط ، والخوف والاستسلام .

٢- ينبهنا لضرورة **دراسة النكسة وتفاصيلها** ، حتى نعرف أسبابها ، وطرق علاجها ، فالناجحون يستفيدون من أخطائهم لتلافيها في المستقبل .

٣- يؤكد على أن **نجدة سوريا واجب وطني** تفرضه الأخوة العربية ، وقد قامت مصر بذلك ، ودفعت ثمنه .

٤- يذكر أن طلب **عدم البداية بالأعمال القتالية** لم يكن من أميركا فحسب ، بل جاء من أصدقائنا وحلفائنا السوفييت أيضاً ، ولهذا دلالاته العديدة التي بإمكان المؤرخين الوقوف عندها طويلاً للتعليل والتفسير ، ولكن ما قصدته أن ناصر قد تلقى نصيحة العدو والصديق معاً ، ولا ننس أن السوفييت قد طلبوا من العرب وقف إطلاق النار أيضاً.

٥- تأكيد الرئيس على مشاركة **قوى أخرى** مع إسرائيل في الهجوم على مصر ودول المواجهة ، ومجيء الطائرات من الغرب يؤكد ذلك .

٦- تأكيد ناصر على وجود **حاملات طائرات أميركية وبريطانية** قرب الشواطيء الإسرائيلية لمساعدة إسرائيل ، كذلك ثبوت مشاركة طائرات بريطانية .

٧- يؤكد ما سبق أن العدو الإسرائيلي كان يعمل **بقوة تزيد ثلاث مرات** على قوته العادية .

٨- المؤامرة كانت أكبر من برقيات التأييد ، والمواقف المشرفة ، ولكن ناصر لا يصرح بذلك .

٩- البترول العربي وقناة السويس يؤديان دورهما في المعركة إذا ما أحسن استخدامهما لها .

١٠- بعقلية القائد الواعي الملتزم **يضع المهام العاجلة أمام الأمة** قبل أن يقدم استقالته .

١١- دفاعاً عن ثورة يوليو وحفاظاً عليها ، يذكّر بإنجازاتها العظمى كجلاء الاستعمار ، وتأميم القناة ، وبناء السد العالي ، ومشاريع الكهرباء ، وغيرها كثير .

ولا أعتقد بما قاله ناصر بأن القوات المسلحة المصرية كانت في مستوى جيش العدو الإسرائيلي ، فحساباته لم تكن دقيقة ، وما كان يقدمه القادة العسكريون لناصر كان بعيداً عن الحقيقة ، يدل على هذا ما ذكرته في الصفحات السابقة من تصريحات للفريق أول محمد فوزي ، ولكن هذا لا يقلل من قدرتها على المواجهة لو لم تتعرض المطارات لتلك الهجمة المركزة ، فصارت القوات البرية بدون غطاء جوي ، مما سهل مهمة العدو ، فكان السبب الأول للهزيمة .

ردود الفعل على تنحي عبد الناصر

وقبل أن ينهي ناصر خطابه - الذي استغرق عشرين دقيقة - قامت المظاهرات في مصر وأرجاء الوطن العربي كافة ، مطالبة ببقائه في سدة الحكم ، ومما جاء في هتافاتها في مصر :

ناصر ناصر .. لا رئيس إلا ناصر
أرفض أرفض يا زكريا .. عبد الناصر مية المية
سجل سجل يا سادات .. أحنا اخترنا جمال بالذات
مكتوب على قلوبنا .. عبد الناصر محبوبنا
وحياة السد لأقول الجد .. بعد ناصر ما في حد
يا أمريكا لمي فلوسك .. عبد الناصر جاي يدوسك
مكتوب على سلاحنا .. عبد الناصر كفاحنا
ما تقوليش ما تقوليش ... عبد الناصر غيره ما فيش(٢) .

ورداً على من قالوا أن هذه المظاهرات كانت مدبرة من الاتحاد الاشتراكي ، يقول أحمد حمروش :

" لم تخرج المظاهرات في القاهرة وحدها ، ولم تخرج في المدن فقط ، ولم تقتصر على الجمهورية العربية المتحدة ، ولكن المظاهرات قد عمت معظم مصر وبلاد الأمة العربية، وفي هذا جواب على أصحاب هذا الادعاء " (٣) .

وكان عبد الحكيم عامر يتوقع أن يشير ناصر إلى استقالته معه ، ولما لم يفعل ذلك ، أرسلها إلى وكالة الأنباء التي أذاعتها مع استقالة شمس بدران أيضاً (٤) .

ونترك وصف هذه الساعات الحاسمة من تاريخ مصر للأستاذ المؤرخ **أحمد حمروش** الذي عاصر الأحداث وعاينها ، فيقول :

" وبعد دقائق من إذاعة بيان التنحي ، كانت الشوارع قد امتلأت بعشرات الألوف الذين هرعوا إلى دار عبد الناصر بمنشية البكري ، وظلت القاهرة ساهرة طوال الليل تنتظر إشراق الصباح ، والليل مظلم ، والأنوار مطفأة ، والجو رهيب ، وطلقات المدفعية المضادة للطائرات هي الصوت الوحيد الذي يعلو على صيحات الناس "

" ولم يتفرق الناس طوال الليل ، وأصبح واضحاً ومؤكداً أن الشعب يرفض تنحي عبد الناصر ، وانه لا بد من جديد في الموقف .

اجتمع مجلس الوزراء في ساعة متأخرة من الليل ، وأصدر بياناً بالإجماع يطالب فيه بأن يبقى جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية .

وأذاعت الإذاعة بعد ذلك بياناً من جمال عبد الناصر إلى المواطنين يناشدهم فيه أن يحافظوا على الهدوء ، وان يعود كل منهم إلى أداء واجبه .

ولكن الناس في الأقاليم كانوا قد بدأوا يتجهون إلى القاهرة أيضاً " (٥).

واجتمع مجلس الأمة في الصباح ، واتخذ قراراً ببقاء عبد الناصر في موقعه رئيساً للجمهورية ، وقد جاء في البيان :

" باسم تحالف قوى الشعب العاملة ، باسم الملايين الذين أشعلت فيهم بقيادتك الحكيمة الواعية أول قبس من نور على طريق حياتهم يوم ٢٣ يوليو .. باسمهم نقول :لا .. لا .. أنت قائدنا ، ورئيس جمهوريتنا ، وستظل ما بقينا قائدنا ، ورئيس جمهوريتنا "(٦) .

وفي الواحدة إلا الثلث يوم ١٠ يونيو ، كان الناس قد أحاطوا بالمجلس من كل جانب عندما افتتح أنور السادات رئيس المجلس الجلسة قائلاً : إن جمال عبد الناصر لا يستطيع الوصول من داره إلى مجلس الأمة بسبب الزحام الشديد ، ثم قرأ أنور السادات نص الكلمة التي أبلغها الرئيس بالتليفون إلى أعضاء المجلس ، ويقول فيها :

" أنا لا أستطيع إلا أن امتثل لإرادة الشعب ، وسوف أهبه كل قواي حتى النفس الأخير ، وسوف أبقى في منصبي حتى تتم تصفية آثار العدوان ، ولا بد أن نستخلص الدروس مما حدث "

هدأت أنفاس الشعب ، وبدأت جموعه تنصرف بعد ليلة حافلة بالقلق والحزن والتوتر .

طويت صفحة الهزيمة شديدة السواد ، لتفتح صفحة جديدة في حياة الشعب ، يجابه فيها المستقبل ، ويعبر نقطة تحول تاريخية في أزمة الشرق الأوسط .

وما كان للشعب أن يستكين للأمور كما كان الحال قبل ٥ يونيو ، فقد أفاقت الناس من صدمة الهزيمة ، وما عادوا يركنون إلى الصمت طالما عبد الناصر موجود "(٧) .

أما الخطاب الذي أرسله عبد الناصر لمجلس الأمة فقد ورد فيه :

" كنت أتمنى لو ساعدتني الأمة على تنفيذ قراري بالتنحي ، ويعلم الله أنني لم أصدر في اتخاذ هذا القرار عن سبب غير شعور المسئولية ، تجاوباً مع ضميري ، ومع ما أتصور أنه واجبي ، وفي نفس الوقت فإن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لي أمر لا يرد ، لذلك فقد استقر رأيي على ان أبقى في مكاني ، وفي الموقع الذي يريد الشعب مني أن أبقى فيه ، حتى تنتهي الفترة التي نتمكن فيها جميعاً من أن نزيل آثار العدوان ، والأمر كله بعد هذه الفترة يجب أن يرجع فيه إلى الشعب في استفتاء عام ".. ثم أضاف :

" إني لأشعر ان النكسة لا بد أن تضيف إلى تجربتنا عمقاً جديداً ، وأن تدفعنا إلى نظرة شاملة فاحصة وأمينة على عملنا ، على كثير من جوانب عملنا .

وأول ما ينبغي ان نؤكده بفهم واعتزاز ، وهو الواضح من الآن أمام عيوننا أن الشعب وحده هو القائد ، وهو المعلم ، وهو الخالد إلى الأبد "(٨) .

إرهاصات المؤامرة

وكان عبد الناصر يوم ٨ حزيران قد أخبر عبد الحكيم عامر بنيته في التنحي ، فرد عامر بأنه لا يستطيع البقاء في قيادة الجيش ، ولما سأله ناصر رأيه في هوية من يتولى رئاسة الجمهورية بعده ، رشح عامر شمس بدران ، فرد ناصر :

" أن رأيه قد استقر على اختيار زكريا محي الدين وليس شمس بدران لكي يتولى منصب رئاسة الجمهورية ، ولم يكن المشير راضياً عن هذا الاختيار "(٩) .

ويروي لنا **محمود رياض** إرهاصات تآمر حفنة من كبار الضباط على عبد الناصر ، فيقول :

" وعندما تطورت الأمور بعد ذلك ، واستقال شمس بدران كوزير للحربية ، ذكر عبد الناصر أن شمس بدران قد استمر على صلته بالتنظيم السري الموجود في الجيش ، والذي كان قد تشكل قبل سنوات ليكون واجبه مقاومة أي انقلاب عسكري ، وحماية نظام الحكم ، وكان شمس بدران هو المسئول من البداية عن هذا التنظيم ، محتفظاً بسريته ، وبأسماء أعضائه ، بحيث أن عبد الناصر نفسه لم يكن يعرف أشخاصهم جميعاً ، وعلم عبد الناصر أيضاً أن عدداً من أفراد هذا التنظيم يترددون على عبد الحكيم عامر وشمس بدران ، وأنهم يهاجمون في أحاديثهم عبد الناصر نفسه ، والنظام كله ، خصوصاً بعد ان قام المشير بطبع صورة من استقالته كان قد سبق له ان قدمها في سنة ١٩٦٤ ، وطالب فيها بالديمقراطية في نظام الحكم ، وبدأ في توزيع تلك الاستقالة .

وهنا يقول عبد الناصر أنه اضطر إلى اعتقال عدد كبير من الضباط ، خصوصاً كل دفعة شمس بدران التي تخرجت معه من الكلية الحربية عام ١٩٤٨ "(١٠) .

ولا يخبرنا أحد من المؤرخين عن هذا التنظيم السري الذي تم تأسيسه لحماية النظام الحاكم ، فلم يذكره هيكل ولا أحمد حمروش ولا أمين هويدي ولا عبد الله إمام...!

ولكن ما يهمنا في هذه المرحلة أن استقالة عامر كانت صورية تمويهية ، فهو يريد شيئاً آخر غير قيادة الجيش التي فقدها ، وترشيحه شريكه في التآمر شمس بدران يشي بأمور كثيرة ، ونوايا أكثر ، ظهرت فيما بعد ..

وقد أثبتت الأيام القليلة اللاحقة أن عامر لم يكن بالصديق المخلص لناصر ، فسلوكياته التآمرية بعد الهزيمة باتت واضحة ، وتكوينه تنظيماً له في منزله ، وجمعه الأسلحة لأمر كان يبيته تثبت ما ذهبت إليه ، ولا ننس أن شمس بدران كان صديقاً له ، وشريكاً في المؤامرة ، ضالعاً فيها ...!

إلا أن عبد الناصر كان أذكى من الاثنين .

تغييرات جذرية

ويحاول الضباط المحيطون بعامر إعادته إلى منصبه ، ولكنه قال أنه وشمس بدران يرغبان في البقاء بعيداً عن السلطة - كما زعم - ولكن عبد الناصر كان أسرع وأذكى ، فأعلنت إذاعة القاهرة الساعة الثانية والنصف يوم ١١ **يونيو** تعيين الفريق أول محمد **فوزي** قائداً عاماً للقوات المسلحة (١١) .

وبحضور الفريق أول محمد فوزي وبالتشاور معه ، أجريت التغييرات التالية :

وافق عبد الناصر على **استقالة** كل من :

الفريق أول سليمان عزت قائد البحرية .

الفريق أول محمد صدقي محمود قائد الطيران .

الفريق أول أحمد حليم إمام .

الفريق أول هلال عبد الله هلال .

الفريق أول جمال عفيفي .

الفريق أنور القاضي .

الفريق أول عبد المحسن مرتجى .

ووقع عبد الناصر قراراً **بإحالة الضباط** التالية أسماؤهم إلى التقاعد :

اللواء عبد الرحمن فهمي	اللواء عثمان نصار
اللواء حمزة بسيوني	اللواء إسماعيل حبيب

كما وقع كتباً **بتعيين القيادة العليا** الجديدة للقوات المسلحة على النحو التالي :

الفريق أول محمد فوزي	قائداً عاماً للقوات المسلحة
الفريق عبد المنعم رياض	رئيساً لهيئة أركان الحرب
الفريق طيار مدكور أبو العز	قائداً للقوات الجوية
الفريق صلاح الدين محسن	مساعداً للقائد العام للقوات المسلحة
اللواء بحري فؤاد محمد ذكري	قائداً للقوات البحرية (١٢).

هي القيادة

ويتحدث عبد الناصرفي مجلس الوزراء عن تلك الأيام الصعبة بعد حرب حزيران ، فيقول :

" لا يمكن أن أنسى الأيام الأولى التي مرت علي بعد يونيو ، كنت أشعر بمرارة كبيرة ، مرارة لا يمكن وصفها ، فلا شك أن ما حدث في يونيو قد أثر علينا جميعاً ، نفسياً ومعنوياً ومادياً .

لقد كان علي أن أقابل العديد من الرؤساء والزائرين والصحفيين ، بل الشامتين أيضاً ، مرت بنا ظروف صعبة ، وواجهنا مؤامرات ضدنا ، وكنت مسؤولاً عن مراجعة كل ما يحدث في الجبهة الداخلية ، وما يتم من اتصالات خارجية ، لقد تمنيت لو أنني تنحيت بالفعل عن السلطة ، وابتعدت عن موقع المسئولية ، كان تقديري دائماً أن الأيام التي سنواجهها صعبة للغاية في الداخل والخارج ، لأن خصمنا قوي، ولديه التنظيمات ، وجاهز للعمل ضدنا ، ولديه كل ما يحتاجه من اموال للقضاء علينا .

أنا في يوم ١١ يونيو عندما عدلت عن قرار التنحي كنت في حالة سيئة جداً إلى درجة أنني أرسلت عائلتي خارج القاهرة ، ووضعت مسدسي إلى جانبي لاستخدامه في آخر لحظة ، يومها سألت عن عدد الدبابات المتبقية في القاهرة ، فقالوا لي لم يبق إلا سبع دبابات ، وبالرغم من ذلك بدأت مع القيادات العسكرية السير في الطريق الصعب ، طريق **إعادة بناء قواتنا المسلحة من جديد** ، كنت أتحدث مع الفريق فوزي كل ليلة قبل ان أذهب للنوم ، ثم أطلبه في الساعة السادسة صباحاً لأراجع معه موقف القوات ، وموقف القيادات ، واسم القائد المسئول في كل موقع ، ولو لم الجأ إلى هذا الأسلوب لكانت الأمور فلتت .."(١٣) .

نعم .. لو لم يلجأ ناصر لهذا الأسلوب من اليقظة والحرص الدائم المستمر ، ليلاً ونهاراً ، لأفلتت الأمور، وحصل التسيب ، في ظلال هزيمة لم يمض عليها سوى أيام قليلة ، والأعداء يتربصون ، جاهزون ليس للشماتة فحسب ، بل للمزيد من إلحاق الهزائم بالعدو الأول ، العدو الأول باعتراف كبار ساستهم ، كما سيأتي .

ويضيف وزير الخارجية محمود رياض لما سبق ، أن ناصر قد وضع نصب عينيه عدة أهداف راح يسعى ليله ونهاره لتحقيقها ، ومنها :

١-إعادة بناء الجيش .

٢- إزالة آثار العدوان .

٣-الحفاظ على الوحدة الوطنية .

٤- معالجة الوضع الاقتصادي السيء بسبب الحرب .

٥- تحقيق التضامن العربي .

٦- الحصول على أكبر دعم من الاتحاد السوفييتي .

٧- الحصول على تأييد الدول الأوروبية ودول العالم الثالث (١٤) . ولا أظن ان من يقرأ ما سبق سيخفى عليه الجهد المطلوب لتحقيق بعض ذلك ، فكيف لتحقيقه كله !

نهاية مشير ..

وبعد إعفائه من قيادة الجيش ، عرض ناصر على صديق العمر عبد الحكيم عامر أن يكون نائباً لرئيس الجمهورية ، أو أن يغادر القاهرة إلى يوغسلافيا للاقامة هناك ، فرفض عامر العرض قائلاً أنه لا يرغب بأن يكون تشريفاتي برئاسة الجمهورية ، وكيف يقبل بالمنصب بعد تصفية الضباط الذين عملوا معه (يقصد أتباعه من المتآمرين) ، وعاد إلى قريته أسطال، وفيها لحق به صلاح نصر مجدداً العرض من الرئيس بمنصب نائب أول للرئيس ، فرفض وعاد إلى القاهرة ، وبدأ بتجميع الضباط من أتباعه وأشياعه ، وبالذات الذين أحيلوا إلى التقاعد بالقرار الرئاسي ...

وهنا يضيف أحمد حمروش ان الاستقالة التي بدأ عامر توزيعها قد طالب فيها بتكوين حزبين ، وحرية ليبرالية ، كما اتصل بالسفير السوفييتي ملقياً تبعة الهزيمة على الاتحاد السوفييتي (١٥) .

ولما استفحل أمر عامر ، وأصبح منزله جيباً للتآمر على الدولة والرئيس ، استدعاه ناصر في ٢٥آب ١٩٦٧، وإثناء حديثه الطويل معه ، كان قائد الجيش محمد فوزي- بناء على اتفاق مع الرئيس- يطوق منزل عامر ، ويطلب من الذين فيه الاستسلام (١٦) .

واستسلم كل من في المنزل ، ومعهم شمس بدران ، واعتقل الضباط ومن معهم من حرس المشير ، وكانوا ٣٠٠ شخص نقلوا إلى السجن الحربي ، وتمت مصادرة الأسلحة والذخائر والقنابل التي ملأت ١٣ لوري سعة ٣ طن ، ليصدر بعد ذلك القرار بتحديد إقامة عامر في منزله (١٧) .

وفي ١٣ أيلول ، تم اعتقال صلاح نصر وعباس رضوان وعدد من كبار الضباط المحالين على التقاعد (١٨) .

ورغم وجوده معتقلاً في بيته ، استمر عامر في " الاتصالات الخارجية سراً ، بهدف بث الإشاعات ، وتأليب الرأي العام ضد السلطة الشرعية في الدولة " (١٩) ، مما اضطر عبد الناصر لإصدار قرار بنقله لبيت منعزل يتعذر عليه فيه الاتصال بأحد ، فنقل لمنزل في شارع الهرم ، وهناك حاول الانتحار في ١٣ أيلول بتناوله مادة الأكتونين ، وتم نقله للمستشفى ، وفي الطريق إليها أخرج السم من فمه ، حيث جرى إسعافه ، وأعيد إلى منزله سليماً ، وراح يلقي ما يشبه الوصية ، فقال : يمكنكم طلب السلاح من الاتحاد السوفييتي ،عندكم الرجالة في البلد كثير ، وعليكم استئناف القتال "(٢٠) .

وفي اليوم التالي ١٤ أيلول ، وبينما كان البحث جارياً لتغيير فيلته بأخرى تتوفر فيها ضرورات الحراسة ،وصل الخبر بانتحار المشير ووفاته الساعة السابعة مساء (٢١) .

ويلخص لنا الفريق محمد فوزي أجمل تلخيص ظروف الدولة آنذاك ، وما نتج عن وفاة المشير قائلاً :

" ..وبوفاة المشير محمد عبد الحكيم عامر ، نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة ، ومحاكمة أعوانه المقربين إليه ، ممن اشتركوا في مؤامرة الاستيلاء على السلطة في مصر ، زالت أكبر مراكز قوى منذ قيام الثورة ، كما انتهت البيروقراطية في القوات المسلحة المصرية ، ولكن بعد أن فقدت كيانها وهيبتها في معركة عسكرية خاسرة لم تكن من صنعها ، او مناسبة لها زمناً وموضوعاً " (٢٢) .

محاكمات

وفي آب عام ١٩٦٨ ، جرت محاكمة الضباط المتورطين في "محاولة قلب نظام الحكم بالاستيلاء على قيادة القوات المسلحة "، وكان عددهم ٥٥ متهماً ، تمت تبرئة ١٣ متهماً منهم ، وكانت الأحكام الصادرة بحق كبارهم كالتالي :

١- شمس الدين بدران وزير الحربية سابقاً - الأشغال الشاقة المؤبدة .

٢- عباس رضوان أمين عام مساعد بالاتحاد الاشتراكي - الأشغال الشاقة المؤبدة ، وإلزامه برد مبلغ ١٠٤٠٠ جنيه مع صلاح نصر .

٣- صلاح نصر رئيس المخابرات العامة سابقاً - الأشغال الشاقة المؤبدة .

٤- مقدم متقاعد جلال هريدي - الأشغال الشاقة المؤبدة .

٥- لواء متقاعد عثمان نصار - الأشغال الشاقة المؤبدة .

وقد تراوحت باقي الأحكام ما بين السجن عاماً واحداً ، والسجن ١٥ عاماً (٢٣) .

وقد تم تكليف لجنة من كبار العسكريين برئاسة اللواء حسن مطاوع لبحث أوضاع الطيران المصري ، وما أدى إلى كارثة ١٩٦٧ ، وقد وضعت اللجنة تقريرها في ٥٠ صفحة يوردها هيكل كاملة في ملاحق كتابه الانفجار ١٩٦٧ (٢٤) .

تعليق

لقد كانت ترقية عامر من رتبة صاغ - رائد- إلى لواء، ومنحه منصب قائد القوات المسلحة ، خطأ ناصرياً في الدرجة الأولى لا ينكره باحث جاد صادق ، فقد كان هناك الكثير من المؤهلين في مصر ممن يستحقون المنصب والترقية أيضاً ، ولكن ليس بهذه القفزة غير المعهودة ! .

ولكن إذا ما علمنا ان ثوار يوليو كانوا في مناصبهم ، وفي زمنهم الزاهر المجيد ، علمنا أنه **خطأ نظام بكامله** ..

ألم يكن بإمكانهم ثني عبد الناصر عن قراره هذا ، سواء في الترقية الاستثنائية ، أو في تعيين عامر قائداً للجيش ؟

فها هو قائد سلاح الطيران اللواء حسن محمود يقدم استقالته احتجاجاً على هذه الترقية الاستثنائية ، " وقد رفض أن يستمر في منصبه احتراماً لرتبة اللواء التي يحملها ، ولأن عبد الحكيم عامر الذي كان صاغاً ، ورقي إلى رتبة اللواء دفعة واحدة سيرأسه " ، وأصر حسن محمود على استقالته ، فعين مكانه الطيار محمد صدقي محمود (٢٥) .

إذن كان هناك من اعترض ، بل وآثر الاستقالة ، ولم يعاقبه أحد ، بل تم تعيين آخر مكانه ، ولا نظن ان هذا اللواء كان أقوى مركزاً من قادة ثورة يوليو الأفاضل ، الذين كان أقل حق بإمكانهم ممارسته هو التهديد بالاستقالة مثلاً ، لذا فهم مسئولون مذنبون .

وكان عذر ناصر في هذه الترقية أنه لا بد أن يتولى أمر الجيش واحد من ضباط الثورة ، " ويقول وزير الحربية آنذاك عبد اللطيف البغدادي أنه فهم من اختيار عبد الناصر لعامر أن تصبح له السيطرة السياسية على الجيش ، معتمداً على قوة الصداقة المتينة والتفاهم القائم بينهما " (٢٦) .

وكلا العذرين - أو التبريرين- يبدوان معقولين للوهلة الأولى ..

ولكن إذا ما علمنا أن عدد ضباط ثورة يوليو كان أكثر من ٣٠٠ ضابط ، أدركنا مدى الخطأ ..

فهل كان كل هؤلاء أقل كفاءة من عامر ؟

وهل كانوا جميعاً ضعيفي الولاء ، وتم اختبارهم ليجد قادة الثورة أن عامر أفضلهم وأخلصهم للثورة ولناصر ؟

ثم تأتي أمور تطاول الأمور السابقة غرابة ..

فقد مُنح عامر رتبة المشير في أول حزيران ١٩٥٨ ، وأصبح في الوقت ذاته نائباً للرئيس ، ورتبة المشير لم تكن معروفة على مستوى الوطن العربي كله آنذاك (٢٧) .

ويشير المؤرخون إلى أن عامر كان يشغل مناصب مدنية كثيرة لا علاقة لها بمنصبه العسكري ، ولا يعرف عنها شيئاً ، فهو مشرف على الطرق الصوفية ، ورئيس إتحاد كرة القدم ، ويرأس مؤسسة الطاقة الذرية ، والمركز القومي للبحوث ، ومسئول عن مؤسسة النقل العام ، ورئيس اللجنة العليا لتصفية الاقطاع... (٢٨) ، والله أعلم بالباقي ..!

كما استطاع نشر رجاله في كل مكان ..

فقد أرسل شمس بدران لشركات القطاع العام أن لا تعين أحداً في الوظائف الخالية بدون إذن المشير ، كما بدأ زحف العساكر في القطاع المدني وفي كل المواقع ، فكان عدد الوزراء العسكريين في وزارة على صبري عشرة وزراء ، ثم زادوا إلى الضعف ، وبلغ عدد السفراء العسكريين ٧٢ سفيراً من أصل مئة سفير !(٢٩) .

وبعكس رفيق عمره ، كان سلوك عامر المهني - وغير المهني - لا ينم عن قائد ثوري شارك في ثورة عظمى ، ذات رسالة خالدة ، غيرت مجرى تاريخ المنطقة ، بل ظل أنانياً ، مستخفاً بكل شيء ، ومن ذلك مصير بلده الذي كاد أن يطاح به في حرب لم يساهم فيها حضرته إلا بتوفيره أسباب الهزيمة ، ولولا حكمة ناصر ، وسياسة من كان حوله من ضباط الثورة في مداراة الأمور ، واتخاذ الحلول الحاسمة بشأنه ، لحدثت حوادث وكوارث كبيرة لا يعلمها إلا الله .

****

إعادة بناء القوات المسلحة

دعم سوفييتي بلا حدود ..

ويظل الاتحاد السوفييتي الدولة الصديقة الوحيدة من الدول الكبرى ..

فلا يحتاج السوفييت إلى طويل وقت لطمأنة عبد الناصر بعد الخسران الكبير الذي حصل للأسلحة السوفييتية التي خسرتها مصر في حرب حزيران ، وباعتراف بعض القادة المصريين الكبار ، ظل الكثير منها سليما لم يستعمل !

فعن الفرقة المدرعة - مثلاً - يقول محمد فوزي أن عدد دباباتها كان قبل الحرب ٢٠٠ دبابة ، دمر منها ١٢ ، وبقي للعدو ١٨٨ دبابة (٣٠) .

ويؤكد ما سبق ما ترويه محاضر اجتماعات عبد الناصر بعد الحرب مباشرة ، ففي زيارة الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف ، والجزائري هواري بومدين للإتحاد

السوفييتي بعد الحرب مباشرة ، وبتكليف من عبد الناصر ، يقول الزعيم السوفييتي بريجينيف لهما بكل وضوح وذلك في جلسة المباحثات الأولى في ١٩٦٧/٧/١٧:

" ..يوم حاربنا هتلر ، واحتللنا برلين كانت لدينا قوات عسكرية تبلغ ١٦ مليون مقاتل ، ولكن في حربكم مع إسرائيل لم يكن لديكم أي تفوق عددي ، فكيف تنتصرون ؟

إننا متألمون جداً لأننا طرحنا سمعتنا مع سمعتكم ، ولأننا وجدنا أحدث طائراتنا وأحدث صواريخنا في مراكز بحوث الولايات المتحدة الأميركية ، كما أرسلت أحدث دباباتنا إلى ألمانيا الغربية ، في الوقت نفسه نتألم عندما نسمع أن ضباط إسرائيل يقولون عن دباباتنا وطائراتنا التي تركتموها أنها من أفضل أنواع الأسلحة "(٣١) .

ولا نعتقد أن أي باحث ملتزم ، وأي وطني يغار على وطنه وأصدقاء بلاده ، لا يتألم من انتقال أسلحة الأصدقاء لمصانع الأعداء ، تختبرها وتدرسها ، فتحاول تقليدها ، وتصنع ما يقف ضدها !

أليس في كشف أعدائنا - وأعداء السوفييت - للأسلحة السوفييتية العذر الكافي لحرمان الجهة التي تركتها للعدو يدرسها ويعرف مزاياها وعيوبها من أي مساعدة أخرى؟ ولكن السوفييت كانوا أصدقاء وحلفاء بكل ما تعنيه الكلمة من معنى ..

وكان الكرم السوفييتي بلا حدود ...

فقد تسلم ناصر خطاباً من القادة السوفييت يعلنون فيه استعدادهم لتعويض مصر - مجاناً - كل الأسلحة التي فقدتها في حرب حزيران ، وبذلك بدأت مصر إعادة بناء قواتها من جديد (٣٢) .

يقول وزير الحربية آنذاك أمين هويدي :

" كانت مئات الطائرات قد بدأت في الوصول على فترات متعاقبة من الاتحاد السوفييتي ...أحياناً تأتي في قوافل جوية في سباق مع الزمن في الأيام الأولى بعد النكسة ، وأحياناً أخرى في قوافل بحرية بعد ذلك ... وبجهد محموم بدء في مضاعفة عدد الطيارين لمواجهة الزيادة في عدد الطائرات ، فالبعض يُدربون في الاتحاد السوفييتي ، والبعض الآخر يدربون هنا في القاهرة " (٣٣) .

ويؤكد أنور السادات ما سبق بقوله في مجلس الأمة " أن الاتحاد السوفييتي قد أقام جسراً جوياً سريعاً لتعويض القوات المسلحة المصرية فور الهزيمة ، بحيث كانت تهبط طائرة سوفييتية كل دقيقتين "(٣٤) .

أما قائد القوات المسلحة محمد فوزي فيخبرنا أن بداية الدعم السوفييتي الهائل كانت اعتباراً من يوم ١٩٦٧/٦/٩ ، أي بعد يومين من الهزيمة ، وكانت البداية تزويد

مصر ب ٣١ طائرة ميج ٢١ ، و٩٣ طائرة ميج ١٧ ، وكان نقل الأسلحة يتم بطائرات النقل الأنتينوف الضخمة ، أو بالنقل البحري ، فبلغ عدد الرحلات الجوية ٥٤٤ رحلة ، و ١٥ باخرة نقل بحري ، حملت لمصر ٤٨ ألف طن أسلحة ومعدات عسكرية ، ولم يطالب الاتحاد السوفييتي بثمن هذه المعدات والأسلحة (٣٥) .

أما في الفترة اللاحقة ، وابتداء من عام ١٩٦٨ ، فقد كانت مصر توقع مع السوفييت كل عام ثلاث اتفاقيات لاستيراد السلاح ، بقروض ذات ميزات وشروط مريحة جداً ..

فقد كانت فترة السماح عشر سنوات .

والأقساط توزع على ٤٠ عاماً ، بفائدة لا تزيد عن ٢،٥ % ، وبأسعار منخفضة جداً ، فبينما كن ثمن طائرة الميج ٢١ ثلاثة أرباع المليون جنيه مصري ، كان ثمن طائرة الميراج حين استوردتها ليبيا من فرنسا ٣ مليون دولار ، وكان ثمن طائرة الفانتوم الأميركية ٦-٨ مليون دولار (٣٦) ، فتأمل ..

وقد قدر محمد فوزي ثمن الدفعة الأولى من السلاح السوفييتي المقدم لمصر ب ١٠٠ مليون جنيه ، وقد اعتبرت تعويضاً لما فقدته مصر ، لذا كانت مجانية .

ومن تلك المساعدات الهائلة من السلاح والخبرات :

١- بعد لقاء القمة في القاهرة في ٢١-٢٣ /١٩٦٧/٦ بين عبد الناصر والزعيم السوفييتي بدجورني والمارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلح السوفييتية ، بقي زخاروف في مصر ليشاركها بناء أول خط دفاعي غرب قناة السويس .

٢- استعانة مصر ب ١٢٠ طياراً سوفييتياً لتدريب الطيارين المصريين .

٣- إمداد مصر بأربعين طائرة ميج أخرى ، و ١٢٠٠ مستشار .

٤- في لقاء القمة الثاني بين الزعيمين في موسكو في ١٩٦٧/٦/٢٩ ، حصلت مصر على معدات وأسلحة بقيمة ٢٠٠ مليون جنيه .

٥- يضيف فوزي بأن ما حصلت عليه مصر من السوفييت من الإمدادات العسكرية عام ١٩٦٩ ، يعادل ما حصلت عليه منهم في ١٢ عاماً (١٩٥٥-١٩٦٧) (٣٧) .

والجدير بالذكر أن ناصر كان يقوم بهذا المجهود في التفاوض وتعويض االسلاح وهو مريض ، وقد دعاه بريجينيف إلى العلاج الطبيعي والراحة في سخالطوبو ، ولكن الزعيم الراحل أجل ذلك حتى الفراغ من مؤتمر المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي المنعقد في القاهرة في ٢٢ تموز ١٩٦٨(٣٨) .

٦- في لقاء القمة الثالث في موسكو في كانون أول ١٩٦٩ وناب أنور السادات عن عبد الناصر فيه ، وحضره محمود رياض ومحمد فوزي ، اتفق على إرسال ٦٠ طياراً

سوفييتياً كخبراء ، ومجموعة كبيرة من صواريخ سام ٣ ومعها أطقمها لتدريب الجنود المصريين عليها .

٧- في لقاء القمة الرابع في موسكو في ٢٥ كانون ثان ١٩٧٠ والذي حضره عبد الناصر ومحمد فوزي والدكتور مراد غالب ، وبعد تهديد ناصر باللجوء إلى طلب المساعدة من الولايات المتحدة ، حصلت مصر على :

" ٣٢ كتيبة صواريخ سام ٣ كاملة ، ومعها أطقمها السوفييتية مكونة من فرقة دفاع كاملة .

٨٥ طائرة ميج ٢١ معدلة جديدة ، بأجهزتها ومعداتها وبطياريها السوفييت مكونة من ٣ لواءات جوية كاملة .

٥٠ طائرة سوخوي ٩

١٠ طائرات ميج ٢١ تدريب

٤ أجهزة رادار ب ١٥ للعمل ضد الطيران الواطي

٥٠ موتور جديد ٥١١ لطائرات الميج ٢١ الموجودة في مصر تطويراً للطائرة ميج ٢١ .

ويضيف فوزي : وكانت هذه أكبر صفقة أسلحة بين مصر والاتحاد السوفييتي منذ بدء التعاون والصداقة معه .

وعاد الرئيس عبد الناصر والوفد المرافق له مسرورين بالدعم السياسي والعسكري الجديد ، والذي لم يسبق للإتحاد السوفييتي أن قدم مثله لدولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية "(٣٩) .

هي المسئولية إذن .. ، يقوم بها ناصر - رغم مرضه- خير قيام ، محلياً وعالمياً ، أوليس القائد كبش الفداء ؟

فقد كانت مصر في هذه الظروف بحاجة لكل حبة عرق لتعويض ما مضى ، وتطوير ما هو موجود .

وقد كان لهذا الكم الهائل من السلاح والخبرات دوره الفاعل في حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر.

ويعلق هيكل على إمداد الاتحاد السوفييتي لنا بالسلاح فكان مَصدرنا الوحيد، فيقول :

" لقد كان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجده العرب في أيديهم لمقاومة التوسع الإسرائيلي ، ولمحاولة رد هذا التوسع بالقوة إلى مرحلة التقلص والانكماش .

كان السلاح السوفييتي هو السلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة ١٩٥٦ ، وهو السلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة ١٩٦٧ ، والسلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة ١٩٦٩ ، والسلاح الوحيد الذي وجدناه في أيدينا سنة ١٩٧٣ ....

إن السلاح السوفييتي - حتى هذه اللحظة- هو السلاح الوحيد في جيوش مصر وسوريا والعراق والجزائر واليمن الديمقراطية والسودان والصومال ، ثم هو كل السلاح الذي تمسك به المقاومة الفلسطينية ، وأخيراً فهو اليوم جزء هام من سلاح ليبيا والكويت ، وغيرهما من الدول العربية "(٤٠) .

وبناء على ما سبق ..

فإن الذين لا يعرفون أصدقاءهم من أعدائهم ليسو بالأغبياء فحسب ، بل هم خونة أيضاً .. فهم يخونون أنفسهم أولاً ، ثم يخونون شعوبهم وأوطانهم ..

فما هي الجناية التي جناها الاتحاد السوفييتي ضد العرب ، وضد مصر حتى يعلن أنور السادات عن إلغائه معاهدة الصداقة مع السوفييت ، ويتحول لصداقة الولايات المتحدة التي لم يثبت لنا التاريخ أنها كانت صديقة لعربي ؟

وما هي الجناية التي جناها السوفييت ضد العرب لنسوغ فرح بعض العرب بانشقاق بعض الجمهوريات السوفييتية عن الاتحاد السوفييتي ؟

إن رجل الشارع العادي لا يحسب عليه جهله ، أما المثقفون فلا عذر لهم حين يمارسون ذلك ، فمثل هذا السلوك يدل على جهل فاضح بأبسط حقائق التاريخ ، قبل ان يدل على النكران والجحود، والتقدير السيء للأمور !

مراجع الباب السابع

الفصل الأول

(١) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ١٥٦ .
(٢) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٩٩ .
(٣) أحمد حمروش ، م س، ص ١٠٤ .
(٤) م ن ، ص ١٠٥ .
(٥) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١٠٠ .
(٦) هيكل ، ١٩٦٧ الانفجار ، ص ٧١٤ .
(٧) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٣٦ .
(٨) م ن ، ص ١٣٧ .
(٩) م ن ، ص ١٣٧ .
(١٠) م ن ، ص ١٣٧ .
(١١) محمود رياض ، مذكراته ، ج ١، ص ٤٤ .
(١٢) م ن ، ص ٤٥ .
(١٣) م ن ، ص ٤٥ .
(١٤) م ن ، ص ٤٥ .
(١٥) م ن ، ص ٤٥ .
(١٦) م ن ، ص ٧٢ .
(١٧) د.رؤوف عباس ، م س ، ص ١٠٠ .
(١٨) م ن ، ص ١٠٠.
(١٩) أنتوني ناتنج ، ناصر ، ص ٤٥٤ .
(٢٠) د. صلاح العقاد ، مأساة يونيو ١٩٦٧ ، ص ٢٣٢ .
(٢١) أمين هويدي ، حروب عبد الناصر ، ١٥٤ .
(٢٢) م ن ، ص ١٥٥-١٥٦ .
(٢٣) هيكل ، م س ، ص ١٤٠ .
(٢٤) موسوعة وكيبيديا .
(٢٥) د.رؤوف عباس ، م س ، ص ٩٩ .
(٢٦) م ن ، ص ٩٩ .

(٢٧) هيكل ، م س ، ص ١٣٤-١٣٥ .
(٢٨) موشيه ديان ، ديان يعترف ، ص ١٨٨ .
(٢٩) موسوعة ويكيبيديا .
(٣٠) محمود رياض ، مذكراته ، ج ٣ ، ص ٦٦ .
(٣١) جورج كتن ، العلاقات الروسية - العربية في القرن العشرين وآفاقها ، ص ٥٩ .
(٣٢) أحمد حمروش ، م س، ص ١١٧ .
(٣٣) محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، ص ٩٣ .
(٣٤) موشيه ديان ، م س ، ص ١٩٢ .
(٣٥) هيكل ، ١٩٦٧ الانفجار ، ص ٨١٤-٨١٥ .
(٣٦) أحمد حمروش ، م س، ١٤١ .
(٣٧) محمد فوزي ، م س، ص ١٢٥ .
(٣٨) عبد الله إمام ، ناصر وعامر ، ص ١٤٦ .
(٣٩) م ن ، ص ١٤١ .
(٤٠) موسوعة ويكيبيديا .
(٤١) محمد فوزي ، م س، ص ١٢٥ .
(٤٢) أمين هويدي ، م س ، ص ١٦٧ .
(٤٣) هيكل ، م س، ص ٢٨١-٢٩١.
(٤٤) مؤري روبنشتاين وريتشارد غولدمان ، قصة القوة الجوية الإسرائيلية ، ص ٩١ .
(٤٥) هيكل ، م س، ص ١٠٦٥ .
(٤٦) محمد فوزي ، م س، ص ١٦١ .
(٤٧) هيكل ، م س، ص ١٠٦٣ .
(٤٨) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٠٩ .
(٤٩) محمد فوزي ، م س، ص ٩٣ .
(٥٠) د. صلاح العقاد ، م س ، ص ٢٨٠ .

الفصل الثاني

(١) هيكل ، ١٩٦٧ الإنفجار ، ص ٧١٣ .
(٢) موشيه ديان ، ديان يعترف ، ص ١٩٨ .
(٣) هيكل ، م س، ص ٧١٤ .
(٤) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ١٥٦ .

(٥) م ن ، ص ١٥٦ .
(٦) محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، ص ١٣٧ .
(٧) أحمد حمروش ، م س، ص ١٥٧ .
(٨) محمد فوزي ، م س ، ص ٣٥ .
(٩) م ن ص ، ٦٤ .
(١٠) م ن ، ص ٢٤٠ .
(١١) أحمد حمروش ، م س، ص ١٥٧ .
(١٢)) موزي روبنشتاين وريتشارد غولدمان ، قصة القوة الجوية الإسرائيلية ، ص ١٠٨ .
(١٣) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٦٣ .
(١٤) موسوعة ويكيبيديا .
(١٥) م ن ، ص ١٥٧ .
(١٦) م ن ، ص ١٥٦ .
(١٧) أمين هويدي ، حروب عبد الناصر ، ص ٩٥ .
(١٨) م ن ، ص ١٧٣ .
(١٩) أحمد حمروش ، م س، ص ١٥٧ .
(٢٠) محمد فوزي ، ص ١٥٠ .
(٢١) م ن ، ص ١٤٨ .
(٢٢) م ن ، ١٥١-١٥٢ .
(٢٣) م ن ، ١٥٦ .
(٢٤) أنتوني ناتنج ، ناصر ، ص ٤٧٠ .
(٢٥) د. صلاح العقاد ، مأساة يونيو ١٩٦٧ ، ص ٢٨١ .
(٢٦) م ن ، ص ٢٨١ .
(٢٧) د. رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ١٠١ .
(٢٨) أمين هويدي ، م س ، ص ١٧٦ .
(٢٩) أحمد حمروش ، م س ، ص ١٤٩ ، وشبكة الانترنت .
(٣٠) هيكل ، م س، ص ٨٠٩ .
(٣١) عبد الله إمام ، ناصر وعامر ، ص ١٥١ .
(٣٢) م ن ، ص ١٥١ .
(٣٣) أحمد حمروش ، م س، ص ١٦٣ .

(٣٤) م ن ، ص ١٦٢ .
(٣٦) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٠ .
(٣٧) هيكل ، م س، ص ٨٧٠ .
(٣٨) م ن ، ص ٨٧٠ .
(٣٩) أحمد حمروش ، م س، ص ١٥٦-١٥٧ .
(٤٠) هيكل ، م س، ص ٨٧١ .
(٤١) محمد فوزي ، م س، ص ١٦٠ .
(٤٢) د. رؤوف عباس ، م س، ص ١٠٣ .
(٤٣) م ن ، ص ١٠١ .
(٤٤) م ن ، ص ١٠٥ .
(٤٥) هيكل ، م س، ص ٨٢١ .
(٤٦) عبد الله إمام ، م س، ص ٣٣ .
(٤٧) أحمد حمروش ، م س، ص ١٦٠-١٦١ .
(٤٨) محمد فوزي ، م س، ص ٦٠ .
(٤٩) م ن ، ص ٦١ .

الفصل الثالث

(١) شبكة الانترنت
(٢) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ١٧٥ .
(٣) م ن ، ص ١٧٥ .
(٤) م ن ، ص ١٧٥ .
(٥) م ن ، ص ١٧٦ .
(٦) حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر ، ص ١٦١ .
(٧) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٦-١٧٧ .
(٨) حسن الفكهاني ، م س، ص ١٦١-١٦٢ .
(٩) محمود رياض ، مذكراته ، ج ٣ ، ص ٧٨ .
(١٠) م ن ، ص ٧٨-٧٩ .
(١١) أحمد حمروش ، م س، ص ١٧٧ .
(١٢) هيكل ، ١٩٦٧ الانفجار ، ص ٨٧١ .
(١٣) محمود رياض ، م س، ص ٩١ .

(١٤) م ن ، ص ٩١-٩٢ .
(١٥) أحمد حمروش ، م س، ص ١٩٢ .
(١٦) م ن ، ص ١٩٢ .
(١٧) محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، ص ١٧٨-١٧٩ .
(١٨) أحمد حمروش ، م س، ص ١٩٥ .
(١٩) محمد فوزي ، م س، ص ١٧٩ .
(٢٠) م ن ، ص ١٨١ .
(٢١) م ن ، ص ١٨٠-١٨١ .
(٢٢) م ن ، ص ١٨٣ .
(٢٣) عبد الله إمام ، ناصر وعامر ، ص ٢٣٥-٢٣٦ .
(٢٤) هيكل ، م س، ص ١٠٤٠ .
(٢٥) عبد الله إمام ، م س، ص ٢٢ .
(٢٦) م ن ، ص ٢٦ .
(٢٧) م ن ، ص ٢٤ .
(٢٨) م ن ، ص ٨٩ .
(٢٩) م ن ، ص ٨٨ .
(٣٠) محمد فوزي ، م س، ص ١٦١ .
(٣١) عبد المجيد فريد ، محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية ، ص ٥٦ .
(٣٢) أحمد حمروش ، م س، ص ١٨٢ .
(٣٣) م ن ، ص ١٨٢ .
(٣٤) م ن ، ص ١٨٢ .
(٣٥) محمد فوزي ، م س ، ص ١٩٤ .
(٣٦) م ن ، ص ٢٣٦ .
(٣٧) م ن ، ص ٣٤٨-٣٤٩ .
(٣٨) م ن ، ص ٣٤٩ .
(٣٩) م ن ، ص ٣٥١-٣٥٢ .
(٤٠) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٧٥ .

الباب الثامن

حرب الاستنزاف
آخر الحروب قبل الغروب

الفصل الأول

حرب الاستنزاف

حرب تلد حرباً

" نلتزم أمــام التاريــخ : لــن نتفــاوض
مع إسرائيــل ، ولن نتنــازل عن حقــوق
شعب فلسطيــن ، المقترحــات الأميركيــة
مرفوضة لأنــها تؤدي إلـــى الاستســـلام
والمذلــة * الضفــة الغربيــة أهم كثيــراً
من سيناء ،وخوفــي عليها لا على سيـنــاء
" عبد الناصر(عبد المجيـد فريـد ،
محاضر اجتماعات عبد الناصر(ص٨٤).

إذن هي الحرب يُرد عليها بالحرب ، وليس بطلب السلام ....
والهزيمة تقابل بالنصر لا بالخنوع ، والمزيد من الهزائم ...
وهنا يبرز دور القائد العظيم ، في تحويل الهزيمة إلى نصر، ولو بأقل مما حصل عليه العدو في الجولة الأولى .

لقد وجد ناصر أن قواته أمست قادرة على خوض معارك أخرى ، إن لم يكن حروب ، ولكنه كان أذكى من أن يشرع في حرب جيوش ، فتلك لها موعدها وإعدادها ، ولكن استرجاع الهيبة والمعنويات للشعب وللجيش ممكن بالمعارك القصيرة ، طالما أن الجيش المصري أصبح قادراً على ذلك .

لقد ألم ناصر بكل تفاصيل حرب حزيران في ١١ حزيران ، فعرف حجم الخسائر ، وعلم أن القوة الوحيدة التي لم تخسر شيئاً هي القوات البحرية ، وأنه نتيجة لتدمير الطائرات المصرية وهي على الأرض ، فقد كانت الخسارة في الطيارين قليلة ، وأن لدى مصر الآن ٢١٦ طياراً مستعدون للقتال (١) .

إجراءات أولية

بعد إعفاء عدد من كبار الضباط ، وتكليف آخرين بمناصب جديدة ، لم ينتظر عبد الناصر طويلاً لبداية الإعداد للمعارك القادمة ، فبدأ في ١١ حزيران - مستعيناً بالقيادات العسكرية الجديدة - بالخطوات التالية :

١- إجراء تغييرات جذرية على قيادة القوات المسلحة ، وكان أبرزها تعيين الفريق أول محمد فوزي قائداً للقوات المسلحة ، وتعيين عبد المنعم رياض رئيساً لأركان الحرب .

٢- استدعاء الأفراد العسكريين بواسطة وسائط الإعلام للعودة إلى وحداتهم .

٣- الشروع في ترميم الحفر في ممرات المطارات ، ودفع المعدات والأسلحة لأماكن استخدامها ، واستقبال ٤٠ طائرة ميج ١٧من الجزائر .

٤- البداية في تكوين خط دفاعي مبدئي غرب قناة السويس .

٥- تأمين الاتصالات السلكية واللاسلكية بين القيادة في مدينة نصر ، وأفرع القوات المسلحة والمناطق العسكرية (٢) .

وفي جلسة لناصر مع محمد فوزي قام ناصر- كما أسلفنا- بتعيين قيادات عليا لقمة الهيكل التنظيمي، وللأفرع الرئيسة ، ولقيادات المناطق .

وذكر بعض التوجيهات السياسية والعسكرية ، ومنها :

١- ضرورة الصمود أمام العدو الإسرائيلي ، وإظهار القوة أمام ما يذيعه من أخبار عن انتصاراته .

٢- السرعة في تماسك الشعب والحكومة مع القوات المسلحة .

٣- أكد على أن مصر ستستمر في مساعيها الدبلوماسية والسلمية ، في الوقت الذي تستعد فيه للحرب بإعداد الجيش وتسليحه ، وتنظيمه وتدريبه .

٤- ضرورة التعاون مع الدول العربية ، وتوثيق العلاقات معها .

٥- ضرورة توطيد العلاقات مع الاتحاد السوفييتي ، ومحاولة إشراكه في عملية إعادة بناء القوات المسلحة .

٦- أكد أنه بما أن الشعب قد رفض الهزيمة ، أصبح لزاماً على الدولة استرداد الأراضي المحتلة (٣) .

أهداف حرب الاستنزاف

وكان للزعيم الراحل غايات وأهداف من الشروع في حرب الاستنزاف ، وقد تحققت جميعاً ، فمن ذلك :

١- " إعادة الثقة للقوات المسلحة .

٢- منع العدو من الاحساس بالاستقرار في أراض مصرية أو عربية .
٣- رفع الروح المعنوية للشعب والجبهة الداخلية .
٤- سد أي ثغرات في قدرة القوات المسلحة إثناء المعارك .
٥- رفع كفاءة القوات المسلحة من خلال معارك حقيقية وليست مجرد تدريب " (٤) .

ونضيف إلى ما سبق :

١- اختبار الأسلحة السوفييتية التي حصلت عليها مصر بعد الحرب ، خاصة الأسلحة الجديدة .
٢- اختبار استيعاب الجيش المصري للأسلحة الجديدة .
٣- اختبار السوفييت ومدى جديتهم في الوقوف مع مصر والعرب في صراعهم مع إسرائيل .
٤- اختبار قدرات العدو ونواياه في صد الهجمات المصرية .
٥- كما كانت حرب الاستنزاف اختباراً فعلياً للقيادات العسكرية المصرية ، بعد الاستغناء عن القيادات السابقة السبب في الهزيمة .

إرهاصات ...

ويؤرخ بعض المؤرخين لبداية حرب الاستنزاف ب ٢٣ يوليو - تموز- ١٩٦٩ ، بدون أن يعطوا سبباً لهذا التاريخ (٥) ، فالباحث يرى ان الجبهة المصرية لم تهدأ بعد حرب ٦٧ ، ولكن معطيات الحرب تفيدنا أن المقصود بهذ التأريخ- على ما يبدو - هو بداية المعارك الجوية بشكل مستمر وعنيف على الجبهة المصرية ، أما القائد محمد فوزي فقد وصف حرب الثلاث سنوات ١٩٦٧-١٩٧٠ بانها حرب الاستنزاف ، وقال أنها أول حرب تهزم فيها إسرائيل (٦) .

رأس العش معركة الصمود الأولى

وكانت معركة رأس العش بداية المناوشات التي أثبت فيها الجيش المصري استعداده للقتال من جديد .

ففي ١٩٦٧/٧/١ ، تمكنت القوات المصرية مستخدمة نيران الدبابات والمدفعية من منع القوات الإسرائيلية من التقدم في هجمات ثلاث لاحتلال بور فؤاد ، مستخدمة الدبابات والطيران ، وقد أثبتت المعركة استعادة الجيش المصري لروحه المعنوية ، وان القوات الحسنة التحصين في الأرض قادرة على الصمود أمام قنابل المدفعية والطائرات على السواء (٧) .

وفي الأسبوع ذاته ، تمكن عدد من الضباط والأفراد من قوات الصاعقة المصرية من عبور القناة وتفجير مخزن ذخيرة كبير للعدو ، وظلت النيران مشتعلة فيه عدة أيام (٨) .

معارك جوية

وفي ١٤ /١٩٦٧/٧، تقدم سرب من الطائرات الإسرائيلية في المجال الجوي لمصر في المنطقة الجنوبية لقناة السويس ، فصده سرب مصري من عشر طائرات ميج ١٧ أجبره على الفرار، وفي اليوم ذاته اشتبك عدد آخر من طائرات العدو مع الطائرات المصرية ، فأصيبت طائرتان إسرائيليتان .

وفي اليوم التالي حدث اشتباكان جويان بين الطائرات المصرية والإسرائيلية ، كان التفوق فيهما للطيران المصري ، مما رفع من معنويات الطيارين المصريين في هذا الوقت الحرج (٩) .

معركة القنطرة

وهي اشتباك بالمدافع حصل مع العدو الإسرائيلي في منطقة القنطرة في يومي ٢١ و ٢٨ أيلول ١٩٦٧ ، وقد بلغت خسائر إسرائيل فيها ٨٠- ١٠٠ قتيل (١٠) .

إغراق المدمرة إيلات

وكان يوم ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ يوماً مشهوداً للبحرية المصرية ..

ففي هذا اليوم الأغر ، تقدمت المدمرة الإسرائيلية إيلات في المياه الإقليمية لمصر ، فأصدر الفريق أول محمد فوزي أوامره للقوات البحرية بتدميرها ، فتم ذلك بالصواريخ السوفييتية التي تستعمل للمرة الأولى ، وغرقت إيلات ، وغرق معها ٢٥٠ بحاراً ، فكانت عملاً مصرياً جريئاً ظافراً استحق عليه القائد البحري وسام النجمة العسكرية ، كما نال بقية أعضاء الطاقم النياشين (١١) .

وقد كان رد الفعل الإسرائيلي قصف معامل تكرير البترول ومستودعات الوقود المصرية في السويس بمدفعية الميدان لتشتعل فيها النيران عدة أيام (١٢) .

الهجوم على ميناء إيلات

وقد قامت به منطقة من ميناء العقبة مجموعة من فدائيي الضفادع البشرية ، فحرقت خزانات البترول ، وأغرقت بعض السفن الصغيرة (١٣) .

وكما أسلفنا ، فإن تدفق السلاح السوفييتي قد استمر، واستمرت مصر في تخريج الطيارين الجدد ، سواء في الإتحاد السوفييتي أو في مصر .

مواصلة الجهود على كافة الأصعدة ...

ويؤكد ما سلف وزير الحربية الأسبق أمين هويدي حين يقول :

" .. وتم تعويض كافة خسائرنا التي حدثت في يونيو ١٩٦٧ ، من الاتحاد السوفييتي من رادارات إلى مدفعية إلى صواريخ ، كما تم استكمال النقص في بعض أنواع المدافع من أسواق السلاح العالمية ، وأخذت أسلحة من نوع جديد لم تستخدمه قواتنا من قبل تصل من الاتحاد السوفييتي ، فعلاوة على الصواريخ سام ٢ وسام ٣ التي كانت مستخدمة قبل النكسة ، وصلت صواريخ سام ٦ وسام ٧ ، مما كان سبباً في تدعيم القوة القتالية "(١٤) .

ومن الإنجازات التي تستحق الذكر أيضاً ، فك المصانع التي كانت في منطقة القناة ونقلها إلى مدن داخل الجمهورية ، وذلك إبعاداً لها عن مناطق القتال ، وتم إخلاء ميناء الاسكندرية من المواد التموينية وأكداس الخشب ليستقبل ما سيصل مصر عن طريقه لأنه الميناء الوحيد الذي تعتمد عليه مصر(١٥) .

إغراق الغواصة داكار

وترسل إسرائيل الغواصة داكار في مهمة لاستكشاف قوارب الصواريخ المصرية في الاسكندرية ، فحوصرت بالمدمرات وقذائف الأعماق ، وتم إغراقها على بعد ١٨ كم من ميناء الاسكندرية ، وشوهدت بقع الزيت على سطح الماء دليلا على ذلك ، ولم يعترف العدو بغرقها إلا عام ١٩٨٩ عندما طلب تصريحاً رسمياً بالبحث عن جثث القتلى والذين أعلنت إسرائيل أنهم ٧٨ ضابطاً وبحاراً (١٦) .

عمليات أخرى

ورد عن محمد فوزي في اجتماع لمجلس الوزراء في ١٩٦٨/١٠/٣١ ، إسقاط أربع طائرات ميراج ، وتدمير ١٠٠ صاروخ عيار ٢٤٠ ملم في سيناء (١٧) .

مؤتمر الخرطوم وسحب القوات المصرية من اليمن

ولما توجه ناصر إلى السودان ليشارك في مؤتمر الخرطوم الذي عقد في ٢٩آب – ١ أيلول ١٩٦٧ ، وجد ٥٠٠ ألف شخص في استقباله يهتفون له في طريقه من المطار إلى المدينة (١٨) ، وفي هذا المؤتمر تقرر أن تسحب مصر ٢٠ ألف جندي مصري من اليمن ، وذلك بعد الاتفاق مع الملك فيصل على أن تكف السعودية عن تأييدها للنظام المنهار ، وأن تكف مصر والسعودية عن الدعم العسكري لليمن مع بقاء التعاون الاقتصادي معها ، وعاد ناصر وسحب ٣٠ ألف جندي بعد جلاء القوات البريطانية ، واستقلال اليمن الجنوبي ، ولم يبق في اليمن سوى ٢٠ ألف جندي مصري (١٩) .

وكان من نتائج المؤتمر أن تقدم الدول المنتجة للنفط الدعم المالي لدول المواجهة ، فكان نصيب مصر ٥٠ مليون جنيه قدمها الملك السعودي فيصل (٢٠) .

تطوير نوعية الجندي المصري

وكان من دروس حرب حزيران أن وعت القيادة المصرية ضرورة رفع مستوى الجندي المصري ليواكب العصر ومتطلباته .

وكان الجامعيون حين يؤدون الخدمة العسكرية يقضون عاماً واحداً في الجيش ، فتقرر زيادة خدمتهم إلى عدة سنوات .

وكان من ميزات تزويد السوفيت لمصربأسلحة جديدة ان أصبحت طبقات من الجيش تلتقي حول المدفع او الدبابة الجديدة ، فيختلط الجندي الجامعي مع أبناء الفلاحين والعمال من باقي الجنود .

وبدأت القوات المسلحة ببرامج في التوجيه المعنوي للجنود ، يحاضر فيها عدد من السياسيين والكتاب ، فكان هناك ندوات لوزير الخارجية محمود رياض ووزير الداخلية شعراوي جمعة (٢١) .

وهبطت نسبة الأميين من الجيش من ٥٥،٣% إلى ٣٣% ، وكانت نسبة الذين تعلموا أكثر من ١٢ سنة في يونيوعام ١٩٦٧ ٦،٣% من الجيش ،أصبحت ٢٦ % عام ١٩٧٠(٢٢) .

ولاحق محمد فوزي وبقية القادة الكبار هذا الأمر " ليتبين لهم أن المقاتل المؤهل ثقافياً هو العمود الفقري للقدرة القتالية في القوات المسلحة " وقد ارتفعت نسبة هذه الفئة من الجامعيين وأصحاب المؤهلات العليا إلى ٩٣% ، وكانوا هم المقاتلين الصالحين كما وصفهم فوزي(٢٣) .

خطة عبد الناصر لاستنزاف إسرائيل

ويشرع عبد الناصر في خطة طويلة لاستنزاف إسرائيل ، ويمكننا تلخيص هذه الخطة من محاضر اجتماعاته بوزرائه وقادة الجيش ، فكانت أهم عناصرها :

١- طلب المزيد من السلاح من الاتحاد السوفييتي ، ليس تعويضاً لما فقد في حرب حزيران فحسب ، بل لإحراز التفوق على العدو أيضاً

٢- إعداد المزيد من الطيارين ، واستقدام ١٢٠ طيار سوفييتي لتدريب الطيارين المصريين الجدد .

٣- اتصاله الدائم مع القيادة العسكرية للوقوف على كل جديد في بناء القوات المسلحة ، يقول ناصر عن هذا النشاط اليومي :

" كنت أتحدث مع الفريق فوزي كل ليلة قبل أن أذهب للنوم ، أطلبه في الساعة السادسة صباحاً لأراجع معه موقف القوات ، وموقف القيادات ، واسم القائد المسئول في كل موقع ، ولو لم ألجأ إلى هذا الأسلوب لكانت الأمور فلتت "(٢٤) .

٣- الإسراع في إعداد الجيش الشعبي الذي سيصل عدده إلى مليون مقاتل ، وقد وعد الروس بتسليحه .

٤- المزيد من عمليات عبور القناة ، ومهاجمة دوريات العدو في سيناء ، وأسر بعض جنوده وضباطه .

٥- تشديد الرقابة على النشاط الأميركي في مصر ، ومؤامراتها للإطاحة بناصر ونظامه .

٦- مراقبة القطاع العام ، وعدم ترك القيادات فيه لمدد طويلة ، وبالذات أولئك الذين جمعوا ثروات كبيرة ، ويتهربون من دفع الضرائب .

٧- الموافقة على الخطة العاجلة للجبهة ، وتتلخص في :

١- العمل على المزيد من الاحتكاك الدموي مع قوات العدو بالمزيد من العمليات العسكرية ضده .

٢- تعميق الاستطلاع في أرض العدو براً وبحراً وجواً .

٣- وضع القوات المصرية المقاتلة في أجواء المعركة ، وعدم تكليف الذين لم يخوضوا المعارك بأي عمل عسكري .

٤- تعميق أعمال الدوريات العسكرية في سيناء لزعزعة خطوط العدو ، ونزع ثقتها بنفسها .

٥- تشجيع الطيارين على المزيد من الأعمال القتالية مع طائرات العدو لزيادة الخبرة ، والثقة بالنفس (٢٥) .

الاستعانة بالماريشال زخاروف والمستشارين السوفييت

وكان الماريشال السوفييتي زخاروف قد رافق الرئيس السوفييتي بودجورني في زيارته لمصر بعد الحرب في ٢١ حزيران ٦٧، فاستبقاه ناصر في مصر طوال ٣ شهور للإشراف على عملية بناء القوات المسلحة وتدريبها ، ولما غادرها ، بقي عدد من المستشارين السوفييت وفي مقدمتهم الجنرال أوكينوف مستشار الفريق محمد فوزي ، والجنرال لاشنكوف ، وساهم الجميع مع القادة المصريين في وضع " الخطة الدفاعية ٢٠٠" ، والتي كانت تنص على وصول القوات المصرية إلى الحدود الدولية خلال ١٢يوماً من بدء هجومها المفترض مستقبلاً ، وحدد الزعيم الراحل مدة أربع سنوات لإنجازه ، وذلك حتى تمتلك مصر القوة والإعداد الكافي لذلك ، وقد سميت هذه الخطة "جرانيت" ، والتي تنص على عبور القناة واحتلال الممرات (٢٦) .

ومع بداية تشرين ثان ١٩٦٧ ، بدأت عمليات ضرب أهداف العدو بنيران المدفعية تنتقل من قطاع إلى قطاع ، محدثة خسائر فادحة في الأفراد والمعدات ومخازن الذخيرة، ثم شمل هذا التبادل المدفعي الجبهة كلها (٢٧) .

ومع إضافة مدافع عيار ١٥٥ مم وعيار ١٣٠ مم والقوانف الصاروخية للمواقع المصرية ، واستخدام طائرات الهليوكبتر، صار للقصف المصري تأثير كبير على قوات العدو (٢٨) .

استشهاد الفريق عبد المنعم رياض

وخلال هذه المعارك ، وفي ٩ آذار ١٩٦٩ ، استشهد الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان الحرب بقذيفة مدفع وهو يتفقد الجبهة ، وأقيمت له جنازة شعبية كبيرة (٢٩) .

إشادة

وبعد شهر من بداية هذه الحرب ، تقول صحيفة الجويش أبزرفر البريطانية في يوم ٢٣ آب ١٩٦٩ :

" تؤكد العمليات الجوية التي بدأت في يوليو ١٩٦٩ أن مصر تخوض غمار حرب استنزاف ضد السلاح الجوي الاسرائيلي ، وأن استمرار الصدام الجوي ، مع استمرار الغارات الجوية الاسرائيلية على الجبهة المصرية ، وتصدي وسائل الدفاع

الجوي المصري لها ، إنما يعني أنه من الممكن القضاء على التفوق الجوي الإسرائيلي في المدى الطويل ، بفرض أن إسرائيل لن تستطيع تعويض خسائرها "(٣٠) .

معركة لسان بورتوفيق: ١٩٦٩/٧/١٠

وهو موقع استراتيجي يمكن قوات العدو من السيطرة على منطقة البترول المصرية وميناء الأدبية ، وقد هاجمت كتيبة الصاعقة ٤٣ بالقوارب المطاطية هذا الموقع فدمرت معداته جميعاً ، وقتلت كل من فيه بدون أن تلحق بها أية خسائر (٣١) .

معركة الجزيرة الخضراء

وهذه الجزيرة تقع جنوب بور توفيق ، وتعويضاً لخسائره المتكررة ، هاجمها العدو بكتيبة من قواته وكادت ان تسيطر عليها لولا المقاومة العنيفة من السرية المصرية المدافعة ، وقد ردت القوات المصرية بقصفها بعنف بنيران المدفعية المركزة ، فتم تدمير معظم قوات العدو ولنشاته فوق الجزيرة ، وانسحب الناجون تاركين معداتهم ولنشاتهم المدمرة (٣٢) .

معركة الزعفرانة ٩ أيلول ١٩٦٩

قامت قوات العدو بإنزال ٩ دبابات برمائية في على شاطىء خليج السويس في موقع يدعى الزعفرانة ، وقتلت من كان فيه وكانوا ٥ أفراد فقط ، وقد تم استرداد الموقع في عملية واسعة جرت في منتصف أيلول ، وتمركز سربلان من الطائرات المصرية ميج ٢١في مطاري الزعفرانة والغردقة ، وقد كلفت عملية الزعفرانة اللواء أحمد إسماعيل منصبه ، وأحاله ناصرإلى التقاعد عندما تقاعس عن الذهاب للموقع لاستطلاع الأمر، وكلف خبيراً سوفييتياً للقيام بذلك (٣٣) .

الخطة "جرانيت" لعبور القناة

ولا يختلف المؤرخون في أن الزعيم الراحل هو صاحب خطة العبور إلى الضفة الشرقية للقناة ، وقد كلفته - وكبار قادته - الكثير من الجهد والاستعداد ، خاصة بعد تسلم الجيش المصري بعض طائرات الميراج من ليبيا ، والتي كانت قد اشترتها من فرنسا أوائل عام ١٩٧٠، لتسوء العلاقات بين فرنسا وأميركا ، خاصة بعد الاستقبال السيء

للرئيس الفرنسي بومبيدو وزوجته في أميركا من قبل اليهود في شباط ١٩٧٠ ، غضباً عليه لعقده تلك الصفقة (٣٤) .

وعن هذه الخطة يتحدث وزير الحربية الأسبق أمين هويدي ، فيقول :

" كانت خطط العبور تجهز في سرية وتكتم ، ويجري عليها التعديلات بين وقت وآخر ، على حسب تطور التقدم في التسليح والتدريب ، وتجهيز مسارح العمليات ، **كان الغرض هو العبور** ثم الوصول في مرحلة واحدة إلى مناطق الممرات ، وكان الاسم الكودي للخطة هو "جرانيت" ، وكتجارب ابتدائية للتنفيذ أخذت قواتنا تعبر إلى البر الشرقي في وحدات صغيرة في أول الأمر، ثم زاد حجمها إلى "سرايا بأسلحة معاونة" لتدمير العدو ، والحصول على معلومات عن دفاعاته ، والقبض على الأسرى .

وقد قامت المخابرات العامة بتصوير **خط "بارليف"** بحيث اتضحت معالمه تماماً ، وقامت في الوقت نفسه بإتمام دراسة مستفيضة عن الأعياد الاسرائيلية لاختيار أحدها لبدء الهجوم إذا رؤي ذلك ، كما قامت بإجراء دراسات مستفيضة عن كافة الأهداف الاستراتيجية داخل إسرائيل ، وكيفية التعامل معها ، ووضعت كل ذلك على الخرائط وتحت الرمل ، بل عملت "ماكينات" من الخشب والورق المقوى للأغراض ذات الأهمية الخاصة ، وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الحربية بدفع دورياتها بعيدة المدى خلف خطوط العدو في سيناء ، لتبقى هناك أياماً قصيرة أو طويلة حسب الواجبات المنوطة بها .

كان عبد الناصر في لعبته الكبيرة يستعد "للمعركة الكبرى" إذا فشلت وسائله الأخرى في تحقيق الجلاء عن أراضينا ، وتعمدت ألا أقول "القتال" ، لأنه لم يتوقف يوماً واحداً إلا بعد قبولنا لمبادرة روجرز "(٣٥) .

وهذه شهادة واضحة من وزير للحربية ، وله أبحاثه التاريخية عن مصر وعبد الناصر، وعن تلك المرحلة الخصبة الناصعة من تاريخ مصر والمنطقة .

فالزعيم الراحل كان في خضم المعركة ، يعيشها يوماً بيوم ، وكان يسهر الليل يراقب ويتصل بالقادة كلما عبرت مجموعة فدائية القناة ليطمئن على أخبارها ، وعودتها لقواعدها ، وفي الوقت ذاته يرسم مع قادته مسار المعركة الكبرى وخطتها ، يشاركه في ذلك مختلف الأسلحة بالمراقبة والرصد ، والبحث والدرس ، للوصول إلى المعلومات الصحيحة عن العدو ، وقد أثمر ذلك كله انتصاراً كبيراً رائعاً في حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

قصف مصري هائل

وتتخطى العمليات الحربية على الجبهة ما حصل في حرب حزيران والسويس ، يقول محمد فوزي :

" وفي ١١ /١٩٦٩/٩ ، قامت أكثر من ١٠٠ طائرة مقاتلة قاذفة في تشكيل أسراب قاذفة ميج ١٧ ، وأسراب ميج ٢١ في شكل انساق متتالية طوال اليوم ، تقذف أهداف للعدوعلى المحور الشمالي من رمانة إلى مصفق ، والمحور الجنوبي في متلا والحيطان ، وتمت هذه الغارات بتنسيق جيد مع قوات الدفاع الجوي ، كما ظهرت قدرة القتال والقذف على مستوى السرب الكامل ، وكانت هذه أول عمليات جوية تتم على مستوى الأسراب الكاملة ، قيادة وسيطرة وتوجيهاً ، وتمت كلها في يوم واحد ، فدللت للعدو على قدرة قواتنا الجوية "(٣٦) .

ولا شك ان مثل هذه الأعمال القتالية الهائلة لها فوائد لا يمكن حصرها ، وتتمثل في :

١- زيادة ثقة المقاتل المصري بنفسه وقيادته .

٢- زيادة ثقته بما يملكه من سلاح .

٣- زيادة قدرته على التعامل مع الأسلحة الحديثة التي تلقاها من الاتحاد السوفييتي .

٤- زيادة ثقة السوفييت بالمقاتل المصري ، وما حصل عليه من سلاح منهم ، وهذا يشجعهم على المزيد من الإمدادات لمصر .

٥- تعريف العدو بقدرات الجيش المصري ، وبالتالي الحذر من مغبة الاشتباك معه .

٦- تقييم السوفييت لأسلحتهم القديمة والحديثة في ميدان القتال .

ويضيف محمد فوزي أن قيادة القوات الجوية المصرية بدأت تتعامل مع طياريها بتصنيفهم إلى ممتاز وجيد جداً وجيد ، إضافة إلى المكافآت المالية (٣٧) .

تدمير قواعد الصواريخ الإسرائيلية

وفي تشرين أول ١٩٦٩ ، أقام العدو ثلاث قواعد لصواريخ هوك المضادة للطائرات ، ولكن القوات الجوية المصرية كلفت ٣٠ طائرة لمهاجمتها ، فدمرتها ، وكان الطيارون يتعمدون استعمال المدافع الرشاشة لقتل طواقم هذا القواعد(٣٨) .

وفي تقرير قدمه فوزي للزعيم الراحل في نهاية عام ١٩٦٩عن مجريات القتال وخسائر الطرفين ، أورد فوزي :

" قام العدو بحوالي ٣٥٠٠ طلعة طائرة لضرب وسائل الدفاع الجوي وقواته ، وقوات الجبهة ، واستخدم العدو أحسن طائراته في المعارك الجوية التي حدثت مع طائراتنا ، وأمكن للعدو تدمير سرية مدافع ٣٧ مم ، ١٠ مدافع ميدان ، ١٩ مدفع مضاد للدبابات ، وكانت خسائرنا في الأفراد ١٦ ضابطاً ، ١٥٠ رتب أخرى استشهاد ، أما الجرحى فكانوا ١٩ ضابطاً ، ٢٩٩ رتب أخرى .

أما خسائر العدو فكانت ١١طائرة مختلفة الأنواع (٥ مروحية -٢ ميراج - ٣ سكاي هوك ،١ ميستير) وأسرنا ضابطاً إسرائيلياً ، وقتلنا وجرحنا أعداداً لا يمكن حصرها إلا من البلاغات الرسمية ، أو الإذاعات الأجنبية ، أو كما أذاع موشي ديان عن خسائر إسرائيل من إبريل ٦٩ حتى نوفمبر ٦٩ قال أنها ١١٣ قتيلاً ، ٣٢٠ جريحاً .

وقامت قواتنا الجوية بعدد ٢٩٠٠ طلعة جوية للحماية منها ١٧٠ طلعة طائرة ضد أهداف أرضية ، ٧٠ طلعة طائرة استطلاع جوي ، كما تمت ٢٢ معركة جوية ، اشتركت فيها ١١٠ طائرات مقاتلة مصرية ضد ١٣٠ طائرة إسرائيلية ، وكانت خسائرنا ٢٣ طائرة ، وخسائر العدو ١٤ طائرة " (٣٩) .

عبد الناصر يزور الإتحاد السوفييتي
كانون ثان ١٩٧٠وموقف وطني مشرف

ويقوم الزعيم الراحل بزيارة سرية لموسكو في ٢٢ -١- ١٩٧٠ ، مصطحباً نائبه أنور السادات ووزير الخارجية محمود رياض ووزير الحربية الفريق أول محمد فوزي والمؤرخ محمد حسنين هيكل، والتقي بالرئيس السوفييتي **بريجينيف** ورئيس وزرائه إلكسي كوسيجين ، وبدأت المباحثات في اليوم الذي وصل فيه الوفد المصري إلى موسكو .

وكانت محادثات صعبة ، طلب فيها ناصر من السوفييت صواريخ أفضل من سام ٢ قادرة على مقاومة الطائرات التي تغير بارتفاع يقل عن ٥٠٠ متر لحماية القاهرة والاسكندرية وجبهة القناة ، مما استدعى تأجيل المفاوضات إلى اليوم التالي لترك الفرصة للماريشال جريتشكو والفريق محمد فوزي للتفاوض حول المناطق المطلوب الدفاع عنها بتلك الصواريخ .

ولما التقى الوفدان في اليوم التالي أبدى بريجنيف تردداً في تزويد مصر بما تريده لعدم وجود رجال يقومون بتشغيل الصواريخ المطلوبة ، وأن تدريبهم في الاتحاد السوفييتي يستغرق ٦ شهور ، فطالب ناصر بقوات سوفييتية تشغل هذه الصواريخ

وتحمي سماء مصر ريثما يتم تدريب الجنود المصريين ، فرد السوفييت بأن هذا الطلب سيخلق مشكلة مع الولايات المتحدة ، ليجيء رد عبيد الناصر نارياً ، فقال :

- " بالنسبة إلى موقفي أنا ، فإني انتهيت من إعداد الحسابات اللازمة ، ودعني أكن في غاية الصراحة معكم ، إننا إذا لم نحصل على ما أطلبه ، فإن الجميع سيتصورون أن الحل الوحيد هو في أيدي الأمريكيين، ونحن لم نر الأمريكيين يوماً يتراجعون في مساعدتهم للإسرائيليين ، **إن مصر أكبر موقع معاد للإستعمار في الشرق الأوسط ، وإذا سقطت في أيدي القوة الأمريكية والإسرائيلية ، فإن العالم العربي كله سيسقط** ، إننا لا نطلب منكم أن تقاتلوا نيابة عنا ، فنحن نريد المحافظة على استقلالنا ، لكنكم ، بمقدار ما أرى ، لستم مستعدين لمساعدتنا بالطريقة التي تساعد أمريكا بها إسرائيل ،وهذا يعني أنه ليس أمامي سوى طريق واحد مفتوح ، إني سأعود إلى مصر ، وسأقول للشعب كل الحقيقة عن الموقف ، سأقول له إن الوقت قد أزف لكي أسلم المسئولية إلى رئيس موالٍ للأمريكيين ، وما دمت غير قادر على إنقاذ شعبي ، فلا بد أن يتقدم غيري لإنقاذه ، تلك هي كلمتي الأخيرة " (٤٠) .

وأدى هذا الرد إلى أجواء توتر واضح في القاعة ، وطالبت الصيحات ناصر بإعطائهم الوقت الكافي للتباحث ، وتطلب ذلك استدعاء المكتب السياسي السوفييتي واللجنة المركزية ، وحضر بالطائرات من أرجاء الاتحاد السوفييتي ١٢ ماريشالاً سوفييتياً للمشاركة في المناقشات ، ليعود الفريقان لجلسة مباحثات أخرى بدأها بريجنيف بقوله :

- أيها الرفيق عبد الناصر ، لقد اتخذ الاتحاد السوفييتي اليوم قراراً يختلف عن أي قرار سبق لنا اتخاذه .. قرا ر يحتاج إلى عونكم في تنفيذه ، ويتطلب كبح جماح للنفس من جانبكم "(٤١) .

وتم إبلاغ ناصر وصحبه بحصولهم على :

١- فرقة كاملة من صواريخ سام ٣ بأفرادها ومعداتها وأجهزتها وحملتها وأسلحتها المعاونة من فرق الدفاع الجوي السوفييتي .

١- قوة ٣ لواء جوي كامل من :

٩٥ طائرة ميج ٢١ بالقادة والطيارين والموجهين والفنيين السوفييت وأجهزتها وراداراتها .

٥٠ طائرة سيخوي ٩

١٠ طائرات ميج ٢١ تدريب

٥٠ موتور طائرة ميج ٢١ معدلة من ٥١١ .

٤ أجهزة رادار ب ١٥

٣- تدريب ٣ لواءات كاملة من الدفاع الجوي(صواريخ سام ٣)، ورفع مستوى لواءات كاملة من القوات الجوية ميج ٢١ (٤٢) .

ولا يحار الباحث إزاء رد عبد الناصر على السوفييت .. ومدى جديته ، فهو رد بليغ جاهز ، ويبدو أن ناصر قد أعده بعناية ، متوقعاً تقاعس السوفييت وترددهم .

فناصر لا يمكن أن يفكر يوماً في تسليم بلده - او أي بلد - للأميركيين ولا لسواهم ، وهو العدو الأول واللدود لهم ..

فهو يقول في بداية رده أنه قد حسبها جيداً ، ونحن نصدقه كزعيم وطني قومي كبير يعرف ما يريد وما لا يريد ، وحساباته لا تتعدى المكوث أطول مدة ممكنة في موسكو ليجس قدرة مباحثيه ورغباتهم ، وسوف يلجأ إلى مرافقيه (كمحمد فوزي مثلاً) للمزيد من التشاور مع بقية أعضاء الوفد السوفييتي ، وإن أعيته الحيلة سيفعل كما فعل عام ٦٧ ، بتكليف هواري بومدين وعبد الرحمن عارف بزيارة موسكو لعلهما يحصلان على ما عجز هو عن الحصول عليه ..

ونظراً لأن سياسة ثورة يوليو وقائدها عبد الناصر كانت عربية وطنية ، لا تهادن ولا تتواطأ ، فلسنا بحاجة للوقوف طويلاً عند قول الزعيم الراحل أن مصر **أكبر موقع معاد للاستعمار في الشرق الأوسط ، فإذا سقطت سقط العالم العربي كله** ، وهو قول يسجل لعبد الناصر كسياسي حكيم ، وعسكري خبير ، يعرف جيداً أحوال المنطقة ، وتوجهات شعوبها وحكامها ، كما يعرف قدرات الدول العربية السياسية والعسكرية ، ففي الزمن الناصري الشامخ الذي استطاعت فيه مصر حشد مليون جندي مصري ضد العدوالإسرائيلي ومن يقف خلفه من فلول الاستعمار ، لم يجانب قول ناصر الحقيقة شبراً واحداً .

وقد كان لهذه الصفقة الأثر الكبير على مسار الأحداث فيما بعد ، فقد ذكر محمد فوزي ،أنه بعد مشاركة الطيارين السوفييت في القتال على الجبهة المصرية ، التقط الطيارون الإسرائيليون في ١٨ نيسان ١٩٧٠ الحديث بين الطيارين باللغة الروسية ، فأحجموا عن الاشتباك معهم ، وانسحبوا من المعركة ، وأعلن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان أن "إسرائيل لن تهجم على أعماق مصر لأنها لا تريد أن تحارب السوفييت " (٤٣) ، ... وكان صادقاً .

قصف إسرائيلي هائل

ومن الأحداث التي تستحق الذكر هنا أن طائرات الفانتوم والسكاي هوك قد قصفت مواقع الصواريخ المصرية يومي ١٤ و ١٥ نيسان ١٩٧٠ بما زنته ٢٠ الف طن متفجرات ، اي ما يساوي تأثير قنبلة ذرية (٤٤) .

تدمير الحفار كينتنج

وكانت إسرائيل تنوي التنقيب عن البترول في خليج السويس ، فقررت شراء الحفار كينتنج لهذه الغاية ، لكن المخابرات المصرية كانت بالمرصاد ، فتم تدمير الحفار في ٨ آذار ١٩٧٠ وهو في أبيدجان في ساحل العاج ، فكفت إسرائيل عن عزمها ذاك (٤٥) .

بعض عمليات عام ١٩٧٠

وبدأت الأسراب المصرية تتعمق في هجماتها لتصل إلى ١٠٠ كم من قناة السويس ، ولهذا دلالاته ومؤشراته ..

ويلجأ العدو إلى أهداف بعيدة عن تأثير فاعلية الصواريخ المصرية ..

ففي شباط ١٩٧٠ ، قامت القاذفات الإسرائيلية بقصف منطقة أبو زعبل ، وقد استشهد في هذا القصف ٧٠ من العمال ، ولكن طيران العدو توقف عن الذهاب بعيداً في العمق المصري لما أدرك وجود مقاتلات ميج ٢١ بطيارين سوفييت (٤٦) .

كما شرع في قصف القواعد التي يجري إعدادها لصواريخ السام السوفييتية ، فكان معدل القذف ١٠٠٠ طن يومياً من قذائف الطائرات (٤٧) .

ويقول المؤرخ احمد حمروش أن عدد العمال المصريين الذين استشهدوا إثناء بناء دشم الصواريخ كان أربعة آلاف عامل ، ومع ذلك كان الناجون يعودون كل يوم لإتمام العمل بدون خوف أو تردد (٤٨) .

نقل المصانع

ولم تتوقف مصر عن بناء المصانع وتوسيعها خلال حرب الاستنزاف ، فتم التوسع في مصنع الحديد والصلب ، ومشروعات الدرفلة ، ومشروع الألمنيوم ، وصناعة العربات ، وبدء في مشرعات مناجم أبو طرطور ، والترسانة البحرية في الاسكندرية .

وحتى لا تكون المصانع القريبة من الجبهة عرضة للقصف الإسرائيلي ، تم نقل مصانع الأحبال وإصلاح السفن ، والألكترونات ، ومعمل التكرير ومصانع السماد ، ويقول الوزير أمين هويدي "أن الجهد الذي بذل في ذلك يعادل تماماً الجهد الذي بذله في نقل مصانعه إلى الأورال أيام الحرب العالمية الثانية ، بمراعاة الموارد والإمكانيات المتيسرة هنا وهناك "(٤٩) .

ناصر يقبل مبادرة روجرز

ولما أطلقت أميركا مبادرتها السلمية بواسطة وزير خارجيتها وليم روجرز ، والتي تنص على وقف إطلاق النار مدة ٩٠ يوماً اعتباراً من ٨ آب ١٩٧٠، قبلها عبد الناصر ، فقامت المظاهرات ضده في بعض الدول العربية ، وكان ناصر يقصد إتاحة الفرصة لبناء حائط الصواريخ المتطور الذي كانت مصر قد شرعت في بنائه ، خاصة بعد تواصل القصف الإسرائيلي ضد المدنيين والمنشآت الحيوية المصرية ، وقد كان لهذا الحائط أثره الكبير لاحقاً (٥٠) .

ودليل على مصداقية عبد الناصر أنه قد أصدر أوامره في الأسبوع الأول من شهر آب ١٩٧٠ لتشرع القوات المصرية في استعدادها لبدء معركة التحرير بعد انقضاء مدة ال ٩٠ يوماً (٥١) .

أثر سوفييتي هائل وفعال..

وهنا لا بد من اقتباس شهادة الفريق أول محمد فوزي كما هي حين يقول عن بعض الدور السوفييتي :

" .. وبتواجد ٣ لواءات ميج ٢١ معدلة ، كاملة المعدات ، وطيارين ومساعدين وموجهين وفنيين سوفييت في قواعدنا الجوية في العمق اعتباراً من أواخر مارس (آذار) ١٩٧٠ ، أسند إليها واجب الدفاع عن العمق المصري تحت قيادة وسيطرة قائد القوات الجوية وقائد الدفاع الجوي ، استكمل بذلك حجم القوات الجوية المقرر في خطة بناء وتنظيم القوات المسلحة ، في الزمن الذي حدده الرئيس عبد الناصر ، وبوصول وحدات وأجهزة الحرب الإلكترونية من الاتحاد السوفييتي في يوليو ١٩٧٠ ، أضيف أسلوب الاستطلاع والتشويش والتداخل الألكتروني إلى شبكة السيطرة والتوجيه للمقاتلات القاذفة ، فزادت المعلومات في تخطيط طلعات القذف الجوي لتشكيلاتنا الجوية ، كما منع العدو من التشويش والتداخل على أجهزة الاتصال والتوجيه ، وأصبحت شاشات الرادارات

على الأرض وفي الجو تعمل بوضوح ، وزال التفوق الإسرائيلي في الحرب الألكترونية التي استخدمها منذ يونيو ١٩٦٧ ضد قواتنا الجوية ، وقوات الدفاع الحوي "(٥٢) .

وهذا ليس حديث مؤرخ متعصب ، او كاتب متحيز ..إنه حديث القائد الكبير الذي عاصر الأحداث وعايشها ، وخاض المعارك الطاحنة وعاينها ، بل وقررها- أحياناً - ودرب لها واستعد ، السنوات العصيبة الطوال ، ولا مصلحة له ولا غاية سوى سرد الحقائق كما هي ، بلا تضخيم أو تلوين أو تزوير ، وأقل دليل على ما يقول هو الطيارون السوفييت الذين قتلوا وهم يدافعون عن سماء مصر ، ومدن مصر ، وإنسان مصر !!

فالقوات السوفييتية لم يسبق لها أن تواجدت خارج الاتحاد السوفييتي أو خارج المعسكر الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية ، لذا فما حظيت به مصر لم تحظ به دولة أخرى من قبل .

ويوضح تقرير قدمه المارشال السوفييتي جريشكو في زيارة للسادات لموسكو في تشرين أول ١٩٧١ ، قيمة المساعدات السوفييتية التي قدمت لمصر في تلك الآونة ، فقد أشار لتفوق مصر وسوريا على إسرائيل بنسبة ٢:١ ، وتفوق في الأسلحة البحرية ، وتوفر معدات لدى مصر لبناء تسعة جسور على قناة السويس ، ووجود أجهزة لفتح الثغرات في الألغام ، وتوفر معلومات كافية عن المواقع الإسرائيلية ، وكتائب خاصة بالتشويش على العدو إلكترونياً (٥٣) .

الخبراء السوفييت أخبار وأحوال ...

وبلغ عدد المستشارين السوفييت في مصر ١٦ ألف مستشار ، و ٣ آلاف خبير(٥٤) .

ولكن ما يستحق الذكر هنا عن الكرم السوفييتي ما يرويه وزير الحربية **محمد فوزي** حين يقول :

" لم تتحمل وزارة الحربية في مصر أي تكاليف مادية للمستشارين السوفييت سوى تكاليف المأكل والمسكن ، والأفرول والطاقية الكاكي ، أما ماهياتهم أو تكاليف سفرهم فبقيت على وزارة الدفاع السوفييتية "(٥٥) ، وكانوا ضباطهم وجنودهم يرتدون الزي الكاكي بدون أي رتب أو علامات مميزة (٥٦) .

ولما طلب ناصر من بريجنيف أن يسمح لجنوده وخبرائه بزيارة المعالم السياحية والأثرية المصرية ، رد بريجنيف : إننا نعلم تماماً شعور المصريين بالنسبة للأجانب منذالاستعمار الانجليزي لبلادكم ، ونحن لسنا مستعمرين " (٥٧) ، وكأن هذه البرامج

السياحية للضيوف السوفييت ترف زائد يظهرهم بمظهر المستعمرين ، وما علينا إلا أن نحترم رأي بريجنيف .

أما على الجانب الآخر ، فيضيف فوزي أن الاتحاد السوفييتي كان يتحمل نفقات تدريب أطقم الصواريخ وإيوائهم من الضباط والجنود المصريين الذين تم إيفادهم للإتحاد السوفييتي ، وكان تعداد المبعوثين ٣ ألوية ، وكل لواء ١٨٠٠ فرد ، وكان هناك بعثات أخرى لغايات أخرى غير الصواريخ ، كالطيارين والفنيين والمترجمين ، والفرق التعليمية الفنية (٥٨) .

تعاون إقتصادي سوفييتي

ولم يكن التعاون السوفييتي مع مصر محصوراً في الجانب العسكري ، بل تخطاه إلى الجوانب الإقتصادية ، فقدم السوفييت خبراتهم الواسعة في عهد الستينيات الصناعي الزاهر الذي بلغت فيه الإنجازات الناصرية ذروتها ، مثل مشروعات إنشاء السد العالي ، وكهربة الريف ، ومصانع الحديد والصلب والألمنيوم ، والصناعات الوسيطة ، والإنتاج الحربي من معدات وآلات وتجهيزات (٥٩) ، وترسانة السفن في الاسكندرية ، ومصنع السلاسل في حلوان ، ومصنع الإلكترونيات في بنها ، ومفاعل نووي لاستخدام الذرة في الأغراض السلمية ، ومصانع الاسمنت ، وبلغ عدد الكادر الفني المصري الذي دربه السوفييت ٨٥ ألفاً (٦٠) ، هذا إلى جانب المساعدات الهائلة للدول العربية ، وهي خارج موضوع هذا البحث .

حتى قمحنا كان سوفييتياً ..!

وعن ضروب الدعم السوفييتي لمصر ومصداقيته ، كانت حكايا القمح ..

في عام ١٩٦٤ كان الاتحاد السوفييتي بحاجة ل ١٦ مليون طن من الحبوب ، ٩ منها من القمح ، وكانت حاجة مصر ثلث استهلاكها منه ، لذا لم يكن للسوفييت ما يستطيعون تقديمه ، لا مساعدة ولا بيعاً ، وكان الأميركيون يرقبون هذا العوز المصري ، ويحاولون استغلاله ، وفي لقائه مع وزير الخارجية الأميركي أحس ناصر أن عامل القمح سيأخذ دوره في حلبة الصراع قريباً (٦١) .

ويهتبل ناصر فرصة زيارة وزير الكهرباء السوفييتي نوفيكوف لمصر ، لتفقد مشروع السد العالي ، فطلب ناصر جزءاً من ذلك القمح الذي استورده السوفييت لشعبهم ، فلم يتوان السوفييت عن إصدار اوامرهم لبواخرهم المحملة بالقمح والمتجهة لميناء

أوديسا السوفييتي بأن تغير مسارها وتتجه بحمولتها من القمح لتفريغه في ميناء الاسكندرية (٦٢) .

وهنا بإمكاننا طرح السؤال : من هي الدولة - غير السوفييت- التي كانت على استعداد لتقديم مثل هذه المساعدة لمصر ؟

لقد شاركناهم خبراتهم ، وطائراتهم وذخائرهم ومعداتهم ، ثم طلبنا جنودهم وضباطهم ليحاربوا معنا ، وها نحن نطالبهم بقمحهم ، وهم لا يستنكرون هذا الطلب ، بل ويلبونه بدون إبطاء .

وكان مجلس الأمن القومي الأميركي يتعامل بجدية مع موضوع القمح المصري تعامله مع موضوع تسليح مصر ، والحرب في اليمن ، لذا شغل هذا الموضوع رسائل عدة من سفارتهم في القاهرة المرسلة إلى البيت الأبيض ، فالتجويع بات أمراً ملحاً على الأميركيين ، لعله يدفع مصر لتقديم تنازلات لم تقدمها بالضغوط الأخرى (٦٣) .

وفي حديثه مع الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف في ١٠ شباط ١٩٦٨ ، يصرح عبد الناصر بأن الاتحاد السوفييتي قد وافق على إمداد مصر بمائة ألف طن من القمح ، وأن مصر قد طلبت ٢٠٠ ألف طن أخرى ، وأن سلعاً أخرى قد وصلت مصر من السوفييت قيمتها ٦٥ مليون جنيه (٦٤) .

وأميركا لا يفارقها القلق ..!

أما أميركا - القلقة علينا دائماً وأبداً - فتمارس المراقبة عن كثب ، وتبث عيونها ، وتنشر جواسيسها شرقاً وغرباً ، على مصر وسواها ، ولكن يظل لمصر اهتمام خاص لدى الدوائر الأميركية .

فمن أسباب هذا القلق المزمن ومبرراته ، أن ترتبط مصر بعلاقة مع دولة قوية - كالاتحاد السوفييتي - تمدها بالسلاح وأسباب القوة ، فتستطيع الوقوف على قدميها أمام إسرائيل وغيرها من قلاع الاستعمار .

فكان مما صدر عن المخابرات الأميركية ، مذكرة صدرت في ٢٨ أيار ١٩٦٦ تحت عنوان " **العلاقات المصرية السوفييتية** " ورد فيها :

" ربما كانت مصر واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية يتحركان الآن صوب فترة من التعاون الأوثق في سبيل تحقيق أهدافهما المشتركة في العالم العربي ، فالعداوة التي أحياها ناصر تجاه الزعماء العرب المحافظين والمعتدلين ، وعداوته المتجددة للسياسة الأمريكية والبريطانية في الشرق الأوسط ، قد زادت بكل تأكيد من استعداده للتعاون مع موسكو ، والزعامة الحالية في موسكو ستتجاوب تجاوباً حذراً مع

الفرص التي قد يعرضها ناصر لتوسيع النفوذ السوفييتي في المنطقة ، ويبدو عليها الآن فعلاً أنها على استعداد للعمل معه بصورة أوثق نوعاً ما مما كان في الماضي في دعم اتجاهه الخاص بشأن القومية العربية ، والاشتراكية ، ومعارضته للنفوذ الغربي .."(٦٥) .

وبعد أن يزعم محررو التقرير أن ناصر يريد أن يقوم بحملات تخريب في دول الخليج والبلاد العربية الموالية للغرب ، يضيفون :

" ومن المؤكد أن السوفييت انتفعوا من الجهود المصرية لتحجيم النفوذ الغربي في الشرق الأوسط ، والأرجح أنهم يتطلعون إلى مزيد من مثل هذه المنافع ، كما أن هناك تقارير أخرى تشير إلى أن الهجوم المصري القادم يشمل إيران أيضاً " ويقول التقرير أن السوفييت لن يقدموا لناصر شيكاً على بياض ، وأن ناصر سيظل حريصاً على صورته كزعيم غير منحاز ، وإن كان عدم انحيازه لا يعني أنه سيساوي بين علاقته بالأميركان والسوفييت .. ثم ينهي محرر التقرير بقوله :

" إننا ما زلنا متمسكين بآخر تقرير قدمناه لمجلس الأمن القومي بشأن الجمهورية العربية المتحدة ، وهو أننا ما زلنا نشك في أن ناصر سوف يخل بمبدئه الأساسي في معارضة القواعد العسكرية في بلاده ، وذلك بمنح الاتحاد السوفييتي الحق في قاعدة عسكرية "(٦٦) .

والتقرير ليس بحاجة لكثير من التروي في قراءته ، ولكنه يعكس مدى تحامل الأميركيين على عبد الناصر ، فهو يحوي جملةً من الأوهام والتوقعات التي أثبتت الأيام بطلانها ، مثل :

١- يضع الأميركيون عبد الناصر مع غيره من الزعماء المستعدين لتقديم التنازلات من أجل الحفاظ على علاقاته مع حليف قوي .

٢- لم تكن عداوة ناصر للغرب ، أو عداوه لزعماء عرب ، السبب في علاقته الوطيدة مع السوفييت ، بل يكمن السبب في حرصه على الحصول على السلاح الذي امتنع الغرب عن إمداده به لمواجهة إسرائيل ، وقد زاد السوفييت على السلاح بإمداد مصر بكل ما تحتاجه من أسباب القوة والمنعة ، وقد أوضحنا ذلك في الصفحات السابقة.

٣- لم يعرض ناصر على السوفييت توسيع نفوذهم في المنطقة ، ولم يثبت شيء من ذلك حتى اليوم .

٤- لم يثبت حتى اليوم أن ناصر قد قام بأعمال تخريب في شبه الجزيرة العربية ولا في سواها .

٥- عداء عبد الناصر لدول الغرب الاستعمارية لم يكن نابعاً من فراغ ، بل من تاريخها الأسود في المنطقة ، وعلى نهجها سارت أميركا في وقوفها مع إسرائيل ضد القضايا العربية .

٦- لم ينتفع السوفييت حتى اليوم من الجهود المصرية القومية في شيء ، بل إن ما حصل هو العكس تماماً ، فمصر استفادت من الاتحاد السوفييتي ما يملأ عدة مجلدات من الشروح والتقارير وتعليقات الخبراء ، وهذا يقره كل مؤرخ صادق حصيف .

٧- لم يطلب السوفييت من ناصر إنشاء قواعد لهم على أرض مصر ، ولكن كل ما أوردته المصادر أن بدجورني قد طلب إنشاء مركز مستقل للأسطول السوفييتي في الاسكندرية ، فاعتذر عبد الناصر بكل هدوء قائلاً : لا ..حتى لو كان هذا المركز مبنى واحد من غرفة واحدة (٦٧)، وانتهى الأمر بهذا الرد ، ولم يعد السوفييت لطلب آخر بعد ذلك .

إذاً .. فما قرأناه من تقارير صادرة عن عيون اميركا في بلادنا لا تصنيف لها إلا في بابين ، فإما ان يكون محرروها من الصهاينة الذين يعملون على تخريب أي تقارب بين مصر ودول الغرب ، أو أن تقاريرهم كذب ورياء ، وحافلة بالأخطاء والظنون والهواجس ، والإحتمالان واردان معاً .

هل كانت أميركا خياراً ناصرياً ...؟

وقد يتساءل القارئ ، ألم يكن بإمكان ناصر أن يصادق أميركا -الدولة العظمى ، وربما كانت الأقوى- ويترك الاتحاد السوفييتي جانباً ، مبتعداً بذلك عن كل ما يمكن أن يزعمه الزاعمون ، كقولهم مثلاً أن الاتحاد السوفييتي دولة شيوعية ولا يجوز التعامل معها ؟

ولم يكن ناصر بحاجة لمن يشير عليه بذلك ، والتاريخ يقدم لنا الصورة الكاملة لما كان يجري في ذلك الوقت .

فكما يخبرنا **أنور السادات** أن خزينة مصر كانت فارغة حين قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، بل وكانت مدينة بخمسة وأربعين مليون جنيه ، وبدأت رؤوس الأموال الأجنبية بالرحيل عن مصر بعد حريق القاهرة ، وكان اقتصاد مصرحتى عام ١٩٥٦ في أيدي الأجانب كالإنجليز والفرنسيين واليهود من مختلف الجنسيات (٦٨) .

ويضيف : لذلك فكرنا في **الاستعانة** باميركا خاصة وأن الوعود والأماني العذاب كانت تنهال علينا عن طريق سفارتها .. وأميركا لم تخرج من الحرب مفلسة ، بل على

العكس من ذلك ، خرجت مزدهرة ممتلئة ، وتكدست فيها رؤوس الأموال التي تفيض عن حاجتها للاستثمار والرخاء ....

واعتقدنا أن الوعود والأماني لا بد أن تفعل فعلها هذه المرة ، خاصة وأن الأميركي بطبعه رجل بيع وشراء ودولار، وفرصة الاستثمار التي سيتيحها بناء مصر من جديد فرصة لا تعوض للكسب الحلال " (٦٩) .

ولكن رد أميركا جاء بعيداً جداً عما توقعه وأمل فيه رجال ثورة يوليو ، فشروط الاتفاقية المعروضة من قبل أميركا " كانت تعطي الحكومة الأميركية وسيلة للتدخل والسيطرة ، واستعمال الضغط العسكري على مصر " (٧٠) .

ويضيف السادات : ورفضنا هذه الاتفاقية أيضاً بأشد مما رفضنا اتفاقية الأمن المتبادل ، لأنها في جوهرها أبشع من أي استعمار ظهر على وجه الأرض إلى يومنا هذا "(٧١) .

أما عن مشاريع الأحلاف التي طالما عرضتها أميركا ، فيوضح السادات :

" .. وظهرت نظرية الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط ، وبدأت أميركا بحكاية " الخطر الشيوعي" الداهم الذي يهدد المنطقة ، وبدا لنا - بعد حكاية الاتفاقيتين - وهما اتفاقية "الأمن المتبادل" و " اتفاقية رأس المال" أن السياسة الأميركية ليست لله ، ولا لحق تقرير المصير ، ولا لنصرة الشعوب الصغيرة ، كما تقول الدعاية ، وهي أيضاً ليست سياسة بريئة مستقيمة مجردة من الأهداف والغايات ، كما يحاول الدبلوماسيون الأميركان أن يقنعوا الناس دائماً على طريقة (الهليهلية) الأميركانية ، **وإنما هي سياسة ذات أهداف محددة ،مرسومة ، وغايات أشد جشعاً ، وأكثر فتكاً من كل ما استنبطه الاستعمار في القرون الماضية** " (٧٢) .

وهذا حديث لا يكاد يختلف عليه باحثان ملتزمان ، فأميركا لا تقدم شيئاً لله (أي بلا أهداف)- كما قال السادات - وما تقدمه للآخرين يكون بناء على غايات وأهداف لم تدر في خيال دول الاستعمار في عصورها الزاهرة .

لقد كان هناك فرصة سانحة لتحسن أميركا صورتها أمام الشرق ، سواء في دوله العربية أو غير العربية ، وهي المساعدة في المجالات الانسانية والاقتصادية ، ومحاولة إشاعة السلام في المنطقة والعالم أجمع ، ولكن أميركا أصرت على ارتداء القبعة الصهيونية منذ بدايات الصراع الأولى ..

ودليل على مدى عمق التوغل الصهيوني في السياسة الأميركية، وسيطرته عليها ، أن الرئيس الأميركي ترومان (١٨٨٤- ١٩٧٢) قد اعترف بقيام دولة إسرائيل قبل أن يعلن اللوبي الصهيوني قيامها ، ونشرت الصحف الأميركية صور ترومان وهو يحتضن

العلم الإسرائيلي إعلاناً للعالم كله أن الدولة الوليدة ستكون في العهدة الأميركية عناية ودعماً (٧٣) .

والباحث في تاريخ العلاقات المصرية السوفييتية لا يجد أثراً لما أورده السادات عن تلك الغايات والأهداف ، والأساليب والطرق المراوغة الخادعة التي اتبعها الأميركان مع مصر ، بل إن كل ما يجده في تفاصيل المساعدات الاقتصادية والعسكرية والعلمية التي قدمها السوفييت لمصر يشعره بالأسف الشديد لفقدان هذه العلاقة في عهد السادات .

إسرائيل تعرف دورها الاستعماري في المنطقة

ولم يكن قادة إسرائيل بحاجة لمن يخبرهم بدورها البارز في المنطقة كقاعدة استعمارية متقدمة ، لذا كانت الحليف الأغلى لدول الغرب ، والذي لا يرفض طلبه في السلم والحرب ، فيقول حاييم وايزمان أول رئيس للكيان الصهيوني :

" لو لم يكن هناك وطن قومي يهودي في فلسطين ، لكان على بريطانيا أن تخلقه خدمة لمصالحها الامبريالية "(٧٤) .

وقال ماكس نوردو - زميل ثيودور هرتزل مؤسس الدولة الصهيونية - مخاطباً زعماء بريطانيا عام ١٩١٧ :

" إننا نعرف ماذا تريدون منا ، تريدون أن نحمي مواصلاتكم الامبراطورية ، إننا مستعدون لذلك ، إنما يجب إعطاؤنا القوة لذلك "(٧٥) .

وضمن هذا المفهوم ، نشرت صحيفة الجروساليم بوست الإسرائيلية في كانون ثان ١٩٦٩ إعلاناً يقول :

" يجب أن نتوقف عن توجيه النداءات إلى الولايات المتحدة الأميركية ، يجب أن نتوقف عن القول ساعدونا ، وامنعوا الحظر عن إسرائيل ، يجب أن نقول للولايات المتحدة :إن إسرائيل هي قلعة الولايات المتحدة الأخيرة في االشرق الأوسط " والعالم العربي" ، وإذا كنتم تؤيدونا بدون تحفظ ، وإذا كنتم لا تردعون الروس بشدة ، فأنتم ستعانون من جراء ذلك ، وسيزداد تهديد روسيا للولايات المتحدة "(٧٦) .

زيارة ناصر الأخيرة للإتحاد السوفييتي

وكانت زيارة عبد الناصر الأخيرة للإتحاد السوفييتي في ٢٩ حزيران ١٩٧٠ ، أي قبل وفاته ب ٩٠ يوماً ، ورافقه في رحلته هذه علي صبري ومحمود رياض ومحمد فوزي ، وقد حصلت مصر بهذه الزيارة على وحدات كاملة من شبكات الأجهزة الألكترونية بأطقمها السوفييتية ، وقامت هذه الأطقم بتدريب المهندسين المصريين على

استخدام هذه الشبكات حتى أتقنوها ، وقد أعاقت هذه الأجهزة والخبرات مواصلات العدو وأجهزته ، وأجهزة راداراته الموجهة ، فساعدت على إرتفاع المستوى القتالي للدفاع الجوي المصري (٧٧) .

ناصر يشكر السوفييت

وقد عبر الزعيم الراحل عن شكره للسوفييت في الكلمة التي ألقاها في مأدبة العشاء التي أقامها السوفييت بالكرملين تكريماً لناصر ، فجاء فيها :

" .. وهذا أيها الأخوة تعبير نعتز به عن معنى هذه الصداقة التي رسمت نموذجاً خلاقاً للعلاقات الإيجابية بين الشعوب والدول ، وما تستطيع هذه الصداقة الخلاقة الإيجابية تحقيقه في مجال التأثير المشترك على سير الحوادث ، وتطور التاريخ .

الصداقة العربية - السوفييتية ، لم تعد بالنسبة لشعوبنا عملية مرحلية ، وإنما أصبحت عاملاً باقياً يستمد قوته من نضال يلتقي على أهداف الحرية والسلام ، ويعمقه الإخلاص المتبادل الذي يصنعه الفهم العميق للقضايا التي تهم الجانبين .

وينبغي لي أيها الأخوة أن أحيي في هذا الصدد الدور الكبير الذي قامت به قيادة الاتحاد السوفييتي وشعوبه في تنمية هذه الصداقة ، وفي دفع تقدمها .

ولقد تجلى ذلك اكثر ما يتجلى في وقفتكم الحازمة تأكيداً لكفاحنا في ظرف من أخطر وأدق الظروف التي واجهت النضال المعاصر لأمتنا العربية "(٧٨) .

ردود فعل الساسة الإسرائيليين ..!

ولم يكن هناك شيء يمكن إخفاؤه عن مجريات حرب الاستنزاف ونجاح المصريين الساحق في تحقيق نتائجها المرجوة ، فقد أصبحت أخبارها مشاعاً ، ولكن تصريحات قادة إسرائيل وساستها يظل لها وزنها وأثرها في ميزان التاريخ ..

فقد نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية في أيلول ١٩٧١ تصريحاً **للعميد ماتي بيليد** مسئول شعبة الإمداد في الجيش الإسرائيلي يقول فيه :

" إن الجيش الإسرائيلي فشل من الناحية العسكرية في حرب الاستنزاف ، وهذه أول معركة يهزم فيها في ساحة القتال منذ قيام الدولة ، لدرجة أننا في إسرائيل أمسكنا بأول قشة ألقيت إلينا ، وهي وقف القتال" (٧٩) .

أما **إسحاق رابين** سفير إسرائيل في واشنطن إثناء حرب الاستنزاف ، ورئيس وزرائها لاحقاً ، فقد قال :

" إبان عودتي من إسرائيل إلى واشنطن في مساء ٣٠ يونيو ، وجدت أن كل اهتماماتنا قد دفع بها جانباً في تطور درامي على الجبهة العسكرية ، فخلال الليلة السابقة تم تحريك نظام الصواريخ السوفييتي- المصري نحو خط جديد حوالي ٣٠ كيلومتراً غرب القناة ، وتم وضع عدد من بطاريات الصواريخ التي يقودها مصريون إلى مواقع أقرب من ذلك إلى القناة ، بالرغم من أن بطاريات الصواريخ التي يعمل عليها سوفييت لم تعبر ذلك الخط ، وإن هجومنا على شبكة الصواريخ كان غير ناجح ، وإثناء ذلك تم إسقاط العديد من طائرات الفانتوم ، ولقد كان هذا موقفاً جديداً ، ومحفوفاً بالمخاطر إلى درجة كبيرة "(٨٠) .

أما أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل في ذلك الوقت ، فقد قال : "إن قصف المدفعية المصرية مع الغارات الجوية عبر قناة السويس كان يسبب لنا خسائر قاسية في القتلى ، مما يؤدي إلى إضعاف قواتنا " (٨١) .

وعلق أبا إيبان على وقف إطلاق النار بقوله :

" إن وقف إطلاق النيران قد تم استقباله في إسرائيل بشعور من الرضاء ، وحينما أعلنت مسز مائير في التلفزيون عن وقف إطلاق النيران ، فإن رد الفعل الشعبي كاد يتساوى مع لو كنا قد توصلنا إلى تسوية سلمية ، فنشرات الأخبار لن تبدأ بالصوت الحزين لمذيع الراديو وهو يخبرنا بأسماء الشباب الإسرائيلي الذي سقط في المعركة ، إن خسائرنا في الأفراد القتلى ، وفي المعدات الثمينة قد جعلت حرب الاستنزاف غالية التكاليف بالنسبة لنا " (٨٢) .

هكذا إذن .... إعترافات بالجملة ، ومن أعلى المستويات ، وكلها تفيدنا بأمر واحد ، وهو أن حرب الاستنزاف كانت هزائم وخسائر لا غير لإسرائيل..!

فهي أول هزيمة عسكرية لإسرائيل ..

وأمسى نظام الصواريخ السوفييتي على القناة عدواً لدوداً لطائرات الفانتوم التي راحت تتساقط كأوراق الشجر ..

ويتبع ذلك بطبيعة الحال خسائر في القتلى ، والراديو الإسرائيلي لا يكاد يذيع نشرة أخبار إلا وفيها أسماء جديدة كل يوم لقتلى إسرائيليين على الجبهة ..، وبات مجموع ذلك كله أن عداء المصريين صار ثمنه باهظاً جداً ...

لذا قبلت إسرائيل بكل شوق ما كانت ترفضه سابقاً .. وقف إطلاق النار .

وعليه .. لا نستغرب ما نشرته مجلة "أفيش ويك" في ١٦ تشرين ثان ١٩٧٠ " أن خسائر إسرائيل بلغت ٥١ طائرة منها ١٧ تم تدميرها تماماً ، و ٣٤ أصيبت " (٨٣) .

وهذا ما دفع رئيسة الوزراء الإسرائيلي للتصريح بأن : "كتائب الصواريخ المصرية كعش الغراب كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى " ، كما صرح وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبان قائلاً : لقد بدأ الطيران الإسرائيلي يتآكل "(٨٤) .

التعامل المالي مع السوفييت ..

ونصل الجزء الأخير من السيمفونية السوفييتية ، السيمفونية الأجمل في علاقات مصر مع كل الدول سواء كانت الشقيقة أو الصديقة ، ألا وهو أثمان الأسلحة والإمدادات العسكرية ...

فالسلاح والعتاد الذي تسلمته مصر من السوفييت تعويضاً عما خسرته في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كان مجاناً ..

أما ما قدم لها بعد ذلك فلم تدفع مصر ثمنه ، بل كان ديناً تم تحويله الى وزارة الخزانة المصرية التي تجمع عليها مبلغ ٤ **مليارات ونصف** مليار جنيه مصري عام ١٩٧١ ، وقد اتفقت الدولتان على جدولة هذه الديون العسكرية ، ولكن مصر لم تدفع أي قسط من الأقساط المترتبة عليها ، " بل إنها لم تدفع أي قيمة مادية لأي صفقة سلاح تمت مع الاتحاد السوفييتي " (٨٥) .

أما القروض التي قدمها الاتحاد السوفييتي لبناء السد العالي ، فلم تدفع مصر أية عملات صعبة لتسديدها ، بل ما دفع كان منتجات مصرية ، وكان منها الثوم والبصل والأحذية والموبيليات (٨٦) .

وإذا ما علمنا ان قيمة المساعدات السوفييتية لمصر في عهد خروتشوف في عام واحد فقط هو عام ١٩٥٧ كان ٧٦٠ مليون دولار ، أي أكثر مما قدم لأي دولة شيوعية(٨٧) ، أدركنا الجميل الكبير الذي قدمه السوفييت لمصر .

لقد كانت مساعدات الاتحاد السوفييتي بلا شروط ، ولا طلب تسهيلات ، و لا طلب قواعد ، فكانت مصر تملك إرادتها وتوجهاتها ، وتملك قرارها السياسي ، لأنها غير مقيدة بمعاهدة ، أو سلطة خارجية كما كانت الأمور في العهد الملكي .

وننهي فنقول :

ألا لعن الله من لا يعرف صديقه من عدوه ..!

*****

ولا نستطيع في هذا الصفحات القليلة تغطية كل ما حصل في حرب الاستنزاف الخالدة ، وبإمكان القارىء العودة لكتاب الفريق أول محمد فوزي "حرب الثلاث سنوات" ، وأي مراجع أخرى ، ليستزيد حول هذه الفترة الخصبة من تاريخ مصر عبد الناصر.

الفصل الثاني
وفاة عبد الناصر
٢٨ أيلول ١٩٧٠
٢٧ رجب ١٣٩٠

وآن لهذا الفارس العظيم أن يترجل ...

فهذا القلب الذي اتسع لكل مشاكلنا ، وكل خلافاتنا ، وقاوم الأعداء من كل الأصناف والمذاهب ، في المشارق والمغارب ، وظل واقفاً بكل شموخ وكبرياء مدة ١٨ عاماً ، قد آن له أن يقول أنه أصبح يواجه ما لا يستطيع تحمله من همة صاحبه التي لا يعادلها همة .

وفي لقاء الكاتب **فؤاد مطر** بالشاهد الأول على التجربة الناصرية ، الأستاذ المؤرخ **محمد حسنين هيكل** ، يدلي هيكل بحديث مطول عن مرض ناصر ووفاته ، ونورد هنا خلاصته .

كان الزعيم الراحل قد تعرض لمشاكل مرضية كثيرة عبر فترة حكمه ، ويبدو أن معظمها لم يكن معلناً إلا على المقربين منه من ساسة وأطباء .

فقد أصيب بالسكري عام ١٩٦٢ بعد تجربة الانفصال عن سوريا ، هذا المرض الذي يتأثر صاحبه بما يحيط به من أسباب القلق ، ومنذ ذلك الحين والسكري يؤثر على صحته ، إذ يبدو ان الزعيم الراحل قد أمل الكثير من الوحدة مع سوريا ، كأن تكون بداية للوحدة العربية المنشودة .. .

وبعد أحداث اليمن ، أخذ ناصر يشكو من التهاب الشرايين ، فصارت آلامه لا تطاق .

وفي ١٣ تموز ١٩٦٧ ، أجرى له الأطباء المصريون كشفاً عاماً فأدركوا خطراً مّا ، ولكن ناصر لم يكن يتجاوب مع تنبيهات أطبائه ، كخضوعه للراحة مثلاً ، وهذا زاد من آلامه ، إلى جانب أنه لم يكن ليقبل بأن يعالجه أطباء من أميركا أو بريطانيا ، ظناً منه أن تقاريرهم الطبية سوف تذهب إلى جهات معينة أو بلد معين .

وفي ذلك الشهر ، زار الاتحاد السوفييتي ، ليكتشف الأطباء السوفييت هناك أنه يعاني من تصلب شرايين ساقه اليمنى ، واقترحوا عليه العلاج بالمياه الطبيعية في" تسخالطوبو" حيث أمضى ٣ أسابيع ، كما قضى أسبوعين من النقاهة في الاسكندرية ، إلا ان آلامه لم تبارحه .

ولما علم بعملية الإنزال الإسرائيلية في الزعفرانة في ١٠ أيلول ١٩٦٩ ، أصيب بالذبحة القلبية في اليوم التالي .

وفي ١١ أيلول ١٩٦٩، وبعد إصابته بدوار، اكتشف طبيبه الخاص الصاوي حبيب أن ناصر قد اصيب بجلطة ، ولما أجري له رسم للقلب تبين أن لديه انسداد في الشريان الأمامي للقلب ، وطلب منه الأطباء أن يستريح مدة ستة أسابيع في السرير ، ويبتعد عن عمله ، وأعلن بعض الساسة من حوله أنه أصيب بالإنفلونزا ، وطلب من مجموعة من مساعديه وهم : أنور السادات ، وسامي شرف ، وأمين هويدي ، وشعراوي جمعة ، والفريق محمد فوزي ، والمؤرخ محمد حسنين هيكل أن يباشروا قضايا البلاد إثناء فترة راحته ، بعد أن اعترف لهيكل بأنه مصاب بذبحة قلبية.

تم إبلاغ السفير السوفييتي بحالة ناصر ، فأوفد الرئيس بريجنيف كبير أطباء القلب السوفييت للإشراف عليه وهو الدكتور شازوف ، الذي أقر بتشخيص الأطباء المصريين ، وطلب من ناصر تنفيذ برنامج قاس جاء فيه : أن يتوقف عن التدخين ، وان يأخذ إجازات منتظمة ، وأن يوقف القلق ، فوجد ناصر أن الأمر الأول ممكن تنفيذه ، اما الباقي فصعب عليه ، وقال :

" أما حكاية القلق فإنني أود ان أوضح لك أن القلق ينام معي في سريري كل ليلة ، لمجرد ان أضع رأسي على المخدة أبدأ التفكير في المشاكل ، وفي الحاضر والمستقبل "(١) .

وكانت تلك الفترة فترة خصبة في تاريخ الصراع مع إسرائيل ، فهي فترة الاستنزاف ، لذا كان الزعيم الراحل مشغولاً بثلاث مهام :

١- إعداد القوات المسلحة للحرب .
٢- العلاقات المصرية السوفييتية .
٣-العلاقات العربية (٢) .

وفي هذا العام ، وضع دستور جديد للبلاد ، وفيه تم حسم موضوع الخلافة ، حيث أن الأوان قد آن لتحويل الدولة إلى دولة مؤسسات ، فتم وضع مادة تنص على "أن يكون هناك نائب لرئيس الجمهورية يتولى أعمال الرئيس لمدة ستين يوماً إلى حين يختار مجلس الأمة رئيساً جديداً يطرحه على الاستفتاء الشعبي " (٣) .

ولما زار الزعيم الراحل ليبيا في ٢٨ كانون أول ١٩٦٩ ، واستقبلته الجماهير الحاشدة ، اضطر للوقوف في سيارة جيب أربع ساعات ليحيي الجماهير، ولما شاهد طبيبه شازوف صور ناصر في هذا المشهد أصيب بالذهول ، فاتصل ببرجنيف ، الذي اتصل بناصر ليخبره بتحذيرات شازوف وتنبيهاته من هذا الجهد الذي يبذله ناصر(٤).

ولم يكن ناصر من الرجال الذين يؤثرون أنفسهم على مصالح الوطن رغم إدراكه لحالته الصحية " فقد أمضى السنوات الثلاث التي أعقبت الهزيمة في كفاح مستمر لامتصاص وإزالة آثارها .. وانتصر في ذلك بما جعل قواتنا المسلحة قادرة على إلحاق الخسائر بالعدو .. وإشعاره بان نصره السريع في يونيو ١٩٦٧ ليس دائماً أو أبدياً "(٥) .

وقد نجحت مصر عبد الناصر نجاحاً باهراً في هذا التوجه الذي خطط له ناصر ، وأشرف إشرافاً شبه يومي على تخطيطه وتنفيذه ، فكانت النتائج كما تمنى ، وكما يتمنى كل عربي محب لهذا الوطن الكبير .

ولا ننس أنه كان يتابع أمور الدولة الأخرى وقضاياها ، وهذا ليس بالأمر السهل على صحة الأصحاء ، فكيف بالمرضى !

ولما زار ناصر الاتحاد السوفييتي في أوائل تموز ١٩٧٠ ، مكث في مصح "بربيخة" أسبوعين ، خاضعاً لعلاج الدكتور شازوف ، الذي اقترح عليه برنامج راحة صارماً لمواجهة المرض ، كأن يعمل ٥ ساعات في اليوم ، و٥ أيام في الأسبوع ، و٣ أسابيع في الشهر ، وشهر إجازة كل ٣ شهور ، اعتبر ناصر هذا البرنامج مستحيلاً ، وكان مكوثه في المصح مفيداً لولا اسعجاله العودة إلى مصر .

عاد ناصر إلى مصر لاستكمال **بناء حائط الصواريخ** ، والذي وصفه هيكل بأنه أعظم معاركه على الإطلاق ، فاضطر لقبول مبادرة روجرز ليستغل وقف إطلاق النار لاستكمال حائط الصواريخ ، ليندلع الصراخ ضده هنا وهناك بأنه قد خان الأمة ، وما كادت هذه المشكلة تنتهي حتى اندلعت المعارك في الأردن بين المنظمات الفلسطينية والحكومة الأردنية وناصر يستكمل علاجه في مرسى مطروح ، فقطع إجازته ، وعاد إلى القاهرة لحقن الدماء في الأردن .

وعقد أطول مؤتمر قمة عربي في القاهرة ، وتجنباً للإجهاد ، ظل ينام في غرفة في فندق هيلتون حيث عقدت الاجتماعات ، وبذل مجهوداً كبيراً في المؤتمر محاولاً رأب الصدع ، حتى أن القذافي غادر القاهرة بدون أن يخبر ناصر حتى لا يتجشم عناء وداعه في المطار ، وليتنهي المؤتمر باتفاق الجميع على وقف إطلاق النار في الأردن .

واتفق المؤتمرون يوم ٢٧ أيلول على ما يلي :

" أولاً : الوقف الفوري لإطلاق النار .

ثانياً :انسحاب الجيش الأردني والفدائيين من كافة المدن قبل مغرب نفس اليوم .

ثالثاً : تكليف لجنة برئاسة الباهي الأدغم تسافر إلى الأردن يوم ٢٨ سبتمبر لتشرف على إجراءات التنفيذ .

وانتهى أطول مؤتمر قمة في تاريخ العرب .. امتد أسبوعاً كاملاً ، وغادر جمال عبد الناصر فندق هيلتون يوم ٢٧ سبتمبر إلى داره ، ليكون قريباً من المطار إثناء توديع الملوك والرؤساء "(٦) .

وفي يوم ٢٨ أيلول ١٩٧٠ ، وبعد وداعه أمير الكويت ، طلب ناصر سيارته إلى داخل أرض المطارعلى غير عادته ، وطلب أن تلحق به سيارة الأطباء (٧) .

" وبعد عدة محاولات ، تحسن الرئيس قليلاً ، ثم اتجه إلى المذياع الذي بجانب سريره ، وفتحه لسماع موجز الساعة الخامسة ، ولكنه عاد وأغلقه بعد أن قال :

" لم أسمع الخبر الذي كنت أتوقع سماعه "

ثم غاب عن الوعي ، وحاول الطبيب جاهداً أن يقوم بعمل الإسعافات اللازمة من ضغط على القلب لمحاولة إعادة نبضه ، ولكن إرادة الله نفذت ، ولا راد لقضائه "(٨) .

وقد ذكر هيكل أن الأزمة القلبية التي أصيب بها نتج عنها انفجار في الشريان أدى إلى وفاته (٩) .

بيان الوفاة

وفي مساء ذلك اليوم ، ألقى نائب الرئيس **أنور السادات** البيان التالي على الأمة :

" فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربية ، وفقدت الإنسانية كلها ، رجلاً من أغلى الرجال ، وأشجع الرجال ، وأخلص الرجال ، وهو الرئيس جمال عبد الناصر ، الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ هجري ، الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، بينما هو واقف في ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ، ومن أجل انتصارها ، إثر تعرضه لنوبة قلبية حادة ، بعد انتهائه من آخر مراسم اجتماع الملوك والرؤساء العرب الذي انتهى أمس بالقاهرة "(١٠) .

لتصمت مدافع أميركا ..
فقد مات عبد الناصر

ولما كان عبد الناصر يلفظ أنفاسه ، كان الرئيس الأميركي نيكسون في نابولي جنوبي إيطاليا ، وكانت أسطوله السادس على وشك الشروع في مناورات بحرية في

البحر المتوسط ، يكون فيها دوي المدافع بمثابة إنذار لعبد الناصر ومصر ، فلما جاءه مساعده بالخبر ، قال : لا داعي الآن لهذه المناورة كلها ، حيث صمتت المدافع " (١١) .

وهذه القصة فيها دلالات كثيرة ..

فالمناورة كانت ضد ناصر لا غير ، بدليل أنها قد أوقفت بمجرد سماع خبر وفاته ..! فكم كلفت هذه المناورة أميركا ؟

هل مات عبد الناصر مسموماً ؟

في كتاب "أحاديث في العاصفة " لهيكل ، يطرح الصحفي صلاح عيسى السؤال التالي على محمد حسنين هيكل :

" ما رأيك في القصة التي تشكك في وفاة عبد الناصر ، والمنسوبة للجاسوس الإسرائيلي الدكتور "علي العطفي " الذي زعم أخيراً أنه كان يقوم بتدليك عبد الناصر كجزء من علاجه ، وأنه استخدم نوعاً معيناً من السموم في هذا التدليك كان هو السبب في وفاته ؟

فرد هيكل : لقد جرت محاولات كثيرة لاغتيال عبد الناصر ، وهذا لم يعد سراً ، وكان بعضها يعتمد على السموم كأسلوب للاغتيال ، ومن بينها محاولة شهيرة جندت خلالها المخابرات الأميركية موظفاً من أصل يوناني بمحلات "غروبي" التي كانت تتولى الخدمة في بعض الحفلات الرسمية ، وقد دس السم فعلاً في فنجان قهوة سوف يقدم لعبد الناصر ، ولكن يده ارتعشت بالفنجان فتخلص منه ، كما اعترف بذلك في ما بعد ، فحين أصيب - بعد عام ١٩٦٧- بالتهاب في شرايين الساق بسبب مرض السكر ، بدأ يتلقى علاجاً طبيعياً بالتدليك ، وقد قال أمامي مرة أن أحد موظفي مكتبه هو الذي رشح له أحد المتخصصين في التدليك لكي يقوم بهذه المهمة ، ولكنه لم يقم بها لوقت طويل ، ولا أعرف ما إذا كان هو الدكتور علي العطفي أو لم يكن ، ولا أستطيع أن أحكم في الموضوع بدون علم بتفاصيله" (١٢) .

مراجع الباب الثامن

الفصل الأول

(١) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ١٠٩ .

(٢) محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، ص ١٨٦-١٨٧ .

(٣) م ن ، ص ١٨٨-١٨٩ .

(٤) د.رؤوف عباس ، م س ، ص ١١١.

(٥) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ٢٤٩ .

(٦) محمد فوزي ، م س، ص ٣٨ .

(٧) م ن ، ص ٢٢٠ .

(٨) م ن ، ص ٢٢١ .

(٩) م ن ، ٢٢٢ .

(١٠) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٦٤ .

(١١) م ن ، ص ٢٢٣ .

(١٢) م ن ، ص ٢٦٦ .

(١٣) م ن ، ص ٢٦٦ .

(١٤) م ن ، ص ٢٦٠ .

(١٥) م ن ، ص ٢٦١ .

(١٦) د. رؤوف عباس ، م س، ص ١١٢ .

(١٧) عبد المجيد فريد ، محاضر اجتماعات جمال عبد الناصر العربية والدولية ، ص ١٥٥ .

(١٨) هيكل ، الطريق إلى رمضان ، ص ٥٤ .

(١٩) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢٠) هيكل ، م س، ص ٥٤ .

(٢١) أحمد حمروش ، م س ، ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٢٢) م ن ، ص ٢٦٣ .

(٢٣) محمد فوزي ، م س، ص ٢٤٨ .

(٢٤) عبد المجيد فريد ، م س، ص ١٥١ .

(٢٥) م ن ، ص ١٤٧- ١٦٣ .

(٢٦) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

(٢٧) محمد فوزي ، م س، ص ٢٧٠ .

(٢٨) م ن ، ص ٢٧٢ .

(٢٩) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٧١ .

(٣٠) م ن ، ص ٢٧١ .

(٣١) محمد فوزي ، م س، ص ٢٨٠ .

(٣٢) م ن ، ص ٢٨١ .

(٣٣) م ن ، ص ٢٨٢-٢٨٣ .

(٣٤) أمين هويدي ، مع عبد الناصر ، ص ١٦٢ .

(٣٥) م ن ، ص ١٦٢-١٦٣ .

(٣٦) محمد فوزي ، م س ، ٢٩٩ .

(٣٧) م ن ، ص ٣٠١ .

(٣٨) م ن ، ص ٣٠٣ .

(٣٩) م ن ، ص ٢٨٩ .

(٤٠) هيكل ، م س ، ص ٨٤ .

(٤١) م ن ، ص ٨٥ .

(٤٢) محمد فوزي ، م س، ص ٣١٨-٣١٩ .

(٤٣) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٨٠ .

(٤٤) محمد فوزي ، م س، ص ٣٢١ .

(٤٥) أمين هويدي ، حروب عبد الناصر ، ص ١٩٠ .

(٤٦) محمد فوزي ، م س ، ص ٣٠٣-٣٠٤ .

(٤٧) م ن ، ص ٣٠٤ .

(٤٨) أحمد حمروش ، م س ، ص ٢٧٧ .

(٤٩) أمين هويدي ، مع عبد الناصر ، ص ٤٣ .

(٥٠) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١١٥ .

(٥١) محمد فوزي ، م س، ص ٣٨٠ .

(٥٢) م ن ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

(٥٣) محمود رياض ، مذكرات محمود رياض ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ .

(٥٤) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٦٧ .

(٥٥) محمد فوزي ، م س، ص ٣٥٧ .

(٥٦) م ن ، ص ٣٦٠ .

(٥٧) م ن ، ص ٣٦٠ .
(٥٨) م ن ، ص ٣٦٠ .
(٥٩) م ن ، ٣٦٠-٣٦١ .
(٦٠) جورج كتن ،، العلاقات الروسية ـ العربية في القرن العشرين وآفاقها ، ص ٥٤ .
(٦١) هيكل ، ١٩٦٧ الانفجار ، ص ١٨٠-١٨١ .
(٦٢) م ن ، ص ١٨٢ .
(٦٣) م ن ، ص ١٨٣ .
(٦٤) عبد المجيد فريد ، م س، ص ١٣٧ .
(٦٥) هيكل ، م س، ص ٣٢٥ .
(٦٦) م ن ، ص ٣٢٥ .
(٦٧) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٨٢ .
(٦٨) نظام شرابي ، أميركا والعرب ، ص ١٢١ .
(٦٩) م ن ، ص ١٢١ .
(٧٠) م ن ، ص ١٢٢ .
(٧١) م ن ، ص ١٢٢ .
(٧٢) م ن ، ص ١٢٢ .
(٧٣) م ن ، ص ١٢٢ .
(٧٤) بسام العسلي ، الحرب والحضارة ، ص ١٩٠ .
(٧٥) م ن ، ص ١٩٠ .
(٧٦) م ن ، ص ١٩٠ .
(٧٧) محمد فوزي ، م س، ص ٣٢٣ .
(٧٨) عبد الناصر ، وثائق عبد الناصر ، ص ٤٦٥ .
(٧٩) محمود رياض ، م س، ص ٢٨٦ .
(٨٠) م ن ، ص ٢٨٧ .
(٨١) م ن ، ص ٢٨٧ .
(٨٢) م ن ، ص ٢٨٧ .
(٨٣) أحمد حمروش ، م س، ص ٢٨١ .
(٨٤) م ن ، ص ٢٨١ .
(٨٥) محمد فوزي ، م س، ص ٣٦٢-٣٦٣ .
(٨٦) عبد الله إمام ، علي صبري يتذكر ، ص ٦٠ .

(٨٧) جورج كتن ، م س، ص ٥١ .

الفصل الثاني

(١)فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ٢٠٤ .

(٢) م ن ، ص ٢٠٤ .

(٣) م ن ، ص ٢٠٥ .

(٤) م ن ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٥) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ٣٨٥ .

(٦) م ن ، ص ٣٧٨ .

(٧) فؤاد مطر ، م س، ص ٢١٠ .

(٨) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ١٥٩ .

(٩) فؤاد مطر ، م س، ص ٢١٠ .

(١٠) د.رؤوف عباس ، م س، ص ١٥٩ .

(١١) م ن ، ص ١٦٠ .

(١٢) هيكل ، أحاديث في العاصفة ، ص ٦٠٤ .

الباب التاسع

التقييم

الفصل الأول

الديمقراطية في عهد عبد الناصر

" إني أعلنها صراحة ، إن هذه الثورة كان هدفها الأول الديمقراطية ، لأننا نؤمن بإرادة الشعب وقوته ، ولكن لن تكون للشعب قوة ،ولن تكون له إرادة إلا إذا أحس بالديمقراطية "
(ناصر) (عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ، ص٣٠).

وهذا الباب هو أصعب أبواب البحث في سيرة ناصر ، بل وفي مسار ثورة يوليو الغني المتشعب ، وقد كتبت فيه الكتب الكثيرة ، وتعرض له كبار الكتاب بالبحث والدرس.

أقول أنه صعب لأن الباحث حين يتحدث عن السد العالي أو تأميم القناة أو تطوير التعليم ، فلديه ردود علمية تدعمها الأرقام التي لا تبقي مجالاً لجدال ، ولكن موضوع الديمقراطية يظل مطاطاً ، فكل ما يقال محتمل ، وكل رأي يستمع إليه ويناقش بحكم الضبابية ، وعدم الوضوح .

لذا يجد أعداء النهج الناصري فيه فرصة للنقد ، والهجوم على الزعيم الراحل ، وكأن الديمقراطية كانت تنعم بأجمل أيامها في عهد الملك فاروق ، وجاء ناصر وأنهى عصرها الزاهر، أو أن مصر قد عاشت أزهى عصور الديمقراطية في عهود من حكموا مصر بعد عبد الناصر .

عداء مبكر

يقول **علي صبري**(١٩٢٠-١٩٩١) رئيس الوزراء المصري عام ١٩٦٤ :

" لما قامت ثورة يوليو ، وأعلنت مبادئها الستة ، لم يكن لديها ما تخفيه عن الأحزاب ، أو عن الإقطاعيين والبرجوازيين ، لذا تجمع قادة الأحزاب وكونوا جبهة تحالف فيها اليمينيون واليساريون ، وقد تجمعت جموع هؤلاء عام ١٩٥٤ " في ميدان عابدين ، محركة الجماهير باسم تأييد محمد نجيب - الذي لم يكن من الضباط الأحرار-

ضد مجلس قيادة الثورة ، ورفعت شعار العودة إلى التكتلات للضباط الأحرار ، من هنا وضح أن أحزاب ما قبل الثورة تتميز بالإنتهازية دون الموضوعية ، وفي مواجهة هذا الوضع ، قامت هيئة التحرير ، ليس كحزب ، بل كتجمع جماهيري يواجه المؤامرة ، ونجحت وحققت اهدافها " (١) .

وهذا موقف للأحزاب لا يبشر بخير ، بل يؤكد موقفها الواضح من الثورة في بداياتها ، فالهدف هو إسقاط الثورة ، وعودة هذه الأحزاب إلى سدة الحكم ، بداعي أن الضباط قد أدوا واجبهم ، وانتهى دورهم ، وعلى المدنيين تسلم زمام الأمور ، ولم يكن هذا الموقف لينطلي على ثوار يوليو الأماثل ، فهذه الأحزاب- أو اشباه الأحزاب- لم يكن لها من دور سوى دعم الملكية ، ولو كان لها موقف غير ذلك لما دامت للملكية دولة في مصر ، وعندما قامت الثورة رفضت مبادئها الستة كما سيأتي .

يقول عبد الناصر في ٢٥ /١٩٦١/١١:

" إن إقامة ديمقراطية سليمة معناها أننا لا نمكن ديكتاتورية رأس المال ، ولا ديكتاتورية الإقطاع من أن تتحكم فينا تحت اسم الديمقراطية ، ديمقراطيتنا السليمة ديمقراطية كل الفئات ، ديمقراطية الشعب العامل كله ، هذه الديمقراطية ستكون لكل الشعب، وليست ديمقراطية لفئة قليلة ، لأن ديمقراطية الإقطاع ورأس المال هي ديمقراطية فئة قليلة من الشعب ، هي الأقلية التي تتحكم في الاغلبية " (٢) .

ويقول في العيد الخامس للوحدة ٢١ شباط ١٩٦٣ :

" قبل الثورة كان فيه أحزاب ، وكانت فيه ديمقراطيه زائفة ، الأحزاب اللي كانت موجودة عندنا قبل الثورة كانت بتمثل إيه ، كانت بتمثل الطبقة الواحدة ، زي ما قلت لكم إحنا في أول الثورة إن احنا ندي الحكم للأحزاب ، **ولكن الأحزاب لم تقبل المبادىء الستة التي أعلناها في أول الثورة** ، إحنا تفاوضنا مع الأحزاب(الوفد) على أساس يستلموا الحكم ، وقلنا لهم إن احنا نريد المبادىء الستة .

أول مبدأ القضاء على الاستعمار ، وثاني مبدأ القضاء على الإقطاع ، وقلنا لهم عاوزين نحدد ملكية الأرض بمائتي فدان ، بعدين قعدوا يتفاوضوا معانا ساعات وساعات وأيام ، ويقولوا لأ ..إزاي نطلب من الاقطاعيين أن يحددوا الملكية ؟ حزب الوفد في هذا الوقت كان حزب يتمثل فيه الإقطاعيين .. الأحزاب الأخرى كانت تتمثل فيها الإقطاعيين أو سيطرة وديكتاتورية رأس المال ، وبهذا سرنا من أجل تطبيق الحرية ، وكنا نشعر ألا

حرية سياسية بدون حرية اجتماعية ، وزي ما قلنا في الميثاق إيه ، قلنا رغيف الخبز وتذكرة الانتخاب ، تذكرة الانتخاب بيأثر عليها إيه ؟ بيأثر عليها رغيف الخبز .

إذا حررنا الثورة ، وإذا حررنا وسائل الإنتاج ، وإذا حررنا العامل ، وإذا حررنا الفلاح ، نستطيع فعلاً أن نقول أن هناك إمكانية لقيام ديمقراطية سليمة ." (٣) .

وقرأت للكاتب عصام نعمان قوله :

" إن الديمقراطية الغربية تستلزم شرطين أساسيين لنجاحها :

الشرط الأول : حد أدنى من بحبوحة العيش ، فلا ديمقراطية حقيقية مع الفقر والهوان .

والشرط الثاني : حد أدنى من التعليم والوعي والتنوّر "(٤) .

والشرطان اللذان يذكرهما نعمان كانا من الأهداف الستة لثورة يوليو ، وظلت الثورة مشغولة بهما وبغيرهما طوال فترة حكم الزعيم الراحل .

ويقول الوزير الوفدي الأسبق **إبراهيم فرج** (١٩٠٣- ١٩٩٤) :

" أكبر الأخطاء الجسام التي تورطت فيها الثورة هي غياب الديمقراطية ، والأخذ بنظام الحزب الواحد وما ارتبط به من ضرب القوى الوطنية الأخرى ، وأخصها الوفد وقد كان الحليف الطبيعي للحركة ، والممثل لجماهير الشعب العريضة قبل سنة ١٩٥٢" (٥).

ومع الأسف فالمقام لا يتسع للنقاش الطويل عن مدى مصداقية الوفد وانتمائه للطبقة المسحوقة من الشعب ، وأقل ما نقوله أن الوفد كان مؤيداً للملكية ، غير مقاوم للطبقية ، يمالىء النظام ليتقوى به ضد الأحزاب الأخرى المنافسة ، والأدلة موجودة في الباب الثالث من هذا الكتاب .

ويؤيد ابراهيم فرج **علي صبري**(١٩٢٠-١٩٩١) فيقول :

" أذكر سلبية واحدة هامة لا بد أن تعيها تماماً ، وهي أن ثورة يوليو لم تخلق التنظيم السياسي المؤمن بمبادئها ، المصمم على السير بها إلى آخر مداها ، فمكنت الثورة المضادة من أن تنقض عليها "(٦) .

ويقول الكاتب المعروف **أحمد بهاء الدين** " أن الديمقراطية كانت هدفاً مثالياً للثورة ، ولكنني أعتقد أنه تقهقر مع الزمن ، وإعطاء الثورة الأولوية ، للإنجازات والمعارك السابق ذكرها ، مع محاولة البحث - محاولة غير ناجحة - عن صيغة ديمقراطية جديدة " (٧) .

ويرى الوزير الأسبق **كمال الدين حسين** (١٩٢٠-١٩٩٩):

" أن أساس سلبيات ثورة يوليو هو عدم تحقيق الديمقراطية السياسية في الوقت المناسب ، لأن آفة الحكم الاستبداد الذي يتحكم فيه الفرد ... والفرد معرض كبشر للخطأ وللمرض والعجز ومغريات الحياة ، والله يقول : إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى " (٨) .

ولكن كمال الدين يترك العذر واسعاً لمخالفات الثورة ، فيقول :

" وأنا لا أبرر الأخطاء الجسيمة أو الانحرافات ، ولكني أقول أن كل الثورات في التاريخ ابتليت بأكثر مما ابتليت به ثورة ٢٣ يوليو ، وخاضت في بحور من الدماء ، وصاحبها أنواع كثيرة من الظلم والظلم المضاد ... كل الثورات على مدى التاريخ ، من شرق وغرب في الحاضر ، والحاضر القريب والبعيد " (٩) .

ولا يقول كمال الدين أن ثورة يوليو كانت ثورة بيضاء لم يحصل فيها ما حصل لغيرها من حملات إبادة وسفك دماء ، فهذا مفهوم ضمناً .

ولعل أوضح ما كتب عن مفهوم غياب الديمقراطية في عهد عبد الناصر ما كتبه المؤرخ **أحمد حمروش** - الذي عايش الأحداث - في كتابه "خريف عبد الناصر " فهو يقول :

".. وليس المقصود بالديمقراطية هذه الصورة الليبرالية المطلقة التي اقترنت بالنظام الرأسمالي في الدول الغربية .. فلم تكن الحالة في مصر بعد الخطوات التي اتخذت ، تسمح بذلك .

ويجب ألا نبتعد كثيراً عن الأصل الذي نهض عليه نظام جمال عبد الناصر ، حتى لا نخطيء الحساب .

حركة الجيش ليلة ٢٣ يوليو هي حركة عسكرية ، بدأت انقلاباً ، ثم تحولت مع الوقت إلى ثورة ، يقودها أصحاب الرتب الصغيرة من الضباط الذين لا ينتمون للكبقات الحاكمة في ذلك الوقت .(وسنأتي على الرد بأنها لم تكن انقلاباً)

وعسير أن يتحول انقلاب عسكري إلى نظام ديمقراطي وسليم ، مهما حقق من إنجازات وطنية واجتماعية .. لم يحدثنا التاريخ عن مثال واحد - إلى الآن- بدأ الأمر فيه انقلاباً ثم انتهى بنظام ديمقراطي .

والأوتقراطية العسكرية كانت لها اليد العليا دائماً ..

وفي التنظيمات التي قامت لم تتوفر الديمقراطية أيضاً .. فلم تكن المعارضة مقبولة ومستساغة داخل التنظيم .. وظل الأمر في قبضة العسكريين الذين تعجزهم

طبيعتهم الصارمة عن التفاعل الحي مع الجماهير ..والذين اعتمدوا في قهر بيروقراطية الدولة على الأسلوب الإداري الحازم وحده .. وهو ما يمكن اعتباره - إذا لم ينسجم مع العمل السياسي - سراباً لا يصل إليه إنسان .

كان غياب الديمقراطية هو نقطة الضعف الرئيسية التي جعلت البناء الاشتراكي يقوم على قاعدة سلبية .

ساعد على ذلك أيضاً أن جمال عبد الناصر لم يكن شديد الحرص على **بناء حزب مناضل** يحمل معه مسئولية التحول إلى المجتمع الاشتراكي ..وتجربة طليعة الاشتراكيين - رغم ما كانت تبشر به من أمل - انتهت إلى طريق مسدود .

غيبة الديمقراطية ، وغيبة الحزب السياسي المناضل ، وتغلغل الأوتقراطية العسكرية في أجهزة الحكم ، ونمو البرجوازية الصغيرة ، ورسوخ أقدامها في قمة التنظيمات القائمة بدون اهتمام بإطلاق طاقات العمال والفلاحين السياسية والاجتماعية ...

كل هذا أضعف دور الرقابة الشعبية ، وفتح باباً عريضاً للانحرافات ، سرقة المال العام ، الاعتقال بغير حساب ، فرض الحراسة بالتقارير ، تعذيب المعتقلين حتى الموت احياناً .

ورغم قسوة هذه الانحرافات وتأثيرها السيىء على نفسية الجماهير .. فإنها ظلت في الأغلب الأعم ، تأخذ مركزاً ثانياً من اهتمام الجماهير بعد ثقتها بالزعيم ،وتأييدها لخطوات الثورة الوطنية والتقدمية .

كان البعض إذا سمع عن الخطأ أو الانحراف ، تصور أنه لا بد وأن يزول إذا وصل الأمر إلى سمع جمال عبد الناصر .

وربما كان ذلك صحيحاً ، ولكن .. من الذي كانت تتاح له فرصة وصول صوته إلى الزعيم ، وحوله متورطون في هذه الانحرافات " (١٠) .

وهذا حديث لا يخلو من معلومات متميزة عايشها المؤرخ حمروش ، ولا يعني تضميني لهذا الحديث أن كل ما جاء فيه صحيح .

فرداً على قول حمروش أن ثورة يوليو كانت انقلاباً ، نعود إلى **ناصر** يميز لنا الفرق بين **الانقلاب والثورة** ، فيقول في ٢٦ اكتوبر ١٩٦١ :

" **فالثورة** هي الحصول على السلطة من أجل التغيير الواسع .. تغيير المجتمع من الواقع الذي يثور عليه ، إلى المستقبل الذي يطالب به .. قد تبدأ الثورة بالقلة ، وإن كانت أهدافها تعبر عن أهداف الكثرة .. ولكن الثورة بالعمل والممارسة من أجل تحقيق أهدافها تصل إلى حد التعبير عن الكثرة وتصل من الاستثناء إلى الكثرة .. عمل الثورة يتسع ويكبر وتزداد المشاركة فيه كل يوم وكل ساعة وكل سنة "

أما الانقلاب فهو " جماعة من الناس تتآمر ، وبالمؤامرة أو المغامرة يصلون إلى السلطة ، والسلطة هدفهم "

ويضيف لما سبق في عيد الثورة الثالث عشر ٢٦ يوليو ١٩٦٥:

" ولقد كان يمكن أن يتحول الحدث الكبير الذي جرى ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى مجرد تغيير للوزارة ، أو تغيير لنظام الحكم .. وكان يمكن أن يتحول إلى ديكتاتورية عسكرية تضيف إلى التجارب تجربة أخرى فاشلة .. لكن أصالة الوعي الثوري وقوته .. قررت أن يكون الحدث الكبير يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ خطوة على طريق تغيير جديد كامل يعيد الأماني الوطنية إلى مجراها الثوري السليم "(١١) .

وهذا موضوع لن نخوض فيه ... فرد عبد الناصر وجيز كافٍ .

أما عن وجود الأوتقراطية العسكرية ، وتغلغلها في أجهزة الحكم ، وارتكابها الأخطاء الكثيرة ، فهو ما لا أخالف فيه المؤرخ الفاضل ، وقد أشار إليه الكثير من المؤرخين (وأطلت البحث فيه في كتابي عن ثورة يوليو)، وهو بلا شك من عيوب الثورة قبل أن يكون من عيوب ناصر وهفواته ، فقد كان ثوار يوليو حول ناصر ، وكان بإمكانهم كبح حكم العسكر ، والحد من نفوذهم ، وقد حدث ذلك تماماً إثناء فترة حكم عبد الناصر ، فيخبرنا رئيس المخابرات المصرية الأسبق أمين هويدي ، أنه " لم تحدث حادثة تعذيب لأي منهم - أي الضحايا السابقين- ابتداء من عام ١٩٦٨ ، علة ذلك ان (الدولة العسكرية) كانت قد استطاعت ان تجرد وزارة الداخلية وأجهزتها ، بما فيها جهاز أمن الدولة ومصلحة السجون من سلطاتها ، وتسند إلى الأجهزة العسكرية وظائف المحافظة على الأمن الداخلي ، فما أن سقطت الدولة العسكرية ، وعادت صلاحيات وزارة الداخلية إليها ، انقطع سيل الجرائم الجسيمة التي كان بعض المتهمين يتعرضون لها "(١٢) .

ولدى الحديث عن أزمة الديمقراطية التي يثيرها البعض كسلبية في ثورة يوليو، تحتل مسألة **إلغاء الأحزاب** (والتي صدر قانون إلغائها في ١٦ كانون ثان ١٩٥٣) وصاحب ذلك إلغاء الطبقات - الجانب الأكبر من مسألة البحث ، فوجودها مؤدية لواجبها نحو الشعب والوطن ضمن سياق نيابي واضح سليم هو أول أساسيات النهج الديمقراطي ، أما إن كان وجودها يبتغي عكس ذلك ، فإلغاؤها أفضل من دوامها .

وقد أكد صدور **قانون الإصلاح الزراعي** ما ذهبت إليه ..

فزعماء الأحزاب وكبار الساسة في العهد الملكي كانوا من كبار الملاك والإقطاعيين ، لذا حصل **التعارض والخلاف** مع قادة ثورة يوليوومبادئها في أول محاولة للإصلاح ، فبعد استقالة رئيس الوزراء علي ماهر في ٧ أيلول ١٩٥٢ صدر قانون

الإصلاح الزراعي في ٩ أيلول ، ليثبت صدوره " استحالة التعاون بين السياسيين القدامى بمصالحهم التي ترتبط بالثروة وبين الحركة الوليدة بأهداف الثورة ، وبذلك يمكن اعتبار أن إلغاء التعددية ارتبط أساساً بهذا القانون ، وكانت الضربة الأخيرة في ١٦-١-١٩٥٣ عندما صدر القرار بحل جميع الأحزاب السياسية ، ومصادرة أموالها لصالح الشعب "(١٣) ، أي قبل مرور ستة أشهر على قيام الثورة ، وهذه خطوة تدل أولاً على وضوح الصورة لدى الثوار ، وثانياً على الخطوات الحازمة التي اتخذوها بدون إبطاء ، بحل الأحزاب التي وضحت نواياها مبكراً .

ولا أجدني ظالماً حين أقول أن ما حدث متوقع جداً ..

يقول عبد الناصر في مناقشات اللجنة التحضيرية في ٢٣ يوليو ١٩٦٢ :

" كانت هناك تنظيمات شعبية سبقت قيام الثورة ، ولكن هذه التنظيمات ضاعت قيمتها لسببين رئيسيين :

أولاً : أن معظم هذه التنظيمات - خصوصاً تلك التي مارست الحكم منها قبل الثورة - كانت انعكاساً لمصالح طبقية ، وكانت كلها تستند على تحالف الاقطاع مع رأس المال المستغل ، ومن ثم فإن هذه التنظيمات لم تكن قائمة على أساس جماهيري ، وإن كان بعضها قد استطاع في سنوات النضال الوطني من أجل الاستقلال أن يحرك جموعاً من الجماهير ، لأنه لم يستطع مواصلة النضال إلى نهايته ، لارتباط مصالحه بطريق غير مباسر مع مصالح الاستعمار ، ومن ثم انتهى إلى مهادنته .

ثانياً : أنه كانت هناك قبل الثورة تنظيمات سياسية لا تعبر عن مصالح الطبقة الحاكمة ، لكن فاعلية هذه التنظيمات كانت في معظم الأحيان محدودة ، أو سلبية ، بسبب حفظ المصالح الطبقية الحاكم عليها ، ومن ناحية أخرى ، لأن هذه التنظيمات حركتها دوافع انفعالية عاطفية ، او حركتها قوى بعيدة عن التربية الوطنية " (١٤) .

موقف الثورة من

أحزاب العهد البائد ..

وفي عيد الوحدة عام ١٩٦٣ ، يعود عبد الناصر لشرح موقف الثورة من الأحزاب ، فيقول - بكل وضوح كعادته- موثقاً للدارسين موقف الثورة آنذاك :

" قبل الثورة كان فيه أحزاب .. وكانت فيه ديمقراطية زائفة ، الأحزاب اللي كانت موجودة عندنا قبل الثورة كانت بتمثل إيه ؟ كانت بتمثل الطبقة الواحدة .. زي ما قلت لكم إحنا في أول الثورة إن احنا ندي الحكم للأحزاب ، ولكن الأحزاب لم تقبل المبادىء

الستة التي أعلناها في أول الثورة ، احنا تفاوضنا مع الأحزاب"الوفد" على أساس يستلموا الحكم ، وقلنا لهم إن احنا نريد المبدىء الستة .

أول مبدأ القضاء على الاستعمار ، وثاني مبدأ القضاء على الاقطاع ، وقلنالهم عاوزين نحدد ملكية الارض بمتين فدان ، بعدين قعدوا يتفاوضوا معانا ساعات وساعات وأيام ، ويقولو لأ ..

إزاي تطلب من الاقطاعيين أن يحددوا الملكية ؟

حزب الوفد في هذا الوقت كان حزب يتمثل فيه الاقطاعيين .. الأحزاب الأخرى كانت تتمثل فيها الاقطاعيين ، أو سيطرة راس المال ، وبهذا سرنا من أجل تطبيق الحرية ، وكنا نشعر ألا حرية سياسية بدون حرية اجتماعية ، وزي ما قلنا في الميثاق .. إحنا قلنا في الميثاق إيه ..؟ قلنا رغيف الخبز وتذكرة الانتخاب ، تذكرة الانتخاب بيأثر عليها إيه ؟ بيأثر عليها رغيف الخبز .

إذا حررنا الثورة ، وإذا حررنا وسائل الإنتاج ، وإذا حررنا العامل ، وإذا حررنا الفلاح ، نستطيع فعلاً أن نقول أن هناك إمكانية لقيام حياة ديمقراطية سليمة .

الأحزاب في الفترة السابقة على الثورة لم يكن يهمها إلا أن تتصارع لكي تصل إلى الحكم ، وهي تسلك كل السبل التي تؤدي إلى ذلك ..مرة تستعين بالانجليز ، ومرات تلجأ لخداع الشعب ، ومرات أخرى تشتري الحكم برشوة الملك ، وقد حدث ذلك كله في تاريخنا بأكثر من صورة ، ومن كل الأحزاب السياسية تقريباً .

وعندما تصل هذه الأحزاب إلى الحكم ، فإن أهم ما كانت تحرص عليه هو أن تؤكد مراكزها ، وأن تدعم نفوذ أعضائها ، وتعمل على تلبية مطالبهم ، وراجت في هذه الفترة في مصر ، كلمات المحاسيب والأصهار والأنصار ، أما الشعب فقد كان في البلد ١٨ مليون ليس لهم حزب ، والباقي إما مخدوعين وإما مغلوبين على أمرهم ، أو مضللون ، وكان الساسة يتحكمون في لقمة العيش ، يحرمونها على من يرفع صوته ، ويحاربونه في رزقه ليضمنوا سكوت الجميع عن الظلم والاستبداد والاستغلال ، لذلك كانت بلادنا ضعيفة ، مغلوبة على أمرها ، إلى ان قامت الثورة " (١٥) .

والجدير بالذكر - ومما يدل بالدليل القاطع على مصداقية ثوار يوليو- أنهم استدعوا عقب الثورة مباشرة مصطفى النحاس الذي كان في اوروبا ، ولما وصل تركه الثوار ليجلس مع محمد نجيب ، ولكنهم فوجئوا به يبدأ حديثه مع نجيب قائلاً :

أهلا وسهلا ..هه.. بقى أنت قائد ستين ألف (يقصد الجيش) وأنا قائد ثمانتعشر مليون (يقصد الشعب المصري) . ولما أوضح له نجيب أن الثورة قامت لتحقيق الإصلاح

الزراعي ، ولغايات أخرى على صعيد التحول الإجتماعي ، رد النحاس على الفور : لا..لا..لا .

وقد صدم عبد الناصر بالنحاس وموقفه ، فإذا كان هذا موقف زعيم الأغلبية ، فكيف ستكون مواقف بقية السياسيين القدامى .

" صدم عبد الناصر ورفاقه بالنحاس ، لأنهم عندما حدثوه عن الاصلاح الزراعي كان يتكلم كأنه في ملكوت آخر ، وصدموا بعدما ألف علي ماهر الحكومة بالأسلوب الذي اتبعه ، وبالأسماء الطنانة ، وصدموا أيضاً لأن القوى السياسية والأحزاب عموماً لم تكن عندها فكرة عن أي عمل إصلاحي ، أو تغيير " (١٦) .

فالثورة التي تخلصت من فاروق والنظام السابق الفاسد ، لا تجد لديها الوقت لقراع الأحزاب الإقطاعية ، المتمتعة بالنظام الطبقي ، وسيطرة رأس المال ، فالثورة لديها مبادؤها الستة التي لم تقبلها أحزاب العهد الاقطاعي ، ولديها برامجها الطويلة الغنية ، والتي شرعت في تنفيذها منذ أيامها الأولى ، ومن ذلك دراسة تنفيذ مشروع السد العالي ، والتأميم ، وإلغاء نظام الإقطاع ، وتوزيع الأراضي على الفقراء والفلاحين ، وقد نفذت الثورة كل ذلك وبشكل واقعي وحاسم ، وقد رافق ذلك برامج أخرى كالتصنيع وتطوير التعليم وجعله مجانياً .

إذن ..فقد كان **مفهوم ثوار يوليو للديمقراطية** مبنياً على حكم الشعب ، وتحقيق غاياته ورفاهيته ، وإستبعاد اي عائق يحول دون ذلك ، وبعد عشر سنوات من قيام الثورة ، وكما جاء في **الميثاق** في الباب الخامس ، وهو بعنوان **"عن الديمقراطية السليمة"** نجد ما يلي :

" إن الديمقراطية هي الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملاً شعبياً .

- إن الديمقراطية هي توكيد السيادة للشعب ، ووضع السلطة كلها في يده ، وتكريسها لتحقيق أهدافه .

كذلك فإن الاشتراكية هي الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملاً تقدمياً " ثم يخلص إلى القول :

" إن الديمقراطية هي إقامة **مجتمع الكفاية والعدل** .. ، مجتمع العمل وتكافؤ الفرصة ، مجتمع الانتاج ، ومجتمع الخدمات .

إن الديمقراطية والاشتراكية من هذا التصور تصبحان امتداداً واحداً للعمل الثوري .

إن الديمقراطية هي الحرية السياسية .. والاشتراكية هي الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنتين ، إنهما جناحا الحرية الحقيقية ، وبدونهما أو بدون أي منهما لا تستطيع الحرية أن تحلق إلى آفاق الغد المرتقب "(١٧) .

وحسب هذا التنظير ، فهذه هي خلاصة مفهوم قادة الثورة للديمقراطية ، فطالما كان الحكم للشعب ، قام العدل وحصل ، وتحققت أهداف الشعب وغاياته ، وطالما أن الاشتراكية ترافق الديمقراطية وتلازمها ، فلا داعي لأي مسبب آخر للقلق ، كالأحزاب مثلاً ..

ويركز عبد الناصر على الديمقراطية الاجتماعية ، وقوت المجتمع اليومي ، فيقول في خطاب له في دمشق في ٢٢ شباط ١٩٦١ :

" الديمقراطية الاجتماعية ، لا بد - أيها الأخوة المواطنون - أن تكون مكملة للديمقراطية السياسية .

وأما إذا كانت هناك الديمقراطية السياسية أو ما يدعونها بالديمقراطية السياسية ، واحتجبت الديمقراطية الاجتماعية ، فأصبح هناك سادة وأصبح هنا عبيد ، وأصبحت نتائج هذا البلد في أيدي فئة قليلة من الناس ، بينما لا يشعر الشعب كله بنتائج عمله ،لا يمكن أن يؤمن لنفسه قوت يومه ، أو يؤمن لنفسه قوت غده ، لا يستطيع أبداً أن يكون حراً ، ويقول لا إذا دعت الأمور أن يقول لا ، لأنه يشعر أنه إذا قال ذلك ، سيهدد في عيشه ، وسيهدد في رزقه ، ولن يستطيع أبداً أن يعيش الحياة التي يعيشها "(١٨) .

وبعد قيام الثورة بأحد عشر عاماً ، لا نجد موقفاً جديداً للثورة من الحزبية والديمقراطية ، فقد سئل عبد الناصر في ٧ نيسان ١٩٦٣ عن ماهية الديمقراطية ، فجاء في رده :

" حصل خلاف بيننا بعد ٢٣ يوليو على التفسير ، وصممنا على التفسير اللي موجود في المبادىء الستة ، وكان العمل هو طلاق الحرية البورجوازية ، قررنا إقامة انتخابات في فبراير (١٩٥٣) ، هذا في ٢٣ يوليو ، وبعدين وجدنا لما جينا نبحث الإصلاح الزراعي اننا حانسلم البرلمان للإقطاعيين اللي هم رافضين الإصلاح الزراعي لأنهم هم اللي حينجحوا في البرلمان ، فغيرنا المفهوم ، وأعلنا فترة انتقال مدة ٣ سنوات ، وعملنا دستور ١٩٥٦ ، فكان يوم ٢٣ يوليو لنا مفهوم ، النهاردة لنا مفهوم يختلف كلية عن مفهومنا يوم ٢٣ يوليو ، ولكن هذا التغيير كان نتيجة التطبيق والممارسة "(١٩) .

والحديث السابق لا يجانب الحقيقة ، فلو أقيمت الانتخابات في ذلك الوقت لفازت أحزاب الاقطاعيين والبرجوازيين ، وهي التي قامت الثورة ضد سياساتها الممالئة للملكية ، إذن فالثورة لن تحقق شيئاً في ظل حكمهم .

الثورة أولاً ..

ولا يخفي عبد الناصر خوفه على الثورة من أدعياء الديمقراطية ، ومن الحزبية ذات التاريخ الحافل بكل شيء إلا الوطنية والإخلاص للشعب ، فيقول بكل وضوح في ٢٥ تشرين ثان ١٩٦١في خطاب شرحه للميثاق قبل صدوره :

" إذن الديمقراطية الرأسمالية ، الديمقراطية الاقطاعية اللي مارسناها هنا سنة ٢٣ مثلاً عن النظام الغربي ، لم تكن إلا ستاراً ، واللي بتمارس في بعض البلاد ، واللي بيقعدوا يطنطنوا بالديمقراطية .. الديمقراطية ليست إلا ستاراً من أجل حماية الرأسمالية والاقطاع والفساد والاستغلال ، الاستغلال الاجتماعي ، والاستغلال الاقتصادي بكل معانيه "

ويعبرعن خشيته من الأحزاب البرجوازية التي قد تشتري أصوات ناخبيها ، وتستحوذ على كل شيء ، فيواصل حديثه :

" مين اللي بيقدر يمول الانتخابات زي ما قلنا ، مين اللي يقدر يعمل دعاية ، الرأسمالية المستغلة والاقطاع .

إذن الحقيقة مش ممكن تمشي على أساس الحرية المجردة ، أو ديمقراطية مجردة ، التفكير إن إحنا نعمل حزبين بحرية مجردة ، وديمقراطية مجردة ، **معناه إن الثورة ستنتهي** ، التفكير لازم يتجه إلى إن فيه ثورة ، وفيه أهداف لهذه الثورة مجردة .

وعمر ما ينطبق ثورة اجتماعية بحرية مجردة ، عمر ما قام برلمان رأسمالي حصلت ثورة اجتماعية ، ما حصلش ، قامت ثورة حقيقية ثورة سياسية .

اللي بيطالبوا بالحرية المجردة ، أو بيطالبوا بالديمقراطية المجردة يمكن بيتخدعوا ببعض الكلام ، وبيعتبروا الديمقراطية غاية ، وما يسلموش بإن الديمقراطية وسيلة ، وليست غاية لإقامة مجتمع ترفرف عليه الديمقراطية ..

مجتمع فيه تكافؤ الفرص ، لأنه كيف يحقق الشعب بالديمقراطية المطلقة أهدافه في الكفاية والعدل ، أهدافه في العدالة الاجتماعية طالما ان الرأسمالية المستغلة ، والاقطاع هي اللي ورثت عناصر القوة في المجتمع على مر السنين ..

بأقول إنه إحنا من أنصار **الحرية الكاملة** ، والديمقراطية على أن تكون الحرية للشعب لا لأعدائه من الرجعيين ، وعلى أن تكون الديمقراطية للشعب ، **أي تكون هذه الديمقراطية ديمقراطية سياسية اجتماعية للشعب لا لأعدائه من المستغلين والرجعيين ،** اللي نهبوا حقوقه في الماضي ، واللي عايزين ينهبوا حقوقه دلوقت ، واللي عايزين يحرموه من كل شيء إلا من أقل شيء يمكنه من أن يعيش ، وأطلع بالنتيجة نفسها ، لا بد من عملية فرز من أجل تحقيق الثورة الاجتماعية... حزبين ، والناس اللي تكلموا بهذا

الشكل بيبقوا بيفكروا هناك ديمقراطية للشعب ، للطبقة العاملة ، أنا بدي أقسر ولا بد من عزل أعداء الشعب ، أما الخلافات في داخل الشعب فهي مستمرة ولا نهاية لها ، وحنحلها ، ولكن نحلها بالحلول الديمقراطية ، مش بأساليب الضغط ، ولا الأوامر في القرية وفي المدينة ، وفي كل حتة ، بنحلها بالأساليب الديمقراطية ، على أساس إنه الديمقراطية الكاملة للشعب ، وإن الحرية للشعب ، وكل شيء مبني على الاقتناع ، ومبني على الفهم المتبادل " (٢٠) .

ويضرب ناصر مثالاً واقعياً على سياسة رفض قيام الأحزاب كما هو معمول به في دولة عظمى ، فيقول :

" إن حرصنا على الديمقراطية السليمة لا يعني أن تسمح لأي حزب أو لأي تنظيم أن يقوم ، او نسمح للشيوعيين بأن يعيدوا تنظيم أنفسهم بأي حال من الأحوال ، فإن كان الشيوعيون في بلادهم لا يسمحون لأحد بأن يشكل تنظيمات ، فهل نسمح للشيوعيين بذلك في بلدنا ؟

هل يستطيع خروشوف الآن مثلاً أن ينظم أي تشكيل في الاتحاد السوفييتي ؟ طبعاً لا يمكن .. هل هو شيوعي أو غير شيوعي ..طبعاً شيوعي .. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يقيم تنظيماً في الاتحاد السوفييتي "(٢١) .

إذن فمفهوم الديمقراطية عند عبد الناصر في الماضي والحاضر هو :

١- كانت في الماضي ستاراً لحماية الفساد والرأسمالية ، والاقطاع والاستغلال .

٢- لو سمح للأحزاب فسوف يستخدمون أموالهم لشراء الأصوات ، وهذا سوف ينهي الثورة .

٣- البرلمان الرأسمالي لا يؤدي إلى حرية ، او عدالة اجتماعية .

٤- الديمقراطية هي تكافؤ الفرص ، في الكفاية والعدل ، والعدالة الاجتماعية .

٥- قبل الشروع في البحث في الديمقراطية ، وقيام الحزبين ، لا بد من عزل أعداء الشعب الذين سيستغلون الفرص لتحقيق مآربهم بالعودة إلى الأوضاع السابقة في العهد البائد .

٦- كل هذه الامور والخلافات حلها ممكن بالحوار والفهم المتبادل ، للوصول إلى الاقتناع بالشكل القادم للديمقراطية .

وكما نلاحظ ، فإن موضوع السماح بقيام الأحزاب - أو عودتها -غير وارد في برامج ثوار يوليو ، بل إن تصريحات عبد الناصر عن الديمقراطية يشوبها الحيطة والحذر ، فيحاول إشاعة أجواء اليأس والقنوط على الحالمين من الطبقة الرأسمالية بعودتهم إلى سدة الحكم ، لأن عهدهم قد رحل بلا عودة ، والحكم الآن للشعب لا غير ، والذي قامت

الثورة من أجله ، وهي ملزمة بحل مشاكله جميعاً ، ولكن في معزل عن تدخلات الرأسماليين والإقطاعيين .

يقول نابليون بونابرت :

" الضعف يولد الحرب الأهلية ، أما الحزم فيحفظ ازدهار الدول واستقرارها .

ويقول أيضاً :

" لن تحصل على العون المنشود من مروؤسيك إلا متى عرفوا أنك حديدي الإرادة "(٢٢) .

فالحزم كان مطلوباً في بدايات الثورة ، لأن مصر عاشت مئات السنين في ظروف متشابهة ، وما طرحته ثورة يوليو لم يكن سهلاً تقبله واستيعابه من قبل الاقطاعيين والرأسماليين ، وأي إظهار للضعف كان من الممكن أن يهدم كل الجهود التي بذلها الثوار .

وقد تم تأسيس **"هيئة التحرير"** بعد أسبوع واحد من قرار إلغاء الأحزاب ، فصدر ميثاقها في ٢٣ كانون ثان ١٩٥٣ ، وكان من أول أهدافها أن " تكون تجمعاً لجميع فئات الشعب تحت هدف واحد هو طرد الاستعمار ، وكان برنامجها الأساسي هو طرد الاستعمار ، وكانت تضم في عضويتها المصريين جميعاً باستثناء الاقطاعيين ، والقيادات الحزبية السابقة على الثورة ، على اعتبار أن هؤلاء من المتعاونين مع الاستعمار "(٢٣) ، كما تم تأسيس هيئات أخرى سيأتي الحديث عنها لاحقاً .

ويرى الكاتب جميل مطر أن "عدم الثقة قد غلب على تفكير ناصر وممارساته ، وأراد أن يجعل كافة أفراد المجتمع ومنظماته وجمعياته الأهلية تحت مظلة الحكومة ، وهيئاتها ، وأجهزة أمنها ، بمعنى آخر قرر الرئيس المصري تأميم الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر قبل أن يقرر تأميم الاقتصاد والشركات .. حتى الحركات الصوفية وصلت إليها الحكومة ، وعينت لها من ينظمها ويراقبها ، ويقيد حركتها "(٢٤) .

إن سيرة ناصر لا تدل على أن عدم الثقة كان من طبيعته ، ولكن سطوة الأجهزة الأمنية في ذلك العهد هي التي أشاعت هذا الجو في الأوساط السياسية آنذاك ، ولعل رغبة ناصر في أن تحكم الأحزاب مصر - رغم نجاح الثورة - دليل واضح على ثقته بالآخرين ، حتى لو كانوا من أنصار ذلك العهد ورجاله .

تعدد الأحزاب
والتبعية للقوى الخارجية

وكان ناصر يخشى من السماح بوجود الأحزاب وتعددها ، لأن تلك الأحزاب ستصبح عميلة للقوى الأجنبية ، وهذا سيدخل البلاد في الحرب الباردة ، فكل دولة كبرى ستحاول إيجاد حزب لها على أرض مصر ، وهذا يفقد البلاد وحدتها الوطنية ، ويعرضها للخطر الداخلي والخارجي (٢٥) .

وقد أثبتت الأحداث التي تلت الثورة على مدى ثمانية عشر عاماً أن عبد الناصر كان بعيد النظر في رأيه في تعدد الأحزاب ، فلو سمح بذلك ، لأصبح للدول الكبرى أحزابها وقواعدها السياسية المعارضة للثورة وتقدميتها في الداخل ،(على الأقل هذا كان تقديره وتوقعه) .

وبإمكاننا أن ندعو ما قامت به ثورة يوليو تجاه الأحزاب بحلها " **بالعملية الوقائية** " ، إذ لم يكن قد مر على قيام الثورة ستة شهور حين ألغيت ، ولكن الوعي بأحوال البلاد وتاريخها ومشاكلها ، ومصدر هذه المشاكل جعل قيادة الثورة تسارع لاتخاذ القرار الشجاع ، لأنها رأت أن ترك الأمور لفتاوي الإقطاعيين ومواقفهم سوف يعيق البرامج القادمة للثورة ويحبطها .

وعن هذا يقول عبد الناصر :

" الديمقراطية عملة واحدة ذات وجهين : سياسي واجتماعي .. وبغير الوجهين تصبح عملة زائفة لا سعر لها ولا قوة " (٢٦) .

وعليه ، كان ناصر يرى أنه لا يمكن الفصل بين الثورة الاجتماعية والثورة السياسية ، فالقضاء على الاحتكار والإقطاع والطبقية وسيطرة رأس المال كان من أول أهداف الثورة " التي استطاعت إسقاط النظام الرأسمالي الديكتاتوري ، ولكنها لم تستبدله بديكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، بل بتفاعل سياسي واجتماعي بين تحالف قوى الشعب العامل "(٢٧) ، لتكون المفارقة الأجمل أن ناصر قد **أغضب الرأسماليين والشيوعيين معاً !**

وقد ورد في **الميثاق** :

" ولقد كانت القوة الاقتصادية في مصر قبل الثورة في يد تحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل ، وكان محتماً أن تكون الأشكال السياسية بما فيها الأحزاب تعبيراً عن هذه القوة ، وواجهة ظاهرة لهذا التحالف بين الإقطاع وبين رأس المال المستغل .

إنه مما يلفت النظر أن **بعض الأحزاب** في تلك الظروف لم تتورع عن أن ترفع - من غير مواربة - شعار " **أن الحكم يجب أن يكون لأصحاب المصالح الحقيقية** " (٢٨) .

وبناء على موقف الأحزاب الواضح من الشعب ، والمعادي له ، كان موقف الثورة من الأحزاب والحزبية ، فورد في الميثاق أيضاً ما يزيد موقف الطرفين وضوحاً :

" ولما كان الاقطاع ورأس المال المستغل هما أصحاب المصالح الحقيقية في البلاد وقتها ، فلقد كان هذا الشعار أكثر من اعتراف ضمني بالمهزلة التي فرضتها القوى المسيطرة على الشعب المصري باسم الديمقراطية " (٢٩) .

وكان ثوار يوليو قد عرضوا تطبيق الإصلاح الزراعي على قيادات الأحزاب أمثال **مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين** ، كما طلب مجلس قيادة الثورة من **علي ماهر** - رئيس الوزراء الذي عينته الثورة- الشروع في تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، فقال عنه أنه ضد الدستور ، وفضل عليه مبدأ الضرائب التصاعدية ، ولما عرض على فؤاد سراج الدين أن يؤلف الوفد الحكومة ، فضل هو الآخر مبدأ الضرائب التصاعدية ، وقد أدت هذه المواقف إلى عدم التعاون مع علي ماهر ، وكلف محمد نجيب بتأليف الوزارة (٣٠) .

ولا نستبعد أن إطلاق النار على عبد الناصر في الاسكندرية في ٢٦ تشرين أول ١٩٥٤ قد ساهم في تكوين موقفه هذا من الأحزاب - مع أنه لم يصرح بذلك- فما الذي بقي لدى خصومه ما يمكن ممارسته ضده أكثر من إطلاق النار عليه ! ولا ننفي أن يكون قد تكوّن لباقي قادة الثورة الموقف ذاته ، وللسبب نفسه .

وهذا بدوره قد أدى إلى عدم الثقة عند الطرفين ، فكان مستبعداً ما يقترحه الدكتور أحمد بيضون أن لو أبقت الثورة على حزب الوفد ليكون مرجعية ثورة ١٩ الوطنية ، ولو أبقت على الإخوان المسلمين ليبقى لديها مرجعية دينية تواجه المرجعية الوطنية التي تمثلها الثورة ، أو لو أبقت على الحزب الشيوعي ليظل لديها مرجعية اشتراكية (٣١)، فسلوك هذه الأحزاب تجاه الثورة لم يعط الثورة أي مجال للثقة في التعاون معها .

ونستطيع أن نضيف للأسباب السابقة التي كانت وراء موقف الثورة من الأحزاب ما يلي :

١- وجود أنصار ومؤيدين للعهد السابق من قيادات الأحزاب خسروا الكثير بمجيء الاشتراكية ، لذا من مصلحتهم الأولى عودة الملكية ، وقد كانت هناك محاولات لتحقيق ذلك ، وقد علم بها الملك فاروق في منفاه .

٢- رغبة الدول الاستعمارية في بقاء النظام السابق ، وهذا ما تراه الأحزاب وتحبذه .

٣- قيام الثورات المتتالية ضد الحكومات في الدول العربية مثل العراق وسوريا ولبنان واليمن ، وهذا أضفى الكثير من الحذر على سياسة ثورة يوليو .

أما عن موقف الثورة الواضح من **الطبقية** فيقول الميثاق :

" إن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق في ظل سيطرة طبقة من الطبقات ، إن الديمقراطية حتى بمعناها الحرفي هي سلطة الشعب .. سلطة مجموع الشعب وسيادته .

والصراع الحتمي والطبقي بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره ، وإنما ينبغي أن يكون حله سلمياً في إطار الوحدة الوطنية ، وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات " (٣٢) .

إذن فالهم الأكبر كان لدى ثوار يوليو هو إزالة الطبقية ، ومحاربة الفقر ، وبلوغ الشعب منزلة السلطة والسيادة ، وحتى يتحقق هذا يتوقع قادة الثورة قيام الصراع بين الطبقات ، فلا بد من حل سلمي لتذويب الطبقية ، وإقامة الوحدة .

فقادة الثورة يعلمون كل العلم - لأنهم عايشوا العهد الملكي الفاسد - أن الطبقية في العهد البائد وليس الحزبية هي التي كانت ترسم النمط السياسي القائم وتؤسس له ، كون الحزبية موالية للطبقية وخادمة لها ، وهي التي أبقت على النظام السابق برضاها عنه ، وتأييدها له ، لأنه رعى مصالح الطبقة البرجوازية ، ولبى مطالبها ورغباتها .

وكما قال **سلامة موسى** :

" ولو أن الوفد كان قد ثبت على المكافحة لاستبداد فؤاد وفاروق لما كنا بحاجة إلى ثورة الجيش في ١٩٥٢" (٣٣) .

... ونضيف أنه لو كافحت الأحزاب الأخرى أيضاً النظام القائم لما كنا بحاجة إلى ثورة يوليو .

ونضطر هنا لتكرار ما أوردناه في أسباب الثورة عن ضعف الأحزاب ، ومن ذلك رأي الأستاذ **رجاء النقاش** الذي يقول :

" إن الأحزاب المصرية الرسمية قبل ثورة ١٩٥٢ تعتبر من أفقر أحزاب العالم في فكرها السياسي .. فما تتضمنه خطب قادتها وبياناتهم تأييد لموقف أو معارضة لآخر ، أي أن الأحزاب كانت تحدد سياستها من خلال مواقفها العملية ، لا من خلال منهج فكري محدد واضح ، حيث أن هذه الأحزاب لم تعن بالفكر السياسي عناية كافية " (٣٤) .

فإذا جردنا أي حزب في العالم من مضامينه الفكرية والسياسية التي يحملها رجاله وقادته عبر السنين ، فماذا يبقى لنا منه ؟ طبعاً ستبقى الخطب الرنانة ، والدعاية الانتخابية ، والأسماء المرشحة لمجلس النواب ، وقوائم الناخبين للانتخابات القادمة !

وبعد الثورة بعام واحد ، يصرح **عبد الناصر** لصحيفة الأهرام قائلاً :

" إن أصلح نظام حزبي يجب أن يقوم في مصر الحديثة هو النظام الذي يقوم على أسس ديمقراطية صحيحة ، ويكون هدفه خدمة المصلحة العامة وحدها ، وليس السعي وراء المغانم أو تحقيق المصالح الشخصية ، إن الماضي لن يعود ثانية ، هذا الماضي كان استبداداً سياسياً ، وظلماً اجتماعياً ، ومتاجرة في الوطنية ، وسعياً وراء الجاه والسلطان " (٣٥) .

وما قاله ناصر هنا هو خلاصة الأوضاع السياسية السائدة آنذاك .

وفي حديث آخر أوضح لناصر :

" أنه لا يؤمن بالحزب الواحد ، لأن الحزب الواحد معناه أن تحتكر فئة قليلة العمل السياسي ، خمسة في المئة من الشعب ، عشرة في المئة ، وباقي الشعب لا يشترك في هذا العمل السياسي ولكن عليه أن يكون تابعاً ، معنى هذا استبعاد الغالبية الكبرى من أبناء الشعب " (٣٦) .

وقد كان قادة الثورة يعتقدون أنهم بإلغائهم الحزبية ، قد ردوا السلطة للشعب ، لذا فلا قمع لأحد ، ولا حجب للحريات ، بل هم ردوا السلطة للشعب الذي حرمته الأحزاب من ممارستها ، وعليه " فمن يطالب عبد الناصر اليوم بالديمقراطية ، أو يؤاخذه على إسقاطه إياها من جدول أعمال الثورة ، عليه أن يؤاخذ لينين وماوتسي تونغ وكاسترو وتيتو على ذلك أيضاً ، وفي ظني أنها أشبه ما تكون بمؤاخذة روزفلت أو تشرشل أو ديغول على عدم تطبيق الاشتراكية في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا " (٣٧) .

وقد حدد ناصر أسس العمل الديمقراطي في :

١-" جماعية القيادة ، فهي ليست عاصماً من جموح الفرد فحسب ، وإنما هي تأكيد الديمقراطية على أعلى المستويات .

٢- حرية الكلمة ، أي حرية الفكر ، فكما يقول الميثاق : إن حرية الكلمة هي المقدمة الأولى للديمقراطية .

٣- ممارسة النقد والنقد الذاتي ، فلا يقوم تفاعل الأفكار إلا بممارسة كل فرد حقه في نقد باقي الآراء "(٣٨) .

والسؤال هنا : ما مدى نجاح نظام الثورة في تطبيق تلك البنود الثلاثة لنرى ديمقراطية عربية سليمة ؟

وفي محاولة الثورة لبناء شكل بديل عن الاحزاب ، " كان تشكيل **الاتحاد القومي ، ثم الاتحاد الاشتراكي، واللجنة التنفيذية العليا ، والتنظيم الطليعي** ، وغيرها من التنظيمات السياسية التي قصد بها عبد الناصر أن يصبح **"تحالف قوى الشعب العاملة"** بديلاً عن التحزب ، وكانت المناقشات الحادة في مثل هذه التنظيمات ، والقدرة على نقد السلبيات ، وخاصة بعد النكسة ، دليلاً على نجاح جزئي في هذا الصدد ، ولعل ما حدث عام ١٩٦٥ عندما حل الحزب الشيوعي المصري (وكان حزباً سرياً محظوراً) نفسه بنفسه ، وانضم أعضاؤه للاتحاد الاشتراكي ، يعد أيضاً دليلاً على ذلك " (٣٩) .

" وهناك من الروايات التي تقول أن التنظيم الطليعي السري الذي أقامه عبد الناصر ، كان **نواة لحزب يؤسسه عبد الناصر** في المرحلة التي تلي "إزالة آثار العدوان" ، عند السماح بعودة التعددية الحزبية، **ويحدد سامي شرف التاريخ المخطط لذلك بعام ١٩٧٥** ، ولكن القدر لم يمهل عبد الناصر ليرى ذلك اليوم " (٤٠) .

ولا ننس أن ثوار يوليو وزعيمهم الراحل قد شغلوا بمشاغل كبيرة قد تكون من الأسباب التي أخرت إعلان السماح بقيام الأحزاب ، فقد كانت هناك أزمة ١٩٥٤ ، ثم الاحتلال البريطاني عام ١٩٥٦، ثم كانت حرب السويس عام ١٩٥٦، ثم مشروع الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، ثم الانفصال عام ١٩٦١ ، وحرب ١٩٦٧، وإزالة آثار العدوان ، وأعادة بناء القوات المسلحة وحرب الاستنزاف ٦٧-١٩٧٠ ، ورافق كل تلك السنين متاعب جمة من أعمال وبرامج التطور الصناعي والاقتصادي والتعليمي .

وعن مسألة الديمقراطية في عهد ناصر وبعده ، يقول الكاتب الأردني **محمد خروب** :

" .. هاتوا ما عندكم ، فليس في عهد عبد الناصر غير القمع والديكتاتورية ، وزوار الفجر ، وحظر العمل الحزبي ، وعدم الإيمان بالتعددية .

لن نناقشكم في كل ذلك ، ليس من موقع العجز أو الاستسلام ، بل من باب الاعتراف بتواضع إنجازات عبد الناصر إذا ما تفوقت "إنجازاتكم" بعد ٣٨ عاماً على رحيل قائد الثورة ، على ما استطاع خلال ١٨ عاماً أن يحقق ميدانياً وبالأرقام لصالح العمال والفلاحين ، وفي حقول التعليم والتصنيع ، والخدمات ، وبناء الجيش ، رغم الحصار والمؤامرات والعدوان الثلاثي ، وإرهاب الجماعات المتطرفة التي أرادت اغتياله ، بعد أن فشلت في استيعابه ، وسرقة ثورته .

أين من هنا ... بعد أن غدت التعددية مجرد طقس فولكلوري ، وبعد أن غدا قانون الطوارىء جزءاً من المشهد منذ سبعة وعشرين عاماً ، وبعد أن لم يعد التعليم الجامعي سوى لأبناء الأغنياء ، وانهار التعليم المدرسي ، وسحقت الطبقة العاملة ، ولم يعد يتقدم المشهد غير الليبراليين الجدد ، الذين يروجون للخصخصة ، وينظرون لأفكار اقتصاد السوق ، وشعارات منظمة التجارة العالمية ، وقدرتها على انتشال البلاد المأزومة والمهزومة ، والمثقلة بالديون ، من وهدة الفقر والجوع والبطالة والفساد ، وهي في واقع الحال لا تعدو كونها من أبرز تجلياتها .

- أين كنا وأين أنتم الآن ؟

... إسألوا أنفسكم "(٤١) .

موقف خلفاء ناصر

من الأحزاب

وحتى بعد وفاة عبد الناصر لا نجد أنور السادات ومن حوله مؤيدين لقيام الأحزاب ، فقد جاء في " قانون الوحدة الوطنية رقم ٣٤ لعام ١٩٧٢ : الاتحاد الاشتراكي العربي هو التنظيم السياسي الوحيد المعبر عن تحالف قوى الشعب العاملة ، وهو يكفل أوسع مدى للمناقشة الحرة داخل تشكيلاته ،والتنظيمات الجماهيرية المرتبطة به ، ولا يجوز إنشاء تنظيمات سياسية خارج الاتحاد الاشتراكي العربي "(٤٢) .

وقد صرح السادات في ١٥ أيار ١٩٧٤ قائلاً :

" لقد ارتضى الشعب نظام تحالف قوى الشعب العامل إطاراً لحياته السياسية ، وإننا في معركة البناء والتقدم لأحوج ما نكون لهذا التجمع ، ومن ثم فإني **أرفض الدعوة إلى تفتيت الوحدة الوطنية بشكل مصطنع عن طريق تكوين الأحزاب** "(٤٣) .

وفي ٣ شباط ١٩٧٧ ، يصدر القانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧ ، " الذي رفع العقوبة على إنشاء الأحزاب أو الجمعيات السياسية أو الجماعات ، او الدعوة لها او تحبيذها أو تشجيعها إلى الأشغال الشاقة المؤبدة "(٤٤) .

ومع هذا كله يبقى موضوع " الديمقراطية وثورة يوليو " مجالاً واسعاً لسعي الباحثين ، ودراسات الدارسين ، فالمكتبة العربية ما زالت تصدر عن ثورة يوليوالعمل تلو العمل ، عن أحداثها وتفاصيلها ، ومنهجها ومسارها ، وأعلامها وأعمالها ، وإنجازاتها وإخفاقاتها ، وهذا هو شأن كل عمل عظيم ، وشأن كل زعيم عظيم ، يظل الشغل الشاغل للأجيال اللاحقة .

الفصل الثاني

ناصر في ميزان التاريخ
العظمة تقاس بإنجازاتها

" ملء السمع ، ملء القلب ، ملءالبصر ، لـو حاول بكل جهده ألا يكون رجـلاً عظيمـاً ما استطاع ، وهيهات لإمرىء أن يملك فـي نفسـه مـا شاء لها الله"
(حسيـن النجـار ، سعـد زغلـول الزعامـة والزعيـم ، ص ٥٣)

حديث في الكاريزما

لا غرابـة أن نجد معظـم مـا وضـعه أفلاطـون مـن صـفات القائـد متوفراً فـي عبد الناصر ، وهذا ما لايستغربه دارسوه ، وما عرفوه من الصفات في القادة الآخرين ، فمن ذلك :

١- قوة ملاحظة الأعداء   ٢- الشجاعة .
٣- إظهار الوداعة مع مواطنيه والشراسة مع أعدائه .
٤- رباطة الجأش .   ٥- أن يكون من محبي المعرفة والعلم .
٦- شمولية الرؤية .   ٧- التقشف .
٨- ضرب المثل الشخصي (١) .

وفي الصفحات التالية شرح وتفسير...

ويذكر الوزير اللبناني السابق عصام نعمان بعض العوامل التـي أثرت فـي هذه الكاريزما ، مثل :

١- مزايا ناصر الشخصية .(ولا يذكرها الأستاذ نعمان ، ولكننا سنأتي على ذكرها بالتفصيل)
٢- العامل الجغرافي ، كون ناصر كان زعيماً لأكبر دولة عربية من حيث الأثر السياسي .
٣- تصديه للغرب الاستعماري .
٤- اللغة الجديدة التي خاطب بها ناصر العرب شكلاً ومضموناً .

٥- العامل الأهم : أنه كان رجل تواصل من الطراز الأول ، سواء مع الناس أو مع أهل القرار ، وقد استغل بصورة ممتازة انتشار المذياع آنذاك للوصول إلى أكبر عدد ممكن في المنطقة العربية ، حتى أن مجلة تايم الأميركية كتبت في حينه : كل جهاز ترانزيستور هو عميل لعبد الناصر (٢) .

ويهمل الأستاذ نعمان عاملين آخرين كان لهما أثر غير قليل في تكوين كاريزما ناصر ، وهما :

١- عظمة الإنجاز : فقد كان لأعمال عبد الناصر وإنجازاته الكبيرة أثر كبير في شهرته وشعبيته ، وهذا سيقود إلى تأثير مؤكد في شخصيته وأدائه ، ولو فرضنا ان ناصر لم ينجز شيئاً لمصر وللأمة العربية ، فهل كان ممكناً أن يكون بهذه الكاريزما ؟

٢- عامل خارجي : وهو وقوف السوفييت مع مصر ، ومساندتهم لها في السلم والحرب ، وهذا ساهم في تعزيز شخصية ناصر وتعاظمها ، لأن إقدامه على الأعمال الكبرى ما كان ليتم بدون الدعم السوفييتي ، ومن ذلك بناء السد العالي ، وتسليح الجيش المصري .

في تعريف القيادة ..

وعرف السادة مؤلفو **موسوعة السياسة** القيادة بشكل جامع شاف ، بقولهم :

" صفة تدل على أهلية وموهبة لتسيير عمل جماعي ، واستقطاب مجموعة من الناس في سبيل السير نحو تحقيق غاية مشتركة ، ويتحقق الاستقطاب عادة من خلال الثقة ، والاقتناع العملي أو النظري بشخصية القائد ، او أشخاص القيادة وغاياتهم ، والاعجاب بسيرتهم وسلوكهم وقدرتهم على إنجاز المهام ، والاستجابة للتحديات المطروحة ، ولا بد من توافر التعاطف والاتصال بين القيادة وأتباعها .

وهناك أنواع متعددة من القيادة في ميادين الحياة المختلفة ، وقد يصل القائد السياسي إلى موقعه عن طريق الانتخاب أو الوراثة ، أو البروز في ميادين النضال والفكر والوعي والدأب والشجاعة " (٣) .

ولا نجد صعوبة في مدى انطباق ذلك على شخصية عبد الناصر ..

فقد كان ذا أهلية كبيرة ، وقدرة نادرة ، وموهبة فطرية قامت بتسيير الكثير من الأعمال داخلياً وخارجياً ، فحقق الكثير من الغايات المشتركة ، وشهد له بذلك العدو والصديق .

وحظي بإعجاب المصريين والعرب ، والكثير من الساسة والنقاد والكتاب والصحفيين ، وإلا لما وجدنا هذا الكم الهائل من الكتب التي ألفت عنه .

وقد كان بارزاً في فكره ووعيه ، ودأبه وشجاعته ...

أما ميادين النضال والكفاح ، فقد أمضى ناصر حياته مناضلاً مكافحاً عن بلده مصر ، وأمته العربية ، وقضى نحبه وهو يحل مشاكلها ، ويؤلف قلوبها .

من أخلاقه وطباعه

إضافة إلى ما أوردناه عن ناصر في بداياته ،لا جناح علينا لو ألممنا بشيء من طباعه وأخلاقه التي لم يغيرها منصب ، ولم تعبث بها وجاهة أو رئاسة ..

يكره حياة القصور

تقول الكاتبة باولين فردريك عن بقائه في منزله في منشية البكري - بعد الثورة- مفضلاً العيش فيه على حياة القصور :

" لدى عبد الناصر مفهومه الخاص لحياة الأسرة ، لا تستقيم معه الحياة في القصور الملكية ، فهو يقول :

في القصور سوف يعيش كل منا في شقته الخاصة ، وسنكون أسرة مفككة ، أما هنا في منزلنا فإننا نعيش معاً " ثم يستعيد الذكريات ضاحكاً ، ويقول :

" انتقلنا مرة بصفة مؤقتة إلى قصر الطاهرة لمدة أسابيع قليلة ، كانوا يصلحون ويوسعون منزلنا في منشية البكري ، وبدأ أطفالي يلعبون في بهو وممرات القصر ، وبدأوا يكسرون الأواني الثمينة ، والتحف الفنية ، وأنا علي أن أدفع ثمن كل شيء يكسرونه ، إنني لا أستطيع القيام بأعباء حياة في قصر "(٤) .

لا ترف في حياته

ولا يزعم أحد من الذين كتبوا سيرته أنه قد وجد أي سبب من أسباب الترف في حياة ناصر، أو في حياة أسرته .

كان ناصر يعمل ٦ إلى ٢٠ ساعة في اليوم ..

فقد كان يتناول إفطاره وحده ، والمكون من الشاي والجبن واللبن والفول ، ثم يتوجه إلى مكتبه الواقع في الجهة الأخرى من المنزل ، بينما تتناول زوجته الإفطار مع أطفاله ، وتقوم بنفسها بتعليمهم العربية والإنجليزية والفرنسية ، ولا تلتقي الأسرة إلا ساعة الغداء ، ثم يقرأ أوراق المساء قبل أن يعود للعمل مدة ٨ ساعات ، إلا إذا كان هناك اجتماع رسمي ، بينما تتناول أسرته العشاء الساعة الثامنة مساء (٥) .

ولعل كثافة العمل هي التي كانت تدفعه لاحتساء ٢٠ فنجاناً من القهوة يومياً ، كما كان يدخن ثلاث علب سجائر في اليوم قبل أن يمنعه الأطباء من التدخين .

وفي الفقرة التالية ما يخبرنا بعدة أمور عن طباع ناصر، وبالذات "كرامة النفس"..

" ومنذ نشأته الأولى كان جمال عبد الناصر كريم النفس ليس فقط لأنه كان كما يقول عنه جاره وصديق طفولته عبد الحميد شاهين الموظف بهندسة سكة حديد قرية الخطاطبة " يرفض أن يشترك معنا في سرقة البطيخ من الحقول ، ويرفض أيضاً أن يتناول منه شيئاً ، بل يخاصمنا لذلك "... وإنما لأنه وقف ضد الاستغلال دائماً ، كما يقول شاهين أيضاً " فقد فتح عينيه على فرنسي يهودي اسمه دوبيه ، كان يملك القرية التي نعيش فيها ، والبيت الذي نسكنه ، ويسكنه والد الرئيس ، ويقع مكتب البريد - الذي يديره الوالد عبد الناصر حسين - في حجرة أرضية من البيت ، وكان اليهودي الفرنسي يرفع قيمة الإيجار كل عام ، كان ذلك يثير عبد الناصر ، مثلما أثاره منظر الجنود الإنجليز وهو في السابعة من عمره "فقد كان يصحبني إلى قرية الخطاطبة ، ويظل واقفاً في دهشة وحيرة أمام المعسكر البريطاني الذي أقامه الاستعمار في قريتنا ، يشاهد تحركات قواته حين يطردنا الجنود الانجليز.. كان قلبه ممتلئاً بأسئلة صغيرة تلح عليه وتطارده وكأنها عبء ثقيل يرزح تحت ثقله ، وكان يسأل عن المعسكرات الإنجليزية في قريتنا ، وعن المفتشين الإنجليز الذين ينقضون كالقراصنة على مكتب البريد الذي يديره أبوه ، ثم ينصرفون وهم يبصقون في اشمئزاز من القرية ورائحتها " (٦) .

وهذا حديث يؤكد عن ناصر كرم نفسه ، وابتعاده وأنفته مما يمارسه رفاقه ، كما يدل على وعيه المبكر لأوضاع وطنه الرازح تحت نير الاحتلال ، ولعل وقوفه امام المعسكر الإنجليزي يدلنا على تأمل عميق كان يمارسه ، وأسئلة كبيرة وكثيرة كانت تملأ صدره ، ولعل أحدها كان : حتى متى سيظل هؤلاء الإنجليز يستعمرون بلادنا ؟ ومتى سيأتي القائد الذي سيقود مصر لطردهم منها ؟

******

مفاتيح شخصيته

وقد سبقني وزير حربيته الأستاذ أمين هويدي في تحديد مفاتيح شخصيته ، فكانت صحيحة ، ولا غرابة أن أتفق معه في معظم ما طرح ، فكلانا درس القائد العظيم ، ومسيرته الشاقة ، فأدرك مواهبه ، ودروبه وغاياته ، ومساره وأهدافه ، فلم يكن غريباً - بعد ذلك الجهد- أن ألتقي معه في تحديد تلك المفاتيح ...

يقول أمين هويدي :

" كان عبد الناصر "مصرياً" لحماً ودماً ، او كما نقول "أباً عن جد" ، وبذلك فإنه كان **متعصباً لمصريته** إلى أقصى حدود التعصب ، فنجده - حتى بعد أن وصل قمة السلطة - لا يميل إلا إلى اللبس المصري ، والأكلة المصرية ، والعادات المصرية ، فلم يحاول أبداً أن يتشبه بالأجانب في شيء ... سعادته الغامرة حينما حلت السلعة المصرية محل السلع الأجنبية التي كانت تملأ الشوارع والمحلات ، صراحته المتناهية في التعامل ، فالأبيض أبيض ، والأسود أسود ، في حين أن كثيراً من المواقف تتطلب أن يكون اللون "بين بين " .. ندرة سفره إلى الخارج ، فلم يكن يستريح إلا في بيته "(٧) .

ولا أظن أن ناصر كان يميل لمصر بسبب عنصريته ، فقد جاءت الثورة ضد المستعمرين والبلاد تعج بكل ما هو أجنبي غربي ، فلم يكن في الأسواق بضائع ومنتوجات سورية أو مغربية أو جزائرية ، لذا يغتبط كثيراً حين يرى السلع المصرية تملأ الأسواق ، لأن ذلك يدل على الاستعمار الاقتصادي لمصر قد ولى بعد أن رزحت مصر تحته عشرات السنين ، وأستبعد أن يرفض ناصر حلول البضائع العربية مكان الأجنبية لو غابت البضائع المصرية .

ويواصل أمين هويدي الحديث عن مفاتيح شخصية ناصر ، فيقول :

" وكان "عبد الناصر" **يعتز بعروبته** .. كان من أكثر زملائه قناعة بالعروبة ، وأن مصر ما هي إلا جزء من الوطن العربي الكبير ، فوقف وحده يحارب معركة حلف بغداد ، ليخرج المشرق العربي من مناطق النفوذ ، وألقى بثقله خلف ثورة الجزائر حتى وقعت اتفاقية "إيفيان" ، ووقف إلى جانب الملك محمد الخامس وهو في المنفى حتى عاد ثانية يتربع على عرش المغرب المستقل ، ووافق على إلغاء الحكم الثنائي في السودان حتى يتيسر له حق تقرير المصير ، ثم ألقى بثقله خلف ثورة اليمن حتى يتخلص من "الإمامة " الفاسدة ، ثم وقف خلف ثورة عدن حتى حصلت على استقلالها ، ثم اهم من كل ذلك حقق الوحدة العربية مجسمة في "الجمهورية العربية المتحدة " (٨) .

عصاميته وقيادته ..

القيادة تضحية وفداء ..

والقيادة وطنية وانتماء وولاء ..

وقبل كل شيء هي صدق مع النفس ، ثم صدق مع مَن تصديت لقيادتهم وخدمتهم ..

والقيادة موهبة أيضاً ..

لذا .. لا يصلح كل الناس للقيادة ، لأن بعض الناس- وليس كلهم - يمتلكون كل ما سبق ، أو معظمه .

لنتأمل قول خالد محي الدين - الذي ذكرناه آنفاً - عن ناصر في جلسة التنظيم الأولى عام ١٩٤٩ :

" .. وفي الجلسة الأولى ، ومنذ أن احتوتنا غرفة الصالون في بيت عبد الناصر بكوبري القبة ، تولى جمال القيادة دون عناء ودون قرار منه أو منا .." (٩) .

ولقد كانت مهمة عبد الناصر في غاية الصعوبة ، وهو الذي قرر معظم هذه الصعوبة ، وجاءت الظروف بالباقي ..

فهو الذي قرر أن يكون عربياً ، فأتى لنفسه بمعظم المشاق ، والمهام الجسام ، ولو أراد ان يظل مصرياً لهانت مهمته ، وصغرت غاياته ، وسهلت تجربته .

أما باقي الصعوبة والمشقة فقد جاءت بها ظروف المنطقة ، فالعدو الإسرائيلي أمامه ، يحصي على الأمة أنفاسها ، ووراءه أعداء كثر حشدوا قواهم ضد كل وطني صادق أمين ، يريد الاستقلال لأمته العربية ، والقوة والمنعة ، والخير والسمو، ويحول دون عودة المنطقة للخضوع من جديد للغرب الاستعماري ، أو التبعية له .

وفي دراستيه المتميزتين عن عبد الناصر ، لا يضع المفكر **مطاع صفدي** مفتاحاً لشخصية ناصر ، ولكنه يحللها بطرق عدة ، ومن أوجه مختلفة ، توصلنا جميعها إلى ما نريده من **تفرد ناصر بصفات القيادة والزعامة** ، وإن كنا نختلف مع الأستاذ مطاع في الطريقة التي يصل بها إلى ما نريد .

يقول الأستاذ مطاع في كتابه "**التجربة الناصرية والنظرية الثالثة**" عن عبد الناصر:

" ..إنه بينما كانت ظروف الانقلاب التي نشأ منها وعليها ، تفرض عليه ألا تكون له شخصية إلا شخصية الانقلابي المعروفة ، فإنه تعهد نفسه بالطريقة التي جعلته يصبح خلال سنوات قليلة ، وبفضل بعض مواقف سياسية بارعة ، يصبح زعيماً عربياً ، وشخصية عالمية "

أي أن الأستاذ مطاع هنا يحاول تجنب الصفات القيادية لدى ناصر ، فيعزو ما كان منه إلى الظروف والمواقف البارعة التي اهتبلها...!

ثم يواصل : " إن هذا **العصامية** لم يتوقف أثرها على تنشئة الزعامة الناصرية بمثل هذا الأسلوب التجريبي فحسب ، ولكنها امتدت في تأثيرها إلى مجال التجربة الناصرية ككل ، فجعلتها تجربة ثورة من خلال شخص ، وحكمت على الناصرية أن

تظل انتماء للشخص ، في مختلف مواقعها ، ومحاولتها الدائبة للتحول من ثورة شخص إلى ثورة أمة ، كانت عصامية عبد الناصر الزعامية تجعله ثائراً بالنيابة عن كل الثورات والأحزاب والفئات الثورية في دولة مصر ، وفي الوطن العربي .

وهذه العصامية (الكاملة) **هي معجزة عبد الناصر** ، التي أكسبته تلك الجماهيرية المطلقة لدى مختلف شعوب الأمة العربية ، كما أكسبته السمعة الدولية باعتباره أحد الرواد الكبار لثورية العالم الثالث .

وهو عندما استطاع أن يكتسب هذه الجماهيرية ، كان ينطلق إلى تطويق الآخرين ، وانتزاع زمام المبادرة من أيديهم ، فاضطر القادة والزعماء الحزبيون ، إلى أن يبرروا تقبلهم لدى جماهيرهم بمقدار تقبل زعيم الجماهير لهم .

هكذا أضحى عبد الناصر الذي انتصر على ظروف انقلابيته وعصاميته الأولى ، الرجل الذي هو المقياس ، إنه المعيار الحي للحقيقة والبطولة في عين الجماهير العربية ، هذا المعيار الذي فقدته الجماهير العربية منذ أيام الأنبياء الأولين ، حاولت أن تجده وأن تخلقه في شخصية عبد الناصر " (١٠) .

أتفق مع الأستاذ مطاع صفدي في ما ذهب إليه من عصامية ناصر الفريدة ، وثقته بنفسه ، وهما ما أوصلاه لما وصل إليه ، مما جعل الجماهير والزعماء ينظرون إليه بوصفه المشير عليهم في كل معضلة ، والزعيم الذي يعودون إليه - بكل حب وود واعتراف- إذا ما ألمت بهم مشكلة ، أو عانوا عسرة ، ولكني أختلف معه في قوله :" **وهو عندما استطاع أن يكتسب هذه الجماهيرية ، كان ينطلق إلى تطويق الآخرين ، وانتزاع زمام المبادرة من أيديهم** " ، إذ لم يقل أحد من المؤرخين هذا الكلام عن ناصر ، بل ما قيل هو العكس تماماً ، فقد كان عبد الناصر الملاذ الوحيد الذي نهرع إليه لفض نزاعاتنا ، وحل خلافاتنا ونزاعاتنا ، ولا أظن الأستاذ مطاع ينكر آخر تلك القضايا التي مات ناصر وهو يعاني حلها وهو في غاية المرض ..

وقد عبر الرئيس السوري السابق حافظ الأسد عن ذلك بكل أريحية وصراحة ، يقول هيكل :

" في أحد الأيام قال لي **حافظ الأسد** أمراً كنت أعرفه ، وهو أكده لي ، قال:

" والله عندما جاءني خبر وفاة عبد الناصر ، قلت : يا إخوان نحن في مأزق ، لأنه كان هناك رجل في ذلك الجزء من العالم العربي ، ننتظر منه ماذا سيفعل .. فكنا نلقي عليه كل شيء "(١١) .

وهذا زعيم دولة عربية مواجهة ، يقر ويعترف لعبد الناصر بهذه الصفة النبيلة ... **"تحمل المسئولية"** ، فهو لا يقول أن ناصر كان يهتبل أي خلاف ، وينتهز أي تشاحن أو

قتال ، ليشكل من نفسه قائداً مزيفاً يدعي الحكمة ، فيلقي المواعظ على الآخرين ، ويدعي الحلول السحرية ، ليحظى في النهاية بالزعامة والمشيخة ..

وكل ما حدث في تاريخ العرب خلال فترة حكم ناصر يثبت صحة ما ذهب إليه حافظ الأسد ، ولا نجد فيه ما يثبت عكسه .

وفي كتابه الآخر "ناصر الناصرية والثورة العربية " يقول مطاع صفدي ما أجده قريباً من حديثه الأول ، حين يقول :

" فما الذي يجعل عبد الناصر فلاحاً صعيدياً ، وعاملاً صناعياً ، وعسكرياً واقتصادياً ، ومتديناً واشتراكياً ، وعربياً وآسيوياً وعالمياً !

ليس هو التواقت ، ولا الارتباط بين هذه الدوائر ، ولكنه نوع من الممارسة التاريخية التي ربطت بين الظروف وبين القدرة الشخصية على استقطابها في مواقف محددة العنوان والمضمون ، كانت هي المواقف التي لا يستطيع أن يستقطبها إلا هذا النوع من الزعامة ، داخل الأسطورة وخارجها .

لقد قال جمال عبد الناصر وهو مازال متطلعاً إلى مستقبل مرحلته ، "هنالك دور يبحث عن بطل"، ذلك أن الدور هو من صنع التاريخ ، وأما البطل فهو من صنع نفسه ، ومتى تلاقى الدور وصاحبه حدثت المعجزة "العلمية" "(١٢) .

فلو كان ناصر ذا خبرة سابقة في الحكم ، أو كان ابن ملك سابق ، لقلنا أنه متمرس في تفاصيل الحكم وظروفه ، فهو يدري كيف يستغل الظروف ، ويوظفها لنفسه ، ولكن ناصر بعيد عن كل ذلك ، فالشخصية القيادية الوطنية هي تفسير كل ما كان منه .

وفي بحثه **"التجربة الناصرية"** يشيد الكاتب **مطاع صفدي** بزعامة ناصر ، وقدراته القيادية ، فبعد حديثه عن مطالعاته الواسعة ، الشاملة لمختلف الدراسات حول القومية العربية ،وإلمامه بمختلف المتون الماركسية واللينينية ، يقول مطاع تحت عنوان **"نمو شخصية الزعامة "** :

" إنها **الشخصية الزعامية** ، التي نمت وترعرعت فكرياً وذاتياً ، من خلال الممارسة القيادية نفسها، فلقد كانت لدى عبد الناصر إرادة واضحة في تخطي الانقلاب الذي شارك في إعداده ، إلى الثورة التي حلم بها دائماً ، وهو تلميذ ، وهو طالب عسكري ، وهو ضابط في جيش الملك ، ومحارب في جبهة فلسطين ، وكذلك كانت الإرادة المتفتحة على نحو تجاوز المنصب الرسمي كرئيس لدولة ، الذي منحه إياه الانقلاب ، إلى مركز القيادة الثورية ، ليس للشعب المصري وحده ، ولكن للأمة العربية ، وليس

للعرب وحدهم ، ولكن طموح قيادته كان يبلغ حد تأسيس مذهب ثوري ، عملي ، وليس نظري ، للعالم الثالث "(١٣) .

ومع تحفظنا على نعت الأستاذ مطاع ثورة يوليو بأنها انقلاب ، نتمنى أن لا يكون قد قصد ب "طموح قيادته" طموحاً شخصياً ، لا وطنياً ، كان يملأ نفس ناصر، وهو ما يختلف معه فيه مئات الكتاب الذين أرخوا وكتبوا عن ثورة يوليو، وزعيمها الراحل .

ويقول الدكتور مجدي حماد :

" **يتبقى معيار القيادة** .. وتتبقى كلمة عن جمال عبد الناصر .

إن الرجل قائد تاريخي.. وعلى وجه اليقين فدوره - حتى هذه اللحظة - أضخم دور عربي في القرن العشرين ، ونعتقد ان أستاذنا ساطع الحصري كان موفقاً كل التوفيق في وصفه لجمال عبد الناصر "بأنه رجل اتسعت همته لآمال أمته" ! ، وهو وصف بالغ الدقة ، ويستحق الكثير من التأمل ، فالأهمية التاريخية لجمال عبد الناصر هي انه لم يخترع شيئاً ، لقد جاء إلى المخزون المحبوس بالقهر والكبت من آمال امته ، فإذا هو يطلقها من إسارها ، ويحررها من عقد الخوف والتبعية ، ثم إنه بعد ذلك ، في كل قراراته ، تفاعل مع النتائج المتفجرة بين مخزون الآمال الحبيسة ، وعبر عنه ، وقاد اندفاعه .

ونقطة البداية أن الثورة قد استفادت ، ولا شك ، من أجل تجديد المشروع القومي الحضاري العربي ، من ظروف إنسانية خاصة ، هيأت المسرح لمشهد عظيم " (١٤) .

نعم ..إن ناصر لم يخترع شيئاً ، ولكن هذا لا يقلل من إنجازه الكبير ..

فالرجل قرأ التاريخ جيداً ، ومن حسن الحظ أنه قد عاش بقايا الاستعمار البريطاني لبلده مصر ، والفرنسي والإيطالي للدول العربية الأخرى ، فلم يكن بحاجة لمن يشرح له ويصف ، فقد شاهد بعينه القهر والكبت العميقين اللذين يعانيهما المواطن العربي ، وقد صاحبهما عقدة الخوف والتبعية ، سواء للمستعمر ، أو لعملائه من ساسة وباشوات وكبار ملاك ، فماذا كان دوره ؟

لقد كانت ذروة أعماله - باختصار - إطلاقه الأمة من إسارها الذي عاشته مئات السنين في ظل الحكم التركي ، والاستعمار الأوروبي ، بتحريرها من تلك العقد الجاثمة على صدرها ، وكشف ما تختزنه من طاقات كامنة فاعلة ، وآمال كبيرة ، وقد كان هذا وقود ناصر في إشعاله نيران القومية العربية ، وقيادته لها في أنسب الظروف ، ولكنها كانت أحلكها ..

أعماله وإنجازاته

على الصعيد المحلي

غادر عبد الناصر دنياه بعد أن أنجز الكثير الذي لا ينكره العقلاء العرب والمصريون على السواء ...

حقق **جلاء القوات البريطانية** عن مصر بتوقيع مصر اتفاقية الجلاء في أكتوبر ١٩٥٤، فتحققت المرحلة الأخيرة منه في آذار ١٩٥٦ ، بمغادرة سبعين ألف جندي وضابط إنجليزي أراضي مصر .

أمم **قناة السويس ، وحارب العدوان الثلاثي** وانتصر عليه ، فأصبح تأميمها رمزاً للوطنية والبطولة ، بعد أن كانت القناة رمزاً لبقايا الاستعمار ، وحول دخلها بكامله للخزانة المصرية ، هذا الدخل كان مئة مليون جنيه سنوياً عام ١٩٥٦، فأصبح اليوم ٦ مليارات .

ترك **جيشاً من مليون جندي** ، مسلحاً بأقوى أنواع الأسلحة ، قادراً جاهز على العبور ، وتحقيق نصر مؤكد .

ترك معجزة مصر ، **السد العالي** ، بطاقة كهربائية هائلة وصلت في زمنه إلى ١٢ مليون كيلو وات سنوياً، ثم لترتفع اليوم إلى ٢٢ مليون كيلو وات ، لتشغيل المصانع ، ولتشرع مصر بتصدير الكهرباء إلى الدول الأخرى ، وهذا ما لم يحلم به مصري ..

قضى على الإقطاع ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، ليكون ذلك بداية للقضاء على الطبقية البغيضة ، والعبودية التي كانت تمارس بأشكال عدة ، فحقق تحرير الفلاح المصري من ربقة الإقطاعي البغيض .

ترك **المدارس والجامعات مفتوحة أمام كل الطبقات** ، والتعليم فيها مجاناً ، وشرعها للطلاب العرب والمسلمين من كافة الأقطار ، وبالمجان أيضاً ..

ترك **عدداً هائلاً من المصانع** التي عمرت مداخنها الجمهورية من شمالها لجنوبها ،وفي مقدمتها مجمع الحديد والصلب في حلوان ، والألمنيوم في نجع حمادي ، لتزيد من الانتاج القومي ، ولتشغل **سبعة ملايين من الأيدي العاملة** ، فأصبحت مصر تصدر إنتاجها للخارج ، بعد أن كانت تستورد كل شيء حتى إبرة الخياطة .

وكانت نتيجة هذا كله " الرقي بالإنسان ، والعمران ، وتحقيق العدل والكرامة ، وفتح أبواب الأمل متسعة باستمرار أمام أجيال تتصاعد تطلعاتها وهممها بالتقدم والاستنارة والحرية "(١٥) .

ألا نستطيع أن نقول الآن أن العظمة تقاس بإنجازاتها ؟

متابعته لضرورات الحياة اليومية

وهذا من الأمور الكثير التي عادة ما يلقي الحكام بتفاصيلها على الوزراء المتخصصون ، ليتفرغوا لأمور الدولة الكبرى ، إلا أن ناصر يفاجئنا بغير ذلك تماماً ..

فقد كان هناك اجتماع أسبوعي لمجلس الوزراء ، وكان ناصر يلتزم بالحضور حتى في أيام مرضه ، وكان الحضور يلاحظون تصبب عرقه بسبب حالته الصحية ، ولكنه يصر على استمرار الجلسة حتى نهايتها .

فقد كان يبحث مع وزرائه الحالة التموينية في البلد ، كرغيف الخبز والحلاوة والزيت والسكر والشاي والصابون واللحوم واللبن ، وأحوال الجمعيات التعاونية ، ومراقبة الأسعار ، فقلت حوادث التلاعب بها بسحب تراخيص بعض التجار وإغلاق محلاتهم، بل وبتقديم بعض المخالفين للمحاكم ، ووقف ضد ما نادى به بعض الوزراء بضرورة التقشف خلال حرب الاستنزاف قائلاً : "تقشف ايه يا جماعة ؟ هيه الناس لاقية الضروريات علشان تنادي بالتقشف " (١٦) .

وفي إحدى هذه الجلسات أخرج من حقيبته **بعض الأرغفة** المأخوذة من عدد من مخابز القاهرة ، ولوح بها لوزير التموين معبراً عن عدم رضاه عن حجمها أو لونها أو شكلها قائلاً : " مين يقدر منكم يأكل من هذا الخبز ؟ هل هذا معقول ؟ وطالب غاضباً بعلاج سريع للموقف ، وانتقال الأجهزة إلى المخابز حتى يتم إصلاح الرغيف ، وقد كان "(١٧) .

" وكان أكثر ما يغضبه رؤية طابور أمام إحدى الجمعيات التعاونية - على ندرة ما كان يحدث في ذلك الوقت- وهنا يثير الموضوع في اول اجتماع للمجلس في صراحة وجدية مطالباً بإزالة الأسباب التي تدعو إلى ذلك ، ولعل الجميع ما زالوا يذكرون مثل هذه الطوابير أمام الجمعيات المختلفة في ذلك الوقت .

في فترة من الفترات شحت"**الحلاوة بالطحينية**" في الأسواق ، وكان هذا الموضوع يؤرقه "فالراجل الفقير حياكل إيه ؟ رغيف وقطعة حلاوة ...فإذا عجز الحكم حتى عن تقديم ذلك فعلينا جميعاً أن نتخلى " . واستمر يضغط ، ولم يهدأ له بال حتى أصبحت "الحلاوة بالطحينية" في متناول الجميع (١٨) .

فأي مسئولية هذه التي يأخذ بها ناصر على عاتقه في أدق الأمور التي بإمكانه ان يوكلها لسواه ، وينام مستريحاً هادىء البال ، فيقول مثلاً ان هذه مهمة وزير التموين ، وعليه ان يقوم بواجبه تجاهها ، وليس من عمل الرئيس أن يتابع الخبز والحلاوة ؟ .

ومن الأمور التي كانت تبحث في اجتماعات الوزراء - كمثال - "المواضيع المتعلقة بالكتب المدرسية ، وطاقة الطباعة في الدولة لتعبئتها ، حتى يكون الكتاب في يد

الطالب منذ اليوم الأول للدراسة ، وكذلك الحال مع الكراسات والأقلام وغيرها من الأدوات المدرسية .. ثم توفير الملابس للطلبة من بلوفرات وجوارب وبنطلونات وبيجامات وأحذية وأقمشة المرايل .. وكان يغضب حين يرى المسئولين في المدارس المختلفة يغيرون لبس الطلبة كل عام ففي هذا عبء إضافي على ميزانية الأسرة " (١٩) .

ومن ذلك أيضاً موضوع الصحة العامة ، فعند انتشار الأمراض الصيفية - كالكوليرا- " كانت التقارير اليومية ترفع له موضحة عدد الإصابات أو الوفيات ، ومقدار توفر الأمصال في المستشفيات أو المخازن في كل أنحاء الجمهورية ، وحوادث الإهمال التي قد تحدث هنا وهناك "(٢٠) .

إذن فقد كان **الإنسان هاجس عبد الناصر** ، ومدار تفكيره اليومي ..

يقول عبد الله إمام :

" .. ويمكن القول بأن الناصرية تستهدف الإنسان ..فالانسان هو كل ما يشغل بال عبد الناصر .. ومن أجل هذا الانسان صاغ منهجه ليكون في خدمته ، ويحقق له حريته وكرامته ، ويسترد به إنسانيته ، وإذا كان القائد قد غاب عنا ، قبل أن يتم البناء المتكامل للمجتمع الذي حدد أبعاد الطريق الذي يسير عليه ، فقد ترك مع ذلك فكراً شامخاً ، ونظرة متكاملة تجيب على مختلف التساؤلات ، وتضع منهاجاً كاملاً وشاملاً للتقدم .. هذه النظرة هي التي صاغها في مواثيقه الثورية ، وزادها وضوحاً في مناسبات كثيرة تعرض لمناقشتها في مواقف مختلفة ، سواء في الاجتماعات المفتوحة مع الجماهير ، أو المغلقة مع القيادات ، والساسة وزعماء العالم "(٢١) .

الدين في حياته

يقول أحد معاصريه :

" لقد كان الاسلام يعيش في نفسه : في زهده وتواضعه ، في إعادة الدين إلى بساطته ، وإلى تطبيقه في حياته اليومية على نفسه وعلى الناس .

كان متخففاً في طعامه ، طاهراً في شرابه وبيته وأهله ، محافظاً على عادته ، ولقد ذكر لي - رحمه الله- أنه في زيارة له للإتحاد السوفييتي اقترب موعد صلاة الجمعة ، وكان في مباحثات مع القادة السوفييت ، والمسلمون مجتمعون في المسجد ينتظرون قدومه ، فطلب إيقاف المباحثات ، واستعد لصلاته ، وذهب ليؤدي صلاة الجمعة مع إخوانه .

كان الاسلام عنده إسعاد الناس ، ولهذا ترجم الاشتراكية إلى منع استغلال الانسان للإنسان ، كان أمله أن يتعلم كل شاب ، وأن تتزوج كل فتاة ، وان تتكون الأسرة الصغيرة الهانئة "(٢٢) .

كان عبد الناصر محافظاً على الصلوات الخمس ..

وكانت أخلاقه بعيدة جداً عن كل ما قرأناه وسمعناه عبر التاريخ عن سلوكيات كبار القوم من ساسة وقادة وفنانين وغيرهم .

وأجدني هنا مضطراً لنسخ ما كتبته عن الدين وثورة يوليو ، وما اتخذه ناصر من قرارات وإجراءات لتعميق المفاهيم الدينية ، والقيم الروحية .

" فعبد الناصر هو الذي أصدر قانون تطوير الأزهر ، ونقل به الأزهر من جامعة عتيقة تعيش في العصور الوسطى ، إلى جامعة تخرج الطبيب والمهندس والعالم في الرياضيات والطبيعة ، الذي يتميز بأنه درس الدين دراسة وافية ، فهو ليس طبيباً ولا مهندساً ولا محامياً فحسب ، ولكنه في نفس الوقت عالم في الدين ، يخلصه من الاحتراف ، ويجعله عقيدة تغرس في نفوس المسلمين ، ويجوب بها علماء من الأزهر مختلف الآفاق ، يحملون إلى جانب عقيدتهم مهناً تخدم الإنسانية ، وتصنع الحياة ، وتنطلق بها إلى آفاق التقدم .

وفي عهده تضاعفت ميزانية الأزهر سبع مرات ونصف ، وأنشئت معاهد أزهرية في عواصم المراكز .. معاهد متطورة تدرس العلوم الدينية إلى جانب اللغات والعلوم الحديثة .

وعبد الناصر هو الذي كان يشير دائماً إلى ضرورة الاهتمام بالتربية الدينية في المدارس ، حتى أصبح الدين مادة أساسية في معاهد التعليم في مراحله المختلفة لأول مرة .

وعبد الناصر هو الذي أنشأ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ليؤدي رسالة كبيرة في خدمة الإسلام على المستوى الداخلي والعالمي .

وعبد الناصر هو الذي أنشأ مدينة للبعوث الإسلامية تضم طلاباً قادمين من سبعين دولة يتعلمون ، ويقيمون بالمجان .

وفي عهد عبد الناصر ، وبعد إعلان الاشتراكية العلمية ، زاد عدد المساجد الحكومية والأهلية من ١١ ألف إلى حوالي ٢١ ألف .. أي أنه بني في عهده مساجد تساوي عدد المساجد التي بنيت في تاريخ مصر كله " (٢٣) .

وتم في عهده أيضاً :

١- إنشاء محطة إذاعية خاصة للقرآن الكريم .
٢- إنشاء معاهد دينية للفتيات .
٣- إنشاء كليات أزهرية إسلامية للفتيات .
٤- نشر الكتب الإسلامية بسعر لا يتجاوز الخمسة قروش للكتاب لتيسيره للمواطن العادي (٢٤) .

ويؤكد عبد الناصر ما سبق في آذار ١٩٦٨ في حوار أجراه معه أعضاء المكاتب التنفيذية للقاهرة والجيزة :

" .. أما النقطة الخاصة بعدم وضوح الرؤية ، وعلاقة الاشتراكية بالدين ، فقد تكلمت في مؤتمر قوى الشعب العاملة بكل وضوح وصراحة ، وفي التلفزيون والراديو ، وأوضحت الفرق بين الشيوعية وبين اشتراكيتنا ، وعددت أسباب ذلك ، ومن مدة عشرة أيام نشر لي حديث في الجرائد مع الصحفيين العراقيين ، وسبق أن تكلمت في بور سعيد ، ولا ينقصني إلا الصعود لمئذنة القلعة وأن أقسم على ذلك ، ورغم هذا ستجد من يتشكك ولا يصدق ، إذن يوجد أناس لا يريدون التصديق أبداً ، وليست هناك فائدة من إقناعهم ، لأن قصدهم هو التشكيك في الوضع الموجود ، ولأن مصلحتهم تتنافر مع الاشتراكية "(٢٥) .

" هل حجرنا على الدين ؟ لا .

هل منعنا الصلاة ..؟ لا ، بل بالعكس ، جعلنا تدريس الدين إجبارياً في المدارس .. وجعلناه مادة أساسية يترتب عليها الرسوب أو النجاح في الامتحان .

وكذلك نبني المساجد

زاد اهتمامنا بالجامعة الأزهرية... إلى آخر هذه المواضيع " (٢٦) .

يقول الكاتب حسن الفكهاني :

" في مدينة ناصر للبعوث الإسلامية - التي تجمع نحو ألفين وخمسمائة طالب - يقيم أبناء نحو سبعين دولة ، يطلبون العلم والدين ، ويعيشون في المدينة أخوة متحابين ، ويحملون في انفسهم لها - بعد تخرجهم - كما شهدت بنفسي عند زياراتي لهم في الشرق القصى أجمل الذكريات .. لقد قالوا لي عندما زرتهم في الفلبين في مايو ١٩٦٩ " لو كانت مصر عندنا عقيدة ، فهي الإسلام ، ولو كانت مؤسسة فهي الأزهر ، **ولو كانت شخصاً لكانت جمال عبد الناصر** "(٢٧) .

إذن ... فقد كانت الناصرية نصيراً للدين والحفاظ عليه ، ومحاولة نشره داخلياً وخارجياً ..

فلو كان الدين لا يعني ناصر لترك الأزهر كما هو ، مدعياً قلة الإمكانيات وشح الموارد ، وأن هناك نفقات مطلوبة أكثر ضرورة من الأزهر، وميزانية الأزهر ، وهذا هو ديدن كل حكومة لا تحب دعم مرفق ما ....

ولم يجبره أحد على أن يؤسس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ليقوم برسالة قطرية وعالمية ، فهذه مهمة الدول الغنية التي تجد المال الزائد والكافي لمثل هذه المشاريع المكلفة .

وهل يستطيع أحد أن يقنعنا بان إنشاء مدينة للبعوث الإسلامية لطلاب من سبعين دولة تنفق عليهم مصر هو" **ضرورة اشتراكية** " ، لقد كان بإمكان ناصر أن يدرسهم بالمجان فقط ، وتتكفل دولهم التي أرسلتهم بباقي النفقات ، أو أن لا يستضيفهم لدراسة الدين في بلده ، إذ لا يستطيع أحد أن يلومه على ذلك ودولته تعاني المشاكل الاقتصادية الكثيرة ، لكن إصراره على تدعيم هذا الجانب وتشجيعه يدفعه إلى كل ما هو ممكن متاح .

*****

على الصعيد العربي

ويضيف أمين هويدي :

" وكان "عبد الناصر" **يعتز بعروبته** ... كان من أكثر زملائه قناعة بالعروبة ، وأن مصر ما هي إلا جزء من الوطن العربي الكبير، فوقف وحده يحارب معركة حلف بغداد ، ليخرج المشرق العربي من مناطق النفوذ ، وألقى بثقله خلف ثورة الجزائر حتى وقعت اتفاقية "ايفيان" ، ووقف إلى جانب الملك محمد الخامس وهو في المنفى ، حتى عاد ثانية يتربع على عرش المغرب المستقل ، ووافق على إلغاء الحكم الثنائي في السودان حتى يتيسر له تقرير المصير ، ثم ألقى بثقله خلف ثورة اليمن حتى يتخلص من "الإمامة" الفاسدة ، ثم وقف خلف ثورة "عدن" حتى حصلت على استقلالها ، ثم أهم من كل ذلك حقق الوحدة العربية مجسمة في الجمهورية العربية المتحدة "...(٢٨) .

وهنا يبرز لنا هويدي أهم أعمال ناصر العربية ، التي كان دافعها **قوميته القوية** ، وقد كلفته الكثير من العداوات والصراعات ..

فهي مرفوضة عند عدوه الإسرائيلي الذي لم يحارب عدواً حربه التي خاضها ضد كل ما هو وحدوي قومي ....

ومرفوضة عند الغرب الذي يكره كل ما هو قومي يحول دون أطماعه التوسعية ، ويعيق سيطرته على المنطقة...

وغير مرغوب فيها عند العنصريين العرب الذين أطلنا الحديث عنهم في الفصل الثاني من الباب الخامس .

تحمله مسئولية الأمة العربية

وهي مسئولية كلفت ناصر الكثير أيضاً ..

" فقد أعطى جمال عبد الناصر المثل الأعلى لعروبته من خلال كفاحه الشاق ، وجهاده المضني حتى آخر لحظة من حياته ، وحسبنا أن نشير إلى أنه قد بدأ نضاله الثوري على أرض فلسطين ، وختم حياته وهو يناضل من أجل فلسطين ، **ولقد حمل جمال عبد الناصر أعباء أمته بأسرها طوال حياته بدون كلل أو ملل ، واستطاع أن يرفع صوتها مدوياً في آفاق العالم ، وأن يرد إليها عزتها وكرامتها وكبرياءها ، حتى صار معروفاً بأنه بطل القومية العربية الذي يريد أن يحطم الحواجز المفتعلة بين الدول العربية ، بغية توحيدها ، وانصهارها في دولة عربية كبرى .**

وبعد ، فقد كان عبد الناصر بطلاً في حياته ، وبطلاً في ثورته ، وبطلاً في معاركه ، وكان أيضاً بطلاً في موته ، فهو لم ينكس رأسه أبداً .. فقد مات واقفاً مثلما تموت الأشجار وهي واقفة "(٢٩) .

لذا ، لا غرابة أن يملك ناصر قلوب الجماهير العربية التي أحبته ، وكأنها وجدت فيه القائد الذي تبحث عنه .

وكان هناك ميزات أخرى ..

يقول المفكر الدكتور أنيس الصائغ :

" من جملة ما تميز به الرئيس الراحل- الباقي جمال عبد الناصر عن الكثيرين من كبار القادة العرب في القرن العشرين ، أن زعامته (شعبيته ، نفوذه ، جماهيره ، آثاره ، أفكاره) **تعدت حدود القطر الذي انتمى إليه ، وتحمل مسئوليته ، لتشمل الوطن العربي** ، من محيطه إلى خليجه ، وكأن لا حدود سياسية ولا قانونية بين قطر وآخر تقسم الوطن الواحد إلى أكثر من عشرين كياناً ، يتمسك كل منها بزعاماته ومسئوليه ، ويحصر بأيديهم مهمة توجيه دفة الحكم وتقرير المصير ، وبتبسيط ، نستطيع أن نزعم أن عبد الناصر كان للعرب ، كل العرب ، ولم يكن لمصر وحدها ، فحتى الذين عارضوه وانتقدوه (بل والذين كرهوه وحاربوه ، وقاوموه ورفضوه ، وتآمروا عليه) تساووا

عملياً مع الذين أحبوه وناصروه (ومنهم كثير بايعوه زعيماً وحيداً لهم ، ولم يروا غيره مسئولاً عن مصير الأمة) في النظر إليه ، وفي معاملته كزعيم عربي ، لا كزعيم مصري ، هكذا فعل العرب ، وهكذا فعل العالم ، وهذا ما فعله أيضاً ، وبشكل خاص ، أعداء العرب ، من صهيونيين وامبرياليين " (٣٠) .

وهذا حديث وجيز ولكنه يعني الكثير ، فقد اصطلح العدو والصديق، والمحب والكاره ، والغربي والشرقي في النظر إلى عبد الناصر على أنه زعيم عربي ، مسئول عن الأمة ، يتحمل أعباءها ، ويعيش أفراحها وأتراحها ، ومستعد للتضحية بكل شيء من أجل أي شبر من أراضيها ، وقد أثبتت الحوادث صحة ذلك منة في المنة ، وفي حديث **حافظ الأسد** السابق ما يؤكد تلك المسئولية التي كلفت ناصر الكثير ..

ويلخص الكاتب مطاع صفدي الجهد الناصري الكبير على دروب الوحدة ، فيقول :

" لقد بقيت الوحدة العربية هي الأساس النظري لجميع تجليات الفكر الناصري ، وهي على بساطتها كفكرة إلا أنها تنطوي على خلاصة القضية العربية .

ولذلك ، عندما ربط عبد الناصر فعاليته وأهدافه بالوحدة ، كان بذلك يكشف المحرك التاريخي شبه الوحيد لأية ثورة عربية معاصرة ، كما أن عبد الناصر اكتشف أن بقية الأهداف الثورية لا معنى لها لدى الجماهير ، ولا تأثير لها إلا من خلال ارتباطها العضوي بالوحدة " (٣١) .

ويتبين لمتابع الحركة الناصرية من بدايتها حتى وفاة الزعيم الراحل ، مدى صدق المقولة السابقة ، والتي كلفت عبد الناصر ومصر الكثير من الجهد والدم والمال ، وعداء الغرب قبل كل شيء .

لأنه قال ..لا..

في فترة الخمسينيات اختبر الوطن العربي اختباراً حقيقياً ، وذلك بمدى قبول دوله - المستقلة حديثاً - التبعية للغرب المستعمر السابق لها والمتمثل في بريطانيا وفرنسا ، أو الاستعمار الجديد المتمثل في الولايات المتحدة .

وقد كان العدوان الثلاثي فصلاً من فصول هذا الاختبار المبرمج المدروس ، فخرجت منه مصر منتصرة على قوى الاستعمار القديم ، والتي كانت هزيمتها في السويس إعلان نهاية عصر الاستعمار ، وبداية عصر التحرر لدول المنطقة ، ولتبدأ مصر عبد الناصر دورها القيادي في دعم دول آسيا وإفريقيا ، لتنال استقلالها في السنوات التالية ، وليكون عبد الناصر القائد النموذج لقوى التحرر في سائر أنحاء العالم .

فقد **قال لا** لشروط الرأسمالية الأجنبية التي كانت تريد مصر استعباداً جديداً لمصر بالقروض والشروط.

وقال لا لمشروع إيزنهاور الذي كان "يريد أن يغلف التبعية بغلاف الدفاع عن الدائرة العربية ضد عدوان سوفييتي غير محتمل".

وقال لا لشروط الولايات المتحدة عندما أراد الحصول منها على السلاح ليواجه به صلف إسرائيل، واعتداءاتها المتكررة على قطاع غزة.

وقال لا، رفضاً لشروط القوى الرأسمالية لبناء السد العالي، واستعان بالسوفييت الذين قدموا المساعدة المالية والعلمية بدون شروط (٣٢).

وقال لا، للتبعية للمعسكر الشرقي الذي وقف مع مصر وكل قوى التحرر، لأنه لم يكن يريد أن تتبع بلاد العرب لأي قوة من القوتين العظميين في العالم.

وقد كلفته لاءاته تلك الكثير الكثير من المعارك ضد قوى الاستعمار التي لا زالت تطمع في السيطرة على المنطقة، فلجأت لقاعدتها إسرائيل لعلها تحقق لها ما لم تستطع تحقيقه، فكانت مساعداتها لها لا تنقطع، لا في الحرب ولا في السلم.

وبإمكان القارىء العودة للباب الثالث من هذا البحث، ليقرأ شيئاً **من جهود عبد الناصر في مساعدة الثورات العربية ضد الاستعمار**، ووقوفه مع الدول العربية ضد أي غزو خارجي، كذلك سعيه الدائم لرأب الصدع، وحل المشاكل التي كانت تنخر جسد الأمة العربية، هذه الأمة التي قضى نحبه وهو ينافح عنها، ويحل مشاكلها.

*****

على الصعيد الدولي

ترك **علاقات وطيدة مع الاتحاد السوفييتي**، الذي لم يكتف بإمدادنا بالسلاح، بل قدم الدعم العسكري والاقتصادي والعلمي، الاتحاد السوفييتي الدولة العظمى التي كان بإمكانها أن تقدم أكثر وأكثر لو أحسن خلفاء ناصر التعامل معها، ولو لم يذبحوا تلك العلاقات الوطيدة معها على مذبح أميركا، من أجل اكتساب الغرب الاستعماري، فخسروا السوفييت، ولم يكسبوا الغرب!.

وقد كان لهذه العلاقة المتينة أكبر الأثر على الاقتصاد المصري، وأكبر الأثر في تطوير قوة مصر العسكرية، فخاضت مصر أربع حروب بسلاح سوفييتي، وكانت ذروة المساعدات السوفييتية ما قدم لمصر بعد حرب حزيران مباشرة، لتخوض مصر حربين كان مآلهما النصر، الاستنزاف وأكتوبر.

أما عن الديون المستحقة للسوفييت على مصر ، فكم هو رائع أن نعرف أن السوفييت قد تنازلوا عن ديونهم العسكرية على مصر مرتين ، الأولى تنازلهم عن قيمة الأسلحة التي استخدمت في حرب اليمن ، والثانية عن ديون الأسلحة التي فقدتها مصر في حرب ١٩٦٧(٣٣) .

وقد أدت علاقة السوفييت بمصر إلى علاقات وطيدة لهم - خاصة في مجال التسليح - مع الدول العربية الأخرى كسوريا واليمن وفلسطين .

ولا ننس أن عبد الناصر قد " ساعد الاتحاد السوفييتي على دخول المشرق العربي ، الأمر الذي أدى إلى حصول نوع من التكافؤ بين الجبارين ، حتى لا نقول نوعاً من توازن القوى ، وقد استفاد حلفاء عبد الناصر العرب من هذا التعاون ، فملأوا ترساناتهم بالأسلحة السوفييتية الصنع ، وبالخبرة التكنولوجية والاقتصادية السوفييتية ، بصرف النظر عن مستواها وقيمتها الفعلية ، كما استفاد اليسار العربي من تفاعل بعض الدول العربية من علاقاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية مع الاتحاد السوفييتي ، فتقوى اليسار العربي عموماً ، الأمر الذي ساعد بدوره تيار النهوض والتحرر في بلدان المشرق "(٣٤)(حصيلة ودروس ٧٧)

وهذا دليل الريادة الناصرية - والتي بدأت في باندونج- في فتح البوابة السوفييتية للعرب ، الذين استفادوا الكثير من دولة متقدمة في المجال العسكري والعلمي والاقتصادي ، فسدوا حاجاتهم الاقتصادية والعسكرية ، ولولا مجيء السادات للحكم ، لكانت الفوائد أكثر وأعم ، ولاستمرت حتى اليوم .

وبالطبع لا ننس أن هذه العلاقات المتينة التي ربطت السوفييت بمصر، او ببعض الدول العربية ، لم تضع أي دولة عربية تحت الهيمنة السوفييتية ، بل قامت العلاقات على التفاهم ، والاحترام المتبادل ، واستقلال السياسات والمواقف .

المساهمة في تأسيس
حركة عدم الانحياز

وفي هذه الفترة المبكرة من عمر الثورة المجيدة ، تشارك مصر في المؤتمر الآفروآسيوي في ١٨-٢٤ نيسان ١٩٥٥ في باندونغ في إندونيسيا ، وشارك عبد الناصر في مؤتمراتها إلى جانب كبار الزعماء مثل تيتو ونهرو وسوكارنو ، والذين اصبحوا من أصدقاء عبد الناصر ، وكان لهم موقف موحدة تجاه القضايا الدولية .

وكان هذا المؤتمر " بداية التأطير لقواعد حركة عدم الانحياز في **مؤتمر باندونج** في إندونيسيا ، والذي حضرته ٢٩ دولة آسيوية وأفريقية ، ٢٣ من آسيا ، و ٦ من إفريقيا "(٣٥) .

" وكانت مصر من أرفع الدول المحايدة في هذا المؤتمر .

مضت إلى هناك بعد أن رفضت كل أشكال الضغط التي استعملتها بعض الدوائر الغربية لتضمها إلى حلف دفاعي مشترك ..

مضت مصر وفي جعبتها مشروع ميثاق سوري سعودي تواجه به عدوان إسرائيل ، واستفزازات تركيا على حدودها وعلى الحدود السورية .

مضت مصر إلى باندونج تتعلق بآمال الأمة العربية بعد موقفها الباسل من حلف تركيا - العراق ، وتتناوشها المؤامرات التي نسج خيوطها مغامرو البورصة في وول ستريت ، وصانعو مأساة فلسطين ، وتتصاعد من ورائها همهمة نباح من الذين يضعون الرؤوس فوق طواقي حمراء .. حمراء كالدم .. حمراء كنجمة إسرائيل " (٣٦) .

وقد تأكدت سياسة هذه الدول في مؤتمرها الذي عقد في القاهرة في أكتوبر ١٩٦٤ .

كما برز دور دول عدم الانحياز عام ١٩٦٧ بالمشروع الذي تقدمت به للجمعية العامة للأمم المتحدة لإدانة إسرائيل على عدوانها على الدول العربية ، ولإزالة آثار العدوان (٣٧) .

يقول الكاتب الهندي " كرانجيا " في كتابه "كيف نجح عبد الناصر " عن دور ناصر في حركة عدم الانحياز :

" رغم أن الجمهورية العربية المتحدة جاءت إلى منطقة سلامنا متأخرة ، إذ جاء وصولها بعد الهند وبورما وسيلان ، فإنها قد باتت تحمل اللواء في سياسة عدم الانحياز في الشئون الدولية "(٣٨) .

وشمل بمسئوليته إفريقيا أيضاً ..

وكان لناصر رأيه الواضح في **تحرير إفريقيا** ، فقال :

" إننا لن نستطيع بحال من الأحوال- حتى لو أردنا - أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتي مليون من الإفريقيين ، لا نستطيع لسبب هام وبديهي هو أننا في إفريقيا ، ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخرجي كله "(٣٩) .

فكان من صور دعمه لإفريقيا **مؤتمر** أكرا في غانا ، ومؤتمر الدار البيضاء في المغرب ، "وكان **ميثاق الدار البيضاء** بمثابة إنذار للدول الاستعمارية بأن عبد الناصر والقادة الأفارقة المجتمعين قد قرروا العمل من أجل تحرير بلادهم " (٤٠) .

وفي مؤتمر أديس أبابا في أيار عام ١٩٦٣ تقرر تأسيس **منظمة الوحدة الإفريقية** ، وكان من أهم قراراته :

١- تقوية وحدة إفريقيا .

٢- تحقيق حياة أفضل للشعوب الإفريقية .

٣- الدفاع عن سيادة دول المنظمة .

٤- القضاء على الاستعمار بجميع صوره (٤١) .

وكان ناصر يرى أن تحرير دول إفريقيا ضرورة وطنية ، كون مصر دولة إفريقية ، لذا عزم على مساعدتها ، والوقوف معها لنيل استقلالها ، وقد عبر عن عزمه في خطاب له عام ١٩٦٠ ، قال فيه :

"منذ خمس سنوات كانت هناك خمس دول مستقلة في إفريقيا ، واليوم هناك عشر دول استقلت في إفريقيا ، وفي عام ١٩٦٢ ستكون في إفريقيا عشرون دولة مستقلة " (٤٢) .

وكان لناصر غايات بعيدة من هذا الدعم لإفريقيا ، فأصاب عدة أهداف بسعيه هذا ، مثل :

"١- المساندة الإفريقية المستمرة للحق العربي في المحافل الدولية .

٢- الحد من التسلل الإسرائيلي في القارة .

٣- حماية مؤخرة مصر ومنابع النيل ."(٤٣) .

ويربط محمد حسنين هيكل بين **علاقة السوفييت بناصر، وعلاقة ناصر بإفريقيا** ، فيقول :

" إن الاتحاد السوفييتي وجد جمال عبد الناصر يتعدى الحاجز الوطني لمصر ، ويتخطى النطاق القومي لأمته العربية ، ثم يذهب بعيداً وعميقاً - بعد السويس بالذات- لكي يطلق صيحة الحرية "أوهورو" في إفريقيا كلها ، فإذا نكروما في غانا ، وسيكوتوري في غينيا ، وموديبو كيتا في مالي ، وجومو كينياتا في كينيا ، ونيريري في تانزانيا ، يبرزون على الساحة الإفرقية المظلمة في وسط هالة التحرر المضيئة التي تشع من مصر عبد الناصر "(٤٤) .

وهذا حديث من الحكم الرائعة التي لا يمل المؤرخ الكبير بثها في ثنايا أعماله ، ففي هذه يرى أن أثر عبد الناصر قد تخطى الوطن العربي ليكون له أثره الكبير في القارة

الإفريقية ، وما هذه الأسماء التي ذكرها هيكل إلا نجوم تدور في الهالة الناصرية المضيئة ، المشعة على قارة بكاملها ، تستضيء من نورها ، وتستلهم من سياستها وحكمتها ، خاصة بعد أن حققت - على ضفاف القناة - الانتصار الكبير على أعداء إفريقيا وكل الشعوب المرهقة بالاستعمار .

ويؤيد هيكل فيما سبق الأستاذ "مزوري" الذي يستشهد به هيكل في هذا المقام حين يقول :

" إذا كان يقال أن العرب شاركوا في استعباد إفريقيا بتجارة الرقيق في قرون مضت ، فإن العرب قد كفّروا عن الخطيئة في هذا القرن ، حين جاؤوا وراء جمال عبد لناصر لتحرير إفريقيا " (٤٥) .

يقول **مناحيم بيغن** الرئيس الإسرائيلي الأسبق :

" إن الرئيس عبد الناصر كان أخطر أعداء إسرائيل ، إن وفاة عبد الناصر تعني وفاة عدو مُر ، إنه كان أخطر عدو لإسرائيل ، ولهذا السبب لا تستطيع إسرائيل أن تشارك في حديث النفاق الذي يملأ العالم عن ناصر ، وقدرته وحكمته وزعامته "(٤٦) .

وحديث بيغن هذا لم يجانب الحقيقة في شيء ...

فقد كان عبد الناصر العدو الأول والأخطر لكل دولة فاشية غاصبة ، تهوى الإحتلال والقتل والتدمير ، واغتصاب حقوق الشعوب ، وتاريخ ناصر من أوله إلى آخره يدل على ذلك ، بل إن نحن حذفنا جهاده وكفاحه في سبيل تحرير مصر والوطن العربي من هذه الإستعمار لم يبق لناصر من تاريخ .

ونعود **للكاتب الهندي كرانجيا** ، الذي يقول عن أثر ناصر العالمي :

" عندما بدأت طبول النجاح تدق للعالم معلنة انتصار ثورة عبد الناصر ، فيرجع العالم صدى دويها ، اعتبر العالم ثورة مصر تعبيراً آخر جديداً وقوياً عن البعث الإفريقي والآسيوي ، وعندما تحقق لهذه الثورة النصر الأساسي بتحرير مصر ، هلل العالم لهذا النصر كجزء من المنجزات المتعلقة بمصير سبعين في المائة من أبناء الجنس البشري الذين تمتد أوطانهم في إفريقيا وآسيا ، فوق ما يربو على ست وخمسين في المائة من وجه الكرة الأرضية .

ولقد انسجمت ثورة مصر في أهدافها وغاياتها مع التطلعات الشاملة التي اجتاحت البلاد الخاضعة للاستعمار ، وكان لها الفضل في توجيه ضربة قاصمة للنظام الاستعماري .

وبينما كان عبد الناصر يتحدث عن استقلال مصر في علاقاتها الدولية ، كانت الأجزاء الأخرى من الوطن العربي تستقبل كلماته بالإعتزاز ، والإحساس بالكرامة ، لقد

كان يتكلم في الواقع باسم العرب جميعاً ، وسرعان ما أصبح عبد الناصر الصوت الصادق الذي يعبر عن الشعب العربي في العراق وسوريا ولبنان والأردن والعربية السعودية واليمن "(٤٧) .

وهذا رأي كاتب هندي عرف عبد الناصر ، وعرف منجزاته التي تخطت ثورته إلى دول آسيا وإفريقيا ، ليس بأحلامها فحسب ، بل وبخططها وبرامجها ، لسبب بسيط ، وهو أن الغايات والأهداف التي تعمر القلوب في القارتين واحدة .. التحرر من الاستعمار .

فإذا كان هذا أثره في آسيا وإفريقيا ، فكيف لا يكون الصوت الصادق المعبر عن الشعب العربي كله ..

ويجمل معظم ما سبق رد لمحمد حسنين هيكل على السؤال : ماذا بقي من عبد الناصر ، جاء فيه :

" أقول إن الذي بقي من عبد الناصر هو الناصرية .

إن جمال عبد الناصر له أخطاؤه ، ومن يقول أن لا أخطاء لعبد الناصر يكون متجنياً على الانسانية ، عبد الناصر له اخطاء سياسية ، كبيرة أو صغيرة ، ولكن عندما يحاسب رجل تاريخي مثل عبد الناصر ، لا يحاسب على الأخطاء ، إنما على التحولات التي حدثت في عهده ، وتحقيق الأفكار المتلائمة مع هذه التحولات .

ما هي هذه التحولات ؟

لقد طرح عبد الناصر بقوة في العصر الحديث إمكان تحقيق الوحدة العربية ، وطرح إمكان سيطرة العرب على ثرواتهم ، وطرح الحرب ضد الاستعمار ، طرح مسألة كون العالم العربي جزءاً من الثورة الوطنية ، طرح قضية التصنيع الثقيل ، وقضية الأرض والفلاح ، وقضية ديمقراطية الغالبية التي هي العمال والفلاحون .

طرح عبد الناصر كل هذا وبدأ يطبق ، كانت تجربة التطبيق ناجحة في مجالات كثيرة .

إنني أرى وجه عبد الناصر في أماكن كثيرة ، أراه في الطريق الصحراوي من القاهرة إلى الاسكندرية ، وعلى ناحيتي الطريق ، أتطلع في أسلاك الكهرباء ، فأرى وجه عبد الناصر ، أتطلع في الأرض الجديدة فأرى وجهه ، أتطلع في السد العالي فأرى الوجه أيضاً .

أرى وجه عبد الناصر أيضاً في كل مصنع ، وفي كل قرية وصلتها الكهرباء ، أراه في قوة العمل النقابي ، فعندما قامت الثورة ، كان في مصر ربع مليون عامل ، الآن في مصر ثلاثة ملايين عامل ، منتظمون في نقابات واتحادات .

لقد جاء عبد الناصر والعالم العربي كله عبارة عن دول مستعمرة أو شبه مستعمرة ، وذهب والعالم العربي كله مستقل في مقابل جزء من مصر محتل ، وفي مقابل هذا الجزء المتمثل في الجولان ، وفي مقابل احتلال الضفة الغربية من الأردن ، تحررت مصر كلها ، وتحرر السودان والجزائر وتونس والمغرب وليبيا واليمن والأردن والعراق وإمارات الخليج ، ، تحررت هذه الدول وأصبحت تتحكم في ثرواتها (٤٨) .

الفصل الثالث

قالوا في عبد الناصر

شهادات مصرية وعربية

وفي لقاء للكاتب فؤاد مطر مع المؤرخ الكبير **محمد حسنين هيكل** ، يفيدنا هيكل بالكثير عن صديقه عبد الناصر - خاصة وأنه كان أقرب الناس إليه - فيقول عن حياة ناصر الشخصية :

" ذات يوم تلقى عبد الناصر من أحد الحكام العرب حقيبة كبيرة ملأى بالمجوهرات والتحف ، ومن دون ضجيج ، ومن دون أن يشعر أحد بذلك ، أعاد الحقيبة إلى الحاكم العربي ، وكانت الهدايا التي يتقبلها هي ربطات العنق ، وكنا نغير عليها ، وصناديق السيجار التي يرسلها إليه كاسترو ، وكنت آخذها منه ، وصناديق الكرز والتفاح والبشملة (أكي دنيا) التي تأتيه من لبنان "

وعن طعامه يقول هيكل : " دائماً يفضل الجبنة المصرية البيضاء ، والجرجير والخيار والطماطم ، وعندما يبالغ في مسألة الأكل فإنه يأكل الرز والخضر .

وكنا نضيق بذلك عندما نرافقه في رحلات أو زيارات رسمية ، وفي إحدى الزيارات إلى الاتحاد السوفييتي كانت على مائدة العشاء الذي أقامته القيادة السوفييتية أنواع من الأطعمة الفاخرة ، بالإضافة إلى الكافيار ، ولاحظت كيف أن عبد الناصر كان يأكل بشكل رمزي ، وبعدما عدنا إلى بيت الضيافة ، دخل عليه أحد المرافقين وبيده صينية وضعت عليها أطباق الجبنة والجرجير والطماطم التي أعدت سلفاً قبل مغادرة القاهرة ، وتعشى عبد الناصر في غرفته ونام "

وعن ممتلكات عبد الناصر يضيف هيكل

" كل ممتلكاته كانت عبارة عن أشياء شخصية ، ثلاث أو أربع كاميرات تصوير جاءته هدية ، ثلاث أو أربع آلات سينما جاءته أيضاً هدية ، نحو عشر بدلات ، وسبعة أو ثمانية أزواج أحذية كان يحرص على استعمال اثنين منها لأنهما كانا يريحان قدميه ، نحو مئتي ربطة عنق معظمها هدايا من الزعماء اللبنانيين ، سيارة واحدة وقديمة من نوع "أوستن" فكر مرة في بيعها ، وكان من رأيي الاحتفاظ بها ، وهي إما بيعت أو أنها في الكاراج ، **لا بيت له لأنه ضد التملك ، ولا سيارات له ، ولا عقارات له ، ولم يترك أموالاً ولا أطياناً ...**

كان عبد الناصر يتصور أن الملكية موقف اجتماعي ، ومع أنه لا اعتراض لديه على تملك الناس ، إلا أن هذا الاعتراض كان قائماً بالنسبة إلى شخصه ، وكان يرى أن التملك لا يتمشى ووضعه كمسئول عن التحول الاجتماعي في مصر ، يضاف إلى ذلك أنه كان يرى أن التملك لا حدود له ، وأنه كلما تملك الشخص شعر برغبة الاستزادة في التملك "

ولما لم يكن لديه من المتع سوى مشاهدة الأفلام في منزله ، كان يعتقد "أنه ملاحق في كل مكان ، وأن حياته محصورة في ثلاثة أماكن :إما في مكتبه أو منزله يعمل ، وإما في سجن القلعة إذا حدث أمر ما ، وإما في القبر ، وكان يقول أحياناً : هم الثلاثة مفيش غيرهم ، يا البيت يا القلعة يا التربة "

وإجابة على السؤال أن ماذا ترك ناصر لأولاده ، يقول هيكل :

" إن جمال لم يورث أحداً من أولاده شيئاً ، وعلى حد علمي أن أحداً من الأولاد لا يملك عقاراً باسمه ، أما إذا كان لابنته الكبرى قطعة أرض فاعتقادي أنها لزوجها حاتم صادق ، الذي ورثها عن والده ، الذي يهمني هو أن عبد الناصر لم يملك ، ولم يترك شيئاً ليتقاسمه الورثة .

..ثم هل تعلم أن عائلة عبد الناصر تعيش على المرتب الذي كان السادات طالب به في مجلس الأمة ، وهو ٥٠٠ جنيه ، مضافاً إليه مبلغ ٢٥٠ جنيه بدل تمثيل ، نعم إن عائلة جمال عبد الناصر تعيش من هذا المرتب فقط البالغ ٧٥٠ جنيهاً فقط .

.. إن غرفة نوم جمال عبد الناصر أقل شأناً بكثير من غرفة نوم أي منا ، وعنما بطنوا له سريره بالجلد اعتبر أن ذلك نوعاً من الترف ، كانت غرفة نوم عبد الناصر عادية جداً ، سرير وكنبتان وأوراق ، كانت ملأى بالأوراق والدوسيهات ، مع أنه كان يستطيع أن يعيش في أفخم القصور ، كان عفيفاً جداً ، وطلباته من الدنيا محدودة جداً ، هل تعرف أنه كان سعيداً بأن عنده عشرين أو ثلاثين زجاجة كولونيا جاءته كهدايا ، وكان يعبر عن سعادته عندما يقول : بص شوف دي ، وشوف دي "

وعن شغفه بالقراءة يقول : " في الرئاسة أنشأ مكتبة كبيرة تضم مئات الكتب ، وكان هنالك جهاز خاص يشرف عليه أستاذ في الجامعة ، مهمته تلخيص الكتب ، وأحياناً يفضل قراءة بعض الكتب كاملة بعد أن يطلع على الملخص الذي أعدوه له .

في فترة الصباح كان يقرأ الصحف المصرية ، قبل أو بعد الاطلاع على أوراق الدولة ، وإعطاء التعليمات ، وبعد الظهر تكون قد وصلت الصحف اللبنانية والأجنبية ، فيقرأها بعناية ، ومن حين إلى حين كان يعقد جلسات يحضرها البعض ، وكان يسميها "جلسة الفلسفات" (١) .

ويذكرنا سلوك ناصر هذا بقول حصيف لأفلاطون :

" ..ثم نغمرهم بالملذات ، ونعجم عودهم ، باختبار أقسى من ذلك الذي يختبر فيه المرء الذهب بالنار ، لنعلم إن كانوا يقاومون المغريات ، ويظلون على استقامتهم في كل الظروف ، وإن كانوا حراساً صالحين لأنفسهم .. مثل هؤلاء الحراس هم أنفع الناس لأنفسهم وأوطانهم "(٢) .

ويقول الدكتور أنيس صايغ :

* **رمز للحركة الوطنية** : " استطاع عبد الناصر أن يتحول إلى رمز للحركة الوطنية المعاصرة ، فتبايعه عبر هذه الحركة أغلبية العرب بزعامة لم يحصل عليها من قبل أي زعيم آخر ، لا من حيث اتساع أفقها وشمولها (فهي تمتد جغرافياً ، من العراق إلى المغرب) ولا من حيث نوعيتها ، إنها زعامة غير ظرفية لم تتركب في مختبرات مشبوهة ، ولم تفرضها عوامل الجهل والتخلف ، ولا أسهم الأجنبي والعدو في صنعها ، إنها حاصل إدراك الشعب إدراكاً لا تمويه فيه ولا إرغام ، (فهي تنتشر في أقطار لا سلطة لعبد الناصر فيها ، بل في أقطار تسعى حكوماتها لمنع النفوذ الناصري بكل قواها)(٣) .

" الواقع الجلي هو أن عبد الناصر أول زعيم يحطم المقاييس القديمة للزعامة ، ويستبدلها بمقاييس مناقضة تماماً ، فيقطع أثر الوجاهة ، وتدخل الاستعمار في صناعة الزعامة ، ويعيد إلى الشعب زمام الأمر ، فيصبح الشعب صاحب القرار الأخير للمرة الأولى في حياته" د . **أنيس صايغ** (٤) .

"وهي الزعامة الوحيدة التي استمدت من تأييد التيار الشعبي قوة جعلتها تقف أمام أضخم الأحداث ، وأقوى التكتلات الداخلية والخارجية ، وأصعب المشاكل السياسية والاقتصادية ، ولها مع ذلك الرصيد الشعبي الكبير "(**أنيس صايغ**)(٥).

" من الخطأ الاعتقاد أن النهج الإصلاحي للناصرية كفيل بكسب تأييد الأمة بأكملها ، أو أن يقاس مدى نجاح الناصرية بمدى سيرها على النهج الإصلاحي ، فإن المعارضين سيزدادون مع كل خطوة تخطوها الناصرية نحو الأهداف القومية ، إذ سيجمعون إلى جانبهم كل من يعاني من تلك العقدة النفسية التي ابتليت بها النفس العربية منذ أن تمكن منها مرض الفردية الأنانية القديم قدم التاريخ العربي ، وعلى عكس اختبارات سائر الشعوب المتمدنة : لا يعارض عبد الناصر في وطنه إذا حاد عن النهج القويم ، بقدر ما يعارض كلما سلك النهج دون انحراف .. ولو نجحت زعامة أخرى لكانت تعرضت للمأساة نفسها " (٦) .

***يعمل لفلسطين :** وظف عبد الناصر زعامته الدولية المرموقة ، وكل علاقاته الدولية ، وخاصة في بلدان العالم الثالث ، في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وفي الأمم المتحدة ، لكسب التأييد للشعب الفلسطيني وحقوقه ، ولمحاصرة إسرائيل ومقاطعتها دولياً ، إلى الحد الذي قاطعتها فيه جميع الدول الآسيوية والإفريقية ، ولم يتجاوز عدد دول العالم المعترفة بها ، في عهده ، الستين دولة ، بينما ارتفع عددها الآن إلى أكثر من مائة وخمسين دولة " (٧) .

* **قدرته على الكتمان :** " كان ناصر يشترك في المظاهرات السياسية والإضرابات والحركات الوطنية ، ويتصل بالأحزاب ، .. لو قارنا ذلك بشكل تصرفاته في الفترة التي تزاملنا فيها في الكلية الحربية لاكتشفنا أنه أيام الكلية كان ينطوي على نفسه متعمداً حتى لا تظهر شخصيته الثورية الحقيقية " (٨) .

* **اهتمامه بجنوده :** " وكان أبرز ما يميز "جمال عبد الناصر " عن باقي الضباط ، التصاقه الشديد بجنوده وعساكره ، واهتمامه بمعرفة متاعبهم الشخصية ، وأحوالهم العائلية ، ومحاولته حل مشاكلهم .. وكان يعرف جنوده وضباطه فرداً فرداً بالإسم ، ويتأثر جداً بفقد أحدهم أو بعضهم في المعارك الحربية ، ودي الحاجة اللي كانت بتخلي جنوده متعلقين بيه أشد التعلق ، ويحبوه أشد الحب "**اللواء أركان حرب عبد المجيد أبو العلا حسين** (٩).

* **صبره وجلده :**" وكان جمال عنده جلد وقوة أعصاب وقدرة عجيبة على مواصلة الاستيقاظ والسهر والمذاكرة ..كنت أنا لما أكون بأذاكر عنده في بيته أكف عن المذاكرة الساعة ٣ صباحاً مثلاً ، وأستأذن منه واقم أروح بيتي علشان أستريح شوية وأنام لي ساعتين ثلاثة قبل النهار ما يطلع ، فكان جمال يقوم ياخذ دش ساقع الساعة ٣ أو ٤ صباحاً في عز الشتاء علشان يفوق ، ويرجع يستأنف المذاكرة تاني الصبح ، وأروح أنا الكلية الحربية سبعة صباحاً ألاقيه سبقني على هناك وقاعد برضه بيذاكر !! **اللواء أركان حرب عبد المجيد أبو العلا** (١٠) .

* **شجاعته :** " وأهدى أعضاء بعثة اقتصادية مصرية في ألمانية لمضيفيهم الألمان ميداليات عليها صورة عبد الناصر ، فعلق رئيس الوفد الألماني قائلا في تأثر شديد :

" لو أن عندنا هنا في ألمانيا إصبع واحد من أصابع زعيمكم جمال عبد الناصر لما استطاعت أمريكا أن تتحكم فينا كل هذا التحكم ، وتذلنا كل هذا الذل ، ولما كان حال ألمانيا على ما هو عليه الآن " **اللواء أركان حرب محمد السيد** (١١)

* **جديته واستثماره وقته** : " كنا لما نخرج خميس وجمعة من الكلية ونرجع يوم السبت نقعد نحكي لبعض عن مغامراتنا في يومي الإجازة ، وكانت الحكايات دي أغلبها لا تخرج عن مغامراتنا وشقاوتنا العاطفية والنسائية ، فكان الوحيد اللي حكاياته من نوع مختلف ، كان يقولنا أنه قرأ في اليومين دول كتب كذا وكذا ..

ومع ما كان يثيره ذلك في نفوسنا من الدهشة والاستغراب إلا أننا لم نكن نستطيع أن نقابل كلامه بالسخرية أو بالتهريج ، لأنه وهو طالب كان له شخصية تبعث على الاحترام والحب ، وترغمنا على أن نعامله معاملة خاصة فيها كثير من الأدب والوقار " **اللواء طه حسن الزنيني** (١٢) .

* **اتزان وعمق في التفكير** : " كان طالباً مختلفاً تماماً ، وان ملفتاً للنظر جداً في أنه لا كان بيهزر مع أحد هزار خارج ، ولا يترك لأحد الفرصة لكي يهزر معاه هزار خارج .. كان شخصية محترمة جداً تفرض احترامها على الجميع ، وكان قادراً على أن يجبر الآخرين على احترامه ومعاملته معاملة خاصة لأنه كان متزناً جداً ، وعميق جداً في تفكيره وفي نظرته للناس وفي تعامله معهم " **اللواء عبد المنعم حسني** (١٣) .

* **شخصية متفردة** : " وكان الطالب "جمال عبد الناصر حسين " أيام الكلية الحربية يحتاج إلى شخص دقيق الملاحظة جداً حتى يتبينه أو يكتشفه ، فقد كان هادئاً جداً ، وجاداً دائماً إلى درجة كبيرة ، ولعل السبب في ذلك كان احترامه الشديد لذاته ، ورغبته في عدم الزج بنفسه في العبث والهزار العنيف ، والانطلاق والتهريج والمزح الزائد المبالغ فيه الذي هو طابع الشباب عموماً في هذا السن ، وطبيعته التي كانت تنفر من جرح شعور الآخرين ، حتى لو كان ذلك على سبيل المزاح .

ورغم أننا كنا في بلوك واحد هو (بلوك رقم ٢) إلا انه لم يكن يلفت النظر على الإطلاق ، لأن الطلبة الذين يلفتون النظر عادة في ذلك السن هم الطلبة الرياضيون ، أو الطلبة المتفوقون ، أو الطلبة المشاكسون ، ولم يكن "جمال عبد الناصر" واحداً من هذه الأنواع كلها ، لذا قضى فترة دراسته في الكلية الحربية هادئاً لا يكاد يلحظه أحد ، ولم يكن له أصدقاء بالمعنى المعروف من بين زملائه الطلبة ، إنما كان مجرد زميل ودود للجميع بدون أن تكون له شلة معينة ، وحين اقتربت منه أكثر فيما بعد - بعد تخرجنا- عرفت أنه لم يكن له شلة في أي وقت من الأوقات طول حياته ، من طفولته إلى مماته .

وحتى بعد التخرج ، ظل الضابط الشاب "جمال عبد الناصر " على حاله من الهدوء والرزانة والسكون مع احترام الغير ، مما أكسبه ود جميع من عرفوه أو تعاملوا معه أو عملوا معه .. وحتى بالنسبة لمن عملوا معه أو قريباً منه في أيام شبابه الأولى ، كان الأمر يحتاج إلى بصيرة أكبر من أن تتوفر لمن كانوا في سننا حتى نتبين فيه شيئاً

غير الهدوء الشديد ، أما ميزاته الحقيقية فلم يعرفها أحد أو تدركها إلا فيما بعد ذلك ب ١٤ سنة ، حين قام بالثورة " **العميد أركان حرب أحمد أنور**(١٤) .

* **رجل المسئوليات** : " وكان "جمال عبد الناصر " هو دينامو الثورة ، والوحيد الذي يعرف جميع الضباط الأحرار ، في الوقت الذي لم يكن كثيرون منهم يعرفون غير المجموعة المحيطة بهم فقط .. وكانت خطة الثورة تعتمد كل الاعتماد على سريتها ، هذه السرية التي لو انتفت بأي شكل من الأشكال لم تكن تعني فقط فشل الثورة ، إنما كانت تعني إعدام كل من حاولوا القيام بها ..

وفي مناسبة (سرية الثورة) أذكر شيئين طريفين ، أولهما أن "جمال عبد الناصر" كان يشكو مر الشكوى من أن أغلب الضباط الأحرار يسكنون في الأدوار العليا ، وليس في بيوتهم (أسانسيرات) ، وبما أنه الوحيد الذي يعرف جميع رؤساء الجماعات في (الضباط الأحرار) كان يمر عليهم جميعاً ، فكان (قلبه ينقطع) من صعود السلالم " **(العميد أركان حرب أحمد أنور) (١٥)**

* **شخصية عالمية** :سيظل جمال عبد الناصر كشخصية سياسية مصرية ، وعربية ودولية ، إحدى السمات الهامة لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم ، وستظل مرحلة قيادته للشعب المصري والشعوب العربية ضد الاستعمار القديم والجديد والصهيونية ، موضع الدراسة المستمرة للحركة الوطنية ، والديمقراطية الثورية في شعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، تستخرج منها الايجابيات ، لتكون زاداً لها في مواصلة مسيرتها الثورية ، وتعرف منها السلبيات حتى تستطيع أن تتلافاها (١٦) .

شهادات لمفكرين غربيين

***يقول الكاتب الأميركي روبرت سان جون في كتابه "الرئيس" :**

" ما من أحد قابل الزعيم وتحدث إليه ، إلا وغادره وهو معجب بصراحته ووضوحه أشد الإعجاب ، وما من أحد اتصل به عن كثب إلا وازداد احترامه له بفضل تواضعه وأمانته الفكرية ، ووطنيته التي لم تشبها شائبة ..

كان عبد الناصر مؤمناً كل الإيمان بأن القدرة على القيادة السليمة ، وعلى اتخاذ أصلح القرارات تنمو بزيادة القدرة على الاتصال بالآخرين ، والقدرة على معرفة الأحداث والآراء والاتجاهات .. وكان عبد الناصر قارئاً نشطاً ، ولم يعرف العالم زعيماً مثله يهتم بكل كلمة تكتب أو تذاع أو تقال ، في أية لحظة من لحظات الليل والنهار ، وكان يقضي بين خمس وست ساعات في القراءة ، هوايته الأولى "

*ويتحدث الكاتب الأميركي جون جنتر في كتابه "في داخل إفريقيا" عن أخلاق ناصر وحبه لشعبه :

" إن أبرز ما في خلق جمال عبد الناصر تجرده عن الهوى تجرداً مقترناً بالقوة ، وهو لا يريد لنفسه شيئاً ، وكل ما يستهدفه هو حياة وطنه ، وأن مصدر قوته أن يعمل لتحقيق غاية هي تحرير بلاده ، وهو رجل نزيه جداً ، لا يطلب لنفسه شيئاً ، وهو قوي وذو مبادىء أخلاقية رفيعة ، وعقيدة فكرية راسخة ، ومصدر قوته هنا هو الشعب الذي يرى فيه آماله وأمانيه ، ولذلك فإن كل ما يبغيه عبد الناصر هو تحقيق أقصى ما يستطيع من رفاهية لشعبه ، وقد قدم لمواطنيه ما لم يحلموا بالحصول عليه ، وفي خلال أعوام قليلة حقق عبد الناصر ما لم تكن تحلم بلاده في تحقيقه ولا بعد ١٥٠ عاماً ، وإن إخلاصه وأمانته المطلقة ، وصراحته السياسية تجعله في نظر الكثيرين من أصحاب العقلية القديمة ، ومن الظواهر العجيبة التي لا يمكن فهمها "

*ويقول الكاتب البريطاني جيراند سبارو في كتابه "زيارة لمصر"

"لا شك أن لشخصية جمال عبد الناصر التأثير القوي ، وأن آمال الشعب المصري قد تجسدت في فكر هذا الزعيم ، لقد خاض الشعب معارك عديدة لكن يقظته بقيادة عبد الناصر ، ووضوح الرؤية أمامه ، سحقت كل ما دبر ضده وضد الأمة العربية ، ولا شك أن عبد الناصر يمثل في حقيقته المستقبل العظيم الذي ينتظره العرب جميعاً "

*وفي كتابه "عبد الناصر وصحبه "يقول الكاتب السويسري جورج فوشيه عن صلابة ناصر وقوة أدائه :

" فقد كان جمال عبد الناصر في مفاوضاته مع انجلترا ، وفي مسألة السويس ، وفي موضوع التعويضات عن الأضرار الناجمة عن حملة ١٩٥٦، كان المتحدث الذي لا يمكن انتزاع شيء منه بدون مقابل ، ويالـه من فارق عظيم بينه وبين خديوي مصر ، والأتراك الذين كانوا يتعاملون هم وأوروبا تعامل السادة العظام ، فيمنحون المزايا ، ويوزعون الهدايا في سخاء وكرم ، ولا سيما ان الشعب المصري هو الذي يتحمل سياسة الفخفخة التي انتجوها " .

*** وينسب جورج فوشيه في كتابه "كرامة مصر" عناصر شخصية ناصر إلى روح الكرامة المصرية :**

" إن من يحلل شخصية جمال عبد الناصر ، يرى فيه الخلاصة المركزة لروح الكرامة المصرية ، وأن السبب الحقيقي للثورة المصرية يكمن في كرامة شخصية جريحة ، وعزة وطنية مهانة ، كما أن أحاسيس الزعيم في طفولته وشبابه ، عندما كان يطالع البؤس على وجوه أبناء الشعب من حوله ، وشعوره بالفوارق العجيبة التي كان يقوم عليها مجتمع ما قبل -الثورة ، كان لها أثر كبير في تكوين شخصية الزعيم ، الذي لا هم له غير تحقيق المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية والعدل "

*** ويقول الكاتب الأميركي والتن وين في كتابه "إرفع رأسك يا أخي " :**

" كانت عهود الحكم الأجنبي التي توالت على مصر، تعمل على أن تفقد البلاد كرامتها ، وكادت أن تحقق هذا الهدف ، لذلك ، فإن أول شيء سعى إليه عبد الناصر هو أن يحفظ لوطنه ولمواطنيه كرامتهم ، وكان شعاره الأول "إرفع رأسك يا أخي " المفتاح الذي فتح به ناصر أبواب الحرية ، لينطلق في طريقه إلى المراحل الثورية ، في برامجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية "

ويقول المؤلف نفسه في موضع آخر من كتابه :

" إن ناصر يمتاز بشخصية قوية ، ذات تأثير عجيب على الناس ، ولا يستطيع أحد أن يتمالك نفسه من الإعجاب به من أول لقاء ، وإني أؤكد لو أن عبد الناصر ظهر ثلاث مرات في الأسبوع على شاشة التلفزيون الأمريكي لاستطاع أن يضم الشعب الأمريكي إلى صفه "

*** وتقول الكاتبة الإنجليزية إيثيل مافن في كتابها "صور من مصر " :**

" كنت أحس وكأنني أتحدث إلى إنسان عرفته طيلة حياتي ، ولم يبد لي عبد الناصر واقعاً تحت السيطرة العسكرية ، بالرغم من أنه قضى سنوات طوالاً بالجيش، وبالرغم من خدمته العسكرية البارزة في حرب فلسطين ، فهو على النقيض من ذلك ، لا يؤمن بالعنف كسبيل لتحقيق غاياته الثورية ..

لقد أحسست بشعور طاغ بأن الرجل الذي كنت في حضرته يتميز بالمثالية ، والإخلاص ، والطاقة النادرة على الإفراط في العمل إلى حد الإجهاد ، وبأنه يمثل قوة ديناميكية فعالة ماضية في طريقها لا تعبأ بمتاعب أو جهد "

*** و في كتابه "مصر البوتقة " يقول وزير خارجية أميركا السابق هاري هوبكنز عن علاقة الثقة بين ناصر وشعبه :**

" قلة من الناس في العصور الحديثة لهم سيطرة معنوية على شعوبهم ، كتلك التي حققها عبد الناصر بعد عام ١٩٥٦ ، فعندما يلقي خطاباً تلتقط الجماهير أفكاره ، وتعيد ملايين الشفاه ترديدها بصورة لا يستطيع أي جهاز دعاية القيام بها ، وأصبحت فقرات خطب عبد الناصر تحفظ كما يحفظ القرآن ، وهو يعيش حياة متواضعة بعيدة عن الترف الذي يعيشه رؤساء الدول "

ويضيف : "إن المصريين الذين يشكون عادة في كل شيء ، وفي رجال السياسة ، يثقون ثقة مطلقة في عبد الناصر ، وقد ظهرت هذه الثقة واضحة في عام ١٩٦٧ بعد الكارثة العسكرية "

*** وفي كتابه "مصر الحديثة" يؤكد توم ليتل على الجانب الثقافي في مسيرة عبد الناصر ، ويقارنه ببعض أعلام مصر ، فيقول :**

" لعل من اهم ما يميز جمال عبد الناصر ، تمسكه بالأهداف التي وضعها نصب عينيه ، وصموده في العمل على تحقيق هذه الأهداف بالرغم من المصاعب التي واجهته ، وقد درس ناصر الكثير من النظريات السياسية ،وحفظ تاريخ مصر ، كما استوعب تعاليم الزعماء الوطنيين سواء من العسكريين مثل عرابي ، أو الفلاسفة مثل الشيخ محمد عبده ، أو السياسيين مثل مصطفى كامل ، وقرأ الكثير عن
أعمال أولئك الذين حاولوا بعث مصر من أمثال عمر مكرم وغيره "

ويعقد ليتل مقارنة بين ناصر وأحمد عرابي ، فيضيف :

" كانت أوجه الشبه بينهما واضحة كل الوضوح ، فقد كان كل منهما ينتمي إلى الريف المصري ، وإلى أسرة متواضعة جداً ،

وبالرغم من أن عرابي درس في الأزهر ، بينما درس عبد الناصر في المدارس العادية ، فإن كلا منهما كان متديناً ، وكان الإثنان يعملان ضد النفوذ الأجنبي في مصر ، ويقاومان القوى غير الوطنية في الجيش ، فبينما كان عرابي يحارب الامتيازات التي كان يحصل عليها الأتراك في الجيش المصري ، كان عبد الناصر يحارب محاسيب الملك والفساد الذي انتشر في الجيش ، وقد تميزت حركة عرابي وعبد الناصر بالبعد عن الطائفية ، واستمدتا قوتهما من الطبقة الوسطى في الأرياف التي انتمى إليها الكثيرون من قادة مصر "

*** وفي كتابه "ناصر" يهتم الكاتب الأميركي يواكيم جوبستون بالحياة الشخصية لناصر ، وهواياته وأخلاقه العالية فاستعصى على المغريات والتحديات ، فيقول :**

" هوايته الرئيسية التصوير ، ولهذا فهو يحمل آلة تصوير معه دائماً في أوقات الراحة ، وخاصة على ساحل البحر، وكان يهتم بعض الاهتمام بالموسيقى ، وهو وأفراد الأسرة جميعاً يحبون مشاهدة الأفلام السينمائية ، وأهم ألوان الرياضة التي يمارسها السباحة ولعب التنس .

وليست هناك أية نقاط ضعف في حياة عبد الناصر الشخصية ، فليست هناك رذائل يمكن ان يغمز بها ، ولذا لم يجد خصومه ما يهاجمونه به ، وقد روى لي أحد ضباط المخابرات الأمريكية بالقاهرة أن مشكلتهم في عبد الناصر أنه رجل لا يعرف الرذائل ، لذلك فهو ممتنع على المخابرات الأمريكية ، وأنه إنسان لا يمكن أن يشترى أو يرتشى أو يشهر به ، ويقول ضباط المخابرات : بالرغم من أننا نكرهه ، إلا اننا لا نستطيع أن نفعل ضده شيئاً ، فهو إنسان ممتاز جداً "

ويؤكد الفقرة السابقة الكاتب **توم ليتل** ، فيضيف :

" إن عبد الناصر رب أسرة نموذجي ، وقد أجمعت كل المصادر التي تحدثت إليها ، وبينها مصادر معادية لعبد الناصر، وقد حدثني دبلوماسي أمريكي بالقاهرة أن عيني عبد الناصر لا ترى إلا امراة واحدة في العالم هي زوجته .

وأنه متدين جداً ، يصوم رمضان حتى ولو كان على سفر ، لم يشرب قطرة خمر في حياته ، كما لم يشربها أي فرد من أفراد أسرته "

***وعن وطنية ناصر ، وصعوبة استقطابه لأي جهة ، يقول سفير بريطانيا الأسبق همفري تريفليان في كتابه "الثورة في الشرق الأوسط" :**

" لقد وجدت الدول الغربية التعامل مع عبد الناصر أمراً صعباً ، لأنها ظنت - في ضوء تعاملها مع رؤساء آخرين وخاصة في العالم الثالث - أن الرئيس المصري يسعى إلى نفوذ شخصي مادي أو معنوي من وراء زعامته ، لكنها أدركت - بعد فوات الوقت بالنسبة لها - أن جمال عبد الناصر لا يريد لنفسه نفوذاً أو امتيازاً ، وأنه متمسك أشد التمسك بالحياة الزاهدة التي يعيشها ، والتي كرسها من أجل الوطن والعرب والإنسانية كلها ، فقد كان - باعتراف الخصوم والأعداء قبل الأصدقاء - وطنياً لا تشوب وطنيته شائبة "

***وحول ايديولوجية عبد الناصر نختم أقوال مفكري الغرب برأي الكاتب توم ليتل في كتابه "أيديولوجية ناصر " الذي يشيد فيه بأصالتها ،فيقول :**

" لم يتأثر عبد الناصر في سياسته بأيديولوجيات مستوردة من الشرق أو الغرب ، وإن أعماله وآراءه واهدافه السياسية التي يعلنها صراحة على العالم ، لا تحمل إلا مفهوماً من المفاهيم السياسية المتعارف عليها في كتلتي الشرق والغرب ، إنها تنبع من ذاته ، ومن تاريخ البلاد وتقاليدها ، ومن الماضي والحاضر ، من الآلام والآمال التي تكون شخصية أبناء مصر .

كما يرى لتل أن منطق عبد الناصر الواضح ،وقوة هذا المنطق يكمنان في وعي عبد الناصر المتفتح الصافي ، ودرايته وتعمقه في دراسة تاريخ بلاده ، واستفادته من دروس التجربة في المنطقة العربية "

. (١٧)

وقالوا في الناصرية

" الناصرية هي نقل مصر إلى الكيان والطموح ، والوجود العربي ، كجزء لا يتجزأ منه ، ثم نقل الكيان العربي ، والطموح العربي

إلى العصر الحديث ، بمعنى أن مصر والعالم العربي ، هذا الكيان الجديد الذي ساهم عبد الناصر في بلورته ، أصبح مؤثراً في حركة الثورة الوطنية ، والناصرية هي الدفاع عن الحرية ، والحرب على الاستعمار ، وهي تحول المجتمعات العربية من مجتمعات تقليدية متخلفة إلى مجتمعات تلحق بالعصر ، سواء في ما يتعلق بقوة المجتمع الانتاجية ، أو بقيمة الفرد والانسان في هذا المجتمع ، والناصرية هي العمل للحاق بالتكنولوجيا ، والانفتاح على العالم ، وهي حركة القومية العربية ، وحركة التصنيع ، وحركة الاشتراكية ، وحركة التأثير في العالم ، والتحول إلى إفريقيا " (١٨) .

الخلاصة

سيظل جمال عبد الناصر مشعلاً وضاء على درب كفاح الأمة العربية ، ونبراساً يستضاء به في ظلمات الصراع ، ولجج النضال المتواصل مع أعداء الأمة ، في سبيل رفعتها ، وإثبات كيانها ، ومثلاً يحتذى لساسة الأمة وقياديها عبر التاريخ .

كان لدى ناصر من الطاقة والعزيمة ما يستطيع بهما أن يؤسس البناء العظيم للدولة ومؤسساتها ، وقد حقق الكثير من ذلك في فترة وجيزة ، ومؤكد أنه كان لديه الكثير من الأحلام لأمته العربية ، من أجل وحدتها وتلاحمها ، وتطورها ورفعتها ، ولكن أوقف سيل أحلامه العرم موته المبكر ، أو عدم تضامن بقية الأخوة العرب معه في جهوده ومساعيه الصادقة ، فكان كمن يغرد خارج السرب ، مع أنه كان من صلب السرب ، ومن لحمته وسداته .

لقد كانت التجربة الناصرية عميقة ثرية بكل ما تحويه الكلمتان من معان ، ولا غرابة إذا ما كتبت عن سيرته ، وثورته وإنجازاته عدة آلاف من الكتب والأبحاث ، ولا زالت المطابع تخرج لنا الأبحاث والدراسات والأطاريح الجامعية عنه ، فقد كان عملاقاً سياسياً ، ووطنياً نقياً ، وعروبياً صادقاً ، وقف بكل شجاعة واقتدار لمطامع الدول الغربية في المنطقة ، وأحبط الكثير من مخططاتها لإحتواء المنطقة ، واحتوائه هو أولاً .

لقد جسد عبد الناصر **"دور الفرد في التاريخ"** بكل ما يعنيه ذلك من معنى ، سواء كان ذلك على الصعيد المحلي أو العربي أو الدولي ، وبالطبع فإن ذلك يقاس بعظمة الأثر ، وضخامة الإنجاز ، ومدى قدرة الزعيم الراحل على توجيه السياسات المصرية والعربية والدولية ، ومدى اقتناع الآخرين - محلياً وعالمياً- بآرائه ومركزه وأثره ، بحيث يحسب حساب رد فعله لدى كل إجراء ، أوموقف ، أو معضلة ، ليصبح بذلك رمزاً تاريخياً ، وتكون مواقفه مشاعل تستضيء الأحرار والشعوب بها وتأتم ، ليسجل ذلك كله في صفحات التاريخ .

مراجع الباب التاسع

الفصل الأول

(١) إبراهيم صقر وآخرون ، ثورة يوليو وتحديات المستقبل ، ص ٧١٤ .
(٢) منظمة الفكر الاشتراكي ، عبد الناصر الفكر والطريق ، ص ٨٨ .
(٣) م ن ، ص ٨٥ .
(٤) إبراهيم صقر ، م س، ص ٧٠٧ .
(٥) أحمد حمروش ، ثورة يوليو وعقل مصر ، ص ١٩٣ .
(٦) م ن ، ص ٢٠٨ .
(٧) م ن ، ص ١٩٤ .
(٨) م ن ، ص ٢١٨ .
(٩) م ن ، ص ٢١٦-٢١٧ .
(١٠) أحمد حمروش ، خريف عبد الناصر ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .
(١١) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ١٧٦ .
(١٢) د. عصمت سيف الدولة ، هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ، ص ٩٠ .
(١٣) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، ص ٥٥ .
(١٤) عبد الله إمام ، م س، ص ٢٨٠ .
(١٥) م ن ، ص ٢٨١-٢٨٢ .
(١٦) فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ٥٠-٥١ .
(١٧) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٣٥ .
(١٨) عبد الناصر ، خطاباته ، ج ٣، قسم ٢ ، ص ٦٦٠ .
(١٩) د.عصمت سيف الدولة ، م س، ص ٢٩٤-٢٩٥ .
(٢٠) عبد الله إمام ، م س، ص ٥٣٤-٥٣٥ .
(٢١) م ن ، ص ٤٩٨ .
(٢٢) نابليون بونابرت ، هكذا يتكلم القائد ، ص ٤٦-٤٧ .
(٢٣) عبد الله إمام ، م س ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .
(٢٤) أحمد بيضون وآخرون ، ثورة ٢٣ يوليو حصيلة ودروس ، ص ٩٥ .
(٢٥) د. رؤوف عباس ، م س ، ص ٥٧ .
(٢٦) م ن ، ص ٥٥ .
(٢٧) م ن ، ص ٥٥ .

(٢٨) عبد الناصر ، الميثاق ، ص ٣٩ .
(٢٩) م ن ، ص ٣٩ .
(٣٠) فؤاد مطر ، م س ، ص ٥٨-٦٠ .
(٣١) أحمد بيضون ، م س، ص ٩٧ .
(٣٢) عبد الناصر ، م س، ص ٤٤ .
(٣٣) سلامة موسى ، كتاب الثورات ، ص ١٧٠ .
(٣٤) رجاء النقاش ، عباس محمود العقاد بين اليمين واليسار ، ص ١٤٠ .
(٣٥) د.سعيد عبد الرازق ، دور عبد الناصر في السياسة المصرية ، ص ١٧٠ .
(٣٦) م ن ، ص ١٧١ ٠
(٣٧) أحمد بيضون ، م س، ص ١٠٠- ١٠١ .
(٣٨) د.رؤوف عباس ، م س، ص ٥٦ .
(٣٩) م ن ؛ ص ٥٦ .
(٤٠) م ن ، ص ٥٦ .
(٤١) صحيفة الرأي الأردنية ، ٢٣ تموز ٢٠٠٨ .
(٤٢) د. عصمت سيف الدولة ، م س ، ص ١٢ .
(٤٣) م ن ، ص ١٤ .
(٤٤) م ن ، ص١٢ .

الفصل الثاني

(١) شوكت سعدون ، القائد الديناميكي المنتج الفعال ، ص ٣١٣ .
(٢) أحمد بيضون ، ثورة ٢٣ يوليو حصيلة ودروس ، ص ٩٩-١٠٠ .
(٣) عبد الوهاب الكيالي وآخرون ، موسوعة السياسة ، ج ٤ ، ص ٨٣٣ .
(٤) حسن الفكهاني ، موسوعة عبد الناصر ، ج٢ ، ص ٦٥ .
(٥) م ن ، ص ٦٦ .
(٦) م ن ، ص ٦٧ .
(٧) أمين هويدي ، مع عبد الناصر ، ص ١٠٨ .
(٨) م ن ، ص ١٠٨-١٠٩ .
(٩) خالد محي الدين ، والآن أتكلم ، ص ٧٦-٧٧ .
(١٠) مطاع صفدي ، التجربة الناصرية والنظرية الثالثة ، ص ١٤١-١٤٢ .
(١١) هيكل ، أحاديث في العاصفة ، ص ١٧٩ .

(١٢) مطاع صفدي ، ناصر الناصرية والثورة العربية ، ص ١١ .
(١٣) مطاع صفدي ، التجربة الناصرية والنظرية الثالثة ، ص ١٤٠ .
(١٤) د.مجدي حماد ، ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ص ٤٧ .
(١٥) م ن ، ٤٩ .
(١٦) أمين هويدي ، م س، ص ٢٨-٢٩ .
(١٧) م ن ، ص ٣٠ .
(١٨) م ن ، ص ٣٠ .
(١٩) م ن ، ص ٣١ .
(٢٠) م ن ، ص ٣٢ .
(٢١) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ١٧-١٨ .
(٢٢) حسن الفكهاني ، م س ، ص ١٢٩ .
(٢٣) عبد الله إمام ، م س، ص ٣٦٢-٣٦٤ .
(٢٤) عبد الله إمام ، عبد الناصر والحملة الظالمة ، ص ١١ .
(٢٥) عبد الله إمام ، الناصرية ، ص ٣٧٠ .
(٢٦) م ن ، ص ٣٧٠ .
(٢٧) حسن الفكهاني ، م س، ص ١٢٦ .
(٢٨) م ن ، ص ١٠٨ .
(٢٩) م ن ، ص ١١٨-١١٩ .
(٣٠) أنيس صايغ وآخرون ، عبد الناصر وما بعد ، ص ٥ .
(٣١) مطاع صفدي ، م س ، ص ٤٤١ .
(٣٢) د. عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة ، ج ٢، ص ١٣٢-١٣٣ .
(٣٣) محمد عودة وآخران ، قصة السوفييت في مصر ، ص ١٦٩ .
(٣٤) أحمد بيضون وآخرون ، م س، ص ص ٧٧ .
(٣٥) أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، ص ٧٨٥ .
(٣٦) عبد الرحمن الشرقاوي ، باندونج ، ص ٢٩-٣٠ .
(٣٧) أحمد عطية ، م س ، ص ٧٨٥ .
(٣٨) حسن فكهاني ، م س، ٧٧ .
(٣٩) د.رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي، ص ١٣٠ .
(٤٠) م ن ، ص ١٣٠ .
(٤١) أحمد عطية ، م س، ص ٣٦ .

(٤٢) د. رؤوف عباس ، م س، ص ١٣١ .

(٤٣) م ن ، ص ١٣١ .

(٤٤) هيكل ، لمصر لا لعبد الناصر ، ص ١٧٧ .

(٤٥) م ن ، ص ١٧٧ .

(٤٦) أمين هويدي ، مع عبد الناصر ، ص ٢٣٢ .

(٤٧) حسن الفكهاني ، م س، ص ٧٧ .

(٤٨) فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

الفصل الثالث

(١) فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، ص ١٧٢-١٧٨ .

(٢) شوكت سعدون ، القائد الديناميكي المنتج الفعال ، ص ٥٨٥ .

(٣) أنيس صايغ ، مفهوم الزعامة السياسية من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر ، ص ١٥٧ .

(٤) م ن ، ص ١٩١ .

(٥) م ن ، ص ١٩٤ .

(٦) م ن ، ص ١٩٦-١٩٧ .

(٧) عبد الرحمن الحوراني ، صحيفة الرأي الأردنية ، ٢٥ آب ٢٠٠٨ .

(٨) حسين قدري ،هو والذين كانوا معه ، ص ٢٧ .

(٩) م ن ، ص ٤٢ .

(١٠) م ن ، ص ٤١ .

(١١) م ن ، ص ٥٤ .

(١٢) م ن ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

(١٣) م ن ، ص ٢١٣-٢١٤ .

(١٤) م ن ، ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(١٥) م ن ، ص ٢٦٧ .

(١٦) جاك بيرك ، الناصرية النظام العالمي الجديد ، ص ١٩ .

(١٧) حسن فكهاني ، موسوعة عبد الناصر ، ج ٢، ص ٧١- ٨٠ .

(١٨) فؤاد مطر ، م س، ص ٢١٨ .

الفصل الرابع
بقية دليل الأحداث

١٩٦٧

٢ كانون ثان : مصر توقع اتفاقاً مع الاتحاد السوفييتي لشراء ٢٥٠ ألف طن قمح .
١١ أيار : مصر ترفض طلباً أميركياً رسمياً لكي تزور بعض قطع الأسطول السادس الموانيء المصرية .
١٥ أيار : إعلان حالة الطوارىء في القوات المصرية .
١٨ أيار: مصر تطلب رحيل القوات الدولية عن أراضيها .
٢٢ أيار : ناصر يعلن إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية .
٢٥ أيار: وزير الحربية المصري يزور الاتحاد السوفييتي مع وفد رسمي ويلتقي رئيس الوزراء ووزير الحربية السوفييتيين .
٥ حزيران : إسرائيل تقوم بعدوان على الدول العربية وتحتل صحراء سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية .
٦حزيران : مصر تقطع علاقاتها مع الولايات المتحدة بعد ثبوت ضلوعها وبريطانيا في العدوان الجوي على مصر .
٩حزيران : في خطاب له ، ناصر يتنحى عن منصب الرئاسة ، والجماهير تخرج في مدن مصر مصرة على بقاء الرئيس ، ومجلس الأمة يرفض تنحيه .
٩ حزيران : المشير عبد الحكيم عامر يعتزل جميع مناصبه .
١٠ حزيران : ناصر يقرر البقاء إلى أن تنتهي " الفترة التي نتمكن فيها جميعاً من إزالة آثار العدوان " .
١١ حزيران :عبد الناصر يجري تغييرات جذرية على قيادة القوات المسلحة ، وكان أبرزها تعيين الفريق أول محمد فوزي قائداً للقوات المسلحة ، وتعيين عبد المنعم رياض رئيساً لأركان الحرب .
١٩ حزيران : تشكيل وزارة مصرية جديدة برئاسة ناصر .
٢٥ آب : الجيش المصري يقتحم مكان إقامة عبد الحكيم عامر، ويقضي على المحاولة الانقلابية ، ويعتقل ٣٠٠ من الضباط المتآمرين من أنصار عامر واتباعه ، ويصادر كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر .
٢٩ آب : عقد مؤتمر القمة الرابع في الخرطوم للبحث في آثار العدوان الإسرائيلي .
٤ أيلول : اشتباكات بحرية برية بين مصر وإسرائيل على القناة .

١٣ أيلول :اعتقال صلاح نصر مدير المخابرات المصرية السابق وشمس بدران وزير الحربية السابق وعدد من الضباط المتآمرين .
١٤ أيلول : انتحار المشير عبد الحكيم عامر.
٨ كانون أول : الانسحاب الكامل للقوات المصرية من اليمن .

١٩٦٨

٤ تموز : عبد الناصر يزور الاتحاد السوفييتي .
١٠ تموز : عبد الناصر يزور يوغسلافيا .
١٤ أيلول : المؤتمر القومي للإتحاد الاشتراكي يعقد دورته الأولى .
١٦ كانون أول : إسرائيل تتقدم بشكوى لمجلس الأمن ضد مصر تقول فيها أن القوات المصرية تشن هجمات ضد قواتها شرقي القناة .

١٩٦٩

٨ أيار : توقيع اتفاق بترولي بين مصر والاتحاد السوفييتي يقدم بمقتضاه السوفييت قرضاً مفتوحاً لمصر لحاجات البحث عن البترول .
٣١ أيار : اتفاق اقتصادي مع يوغسلافيا بقيمة ٦٠ مليون دولار .
٢٥ تشرين أول : لبنان يطلب وساطة ناصر لإنهاء الأزمة بينه وبين منظمات المقاومة الفلسطينية .
٣٠ تشرين ثان : توقيع عقد مع السوفييت لتصدير ١،٥ مليون طن بترول للإتحاد السوفييتي .
٩ كانون أول : أميركا تتقدم للدول الكبرى بمشروع وزير خارجيتها روجرز القاضي بانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة مقابل اعتراف العرب لها بالبقاء ، والاتحاد السوفييتي يرفض المشروع .
٢٥ ـ ٣٠ كانون ثان : ناصر يزور ليبيا بعد حضوره مؤتمر القمة العربي في الرباط .

١٩٧٠

١١ـ١٣ كانون ثان : اجتماع في القاهرة لوزراء خارجية مصر وليبيا والسودان لبحث تفاصيل اجتماع طرابلس .
٢٢ كانون ثان : الزعيم الراحل يزور الاتحاد السوفييتي على رأس وفد عالي المستوى ويحصل على أسلحة متطورة في الدفاع الجوي ، ومن ذلك صواريخ سام ٣.

٧-٩ شباط : اجتماع في القاهرة لدول المواجهة مصر والأردن وسوريا والعراق والسودان لبحث الوضع في الشرق الأوسط .

١٠- ١٤ نيسان : وزير الخارجية الأميركي جوزيف سيسكو يزور القاهرة ويجري محادثات مع ناصر .

٢٩ حزيران : الزعيم الراحل يزور الاتحاد السوفييتي الزيارة الأخيرة ، ويطلب إمداد الدفاع الجوي المصري بشبكة أجهزة الكترونية ، وقد تم تلبية طلبه .

٢٨ أيلول : وفاة جمال عبد الناصر بعد انتهاء مؤتمر القمة الذي عقد في القاهرة بسبب أحداث الأردن .

مراجع الفصل الرابع

١- أحمد عطية ، القاموس السياسي .
٢- حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر .
٣- د. رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي .
٤- شعراوي خليل ، عبد الناصر والناصرية .

******

انتهى بحمد الله

عمان - ٦ حزيران ٢٠١١

المراجع

١- ابراهيم صقر وآخرون ، ثورة يوليو/تموز قضايا الحاضر وتحديات المستقبل ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٩ .

٢- أحمد حمروش :(١) مصر والعسكريون ، ط ٣ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

(٢)- ثورة يوليو وعقل مصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

(٣)- عبد الناصر والعرب ، مكتبة مدبولي ،القاهرة ، بلا تاريخ .

(٤)- خريف عبد الناصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٥)- مجتمع عبد الناصر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، بلا تاريخ .

٣- أحمد عبد المعطي حجازي ، عروبة مصر ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٤- أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٥- أحمد العلمي ، حرب السويس ١٩٥٦ ، بلا معلومات نشر .

٦- أمين سعيد ،(١) الثورة ، عيسى البابي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

(٢) العدوان ، عيسى البابي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

٧- أمين هويدي (١) حروب عبد الناصر ، ط ٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

(٢) مع عبد الناصر ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٨- أنتوني ايدن ، مذكرات انتوني ايدن ، ج٢ ، ترجمة خيري حماد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلا تاريخ .

٩- أنتوني ناتنج ، ناصر ، ترجمة شاكر ابراهيم سعيد ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ٢، ١٩٩٣ .

١٠- أنطون حمصي ، ترجمة قاموس الفكر السياسي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٩٤ .

١١- أنور الجندي ، جيل العمالقة والقمم الشامخة في ضوء الإسلام ، دار الاعتصام ، مصر ، ١٩٨٥ .

١٢- أنور السادات(١) قصة الثورة كاملة ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

(٢)البحث عن الذات ،ط ٢ ، المكتب المصري الحديث ، ١٩٧٨ .

(٣) أسرار الثورة المصرية ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

(٤)صفحات مجهولة ،دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة ، بلا تاريخ .

١٣- د.أنيس الصائغ (١) الفكرة العربية في مصر ، مطبعة هيكل الغريب ، بيروت ، ١٩٥٩ .

(٢) في مفهوم الزعامة السياسية من فيصل الأول إلى جمال عبد الناصر ، جريدة المحرر والمكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٥.

١٤- د.انيس الصائغ وآخرون ، عبد الناصر وما بعد ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠

١٥- د. بثينة التكريتي ، جمال عبد الناصر وتطوره الفكري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

١٦- بسام العسلي ، الحرب والحضارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٩ .

١٧- جاك بيرك ، الناصرية والنظام العالمي الجديد ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨١ .

١٨- جاك دومال وماري لوروا ، جمال عبد الناصر من حصار الفالوجة إلى الاستقالة المستحيلة ، ترجمة ريمون نشاطي ، ط ٦ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٨ .

١٩- جمال الشرقاوي وآخرون ، نضال عبد الناصر ، مؤسسة الأبحاث العربية العليا ، بيروت ، ١٩٧٣ .

٢٠- جمال عبد الناصر (١) فلسفة الثورة ، (بدون معلومات نشر)

(٢) - الميثاق ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

(٣)- يوميات عبد الناصر في حرب فلسطين،مؤسسة الوطن العربي ، باريس ، ١٩٧٨ .

(٤)- المجموعة الكاملة لخطب وأحاديث وتصريحات جمال عبد الناصر ، ٤ أجزاء ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت .

(٥) وثائق عبد الناصر ، يناير ١٩٦٩-١٩٧٠ ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، بلا تاريخ .

٢١- جمال منصور ، في الثورة والدبلوماسية ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٢٢- جورج كتن ، العلاقات الروسية - العربية في القرن العشرين وآفاقها ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ،أبو ظبي ، ٢٠٠١.

٢٣- حسن الفكهاني ، موسوعة جمال عبد الناصر ، ج ٢، الدار العربية للموسوعات ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢٤- العميد الركن حسن مصطفى ، معارك الجبهة المصرية ، المطابع العسكرية ، بغداد ، ١٩٨٢.
٢٥- حسين حمودة ، أسرار حركة الضباط الأحرار ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
٢٦- حسين قدري ، هو والذين كانوا معه ، دار الثقافة العربية ، ١٩٧٦.
٢٧- حسين النجار ، سعد زغلول الزعامة والزعيم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، بلا تاريخ .
٢٨- حمدي لطفي ، ثوار يوليو الوجه الآخر ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
٢٩- خالد محي الدين ، والآن أتكلم ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
٣٠- خير الدين حسيب وآخرون ، ثورة ٢٣ يوليو حصيلة ودروس ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
٣١ - رجاء النقاش ، عباس محمود العقاد بين اليمين واليسار ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣.
٣٢- روبرت إمرسن ، من الاستعمار إلى الاستقلال ، ترجمة نقولا الدر ، الدار الشرقية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٤ .
٣٣ - د. رؤوف عباس ، ناصر رمز الحلم العربي ، دار الأفق للبرمجيات ، ١٩٩٩ .
٣٤- ساطع الحصري وآخرون ، آراء ودراسات في الفكر القومي ، مجلة العربي ، الكويت ، ١٩٨٥ .
٣٥- ساطع الحصري وآخرون ، قراءات في الفكر القومي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٣ .
٣٦- سعد الدين إبراهيم وآخرون ، مصر والعروبة وثورة يوليو ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٢ .
٣٧- سعد الدين الشاذلي ، حرب أكتوبر ، مؤسسة الوطن العربي ، باريس ، بلا تاريخ .
٣٨- سعيد أبو الريش ، جمال عبد الناصر آخر العرب ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
٣٩- د. سعيد عبد الرازق، دور جمال عبد الناصر في السياسة المصرية، دارالعربي،٢٠٠٤
٤٠- سلامة موسى
(١) اليوم والغد ، سلامة موسى للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٢٨ .
(٢) كتاب الثورات، مطابع المستقبل ، الفجالة ، ١٩٥٤.

٤١- د . سليمان الطماوي ، ثورة يوليو بين ثورات العالم ، دار الفكرالعربي ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
٤٢- شعراوي خليل ، عبد الناصر والناصرية ، ط ٥ ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ .
٤٣- شوكت سعدون ، القائد الديناميكي المنتج الفعال ، وزارة الثقافة ، الأردن ، ٢٠٠٦.
٤٤ - د. صلاح العقاد ، مأساة يونيو ١٩٦٧ ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
٤٥ - د. طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، بلا تاريخ .
٤٦- عبد الله إمام
(١) الناصرية ، دار الوطن العربي ، ١٩٨٦ .
(٢) ناصر وعامر ، دار الخيّال ، ١٩٩٦.
(٣) علي صبري يتذكر بصراحة عن السادات ، ط٢، دار الخيال ، ١٩٩٧ .
(٤)- عبد الناصر والحملة الظالمة ، ١٩٨٦ .
٤٧- عبد الرحمن البزاز ، بحوث في القومية العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ، بغداد ، ١٩٦٢ .
٤٨- عبد الرحمن الشرقاوي ، باندونج ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، بلا تاريخ .
٤٩- عبد الرحمن الرافعي ، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ، ط ٣، الأمل للطباعة عبد المجيد فريد والنشر ، ١٩٨٧ .
٥٠-عبد المجيد فريد ، محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
٥١ - عبد الهادي البكار ، المأزق، مصر والعرب الآخرون ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ،١٩٨٧ .
٥٢-عبد الوهاب الكيالي ، موسوعة السياسة ، المؤسسة العربية للنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .
٥٣- د. عبد الوهاب محمد ، الجيش المصري وحرب فلسطين ، ١٩٤٨-١٩٥٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
٥٤- د . عصمت سيف الدولة ،
(١) هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٧ .
(٢) عن العروبة والإسلام ، ط٢ ، دار المستقبل العربي ، بيروت ، ١٩٨٦.
(٣) نظرية الثورة العربية ، ج٢، مؤسسة ناصر للثقافة ، بلا تاريخ .
٥٥- علي صبري ، التطبيق الاشتراكي في مصر ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ط ٣ ، بلا تاريخ .

٥٦- عمر أبو النصر ، جمال عبد الناصر صفحات مثيرة مؤثرة من حياته ، مكتب عمر أبو النصر ، بيروت ، بلا تاريخ .
٥٧- د. عواطف عبد الرحمن ، مصر وفلسطين ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٠.
٥٨- د . فؤاد المرسي ، العلاقات المصرية السوفييتية ١٩٤٣-١٩٥٦ ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
٥٩- فؤاد مطر ، بصراحة عن عبد الناصر ، دار القضايا ، بيروت ، ١٩٧٥ .
٦٠- لاكوتير ، عبد الناصر ، دار النهار ، بيروت، ١٩٧١ .
٦١- د. لطيفة محمد سالم ، فاروق الأول وعرش مصر ، دار الشروق ،القاهرة ، ٢٠٠٥ .
٦٢- د. مارلين نصر ، التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١.
٦٣- مؤري روبنشتاين وريتشارد غولدمان ، قصة القوة الجوية الإسرائيلية ، ترجمة محمد عبد الرحمن عطوة ، دار الأندلس ، ١٩٨١.
٦٤- د. مجدي حماد ، ثورة يوليو ١٩٥٢، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٣ .
٦٥- د .محمد جابر الأنصاري (١) الناصرية بمنظور نقدي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٢.

(٢)- تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٠ .

٦٦- محمد حافظ إسماعيل ، أمن مصر القومي في عصر التحديات ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٧.
٦٧- محمد حسنين هيكل (١) عبد الناصر والعالم ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

(٢) ملفات السويس ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

(٣) الانفجار ١٩٦٧ ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

(٤) لمصر لا لعبد الناصر ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢ .

(٥) الطريق إلى رمضان ، ترجمة يوسف الصباغ ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٦٨- محمد عبد الكريم ديباب ، الناصرية الفكر والممارسة ، ط ٣، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٦٩- محمد عودة وآخران ، قصة السوفييت مع مصر ، دار ابن خلدون ، بيروت ، بلا تاريخ .

٧٠- د .محمود عبد الفضيل ، الاقتصاد المصري بين التخطيط المركزي والانفتاح الاقتصادي ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٠.

٧١- الفريق أول محمد فوزي ، حرب الثلاث سنوات ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٤ .

٧٢- محمود رياض ، مذكرات محمود رياض (١٩٤٨-١٩٧٨)، دار المستقبل العربي ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٧٣- مردخاي برأون ، حرب سيناء ١٩٥٦ ، ترجمة بدر العقيلي ، دار الجليل ، عمان ١٩٨٨، .

٧٤- مطاع صفدي ، (١)التجربة الناصرية والنظرية الثالثة ، مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا ، بيروت ، ١٩٧٣ .

(٢)ناصر الناصرية والثورة العربية ، ط ٢ ، مؤسسة الأبحاث العلمية العربية العليا، بيروت ، ١٩٧٢ .

٧٥- منظمة الفكر الاشتراكي ، عبد الناصر الفكر والطريق ، مصر، ١٩٧٢.

٧٦- منير بعلبكي ، قاموس المورد ، ط ١٤، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٧٧- موشيه دايان ، دايان يعترف ، دار التعاون للطبع النشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

٧٨- نابليون بونابرت ، هكذا يتكلم القائد ، ترجمة عبد الله حيدر ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٤ .

٧٩- نظام شرابي ، أميركا والعرب ، رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩٠،

٨٠- نواف نصار(١) حرب السويس وشروق شمس الناصرية ، دار الكتاب الأكاديمي ، عمان ، ٢٠٠٨ .

(٢)- ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم ، دار المعتز ، عمان ، ٢٠١٠ .

٨١- د. هدى عبد الناصر ، المجموعة الكاملة لخطب وتصريحات جمال عبد الناصر ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ٢٠٠٥ .

٨٢- والترلاكور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط ، ترجمة لجنة من الأساتذة الجامعيين ،المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت، ١٩٥٩.

٨٣- يوسف أبو الحجاج ، السد العالي والتنمية الاقتصادية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

الموسوعات

*موسوعة وكيبيديا .

* Macmillan Encyclopedia

الدوريات

(١)الهلال المصرية ، تموز ٢٠٠٧ .

(٢)صحيفة الرأي الأردنية ، ٢٥ آب ٢٠٠٨، ٢٣ تموز ٢٠٠٨ .

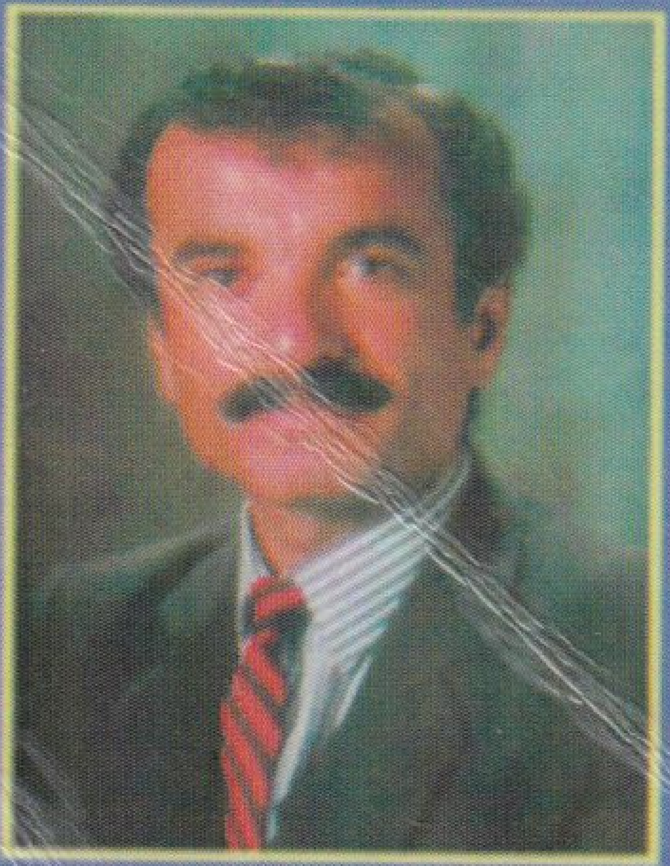
المراجع الإنجليزية

1- The Random House dictionary, Random House Inc New York,1983 .

2-Great Illustrated Dictionary, The Readers Digest Association, 25 Berkeley Square London, 1984

المجموع ١١٦ مرجعاً

الفهرس



المؤلف في سطور

حصل الأستاذ نواف نصار على دبلوم اللغة الإنجليزية من معهد الآداب في عمان ، وبكالوريوس الأدب الإنجليزي من كلية تأهيل المعلمين في عمان ، ودبلوم اللغة الإنجليزية المتقدمة من المجلس الثقافي البريطاني ، وبكالوريوس الأدب العربي من جامعة بيروت ، ودبلوم الدراسات العليا من الجامعة اليسوعية في بيروت .

صدر له

١ - ترجمة رواية أفول القمر للكاتب الأميركي جون شتاينبك ، المركز العربي للمطبوعات ، بيروت ١٩٨٨

٢ - ترجمة قصص شكسبير للكاتب هـ ج ويت ، مكتبة المحتسب ، عمان ١٩٩١

٣ - أنشودة الريف ، ديوان شعر ، دار الينابيع ، عمان ١٩٩٦ .

٤ - المنار في قواعد اللغة الانجليزية ، دار الينابيع ، عمان ١٩٩٨

٥ - عباس محمود العقاد سيرة وتحية وتجسيد للعبقرية ، وزارة الثقافة ٢٠٠١

٦ - معجم المصطلحات الأدبية ، دار المعتز ، عمان ٢٠١٠

٧ - حرب السويس وشروق شمس الناصرية ، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان ٢٠٠٨

٨ - قنبلتان على اليابان : صورة عن أخلاق أميركا ، دار المعتز ،عمان ٢٠٠٨

٩ - ترجمة كتاب المشهد الإنطباعي للفنان شيبان السامرائي الى الإنجليزية ، دار الأديب ، عمان ٢٠٠٨

١٠ - مجمع رغدان ، قصص ، دار المعتز، عمان ٢٠٠٩

١١ - أعلام الأدب الإنجليزي ، دار المعتز ، عمان ٢٠٠٩

١٢ - ثورة يوليو ١٩٥٢ دراسة وتقييم ، دار المعتز ، عمان ٢٠١٠

١٣ - جمال عبد الناصر في ميزان التاريخ - دار المعتز ، عمان ،٢٠١٢

١٤ - العلاقات السوفييتية المصرية ١٩٤١-١٩٧٦

يصدر قريباً

* بريد الأشواق ، ديوان شعر.
* صدى القوافل ، قصص .
* ترجمة رواية عمدة كاستربردج لتوماس هاردي .
* مدارس بلا تعليم ، مذكرات .
* الطريق إلى الله .

دار المعتز للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: ٤٦٢٠٩٩٠ ٦ ٩٦٢+ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail:daralmuotaz@yahoo.com